نواف نصار

العلاقات السوفييتية المصرية

1976-1941







العلاقات السوفييتية المصرية

١٩٤١-١٩٧٦

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠١٢/٨/٣١٤٦

الطبعة الأولى

2013م – 1434هـ



دار المعتز للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - شارع الملكة رانيا العبدالله - الجامعة الأردنية
عمارة رقم ٢٣٣ مقابل كلية الزراعة الطابق الأرضي
تلفاكس: ٠٠٩٦٢ ٦ ٥٣٧٣٠٣٥ ص.ب: ١٨٤٠٢٤ عمان: ١١١١٨ الأردن
e-mail: daralmuotaz@yahoo.com e-mail: daralmuotaz.pup@gmail.com

العلاقات السوفييتية المصرية
١٩٤١-١٩٧٦

نواف نصار

الطبعة الأولى
2013م – 1434هـ

الإهداء

إلى الأساتذة الأعلام الذين تعلمت منهم الكثير...

كاتب الشرق عباس محمود العقاد.

الشيخ العلامة منير البعلبكي مؤلف قاموس المورد.

والأساتذة المؤرخين الكبار

محمد حسنين هيكلأحمد حمروش

أحمد عطية الله

مع خالص التحية، وأسمى آيات العرفان

نواف نصار

الفهرس

المقدمة 9

الباب الأول

في العلاقات الدولية 15

الباب الثاني

الاتحاد السوفييتي

الفصل الأول: التعريف بالاتحاد السوفييتي وجمهورياته..................... 27

الفصل الثاني: ثورة على القياصرة 38

الفصل الثالث: عهد ستالين................... .... [illegible]

الفصل الرابع: الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية .... [illegible]

الفصل الخامس: الاتحاد السوفيتي والشرق الأوسط [illegible] ...... [illegible]

الباب الثالث

عهد خروشوف

الفصل الأول: اهتمام سوفييتي بالشرق الأوسط........................ 117

الفصل الثاني: البدايات من مؤتمر باندونج 143

الفصل الثالث: صفقة الأسلحة التشيكية 154

الفصل الرابع: حرب السويس 185

الفصل الخامس: العلاقات بين الاتحاد السوفييتي ومصر حتى عام.............. 207

الفصل السادس: خلافات أيديولوجية 228

الفصل السابع: خروتشوف يزور مصر أيار 257

الباب الرابع

العلاقات بين البلدين

الفصل الأول: تنحية خروشوف 301

الفصل الثاني: السوفييت وحرب 322

الباب الخامس

من حرب حزيران حتى وفاة عبد الناصر

الفصل الأول : صيف جديد 243

الفصل الثاني: حرب الاستنزاف والدعم السوفييتي الهائل 258

الباب السادس

العلاقات السوفييتية المصرية في عهد السادات

الفصل الأول: قبل حرب أكتوبر 397

الفصل الثاني: رسائل بين بريجنيف والسادات 428

الفصل الثالث: السوفييت وحرب أكتوبر 440

الفصل الرابع: السادات ينهي الوجود السوفييتي بإلغائه المعاهدة معهم 450

المراجع 471

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

أما بعد

فلا زال موضوع العلاقات السوفييتية العربية – وبالأخص السوفييتية المصرية– عبر ما يقارب القرن من الزمان، يجد اهتمام كوكبة من الباحثين الجادين في التاريخ المعاصر، إما شغفاً فيهم بهذا النوع من الدراسات التاريخية، أو رغبة في إظهار الحقائق، وكشف المجهول، وشرح الأدوار التي لعبها كل طرف من أطراف الصراع في منطقة الشرق الأوسط.

ولا [illegible] أن [illegible]يعة العلاقات بين الأمم قد [illegible] أن يكون هناك أحلاف، وتكتلات، تلجأ الدول إلى تكوينها – غالباً– لمواجهة بعضها البعض، أو لمواجهة خطر داهم يدفع الدول والأمم إلى طلب مساعدة الآخرين، حفاظاً على كيان الأمة أو الدولة، دفاعاً عن وجودها وحياتها.

وإذا لم تكن الدولة بالراغبة في تكوين الأحلاف، أو الانتماء إليها، فلا بد من دولة كبيرة تلجأ إليها، طلباً للعون والمساعدة، خاصة في وجود ذلك الخطر في خندق مقابل، يتربص ويستعد للغزو والاحتلال.

ولقد كان لجوء الزعيم الراحل عبد الناصر إلى طلب مساعدة السوفييت عام 1955، خياراً وحيداً لا يمكن تنحيته، أو الحياد عنه، فقد كان يعلم بوعيه العميق، وإدراكه لحركة التاريخ، أن إسرائيل خطر على الأمة العربية جمعاء، وأن لها أعوان كثر لا يتمثلون في دولتي الاستعمار بريطانيا وفرنسا فحسب، واللتين لم تبخلا بشيء على إسرائيل عبر عشرات السنين، بل في الغرب كله، قبل أن تدخل الولايات المتحدة حلبة الصراع، بثقلها الاقتصادي والعسكري، ووراءها اللوبي الصهيوني، الموجه لسياساتها لما فيه نفع إسرائيل، ودعمها، وثبات موقعها أمام الأمة العربية جمعاء.

ولانتباه القارىء، فمصر قد خاضت حروبها في السويس عام 1956، وحرب حزيران 1967، وحرب الاستنزاف 1967-1970، وحرب أكتوبر 1973 بسلاح سوفييتي لم تجد سواه بين أيدي جنودها وضباطها، وطياريها وبحارتها، وهذا جميل ستحمله الأجيال، ولا ينكره إلا الجهلة والحاقدون.

ولم يكن دعم السوفييت لمصر بالسلاح فحسب، بل بالخبرات العسكرية والعلمية والتقنية، والمعونات الاقتصادية الكبيرة، وكان أولها القمح، بل أبدوا كرماً لا يطاوله كرم، بإرسالهم طياريهم ليقاتلوا مع المصريين، فسقط منهم عدد غير قليل في ساح المعارك.

وكم هو غريب أن نسمع أن البعض يرى في لجوء مصر إلى الاتحاد السوفييتي طلباً للسلاح والنصرة لجوءاً للكفار والملحدين، وكأنها قد وجدت العون يسعى إليها من كل حدب وصوب، ففضلت السوفييت على الآخرين، ثم... وكأن إسرائيل في حربها معنا كانت تلجأ للمؤمنين والأتقياء طلباً للمساعدة.

وإذا كان من الثابت أن الشعب العربي شعب لا يقرأ، فإن ما يرد في هذه المقدمة وما ورد في هذا الكتاب من حقائق – وما ورد في سواه بالطبع – يجب أن لا يظل مطوياً خفياً على هذا الشعب الذي تتناوشه التيارات، وتتناهبه الإشاعات، فنراه يؤيد جهة ما، ثم بعد حين نراه يؤيد الجهة المناقضة لها تماماً، ويطلق إسم زعيم مّا على أبنائه، ثم يطلق عليهم إسم زعيم كان يحارب الزعيم الأول، فلا مقاييس ولا معايير، سوى معايير الغوغاء ومقاييسهم!

ولما كان المنهاج المدرسي أسهل الطرق لنشر حقائق التاريخ، فإن المطلوب هو نشر أبسطها، بحيث لا تصاب الأجيال بالعمى المعرفي التام، ولكن بما أن المنهاج لا يضم إلا الحقائق التي تريدها الأنظمة، والكتاب محيد تماماً في حياتنا، فإن دور الصحف والفضائيات دور أساسي لا محيص عنه في تعريف أبنائنا بحقائق التاريخ، وتمييز العدو من الصديق، والمعتدي من النصير، وهذا أقل ما يمكن أن تقدمه للأجيال المعاصرة واللاحقة.

ويأتي كتابي هذا بعد ثلاثة أعمال لي عن تاريخ مصر، وهي:

حرب السويس وشروق شمس الناصرية

ثورة يوليو 1952 دراسة وتقييم

عبد الناصر في ميزان التاريخ

فكانت هذه الأبحاث الثلاثة خير إرهاص وتحضير لهذا البحث، كونها تعرضت لأخبار الاتحاد السوفييتي في المنطقة، فجاء هذا البحث متمماً لها، ولكنه أكثر تفصيلاً وإفادة في مجاله.

وأكون سعيداً إذا ما تلقيت ملاحظات السادة الكتاب والقراء على ما ورد في هذا الكتاب، وفي سواه، من كتب لي، لعلي أستفيد وأفيد من ملاحظاتهم تلك.

[illegible] ال أن أكون [illegible] وفقـ[illegible] ما سعيت إليه.

[illegible]اف نصار

الباب الأول

في العلاقات الدولية

الباب الأول

في العلاقات الدولية

عوامل العلاقات الدولية

"سياسة الدول تقوم على جغرافيتها" نابليون، (كولار. العلاقات الدولية، ص 30).

في قاموسه النفيس "المورد"، عرف أستاذنا الفاضل العلامة منير البعلبكي علم السياسة الطبيعية (geopolitics) أنه:

"دراسة تأثير العوامل الجغرافية والاقتصادية والبشرية (من حيث كثافة السكان وتوزعهم) في سياسة الدولة الخارجية خاصة"[1].

- قبل أن نتناول بالبحث طبيعة العلاقة بين السوفييت والشرق الأوسط، حري بنا أن نبحث طبيعة العوامل التي تدفع الدول إلى إقامة العلاقات - بمختلف أنواعها - مع بعضها البعض، وعقد المعاهدات والاتفاقيات، وأحياناً عقد التحالفات العسكرية، ولكل نوع مما سبق أسبابه وعوامله.

وأهم هذه العوامل:

1- العامل الجغرافي:

وهو العامل الأقوى، والأكثر بحثاً عند علماء السياسة، فيأخذون بتأثير طبيعة الأرض، ودور المناخ، والموارد الطبيعية، وقد ذهب المفكر الفرنسي مونتسيكو بعيداً في مدى تأثير المناخ، فقال "أنه لا يجب التعجب من أن جبن شعوب المناخات الحارة جعلها دائماً مستعبدة، وأن شجاعة شعوب المناخات الباردة جعلها دائماً حرة"[2].

ويهمنا هنا عامل الجغرافية السياسية، والذي يختص بدراسة تأثير المكان على العلاقات بين الدول، والمقصود بالمكان موقع الدولة بالنسبة لبقية الدول.

وقد عني العالم الألماني راتزل وأتباعه بهذا العلم، مؤسسين الجغرافية السياسية، قائلين:

"أن قوة الدولة تخضع لعلاقتها بالمكان الذي يجب رؤيته من ثلاث زوايا: المدى والموقع والشكل الخارجي، وقد ميز راتزل على صعيد الأرض بين موقع البلد، ومداه، وحدوده، والشعوب الكبرى برأيه، هي التي تمتلك حس المدى، وبالنتيجة، فإن الحدود تكون قابلة للاتساع أو الانكماش بحسب ديناميكية الشعب المعني بالمسألة، وقد قادت هذه الأفكار، في ظل الرايخ الثالث، إلى نظرية المجال الحيوي الخطيرة"[3]. ويقصد هنا ما اعتقده هتلر بضرورة اتساع ألمانيا، وسيطرتها على الدول المجاورة، ثم امتدادها إلى الاتحاد السوفييتي، مما أدى إلى هزيمة ألمانيا ودمارها، وفناء دولته.

وهذا الدور هو الذي سيكون محور بحثنا في الصفحات القادمة مع عدم إهمال العوامل الأخرى.

ومن العوامل الأخرى المؤثرة في علاقات الدول:

1. العامل السكاني: توزيع السكان ونسبة نموهم، وعوامل الضغط، وعلاقة ذلك بالاقتصاد.
2. العامل الإقتصادي: وصراع الدول على المواد الأولية -كالبترول- والمنافذ التجارية، والسيطرة على الأسواق.
3. العامل الأيديولوجي: مدى تأثر الساسة والقادة وإيمانهم بالأيديولوجيات، وتفسير ما يجري من أحداث بالرجوع إليها.
4. **العامل التقني والعلمي: وله تأثيره على أشكال الحياة السياسية والعسكرية والثقافية والاقتصادية.**
5. **شخصية وسلوك رجل الدولة: فما يحمله الزعيم من صفات شخصية يشكل عاملاً مؤثراً في العلاقات والتفاعلات الدولية [4].**

العوامل المكونة لعلاقات الإتحاد السوفييتي بالشرق الأوسط:

مع اختلاف كبير في الغايات والأهداف، لم تكن العوامل الجاذبة المحددة لسياسة السوفييت في الشرق الأوسط مختلفة كثيراً عن تلك العوامل التي جلبت لنا استعمار الدول الغربية، عبر قرنين من الزمان، ولكن شتان بين من جاءنا صديقاً ومنجداً، ومعيناً ونصيراً، لم نجد سواه في العسر واليسر، وبين من جاءنا عدواً مستعمراً، وغاصباً محتلاً، وظهيراً لعدونا في كل ظرف، ومعيناً له بكل طرق العون والمساندة..

نعم كم هو الفرق كبير، ولكن لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب!

فلنقرأ ما كان يخططه علماء الغرب وساسته في مطلع القرن الماضي:

"ففي عام 1907 طلبت الحكومة البريطانية إلى مؤتمر خبراء الاستعمار الذي انعقد حينذاك بناء على اقتراح منها، أن يتدارس الوسائل التي تتسع للحيلولة دون اضمحلال الاستعمار الغربي.

ولقد تدارس هؤلاء الخبراء فيما طلب إليهم، ثم تقدموا بنتائج بحوثهم في تقرير إلى وزارة الخارجية البريطانية، فجاء فيه:

"إن البحر الأبيض المتوسط هو الشريان الحيوي للاستعمار... وهو ملتقى طرق العالم، فلا بد لنجاح أية خطة تستهدف حماية المصالح الأوروبية المشتركة من السيطرة على هذا البحر، وعلى شواطئه الجنوبية والشرقية لأن من يسيطر على هذه المنطقة يستطيع التحكم في العالم.. فعلى طول ساحله الجنوبي من الرباط إلى غزة، وعلى الساحل الشرقي من غزة حتى مريسين، وعلى الجسر البري الضيق الذي يصل آسيا بإفريقيا، وتمر فيه قناة السويس شريان حياة أوروبا وعلى جانبي البحر الأحمر، وعلى طول ساحلي المحيط الهندي وبحر العرب حتى خليج البصرة، حيث الطرق إلى الهند والإمبراطوريات الاستعمارية في الشرق، في هذه البقعة الشاسعة الحساسة يعيش شعب واحد تتوفر له وحدة تاريخية ودينية، ووحدة اللغة والآمال، وكل مقومات التجمع والترابط والاتحاد، وتتوفر له في نزعاته التحررية، وفي ثرواته الطبيعية، وفي كثرة قبائله،

كل أسباب القوة والتحرر والنهوض، ويبلغ تعداده الآن 35مليون نسمة، ويمكن أن يكون وضع هذه المنطقة إذا توحدت فعلاً آمال شعبها وأهدافه، وإذا اتجهت هذه القوة كلها في اتجاه واحد...عند ذلك ستحل الضربة القاضية حتى بالإمبراطوريات الاستعمارية.. وتفادياً لتلك الضربة نبه التقرير إلى ضرورة العمل على فصل الجزء الإفريقي من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوي.... وذلك بإقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر الذي يربط آسيا بإفريقيا، ويربطهما معاً بالبحر المتوسط، بحيث تشكل في هذه المنطقة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة [5].

هذه التوجهات أوجدت نمطاً من الاستعمار هو الاستعمار الاستراتيجي، والمقصود به "أن الدولة الاستعمارية كانت تتخذ من مواقع معينة، ومساحات محددة، لها قيمتها من حيث إمكانيات الدفاع، وتأكيد الحماية، ظهيراً ومرتكزاً لحماية مروره ا التجاري في السلم والحرب معاً، ومثال على ذلك احتلال فرنسا جيبوتي عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، واحتلال بريطانيا مصر للسيطرة على قناة السويس والبحر الأحمر معاً [6].

مشكلة الوصول إلى المياه الدافئة..

فدارس علم السياسة الطبيعية (geopolitics) لا يجد صعوبة كبيرة في تحديد مقاصد الروس ومطالبهم حين كانوا- منذ أيام القياصرة- لا ينقطعون عن مهاجمة الدولة العثمانية، رجل أوروبا المريض، طمعاً في الوصول إلى المياه الدافئة، وجاء بعدهم السوفييت متبعين السياسة ذاتها في حرصهم على الوصول إليها وإن لم يلجأوا لمهاجمة جيرانهم.

ويمكن تحديد هذه المياه الدافئة بأنها المناطق الواقعة من ساحل المحيط الأطلسي غرباً، مروراً بشمال إفريقيا ووادي النيل والعراق وآسيا الصغرى وشبه الجزيرة العربية، وحتى حدود إيران الشرقية، فهذه منطقة واسعة عازلة بين الاتحاد السوفييتي وبين خصومه من دول الغرب الطامعة في الاستيلاء عليها، هذا الغرب فسر أهداف الساسة

السوفييت برغبة موسكو في الوصول إلى المياه الدافئة المحيطة بالقارتين الآسيوية والإفريقية، وتحديداً البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي وبحر العرب، وصولاً إلى المحيط الهندي، ويعرب الكثير من المحللين الغربيين، السياسيين والعسكريين، باستمرار، عن الاقتناع بأن السيطرة على هذه البحار والممرات المائية الحيوية، التي تربط فيما بينها، ما تزال تشكل بحد ذاتها، هدفاً استراتيجياً سوفييتياً رئيسياً، وبأنها ستظل كذلك طيلة المرحلة القادمة[7].

وبالطبع، فإن هؤلاء المحللين الغربيين يتغاضون عن كون هذه المنطقة هدفاً استراتيجياً رئيسياً لهم..!

ومن عوامل الاهتمام بهذا الشرق الأوسط أنه:

[illegible]

حصول الاتحاد السوفييتي على قواعد له فيه يشكل تهديداً للمصالح الاستراتيجية الغربية في المنطقة

وفي حالة حصول الاتحاد السوفييتي على قواعد بحرية وجوية له في الشرق الأوسط، فهذا يشكل خطوة مهمة لمنع استخدام البحر الأبيض المتوسط من القوات الأطلسية، وتعطيل النقل العسكري بين أوروبا والخليج والشرق الأقصى[8].

وإلى جانب العامل النفطي، وحاجة السوفييت – وإن كان أقل من الغرب– إلى النفط، وإمداد حلفائه من دول أوروبا الشرقية به، تأتي بعض الأهداف التي تدفع السوفييت للاهتمام بالمنطقة، مثل:

1. تعزيز أنظمة الحكم المعادية للغرب.
2. الحصول على تسهيلات عسكرية.
3. الطموح إلى لعب دور الحكم في الخلافات الإقليمية.
4. تشجيع حركات التحرر الوطني.

5. إضعاف الحكومات الموالية للغرب.
6. إحباط مساعي الولايات المتحدة الهادفة إلى فرض أوضاع تتلاءم والمصالح الأميركية [9].

ولما كانت الدول الغربية، وفي طليعتها أميركا، تمارس ما يسمى توازن القوى في الشرق الأوسط، فقد خلق هذا أزمة لدول هذه المنطقة ، التي غدت مسرحاً للصراع المعلن والخفي بين الشرق والغرب.

وباختصار..، يتنافس الاتحاد السوفييتي وكتلة الدول الغربية على هذا الشرق الأوسط، كونه يشكل حاجزا جغرافياً بينهما، لا يستطيعان إنكاره أو إهماله، لذا لا يضمن أي منهما انتماءات دوله وحكامه وشعوبه، وعليه، وبعد استقلال دول الشرق الأوسط، وتحررها من ربقة الاستعمار، كان لا بد لكلا الكتلتين المتنافستين من سياسة التقرب الحذر منها، ومحاولة كسب ولائها، أو على الأقل صداقتها ورضاها، وبما أن هذه الدول قد خضعت لحقبة الحكم التركي المظلمة مدة أربعة قرون لم تورث منها سوى التخلف والجهل والمرض، تبعتها فترة الاستعمار الأوروبي الذي زاد من آثار الفترة السابقة وعواقبها، ليترك العهدان هذه الدول تعاني الكثير من آثار الفترتين، كالتخلف العلمي والحضاري، وبالتالي نقص القدرات الصناعية والنقنية والعلمية، لتكون الحاجة إلى السلاح بدهية أدركها الطرفان المتنازعان على الاستيلاء على المنطقة..

وكان هناك سباق محموم للكتلتين على طرق المنطقة..

وكان هناك استقطاب للقيادات فيها..

وكان هناك انتماءات لبعض أهل الفكر والفن والأدب والسياسة لدول الشرق والغرب..

وكان للسوفييت سهمهم الوافر في إمداد دول العروبة في الشرق الأوسط بكل أسباب القوة والمنعة، وتقنيات الصناعة والزراعة، وخبرات البناء والتعمير، وأساليب العلم والمعرفة..

وكان المستفيد الأكبر من بين دول العروبة مصر وسوريا، فقد أغرقتا تماماً بالسلاح السوفييتي، إضافة إلى ما ذكرت من أصناف العون والإمداد..

ويعبر الزعيم السوفييتي بريجنيف عما سبق، وبأسلوب لا يخلو من الوضوح، في خطاب له في حفل استقبال في الكرملين في 28 حزيران 1967، فيقول:

".. إن الشرق الأوسط هو واحدة من المناطق الكبرى لحركة التحرر الوطني، وقد اختارت الدول العربية الطليعية – الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والجزائر – طريق التطور اللارأسمالي، وتتمسك الدول العربية التقدمية في سياستها الخارجية بالنهج المناوىء للامبريالية.

إن الامبريالية العالمية، وبالدرجة الأولى الامبريالية الأميركية، والامبريالية البريطانية، لا تريد أن ترضخ لكل هذه الوقائع، فطوال عقود عديدة كان الامبرياليون يعتبرون هذه المنطقة ضيعة لهم، وقد اعتادوا تقرير مصائر الشعوب القاطنة فيها على هواهم..

. وإذا تناولنا السبب الرئيسي لعدوان إسرائيل على البلدان العربية، وجدنا أنه هو سعي الامبرياليين الأميركان والبريطانيين إلى تسديد الضربة إلى حركة التحرر الوطني في الشرق الأوسط، ووقف سير الشعوب في طريق التقدم الاجتماعي، واستعباد البلدان التي أحرزت حريتها واستقلالها بذلك الثمن الغالي من جديد، وانتزاع ثرواتها منها مهما كلف الأمر، إن جهود الدعاية الامبريالية لتصوير هذا العدوان بمثابة نتيجة لمجرد نفور بين إسرائيل والبلدان العربية تستهدف ستر أسبابه الحقيقية، وتمويه المغزى الطبقي للأحداث، إن جوهر أزمة الشرق الأوسط يكمن في التصارع بين قوى الامبريالية وقوى الاستقلال الوطني والديمقراطية والتقدم الاجتماعي"[10].

وهذا حديث واضح من زعيم دولة بحجم الاتحاد السوفييتي..

فالصراع بين الدول العربية وإسرائيل أكبر من خلاف بينهما، فهو صراع بين قوى التحرر والاستقلال العربية، وأعدائها الأزليين الاستعماريين الذين يريدون السيطرة على المنطقة، ومصادرة استقلالها الذي نالته بالثمن الغالي، ولا تزال تبذل الكثير للحفاظ عليه.

ويدل على ما سبق، ما أورده الرئيس الأميركي ايزنهاور في يومياته في تموز 1958، إذ قال:

"لقد وصلنا الآن إلى مفترق الطرق، فمنذ سنة 1945 وسياستنا تقوم على ضرورة الوصول إلى منابع البترول، وضمان سيطرتنا عليها بدون أية عوائق من جانب أي طرف، وأن يتحقق ذلك سلمياً إذا أمكن، والآن فإن علينا أن نناضل لكي نمنع ناصر من السيطرة على هذه الموارد، وإلا أعطيناه المال والنفوذ والقوة التي يتمكن بها من تدمير العالم الغربي، لقد كان علينا في نقطة ما على الطريق أن نواجه هذه المشكلة، وقد وصلنا إلى هذه النقطة الآن"[11].

وبعد إنزال قوات البحرية الأميركية في بيروت في تموز 1958، يقول ايزنهاور في يومياته أيضاً:

"إن هدفي ليس تخويف الروس، فالروس سوف يعرفون حقيقة موقفنا هذه اللحظة بوسيلة أو بأخرى، إن هدفي الحقيقي هو ناصر الذي يتصرف فيما يبدو لي تحت ظن أننا لن نتدخل مخافة الصدام مع السوفييت، وذلك يعطيه حرية في الحركة غير محدودة، ولا بد أن نحاول إيقافه عند حد لا يتجاوزه"[12].

ولا أميل إلى تصديق ايزنهاور في ادعائه أنه يحسب حساب ناصر ولا يحسب حساب الروس، فمنطقة الشرق الأوسط كانت في تلك الآونة تغلي بالأحداث والمواقف، ولا يزعم مؤرخ أو سياسي أن الروس كانوا غائبين عن الأحداث، ولعل موقفهم الجيد تجاه مصر في حرب السويس خير شاهد على ذلك، ولكن قد نقول أن ايزنهاور بإرساله جيوشه إلى لبنان آنذاك كان يريد أن يصيب عصفورين بحجر، الروس وعبد الناصر، ولكنه أخطأ الهدفين.

وسواء كانت الغاية ناصر أم الروس، فالأرجح ما قاله المؤرخ الأمريكي ستيفن امبروز الذي راجع يوميات ايزنهاور، حين قال:

"من الواضح أن القاعدة الرئيسية لسياسة الغرب في المنطقة هي العمل على إبقاء الدول العربية ضعيفة، ومقسمة، ومعتمدة على الغرب"[13].

ومقولة هذا المؤرخ أصابت الحقيقة أكثر من مقولة ايزنهاور!

مراجع

الباب الأول

(1) منير البعلبكي، قاموس المورد، ص 385.

(2) دانيال كولار، العلاقات الدولية، ص 31.

(3) م ن، ص 31.

(4) م ن، ص 30–43.

(5) محمد الصياد وآخرون، المجتمع العربي والقضية الفلسطينية، ص 336.

(6) د. صلاح الشامي، دراسات في الجغرافية السياسية، ص [illegible]

(7) قاسم جعفر، سوريا والاتحاد السوفييتي، ص 9–10.

(8) م ن، ص 12.

(9) م ن، ص 15.

(10) اسكندر أحمدوف، الاتحاد السوفييتي والعالم العربي، ص 98–99.

(11) محمد حسنين هيكل، سنوات الغليان، ص 350.

(12) م ن، ص 362.

(13) م ن، ص 362.

الباب الثاني

الاتحاد السوفييتي

الجغرافيا والتاريخ

الفصل الأول

التعريف بالاتحاد السوفييتي وجمهورياته

كانت دولة الاتحاد السوفييتي (أو اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية) أكبر دولة في التاريخ من حيث المساحة، فكانت تبسط أراضيها على 22،402،200 مليون كم، وهذا يشكل 15٪ من مساحة اليابسة، ممتدة من المحيط الهادى، شرقاً إلى بحر البلطيق غرباً، ومن القطب الشمالي شمالاً إلى البحر الأسود جنوباً، أما بعد تفكك الاتحاد، فما زالت جمهورية روسيا الاتحادية السوفييتية هي الأكبر مساحة بين دول العالم.

"ويمكن أن يدخل الاتحاد السوفييتي بمساحته هذه في مصاف القارات، فهو أكبر من أميركا الجنوبية، وضعف مساحة الصين او كندا أو البرازيل، ويعادل ثلاثة أمثال مساحة الولايات المتحدة وأسة الباء وأربعين مرة قدر مساحة فرنسا، فالاتحاد السوفييتي يشغل ميلاً من كل سبعة أميال من سطح الأرض"[1].

وقد كان لاتساع مساحة الاتحاد السوفييتي أثرها في امتداد حدوده البالغة 60 ألف كم (منها 12800 كم في آسيا)، وهو يملك أطول حدود بحرية في العالم، فثلثا حدوده بحرية، والثلث الباقي بري.

وقد أدت هذه المساحة إلى عدة أمور، منها

- **اقتباس مظاهر التقدم الاقتصادي والحضاري من آسيا وأوربا، ممثلاً من الشرق في اليابان، ومن الغرب من حضارة اوروبا الغربية.**
- **اتاحة الفرصة للسكان على أن يجدوا مجالاً حيوياً لسد حاجاتهم، لوجود ملايين الأفدنة، وموارد غابية ومعدنية يمكن استغلالها.**
- **طبيعة هذه المساحة التي تضيق كلما اتجهنا غرباً وتتسع كلما اتجهنا شرقاً، وقد كان هذا نقمة على الغزاة القادمين من اوروبا كالغزو النابليوني والنازي،**

وذلك لصعوبة التركيز في الهجوم، او الدفاع عما يحتلونه من أراض، فقد تبعثرت جهود النازيين وتشتتت في الحرب العاليمة الثانية وهم يتوغلون في هذا الشرق الواسع، بينما حدث العكس تماماً عندما طاردهم الروس في مساحات تضيق كلما اتجهوا غرباً، وتتجمع فيها القوات المهاجمة وتتقارب.

وبناء على ما سبق، لم يكن غريباً أن تحد الاتحاد السوفييتي أراضي 12 دولة في آسيا وأوروبا.

وهي من الغرب في أوروبا: النرويج وفنلندة وبولندة وتشيكوسلوفاكية وهنغارية ورومانيا.

ومن الجنوب في آسيا: تركيا وإيران وأفغانستان والصين ومنغوليا وكوريا الشمالية.

وبطبيعة الحال فإن مثل هذه المساحة، وهذا القرب من كل هذه البلدان [illegible] للإتحاد السوفييتي مكانته المتميزة، وأثره البالغ في تاريخ العالم كله، فكان واحدة من أكبر قوتين عالميتين.

ويجري في هذه المساحة الشاسعة 150 ألف نهر، طول أقصرها 10 كم، ويبلغ مجموع أطوال هذه الأنهار نحو 3 ملايين كم، وتصب في بحارها وبحيراتها الداخلية، وعدد هذه البحيرات 250 ألف بحيرة، او في البحار والمحيطات المحيطة بهذه المساحة، وهي محيطات المتجمد الشمالي والهادىء والأطلسي، ويضاف لهذا كله المياه العذبة المتجمدة في جبال القفقاس و آسيا الوسطى، وقد وفرهذا كله للبلاد مخزوناً هائلاً من المياه[2].

ويبلغ عدد جمهوريات الاتحاد السوفييتي 15 جمهورية، وهي:

1. جمهورية روسيا الاتحادية السوفييتية:

وهي الجمهورية الأم بالنسبة لباقي الجمهوريات السوفييتية، أسست عام 1917، وانضمت للاتحاد عام 1922، وهي الأكبر مساحة بين جمهورياته، إذ تبلغ مساحتها 17,075,400 مليون كم، مشكلة بذلك 76٪ من مساحة الاتحاد، وعاصمتها موسكو، ومن أهم مدنها لينغراد وجوركي وروستوف وفولجو جراد.

وتشكل الأراضي المزروعة فيها 60٪ من أراضي الاتحاد السوفييتي، وبسبب مساحتها الشاسعة، تنوع المناخ، فتنوعت المزروعات، وكبرت ثروتها الحيوانية، فهي تنتج 50٪ من مجموع اللحوم التي ينتجها الاتحاد، و53٪ من الحليب، و58٪ من البيض.

كما تنتج أربعة أخماس كمية البترول والسيارات والأقمشة في الاتحاد، وحوالي ثلث كمية الطاقة الكهربائية والاسمنت، وما يقرب من نصف كمية المعادن والفحم والأحذية والآلات الزراعية.

ويوجد في روسيا الاتحادية 457 معهداً عالياً، و 310 مسارح، و582 متحفاً، و 61626 مكتبة عامة.

ونسبة المتعلمين فيها 9،99٪، والحاصلون على الشهادات العليا 5،56٪

2. جمهورية أرمينيا:

تقع في جبال القوقاز، وتجاورها إيران وتركيا من الغرب. أسست في تشرين اول 1920، وانضمت للاتحاد في كانون أول 1922، ومساحتها 29,800 الف كم، وعاصمتها يريفان.

ويعتمد اقتصادها على رعاية الماشية والزراعة، ومن أهم محاصيلها اللوز والزيتون والعنب والرمان والتبغ، أما ثروتها المعدنية فتشمل النحاس والزنك والألمنيوم والرخام.

وتشمل صناعاتها المعادن وصناعة الكيمياء وتكنيك الكهرباء والنبيذ والجلود والأحذية والنسيج.

ويوجد في أرمينيا 12 معهداً عالياً، و14 مسرحاً، و34 متحفاً، و1259 مكتبة عامة.

ونسبة المتعلمين فيها 8،99٪، والذين أنهوا الثانوية 6،51٪ (1970).

3. جمهورية أذربيجان:

أسست في نيسان 1920، وانضمت للاتحاد في كانون أول 1922، مساحتها 86,800 ألف كم، وعدد سكانها 786،5(1977) وعاصمتها باكو.

يعتمد اقتصادها على الصناعات البترولية والزراعة، ومن أهم محاصيلها القطن بنوعيه الأميركي والمصري، والقمح والعنب والتبغ والخضار والفاكهة، كما تنتج كميات كبيرة من اللحوم والألبان.

وتشغل أذربيجان المكان الثاني في الاتحاد السوفييتي في إنتاج البترول، أما صناعاتها فتشمل المعادن والطاقة الكهربائية والصناعات الغذائية وتصدر حوالي 350 نوعاً من المنتجات الصناعية إلى 57 بلداً.

وتبلغ نسبة المتعلمين فيها 99،6٪، والذين أنهوا الثانوية 52،5٪ (1970).

4. **جمهورية بيلوروسيا (روسيا البيضاء):**

أسست في كانون أول 1919، وانضمت، للاتحاد في كانون أول 1922، ومساحتها 207،600 كم، وعاصمتها منسك.

ونظراً لموقعها في أقصى الغرب السوفييتي المجاور لأوروبا، فقد عانت الكثير خلال الحرب العالمية الأولى، وكانت ميداناً للغزو الألماني خلال الحرب العالمية الثانية.

ويعتمد اقتصادها على الزراعة والصناعات الزراعية، ومن أهم محاصيلها الزوان والبطاطا والكتان والحبوب.

ومن منتوجاتها الصناعية الآلات الزراعية والاسمنت والمنسوجات والزيوت وتركيب الماكينات وتكييف المعادن والساعات وتكنيك الكهرباء وصناعة الراديو والتلفزيون والألكترونيك وسيارات الشحن والخطوط الأوتوماتيكية والدراجات النارية.

ويوجد في روسيا البيضاء 28 معهداً عالياً، و14 مسرحاً، و 48 متحفاً، و7 آلاف مكتبة عامة.

نسبة المتعلمين فيها 99،8٪، والحاصلون على الثانوية 50،7٪ (1973).

5. جمهورية أستونيا :

تطل على بحر البلطيق، وتحدها فنلندة من الشمال، أسست في تموز 1940، وتم ضمها للاتحاد في آب من العام ذاته بعد احتلال الألمان لها ما بين 41–1944، ومساحتها 45،100 كم، وعاصمتها تالين.

ويعتمد اقتصادها على الزراعة وما يتصل بها من صناعات غذائية،هذا إلى جانب تربية الدواجن والخيول والنحل، أما الصناعات الأخرى فتشمل الطاقة الكهربائية والغاز والورق والنسيج والموصلات الكهربائية والحفارات والمحركات الكهربائية.

ويوجد في أستونيا 6 معاهد عليا، و9 مسارح، و 42 متحفاً، و 869 مكتبة عامة.

ونسبة المتعلمين فيها 99،8٪ ، والحاصلون على الثانوية 53،4٪. (1970)

6. جمهورية جورجيا :

أسست في شباط 1921، وانضمت لدول الاتحاد في كانون أول 1922، ومساحتها 69،700 كم، [illegible] سكانها 4،47.1 [illegible] نسمة ([illegible])، وعاصمتها تبليس.

احتل الألمان أستونيا عام 1918، وتحررت في العام التالي، وخلال الحرب العالمية الثانية احتلها الألمان بين عامي 1941–1944، ثم تم ضمها لجمهوريات الاتحاد رغم اعتراض هيئة الأمم والدول الكبرى.

يعتمد اقتصادها على الزراعة والصناعات الزراعية، وتنتج القمح والعنب والبنجر والحمضيات والحرير والفاكهة والتبغ، كما تنتج الأخشاب التي تغطي 4،2 مليون هكتار من أراضيها، ومن المعادن المنجنيز والبارويت والذهب والرخام والعقيق والزئبق والفحم، ومن أهم صناعاتها الحديد والصلب والماكينات والنبيذ، وتصدر أكثر من مئة نوع من منتوجاتها إلى سبعين بلداً في العالم.

ويوجد فيها 18 معهداً عالياً، و23 مسرحاً، و 74 متحفاً،و 3550 مكتبة عامة.

وتبلغ نسبة المتعلمين فيها 99،9٪، وحملة الشهادات العليا 59،4٪.(1973)

7. **جمهورية كازاخستان:**

أسست كجمهورية ذات حكم ذاتي ضمن الاتحاد في آب عام 1920، وأصبحت إحدى جمهوريات الاتحاد عام 1936، وهي ثاني أكبر دول الاتحاد السوفييتي مساحة، إذ تبلغ مساحتها 2،717،300 مليون كم، وتمتد حدودها من بحر قزوين غرباً إلى حدود الصين شرقاً، وعاصمتها ألماتا.

يعتمد اقتصادها على الثروات الزراعية والحيوانية والمعدنية، ومن منتوجاتها القمح وبنجر السكر والكروم والبساتين، وهي الجمهورية الثانية بعد روسيا الاتحادية في إنتاج الحبوب، إذ تنتج منها 10–15 مليون طن سنوياً، أما الثروة الحيوانية فتشمل الماشية والأغنام والخنازير، والأسماك التي يحصل عليها من بحر قزوين.

أما المعادن فتشمل كميات كبيرة من الفحم، والبترول والحديد والزنك والنحاس والرصاص والنيكل والكروم والبوكيست والاسمنت والأملاح والمعادن الثمينة.

نسبة المتعلمين فيها 99،7٪، وحملة الشهادات العليا 52،2٪ (1973).

8. **جمهورية قرغيزيا:**

أصبحت ذات حكم ذاتي في شباط 1926، وتحولت إلى جمهورية عام 1936، تجاورها الصين من الشرق، ومساحتها 198،500 ألف كم، وعاصمتها غرونزي.

يعتمد اقتصادها على رعاية الأغنام والماعز والخنازير، وتشتهر بحيوان الباك، والخيل المهجنة، ويشمل إنتاجها الزراعي القمح والذرة والقطن والبنجر والخضار والفاكهة، وصناعة الألبان، وتربية المواشي كالأغنام والخيول، إلى جانب تربية النحل ودودة القز والصيد.

ومن معادنها البترول والفحم، وتحتل مكانة بارزة في استخراج الزئبق، ومن مصنوعاتها الأحذية ونسيج القطن والحرير وإنتاج المعادن والطاقة الكهربائية وصناعة الفحم والماكينات والأجهزة والآلات.

ويوجد في قرغيزيا 6 معاهد عليا و6 مسارح و 1351 مكتبة عامة.

نسبة المتعلمين فيها 99،7٪، وحملة الشهادات العليا 50،9٪ (1970).

9. جمهورية لاتفيا:

تأسست في تموز 1940، وانضمت لجمهوريات الاتحاد في آب من العام ذاته، ومساحتها 700،63 كم، وعاصمتها ريجا، ومن أهم موانئها ريجا العاصمة ولبياو ولنداو، ولهذه الموانيء أهمية كبرى للاتحاد لأن مياهها لا تتجمد شتاء.

وتختص زراعتها بترية الأبقاروالخيول، لذا تعتمد لاتفيا على التصنيع أكثر من اعتمادها على الزراعة، فهي الأولى بين جمهوريات الاتحاد في صناعة عربات السكك الحديدية، والرابعة في صناعة الورق والمنسوجات الصوفية، والخامسة في انتاج خشب العمارة والسادسة في انتاج المخصبات، ومن صناعاتها بناء السفن وأجهزة الراديو وإنتاج السمك واللحم والحليب. وتصدر منتجاتها إلى أكثر من تسعين بلداً

ويوجد فيها عشرة معاهد عليا وعشرة مسارح و52 متحفاً.

أما منتوجاتها الزراعية فهي البطاطس والحبوب والبنجر والخضار والفواكه، ومن منتوجاتها الحيوانية اللحوم والألبان والبيض والصوف، وتشمل صادراتها الألبان والأخشاب.

نسبة المتعلمين فيها 99،8٪، وحملة الشهادات العليا 54،2٪ (1970).

10. جمهورية ليتوانيا:

تقع في الشمال الغربي من الإتحاد السوفييتي مطلة على بحر البلطيق من الغرب، وتجاورها لاتفيا من الشمال وروسيا البيضاء من الشرق وبولندة من الجنوب، وقد تأسست في تموز 1940، وانضمت للاتحاد في آب من العام ذاته، ومساحتها 200،65 الف كم، وعاصمتها فلنا.

تبلغ مساحة الأراضي الزراعية فيها 4،2 مليون هكتار، وتشمل منتوجاتها البطاطس والخضار والفاكهة، بينما تشمل الثروة الحيوانية الماشية والخنازير، ومن منتوجاتها الزراعية اللحوم والحليب والمحاصيل الصناعية كالكتان وبنجر السكر ويبلغ عدد المزارع الجماعية فيها 1778 مزرعة، والحكومية 232 مزرعة، وتشمل صناعاتها بناء السفن (وبالذات المخصصة لصيد الأسماك) وتركيب الأجهزة والآلات، وتكنيك الكهرباء والألكترونيك وصناعة البناء وتكرير البترول، ومواد العمارة والصناعات الهندسية وسكر البنجر والمنسوجات القطنية والأحذية.

ويوجد فيها 12 معهداً عالياً، و11 مسرحاً، و33 متحفاً، و2409 مكتبة عامة.

نسبة المتعلمين فيها 99،7٪، وحملة الشهادات العليا 50،9٪ (1970).

11- جمهورية مولدافيا:

تقع في أقصى الطرف الجنوبي الغربي للاتحاد السوفييتي، وقد أسست كجمهورية ذات حكم ذاتي عام 1924، وتم ضمها للاتحاد عام 1940، وتجاورها رومانيا من الغرب، بينما تحدها أوكرانيا من الجهات الأخرى، ومساحتها 33،700 ألف كم، وعاصمتها كيشينيف، ومن أهم مدنها تيراسيول ويلتسي وبيندري.

يقوم اقتصاد مولدافيا على الزراعة والصناعات الزراعية، ويشمل انتاجها الذرة والقمح وبنجر السكر وحبوب عباد الشمس والبطاطس والخضار والفاكهة وخامات الزيوت والورد والتبغ والنعنع، وتنتج ربع إنتاج الاتحاد السوفييتي من العنب، بينما يشمل الإنتاج الحيواني الألبان واللحوم والصوف والبيض، وهي الجمهورية الثانية في انتاج النبيذ والتبغ، والثالثة في تعليب اللحوم والخضار.

أما إنتاجها الصناعي فيشمل محفوظات الفواكه والخضروات والسكر والنبيذ، وصناعة الماكينات والجرارات والمضخات والمحركات الكهربائية والمحولات والثلاجات، وتصدر صناعاتها إلى أكثر من خمسين دولة.

ويوجد في مولدافيا 8 معاهد عليا و8 مسارح و22 متحفاً و 1897 مكتبة عامة.

نسبة المتعلمين فيها 5،99٪، وحملة الشهادات العليا 2،46٪ (1970).

12. جمهورية تاجكستان :

تتصل حدودها الشرقية بالهند والصين، وكانت جمهورية ذات حكم ذاتي عام 1924، وقد انضمت للاتحاد عام 1929، ومساحتها 143،100 ألف كم، وعاصمتها دوشانبي.

ويعتمد اقتصادها على الزراعة والمراعي، وتشمل حاصلاتها الرمان والتين والحمضيات وقصب السكر والأرز والقمح والقطن وتربية دودة القز، وتشمل ثروتها الحيوانية الماشية والأغنام والماعز، وتنتج كميات كبيرة من اللحوم والألبان والبيض، أما ثروتها المعدنية فتضم اليورانيوم والراديوم والزرنيخ والبزموت والميكا والكوراندوم، أما صناعاتها فتشمل الطاقة الكهربائية والمواد الغذائية واستخراج الفحم والبترول والغازات وتركيب الآلات وتكنيك الكهرباء ومواد البناء.

ويوجد فيها 8 معاهد عليا، وعشرة مسارح، وخمسة متاحف، و1163 مكتبة عامة.

نسبة المتعلمين فيها [illegible]٪، وحملة الشهادات العليا 49٪ (1949).

13. جمهورية تركمانيا :

تطل على بحر قزوين من الغرب، وتحدها أفغانستان وإيران من الجنوب، أسست عام 1924، وانضمت للاتحاد في العام التالي، وتبلغ مساحتها 844،100 كم، وهي الثالثة بين جمهوريات الاتحاد مساحة، وعاصمتها أشخباد، ومعظم سكانها من المسلمين السنيين.

تبلغ مساحتها الزراعية 780 ألف هكتار، وأغزر محاصيلها القطن (طويل التيلة)، والذرة والقمح والفاكهة والعنب وتربية دودة القز، أما ثروتها الحيوانية فتعتمد على الأغنام والماعز والخيول والجمال، كما تنتج الألبان واللحوم والصوف، أما ثروتها المعدنية فتشمل الملح والمغنيسيوم والكبريت والفحم، ومن صناعاتها غزل الصوف والسجاد ومواد البناء والنبيذ وصناعة الغاز وتركيب الماكينات.

ويوجد فيها 6 معاهد عليا، و 6 مسارح، و 7 متاحف، و 1108 مكتبة عامة.

نسبة المتعلمين فيها 5،99٪، وحملة الشهادات العليا 6،49٪ (1973).

14. جمهورية أوكرانيا:

تعتبر الجمهورية الثانية بعد روسيا الاتحادية من حيث الأهمية الاقتصادية وعدد السكان، ولها حدود مشتركة مع بولندة وتشيكوسلوفاكية وهنغاريا ورومانيا، أسست عام 1917، وانضمت للاتحاد عام 1922، وتبلغ مساحتها 700،603 ألف كم،وتحتل المرتبة الرابعة بين جمهوريات الاتحاد من حيث المساحة، وعاصمتها كييف، ومن أهم المدن خوركوف وأوديسا.

وتنتج أوكرانيا 22٪ من قمح الاتحاد السوفييتي (وهو ما يشكل ثلاثة أضعاف ما تنتجه بريطانيا)، و64٪ من إنتاجه من بنجر السكر، كما تنتج عباد الشمس والعنب. أما عن ثروتها المعدنية فتنتج 61٪ من إنتاج الاتحاد من الحديد، و54٪ من إنتاجه من الفحم، و45٪ من إنتاجه من الصلب، و35٪ من إنتاجه من المنغنيز، و17٪ من إنتاجه من المشغولات المعدنية، وتصدر منتوجاتها إلى 95 دولة.

ويوجد فيها 139 معهداً عالياً، و147 متحفاً، و27608 مكتبة عامة.

وتبلغ نسبة المتعلمين فيها 8،99٪، وحملة الشهادات العليا 5،54٪ (1970).

15. جمهورية أوزبكستان:

الجمهورية الرابعة من حيث عدد السكان، أسست عام 1924، وانضمت للاتحاد في العام التالي، وتبلغ مساحتها 400،447 ألف كم، وتحيط بها جمهوريات الاتحاد من جهات ثلاث، وأفغانستان من الجنوب.

عاصمة أوزبكستان طشقند، وتضم الجمهورية عدداً من الإمارات الإسلامية القديمة مثل بخارى وخوارزم وسمرقند.

ويتكلم سكانها لغة الجغطاي التركية، وقد استبدلت حروفها العربية بالحروف الروسية عام 1940.

تنتج أوزبكستان 67٪ من إنتاج الإتحاد من القطن، و50٪ من إنتاجه من الأرز، ويليهما القمح والذرة والفاكهة والعنب والخضروات، وتربية دودة القز، فضلاً عن ثروتها الهائلة من الماشية والأغنام، كما تشمل ثروتها المعدنية البترول والفحم والنحاس والكبريت والحديد والغاز وأحجار البناء، ومن صناعاتها الآلات الزراعية والإسمنت والمنسوجات والحرير والورق واستخراج البترول وتركيب الماكينات وصناعة المواد الغذائية وصناعة المعادن.

ويوجد فيها 40 معهداً عالياً، و25 مسرحاً، و26 متحفاً، و5822 مكتبة عامة.

تبلغ نسبة المتعلمين فيها 99،7٪، وحملة الشهادات العليا 53،8٪ (1970).

الفصل الثاني

ثورة على القياصرة

- الامبراطورية الروسية (1480م - 1917م)

لا تشير المراجع الحديثة عن الاتحاد السوفييتي بالكثير إلى الامبراطورية الروسية، ولعل السبب وراء ذلك هو اهتمامها بالثورة البلشفية التي قامت عام 1917، ونشوء الدولة العظمى تحت اسم الاتحاد السوفييتي، ودورها الكبير الذي لعبته في التاريخ الحديث، خاصة في تاريخ منطقة الشرق الأوسط.

ويحدد المؤرخون عام 1480 م بداية تكوين الامبراطورية الروسية، ففيه أعلن إيفان الثالث التمرد على حكم التتار الذين حكموا الإمارات الروسية قرابة قرنين من الزمان، وقام بتوحيد الإمارات الروسية المتفرقة، فضم الإمارات نوفوغورد وتيفير وفيازما، وأعلن نفسه امبراطوراً على كل أجزاء روسيا، وجاء بعده خلفاؤه فاسيلي الثالث، وإيفان الرابع (1533- 1584) ليكملا جهوده التحريرية، وفي خلال نصف قرن كان سلطان التتار قد زال تماماًعن الإمارات الروسية، بل وزادا من عملياتهما الحربية بغزو بلاد التتار نفسها مثل قازان واستراخان اللتين ضمهما إيفان الرابع إلى امبراطوريته، وفي عام 1581 بدأ الروس في الاتجاه شرقاً، واستولوا على سيبيريا التترية، وعبروا ممر بهرنج إلى ألاسكا التي ظلت ملكاً لهم حتى بيعت للولايات المتحدة الأميركية عام 1867 [1].

حكم آل رومانوف (1613– 1917)

بدأ حكم هذه الأسرة بميخائيل رومانوف الذي تولى حكم إمارة موسكو عام 1613 بعد طرد البولنديين من روسيا، واستمر حكمه حتى عام 1645، أما حكم الأسرة فقد استمرحتى قيام الثورة البلشفية عام 1917.

وجاء من بعد ميخائيل ولده إلكسيس ميخائيلوفيتش (1645-1676)[2]، الذي تولى حكم روسيا من بعده أبناؤه الثلاثة وهم: فيدور الثالث، وإيفان الخامس، وبطرس الأول – أو الكبير(1682-1725) [3].

وقد توالى على الحكم من آل رومانوف خمسة عشر قيصراً، فكان أشهرهم:

بطرس الكبير (17[illegible] [illegible])

وسع الدولة بقيامه بأعمال عسكرية ضد السويد، فانتصر عليهم في معركة بولتافا عام 1709، واستولت جيوشه على بعض الولايات على بحر البلطيق والتي تدعى الآن جمهوريات ليتوانيا وأستونيا ولاتفيا، وفي الشرق استمر الزحف الروسي عبر سيبيريا التي أقاموا فيها مستوطنات وأحواض أنهار، كما أسس مدينة سانت بطرسبرج(لينغراد اليوم) ونقل العاصمة إليها، ولما كان مفتوناً بالحياة الأوروبية فقد أدخل إلى بلاده الأزياء الأوروبية والمدارس والمصانع، وقوى الجيش والأسطول، وطور التعليم،وأسس مدرسة المدفعية ومدرسة العلوم الرياضية، وأكاديمية العلوم على الطراز الأوروبي، وأنشأ الطرق والقنوات، وطور النظام الإداري للدولة بتأسيسه هيئة الشئون الخارجية والهيئة العسكرية وهيئة الأميرالية لإدارة الأسطول وهيئة العدلية وهيئة التعدين، وقلل من امتيازات النبلاء وورثة الأراضي، وشطب مجلسهم 'الدوما'، وعين بدلاً منهم موظفين موالين لنظامه، وألغى عدداً من المؤسسات التي تمثل النظام الروسي القديم، وزاد من نفوذ القيصرعلى الطبقة الأرستقراطية ورجال الكنيسة.

وقد ساءت في عهده أوضاع الفلاحين، وتواصل استعبادهم، وفرض الضرائب عليهم رغم فقرهم، لذا قامت إنتفاضات عدة في الأعوام 1705، 1707، 1708، وقد حاربتها الدولة بكل عنف ولكنها لم تستطع إخمادها، وظل الثائرون يختبئون في أقضية البلاد.[4](بيفانوف 215- 217.)

وبعد وفاة بطرس الكبير تولت الحكم زوجته كاترين الأولى مدة عامين 1725- 1727 توفيت على إثرهما [5].

كاترين الثانية (الكبرى) (1729- 1796)

تولت الحكم مدة 34 عاماً (1762 -1796)، وكانت ذات شخصية دكتاتورية ولكن على جانب من الثقافة والأدب والفكر، لذا حدث في عهدها رقي واضح للفنون الجميلة، وافتتح العديد من المدارس معظمها كان للطبقات الراقية، كما أسست مدرسة الباليه القيصرية، وأدخلت الأوبرا الايطالية وموسيقى الحجرة إلى روسيا ، وقد سارت كاترين على سياسة بطرس الكبير الخارجية العدوانية، فاغتصبت روسيا القرم من العثمانيين، وتقاسمت مع بروسيا والنمسة أراضي بولندة.

ولكن معظم الروس ظلوا في فقر مدقع، لذا قام الفلاحون بثورة كبيرة في عامي 1773-1774 عمت نواحي البلاد وكادت تحتل العاصمة موسكو ، ولكن الجيش تمكن من إخمادها، مما دفع كاترين إلى العمل على تخفيف أحوال الفلاحين القاسية.

ولما كانت روسيا تحاول الوصول إلى البحر الأسود، فقد استغلت الخلاف بين فرنسا وإنجلترا لتنفذ إلى سواحل البحر الأسود بانتصارها على تركيا في حربها الأولى معها 1768-1774، فوقعت معها معاهدة كينارجي التي منحت روسيا موقعاً على الساحل الشمالي للبحر الأسود، وسمحت تركيا للسفن الروسية بالعبور في مضيقي البسفور والدردنيل، وهذا أيضاً أعطى الروس المجال كاملاً لدعم الحركات التحررية في الشرق الأوسط ضد العثمانيين، مثل ضاهر العمر في فلسطين، وعلي بك الكبير في مصر، والأمير يوسف الشهابي في لبنان، الذي دعا مواطنيه للإنضواء تحت المواطنة الروسية

لتحريرهم من الأتراك، واحتل الروس بيروت مرتين، وأقاموا لهم قنصليات في بيروت والاسكندرية [6].

وحفاظاً منها على موقعها الاستراتيجي في المنطقة، تتحالف روسيا مع الإنجليز والفرنسيين لتنتصر الدول الثلاث على أسطولي مصر وتركيا في موقعة نافارين عام 1828، ولتحصل روسيا على الساحل الشرقي للبحر الأسود، ولكن الأتراك يعودون للإستعانة بالأسطول الروسي عام 1833 لإيقاف التقدم الطامح لحملة إبراهيم باشا على القسطنطينية، فكان لهما ذلك، ليوقع معهما اتفاقية كوتاهية [7].

وبعد وفاة الملكة كاترين خلفها ابنها بول الذي حكم خمس سنوات انتهت باغتياله عام 1801، فخلفه ولده الكسندر الأول [8].

الكسندر الأول (1777- 1825)

حكم الكسندر الأول ما بين(1801–1825)، وقد بدأ عهده بالحديث عن تحرير الفلاحين، وادعى أنه سيتنازل عن العرش، وسوف يحول روسيا إلى جمهورية، فقام بنشر أساليب الحياة الغربية، وعفا عن كثير من السجناء، ولكن مشكلة استعباد الفلاحين ظلت قائمة، فالدولة كانت تعتمد على ما يقدمونه من عمل وضرائب.

وأراد نابليون إيقاف التعاون التجاري بين روسيا وبريطانيا، ومنعها من المزيد من التوسع على حساب الدولة العثمانية، فجهز جيشاً تعداده 600 ألف، وزحف صوب موسكو في حزيران 1812، وقابله الجيش الروسي بقيادة كوتوزوف في بورودينو على بعد 125 كم من موسكو في 26 آب، ورغم فارق القوى الذي يميل لصالح الفرنسيين، انتصر الروس في المعركة، وخسر نابليون 60 الفاً من جنوده وضباطه، ومع ذلك أخلى الروس موسكو في الثاني من ايلول بناء على أوامر كوتوزوف، توفيراً للجيش، واستعداداً للجولة القادمة، فدخلها الفرنسيون بدون مقاومة، ليعود الروس للقتال لاحقاً ليخسر الفرنسيون معظم جيشهم في معارك عدة، ومن هجمات لا تنقطع على الجيش المنسحب الذي أتم انسحابه بعد خسائر فادحة في أواخر كانون أول 1812[9].

ورغم ما قام به الكسندر الأول من إصلاحات، ظلت رياح الثورة تهب من وقت لآخر على روسيا، خاصة بعد ثورات إسبانيا ونابولي، اللتين بهما أقنع المستشار النمساوي المستبد مترنيخ القيصر بالتحول عن التحررية، فأنشأ الكسندر نظام مراقبة مطبوعات للكتب المدرسية، وتوقف عن مشاريعه لتحرير الأقنان، ومنح الكنيسة الأرثوذكسية صلاحية مراقبة التعليم المدرسي والجامعي، وهذا أدى إلى اضطهاد أصحاب الأديان الأخرى [10]، فتشكلت الجماعات السرية التي انضم إليها شباب ارستقراطيون، وكانت تدعى منظمات الديسمبريين التي تأسست في 1821–1822، مثل "جماعة الإنقاذ" التي جعلت هدفها تصفية نظام القنانة، والاستعاضة عن الحكم المطلق بنظام ملكي دستوري، بينما انتقدت منظمة "اتحاد الإقبال" الحكم المطلق، وفضحت استبداد الملاكين، وارتشاء الموظفين، وأظهروا في دعاياتهم حياة الشعب القاسية، وطالبوا بحرية النشر وحرية ممارسة الأديان، وتساوي كافة الطبقات أمام القانون، وتقصير مدة الخدمة العسكرية، وعلانية المحاكمات، وإلغاء ضريبة النفوس وحرية التملك [11]، وقد أدى ذلك كله إلى مواجهات عنيفة بينهم وبين الجيش الروسي، إلى أن توفي الكسندر في الأول من كانون أول عام 1825 [12].

نيقولا الأول (1825– 1855)

تولى الحكم وهو في التاسعة والعشرين، وكانت بداية حكمه مواكبة للحركات الثورية في بلاده، وأقواها الديسمريون، فأعلن لدى جلوسه على العرش:

"إن الثورة على أبواب روسيا، ولكني أقسم أنها لن تدخل روسيا ما دمت أنا على قيد الحياة [13]".

فعزل الأرستقراطيين الذين كانوا يشغلون المناصب وعين بدلاً منهم الضباط العسكريين، وأسس ست إدارات حكومية منها إدارة الشرطة السرية ليكافح الثورات، وليزيد من سيطرته على البلاد [14]، وكاد أن يغلق الجامعات لولا أن الفكرة كانت فاحشة وغير معقولة، ولكن نظامه "ألغى مواد كالفلسفة وتاريخ العلوم الطبيعية وغيرهما تفادياً

للتعقل الزائد، وتم رفع الرسوم الجامعية، فانخفضت أعداد الطلاب انخفاضاً كبيراً، وكانت وسائل رقابته البوليسية تؤكد على الحكم المطلق، ونظام القنانة، وإخلاص الشعب الروسي للحكم الملكي والكنيسة الأرثوذكسية[14].

ولكن مع هذا كله، لم تمنع إجراءات نيقولا ونظامه من ظهور عدد من أعلام الأدب الروسي – بل والعالمي- أمثال جوجول وليرمنتوف ودستو فسكي وتولستوي وتورجنيف ومؤسس الواقعية الروسية الشاعر والروائي بوشكين (1799–1837)[15]، والذي اعتبره العلامة منير بعلبكي أبا الأدب الروسي الحديث [16](المورد معجم الاعلام 71)، لذا لا غرابة "أن لعب الأدب–الذي بلغ في هذه المرحلة من الزمن ازدهاراً حقيقياً – دوراً هائلاً في تطور الوعي للشعب الروسي، وفي الحركة الاجتماعية،وفي الربع الثاني من القرن التاسع عشر توطدت الواقعية في الأدب الروسي كتيار أدبي مسيطر، وكان الأدب التقدمي يستجيب لمصالح الشعب، ويعبر تعبيراً صحيحاً عن حياة وحاجات الشعب[17].

وفي [illegible] التاريخ ألف كارامزين(1766–1826) تاريخ الدولة الروسية الذي وصفه بوشكين بأنه قد فتح التاريخ الروسي لروسيا، كما وضع المؤرخ الكبير سولوفيوف(1820–1879) موسوعته "تاريخ روسيا منذ أقدم الأزمنة"[18].

وفي هذه الأجواء الثقافية لم يكن غريباً أن نجد أن طبقة المتعلمين كانت ترى أن على روسيا أن تأخذ من الغرب تقدمه الاقتصادي والاجتماعي والسياسي [19].

الكسندر الثاني (1855– 1881)

مات نقولا الأول خلال حرب القرم ضد الأتراك، والتي هزم فيها الروس، ليدفع ذلك ولده الكسندر الثاني للأخذ ببعض الاصلاحات بغية اللحاق بالغرب، ولتقوية الاقتصاد، وللرقي بأساليب الحياة، فحرر الفلاحين عام 1861، ووزع عليهم الأراضي، وأدخل سكك الحديد، ونظام البنوك، وطور التعليم، وقلل الرقابة على الصحافة[20]، وقام باصلاحات في حكم الأقاليم بإيجاد نظام انتخاب مجالس للحكم الذاتي تكون

مسئولة عن الطرق والجسور والتعليم والصحة وقضاة الصلح، وجعل النظام القضائي في معزل عن مسئولية دوائر الحكومة الأخرى، وأقر أن جميع الرويس متساوون أمام القانون[21].

وفي 19 شباط 1861 صدر قانون إلغاء القنانة، الذي جاء في مادته الأولى:

"يلغى حق القنانة فيما يتعلق بالفلاحين القاطنين في أراضي الملاكين العقاريين وبالخدم إلى الأبد"، وورد في مادته الثالثة:

"يقدم الملاكون العقاريون، باحتفاظهم بحق امتلاك أراضيهم كلها، للفلاحين قطع الأراضي الملصقة ببيوت الفلاحين بصورة دائمة، وذلك مقابل الفروض المحددة"[22].

وكانت ردود الفلاحين صاخبة عنيفة، فرفضوا التخلي عن أراضيهم لكبار الملاكين، وأبوا أن يؤدوا أعمال السخرة، وفي هذه الفترة [illegible] "تشيرنيشيفسكي" (1828-1889) الذي راح يحرض الفلاحين ضد النظام. وأصدر في شتاء 1860–1861 بياناً فضح فيه أوضاع النهب التي يتعرض لها الفلاحون، وأوضح أن القيصر والملاكين متحدون، وأن الفلاحين ينتظرون عبثاً من القيصر الحرية الحقيقية. وقد تم اعتقال تشيرنيشيفسكي وتعذيبه، ونفي إلى سيبيريا[23].

وقد قامت الثورات وأعمال العنف في سائر أنحاء البلاد، فشملت بيلوروسيا والبلطيق وأوكرانيا والقفقاس والجزء الأوروبي من روسيا، وبلغ عام 1861 مجموع الاضطرابات 1176، وقد ردت السلطات على الانتفاضات بعقوبات الإعدام والأشغال الشاقة والنفي إلى سيبيريا[24].

وقد جرت عدة محاولات لإغتيال القيصر، فنظمت حركة "إرادة الشعب" خمس محاولات للتخلص منه، فلم تنجح، ولكن المحاولة الأخيرة التي جرت في آذار 1881 نجحت في اغتياله بقذف موكبه بقنبلة في مدينة بطرسبرج[25].

نقولا الثاني (1894– 1917)

آخر القياصرة، وقد بدأ عهده بتصريح واضح لمرؤوسيه ضد فكرة البرلمان الروسي قال فيه:

"سوف أحافظ على مبدأ الأرستقراطية بنفس حزم والدي وإصراره"[26].

ورغم صفات اللطف في علاقاته الشخصية، فقد كان نقولا الثاني ضيق الأفق، متعصباً في أفكاره السياسية، لذا كان آخر من يمكن أن يدرك – أو يتعامل مع – مشاكل روسيا[27].

"وكانت هيئات الطلبة في الجامعات الروسية ممتلئة سخطاً وعنفاً، ورفعت الطبقات الوسطى الحرة المذهب، والتي خضعت لتأثير الثقافة الغربية، عقيرتها مطالبة بإحداث تغييرات دستورية بعيدة المدى، وكان إلحاح الفلاحين الفقراء التعسين بضرورة وضع قوانين عادلة تنظم تأجير الأرض لهم، والتهييج الأهوج المستمر القائم على المبادئ الماركسية بين عمال المصانع. وفتن القوميات المهضومة الحقوق، الخاضعة لحكومة القيصر، والصراع المرتفع الخانق الصادر من فلذات المنفيين في سيبيريا، وضحايا الجور والطغيان الآخرين، كل هذه الطوائف ألفت كتلة ضخمة من المقاومة هددت النظام القائم في روسيا بالويل والثبور"[28].

وقد أدت سلسلة من مواسم الحصاد الفاشلة إلى حصول مجاعات بين الفلاحين، هذا إلى جانب الأسباب الكثيرة المزمنة لقيام حركات العصيان والثورات والمتوارثة من العهود السابقة، وهذا أدى إلى قيام المنظمات المعارضة للحكم، منها:

1- **الدستوريون الأحرار الذين كانوا يريدون استبدال الحكم القيصري بالنظام البرلماني المعروف في أوروبا.**
2- **الثوريون الاجتماعيون الذين أرادوا الثورة لصالح الفلاحين والعمال.**

3- الماركسيون الذين كانوا يتبعون مبادىء الفيلسوف الألماني الاجتماعي كارل ماركس (1818-1883) [29].

وقد كانت هزيمة الجيش الروسي أمام اليابان في بورت آرثر عام 1904 خير دليل على ضعف الجيش وفساده، وقلة كفاءته، وقد توج ذلك بخسارة ميناء بورت آرثر، وتبع ذلك إضراب عمال بطرسبرج، وسار 150 ألفاً منهم نحو قصر القيصر في 9 كانون ثان 1905- أو الأحد الدامي كما دعي لاحقاً - فتم تفريقهم بعد مذبحة ارتكبها الجيش بقتله ألف عامل من المتظاهرين، وجرحه خمسة آلاف، وقد أعقب ذلك موجة من الاغتيالات، والاضرابات المنظمة، وحركات التمرد في الجيش والقوات البحرية [30].

ولم تجد اجتماعات مجلس الدوما (البرلمان) - الذي انتخب عدة مرات - في حل مشاكل الدولة المنهارة، أو أن تخفف من العداء المستحكم بين القصر والشعب، فقد كان قانون انتخاب هذا الدوما في صالح الطبقة البرجوازية، وقام القيصر بحله عدة مرات[31].

الطريق إلى الثورة إضرابات بالجملة..

وتحيط المشاكل والظروف المناوئة بنقولا الثاني وحكومته، ليبدأ العد التنازلي لدولة القياصرة ...

ففي مطلع عام 1911، اجتاحت البلاد موجة من الاضرابات، بلغت أوجها بإضراب طلابي انتهك لفكه البوليس حرم الجامعة، تبعه إضراب عمالي شارك فيه 105 آلاف عامل.

وفي نيسان 1912، فتح الجنود النار على عمال قرية في سيبيريا، فقتلوا 270 شخصاً، وجرحوا 250.

وفي عام 1912 بلغ مجموع الإضرابات 3 آلاف إضراب، شارك فيها أكثر من مليون شخص، وفي عام 1913 وصل عدد المضربين إلى مليوني شخص.

ولم يكن نقولا الثاني بالرجل الحصيف القادر على فعل شيء، وقد اعترف "بأن التفكير بالنسبة له من الصعوبة بحيث لو انتقل الجهد العقلي الذي يصرفه إلى الفرس التي يجلس عليها لهاجت.. وكان مع زوجته الكسندرا فيودورفنا، المرأة المحبة للسلطة، المتهورة الموسوسة، كانا تجسيداً مثالياً للحكم الملكي المطلق الزائل، ولسلطة النبلاء أصحاب الأراضي"[32].

أما عن ملكية الأراضي في عهد نقولا الثاني، فقد كان ما نسبته 0،8٪ من السكان (أي حوالي 50 ألف شخص) يمتلكون ثلثي مجموع أراضي الملكية الخاصة في البلاد، أي حوالي 70 مليون هكتار، بينما يمتلك 50 مليون شخص 75 مليون هكتار!![33]، وهذا ساهم كثيراً في هجر الفلاحين لأراضيهم والبحث عن أعمال في بقاع أخرى، وهم الذين كانوا يشكلون ١٦٥ مليون نسمة، أما الطبقة الأخرى التي كانت تشارك الفلاحين سوء أحوالهم فكانت العمال الذين كان تعدادهم 18 مليون عامل، وهذا أدى إلى قيام الانتفاضات ضد الطبقة الإقطاعية، ففي عام 1913 حدثت 146 انتفاضة فلاحية[34].

وتشتد الحركات الثورية المناهضة للنظام عام 1914، فسارت تظاهرة سلمية في ذكرى الأحد الدموي (9 كانون ثان 1905) حاملة مطالب لتقديمها للقيصر، فأطلق الجيش النار عليها فقتل وجرح 4600 شخص، بينما شارك في الإضرابات 260 ألفاً[35].

وفي 12 آذار 1914، واحتجاجاً على حادث تسمم وقع لعدد كبير من العمال، أضرب 12 ألفاً من عمال مصنع بوايلوف، وفي 20 آذار كان المضربون في بطرسبرغ 158 ألفاً، وفي موسكو 60 ألفاً، وفي نيسان أضرب 74 ألف عامل بسبب فصل 15 نائباً اشتراكياً من مجلس الدوما، وفي أيار شارك في إضراب آخر نصف مليون شخص، وفي نهاية أيار، وبسبب انتشار الطاعون في القرى القريبة أضرب 50 ألفاً من عمال حقول النفط في باكو، وفي المدينة ذاتها خرجت تظاهرة شارك فيها 20 ألفاً وفرقتها مفارز البوليس، ولما اجتمع في موسكو 12 ألف عامل تضامناً مع عمال باكو أطلق عليهم البوليس النار فقتل إثنين وجرح 50 عاملاً، ليضرب بسبب ذلك 90 ألفاً من عمال بطرسبورغ[36].

وكانت مشاركة روسيا في الحرب العالمية الأولى لصالح الثورة والثائرين...

لقد كانت روسيا تمتلك القوة البشرية الهائلة، القوية التحمل، ولكنها غير مدربة التدريب الكافي، وكان الفساد وعدم الكفاءة سائدين بين الضباط والقادة، ولم تكن قدراتها التصنيعية تضارع قدرات دول اوروبا، هذا بجانب عدم التجانس بين شعوبها بسبب تعدد الأقليات والأعراق التي تُحكم بالقوة والجبروت [37].

وقد بدأت روسيا الحرب بغزو النمسا، فكان الرد الألماني نصرين مؤزرين على الجيوش الروسية الغازية في تاننبرج والبحيرات المسورية في 25 و 31 آب 1914[38].

وفي عام 1915، حقق الألمان انتصارات كبيرة أخرى على الروس، فسقطت المدن: لبرج عاصمة غاليسيا، ووارسو عاصمة بولندة، وكوفنو وفلنا في لتوانيا، وبدا أن سقوط بطرسبورغ (اينغراد) بات وشيكاً، ولم يهدئ من سرعة تقدم الألمان إلا بعض الانتصارات التي حققها القائد الروسي روسكي في الشمال، وايفانوف في الجنوب وذلك في أيلول 1915، ولكن مع ذلك كانت الخسائر الروسية كبيرة، فقد خسروا 325 ألف أسير، و3 آلاف مدفع[39].

ولما دخل الجيش الروسي بروسيا الشرقية وأنزل بالألمان عدة هزائم، اضطر الألمان لسحب قوات كبيرة من الجبهة الغربية لصد الهجوم الروسي، فأفلحوا في تطويق فيلقين للروس وتمت إبادتهما، وتم رد الهجوم الروسي [40]

وقد تبين أن صعوبة وضع الجيش الروسي تعود إلى النقص الكبير في الأسلحة والذخائر، وعجز الصناعة الروسية عن تلبية النقص بسبب الحرب، ولم تكن وسائل النقل قادرة على تأمين العمليات القتالية بالتموين والسلاح، لذا كانت معارك الروس معارك دفاعية خاصة وأن الألمان والنمساويين قد حشدوا قواتهم الرئيسية – نصف قواتهم تقريباً – ضد روسيا للتخلص منها ثم التفرغ لفرنسا وإنجلترا، ولم يقدم الحلفاء مساعدة كافية للروس، الذين اضطروا لترك بولونيا وقسم من منطقة البلطيق وبيلوروسيا

وأوكرانيا الغربية وذلك بعد ان تكبدوا ثلاثة وملايين ونصف من القتلى والجرحى والأسرى[41].

وكما أسلفنا، فإن الثورة التي كان يُعد لها قد استفادت من هذه الظروف التي وجد حكام روسيا أنفسهم فيها خلال الحرب، ومن هذه الظروف المساعدة على الثورة:

1- النقص الهائل الذي عانته القوات الروسية في السلاح والعتاد والأدوية والأطباء والمستشفيات واللباس.

2- هبوط استخراج الفحم والبترول، مما خفض من الإنتاج الصناعي.

3- خراب المواصلات، والنقص في الخامات والوقود والأيدي العاملة.

4- انقطاع في تزويد المدن والجيش بالمؤن.

5- هبوط سعر الروبل.

6- ازدياد ساعات العمل إلى 11-12 ساعة يومياً.

7- اتساع استخدام الأطفال والنساء.

8- نقص في المواد الغذائية والقمح.

9- وبناء على ما سبق، فإن الجهة الرابحة الوحيدة كانت الطبقة البرجوازية بسبب الطلبات الحربية على حساب الشعب المنكوب، وجوعه وفقره[42].

ولا شك أن هذه الأوضاع قد وفرت مناخاً متميزاً نموذجياً لقادة الثورة ومنظمي تحركاتها وإضراباتها، حاملي المبادىء التي تخالف الواقع المرير الذي يعيشه 90٪ من الشعب الروسي.

فلما أطلق الجيش النار على مظاهرات بعض المدن، رد العمال بإضراب كبير بلغ عدد المشتركين فيه نصف مليون عام 1915، وازدادت الأعداد المشاركة ليصل الرقم إلى مليون عام 1916، وجرى كل ذلك تحت شعاري: "فلتسقط الحرب، فليسقط الحكم المطلق"[43].

وفي عام 1916 قامت 216 انتفاضة ضد النظام الإقطاعي، وأدخلت الدولة قواتها 91 مرة لقمع القرى الفلاحية الثائرة[44].

وتتصاعد الثورات في عام القيصرية الأخير، ففي 23 كانون أول 1916 قتل راسبوتين، مستشار القيصر والقيصرة، وعراب القصر ودجاله الكبير...

وكانت بدايات عام 1917 حافلة بالثورات والقلاقل، ولعل ذلك يعود إلى حالة اليأس التي سادت البلاد، والحرب التي كلفتها الكثير، وتواصل جهود قيادات الثورة في تنظيم المظاهرات والاضرابات.

ففي 9 كانون ثان 1917 أضرب عن العمل 137 ألف شخص في بتروغراد، وفي اليوم ذاته أضرب 30 ألف عامل فيها ، كما حدثت إضرابات في مدن خاركوف والدونباس وباكو ومدن أخرى، وكان شعارها جميعاً: "يسقط النظام الملكي". في [illegible] 1917 أضرب 676 ألف عامل في بتروغراد [45].

وفي 23 شباط احتفل عمال وعاملات بتروغراد بيوم المرأة العالمي بإضراب شارك فيه 90 ألف شخص، وهتفت الزوجات والعاملات: "نريد خبزاً، فلتسقط الحرب، ليعود لنا أزواجنا"، وفي 24 شباط أضرب 200 ألف عامل في العاصمة، وفي اليوم التالي ارتفع الرقم إلى 500 ألف عامل، وكانت المظاهرات تحت الرايات الحمراء [46].

ولن نمضي طويلاً في تعداد ما حصل من انتفاضات وإضرابات في روسيا القيصرية، ولكن ما سبق خير دليل على تردي الأوضاع، وأن النظام برمته كان يحتضر.

ويصدر البلاشفة منشوراً تحريضياً جاء فيه :

"لقد حل وقت النضال المكشوف، إن الخلاص هو في النضال الفوري واليومي، فكل نضال من النضالات يمكن أن يتحول إلى ثورة لعموم روسيا، التفوا جميعاً تحت رايات الثورة الحمراء! فلتسقط المَلَكية القيصرية! عاش يوم العمل من ثماني ساعات! أراضي الملاكين العقاريين كلها للشعب! فلتسقط الحرب"[47].

- وفي 26 شباط 1917 قام القيصر بحل مجلس الدوما.

- وفي 27 شباط تمردت فرق الحرس القيصري، وتم تكوين لجنة دوما مؤقتة.
- وفي 28 شباط اعتقل وزراء القصر، وصدر أول عدد من صحيفة ازفستيا لسان حال السوفييت.
- وفي 1 آذار تم تكوين قطاع خاص بالجنود تابع للسوفييت.
- وفي 2 آذار تنازل القيصر عن العرش لأخيه ميخائيل الذي استقال في اليوم التالي.
- وفي 8 آذار اعتقل القيصر وأسرته [48].
- وفي 14 آذار تشكلت حكومة برئاسة الأمير لفوف، تلتها حكومة مؤقتة برئاسة كيرنسكي، ولكن الثوار رفضوا هذه الحكومات طلباً لحلول جذرية، أكثر ثورية [49]، ولم يكن الرفض المنظم هذه الحكومة بالأمر الصعب على مجالس الجنود والعمال soviets المنتشرة في انحاء البلاد، والتي تمثلت جميعاً في مؤتمر مركزي اتخذ بتروغراد مقراً له[50].
- وفي 16 نيسان1917 وصل إلى بتروغراد نيقولاي لينين(1870-1924) قادماً من منفاه في سويسرة ومعه 31 ثورياً من البلاشفة في قطار مغلق، وقد وصف ونستون تشرشل عودة لينين هذه بقوله:

"أطلق الألمان على روسيا أفظع سلاح في الوجود، إذ نقلوا إليها لينين في مركبة مغلقة كما لو كان ميكروب الطاعون"[51].

ولدى وصوله بتروغراد، وفي أول خطاب له في الجموع الحاشدة خارج محطة القطار أعلن لينين عن الحاجة إلى ثورة اشتراكية ليس في روسيا فقط، بل وفي كل اوروبا [52].

- وفي اجتماعه الأول بستالين (1879-1953)القادم من منفاه في سيبيريا، وتروتسكي (1879-1940) القادم من منفاه في الولايات المتحدة، هاجم لينين الحكومة المؤقتة، وطالب بإنهاء الحرب، وأن يتسلم السوفييت الحكم [53].
- وفي 5 أيار تم تشكيل حكومة ائتلافية، وعين كيرنسكي وزيراً للحربية.

- وفي 16 حزيران يأمر كيرنسكي الجيوش الروسية على الجبهة بالهجوم، ولكن الهجوم فشل، وحطم الألمان الخطوط الروسية في ترنابول على الجبهة الجنوبية في 6 تموز، وفي النصف الثاني من آب اخترقوا الجبهة الشمالية واحتلوا مدينة ريغا الروسية [54].
- وفي 26 تموز اجتمع المؤتمر السادس التاريخي لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي لروسيا (البلشفي) الذي حضره 267 مندوباً [55].

وكان من نتائج هذا المؤتمر تأكيد المؤتمرين أن السلم لن يؤدي لانتقال السلطة من الذين ورثوها عن القياصرة، وأن "القضاء التام على دكتاتورية البرجوازية المضادة للثورة هو وحده الذي يمكن أن يكون الشعار الصحيح في الوقت الحاضر، ولقد كان ذلك نهجاً نحو الانتفاضة المسلحة، وأعرب المؤتمر عن ثقة أكيدة بأن النهوض الجديد [illegible] الثورة الروسية سيضع زمام السلطة في أيدي العمال، وأفقر الفلاحين [56].

ويقول المؤرخ الكبير فيشر:

"وتمكن البلشفيون في مؤتمر السوفييت من السيطرة - بقوة منطقهم وجدالهم - على أهواء الناس السذج البسطاء الجائعين، وأفكارهم المبلبلة الحائرة، وكان برنامج الحزب الذي ألفته هذه الجماعة واسع المدى، شديد الغواية:

توفير الغذاء للجميع

إبرام صلح عاجل (مع الألمان)

توزيع الأراضي على الفلاحين

إقامة دكتاتورية عمالية..

ولهذا، ففي الحين الذي كان فيه كيرنسكي لا يألو جهداً في إثارة همم الجيش لمواصلة الحرب، كان البلاشفة يسعون إلى إفساد النظام الحربي، وبث روح الهزيمة في نفوس الجند، وكان شعار الثورة الجديدة: "لا فتوح جديدة، ولا غرامات حربية [57].

ولا يغرب عن القارىء أن البلاد أصبحت ذات سلطة مزدوجة، المجالس السوفييتية من نواب وعمال وجنود، وهي هيئات ديكتاورية البروليتاريا والفلاحين، وحكومة مؤقتة وهي هيئة ديكتاتورية برجوازية [58]، وهو واقع لم يكن ليقبله الثوار الجدد، ومسألة الخلاص منه في نظرهم مسألة وقت.

وتنظم إضرابات أخرى كبيرة على درب الثورة القادمة..

فقد بدأ أيلول بإضراب 110 ألف عامل من عمال مصانع الصلب والحديد في الأورال.

وفي أواخر أيلول أضرب 600 ألف من عمال السكك الحديدية، و44 ألف عامل من عمال النفط في باكو.

وفي أكتوبر أضرب 300 [illegible] النسيج في [illegible] مجموع المضربين ما بين آب وتشرين أول 1917 مليوني عامل [59].

الجيش ينضم للثوار

ولينين يعلن انتصار الثورة..

وفي 12 تشرين أول جرى تأسيس "اللجنة الحربية الثورية" بمبادرة من لينين، وكان تحت تصرفها 20 ألف جندي من الحرس الأحمر و 150 ألف جندي من حامية بتروغراد [60].

وفي رسالة وجهها لأعضاء اللجنة المركزية يحث لينين مؤيديه في 24 تشرين أول قائلاً:

"الحكومة تتردد، وينبغي إتمام الأمر مهما كلف الثمن، إن التباطؤ يعني الموت".

وفي اليوم التالي تم افتتاح المؤتمر الثاني لسوفييت عموم روسيا، وأعلن سقوط القصر الشتوي، ليلاقى ذلك بالتصفيق والهتاف،، ويعلن لينين في ندائه "إلى العمال والفلاحين":

"... بالاعتماد على إرادة الأكثرية الساحقة من العمال والجنود والفلاحين، وبالاعتماد على الانتفاضة الظافرة التي قام بها العمال والحامية في بتروغراد، فإن المؤتمر يأخذ زمام السلطة في يديه.. ويقر المؤتمر: تنتقل السلطة بكاملها محلياً إلى سوفييتات نواب العمال والجنود والفلاحين"[61].

ومنذ الأشهر الأولى للثورة تم ما يلي:

1- القضاء على نظام القنانة الإقطاعي.

2- حصول الفلاحين على 150 مليون هكتار من الأراضي التي صودرت من كبار الملاكين والعائلة القيصرية.

3- حصولهم على 300 مليون روبل من الأدوات العائدة لهم.

4- إعفاء الفلاحين من دفع 700 مليون روبل سنوياً [illegible]

5- القضاء على تقسيم السكان إلى فئات نبلاء ورجال دين وفلاحين وغيرهم

6- ألغيت الألقاب والامتيازات الممنوحة بسبب التقسيم السابق[62].

توقيع الصلح مع الألمان..

ويبدو أن لينين لم يجد صعوبة في إقناع حزبه والمحيطين به بضرورة عقد مفاوضات صلح مع الألمان، فظروف البلاد التي أرهقتها الحرب، وبرامجها القادمة لإصلاح ما يمكن إصلاحه لا تسمح باستمرار القتال.

وعرضت روسيا في تشرين الثاني 1917 على بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة إجراء الصلح مع الألمان، ولكن الدول الثلاث لم تكلف نفسها عناء الرد على السوفييت، مما اضطر الروس لعقد هدنة مؤقتة منفردة مع الألمان في كانون الأول 1918، وطالب الألمان بأن تنضم إليهم بولونيا وليتوانيا وقسم من لاتفيا وقسم من بيلوروسيا، إلى جانب غرامات هائلة، ولما رفض تروتسكي وبوخارين مفضلين الإبقاء على حالة "اللا سلم واللا حرب" على عكس لينين وستالين، هدرت مدافع الألمان من جديد، وزحف 700

ألف جندي نمساوي ألماني مهددين بتروغراد وموسكو وكييف، مما دفع بقايا الجيش الروسي إلى الإنسحاب [63].

ويجد لينين في الصلح فرصة لاسترداد الأنفاس...

ففي 3 آذار 1918، وفي بلدة بريست ليتوفسك البيلوروسية، تم – وبإصرار من لينين – توقيع الصلح بالشروط الألمانية، حفاظاً على البلاد والثورة من الحراب الألمانية، جرى ذلك رغم اعتراض الشيوعيين اليساريين والاشتراكيين الثوريين اليساريين[64].

وبموجب هذا الصلح، تنازل الروس للألمان والأتراك والنمساويين عن فنلندة وليتوانيا وأستونيا وليتوانيا وبولندة وأوكرانيا والقوقاز[65]، وبذلك فقد الروس ثلث سكانهم، وتسعة أعشار إنتاجهم من الفحم[66].

و[illegible] من المؤرخ فيشر [illegible] يعلق على موافقة لينين على الصلح قائلاً:

"ولم يكن لينين يقيم للوطنية اعتباراً، ولا للبرلمانات وزناً، فإنه في معاهدة برست ليتوفسك تنازل [illegible] عن رقعة فسيحة من الأراضي دون أن يعتريه أي خجل، أو يحس بأي أسف أو ندم[67]، فالمصادر لا تقول أن لينين قد وقع الصلح وحيداً، فحفاظاً على منجزات الثورة الاشتراكية، وافق على معاهدة الصلح المؤتمر الاستثنائي السابع للحزب الشيوعي، ثم صادق عليه المؤتمر السادس لسوفييتات عموم روسيا[68]، كما أن المؤرخ فيشر نفسه يخبرنا أن دولاً أخرى قد طلبت الصلح، فبعد عدة هزائم تعرضت لها ألمانيا، أشار القائد والسياسي الألماني لودندورف في تشرين أول 1918 على حكومته بأن تسعى إلى الصلح بعد أن وجد أن استمرار القتال لا جدوى منه، كما طلبته بلغاريا والنمسا وتركيا [69].

ولا أرى لينين ظالماً حين قال عن الصلح:

".. لا يجوز الوقوع فريسة للقنوط أكثر من أي شيء آخر، إن شروط الصلح مرهقة لا تطاق، ومع ذلك فالتاريخ سيأخذ حقه..

فإلى العمل من أجل التنظيم، فالتنظيم، ثم التنظيم، إن المستقبل لنا بالرغم من المحن أياً كانت [70].

وقد أثبتت الأيام اللاحقة صحة ما توقعه لينين تماماً.

فقد عادت البلاد التي اقتطعت من روسيا بموجب نقاط ويلسون الأربع عشرة، والتي تبنتها معاهدة فرساي بالكامل، وكانت النقطة السادسة منها تنص على: سحب جميع القوات الأجنبية من روسيا وعدم التدخل في شؤونها الداخلية [71].

الحرب الأهلية (1918– 1922) وتدخل الدول الغربية

وكأي ثورة تحدث في أي بقعة في العالم، فلا بد من وجود فئة متضررة في صفوف الأمة، تكره الثورة وتعاديها، لأنها تكون قد خسرت مكاسبها التي كانت متاحة ومحققة في العهد السابق.

ومن فضول القول أن نقول أن الإقطاعيين والرأسماليين الروس الذين انتزعت منهم المصانع والبنوك وغير ذلك من وسائل الإنتاج، ومن كان يرتبط بهؤلاء أو بالنظام السابق من كبار موظفين وضباط، لن يكونوا من المرحبين بالثورة، وقد وجدوا من الدول العظمى كل الدعم والمساندة لقتل الثورة في مهدها [72].

وتشكل من هؤلاء المعارضين جيش دعي بالحرس الأبيض، قاده رئيس الوزراء السابق كيرنسكي، وحالفه الجنرال كراسنوف، وزحفا بعدة وحدات عسكرية على بتروغراد، ولكنهم هزموا على مشارف المدينة في 12 تشرين ثان 1918[73].

ولكن كان هناك منظمات اخرى لها جيوشها أيضاً، وقد أخذت تمارس التآمر والتخريب والإرهاب، وقد تجمعت في شمال القفقاس، ووجدت لها قادة من الجنرالات مثل الكسييف وكورنيلوف ودينيكين، ولا ننس أن الرأسماليين الغربيين قد فقدوا في روسيا امتيازاتهم ومصانعهم واستثماراتهم، لذا كان متوقعاً معاداتهم للثورة، وتحالفهم

مع كل من يريد الانقضاض عليها، حتى أن الزعيم البريطاني تشرشل اعترف أنه يهدف إلى "خنق البلشفية في المهد"[74].

وفي كانون ثان 1917، أنزلت بريطانيا واليابان وأميركا قوات لها في الشمال السوفييتي (مورمانسك وإرخانجلسك)، وفي الشرق الأقصى (فلاديفوستوك)، وفي أيار 1918 بدأ الفيلق التشيكي تمرداً في الفولغا وسيبيريا، واستولى 60 ألفاً منه – بدعم من أميركا – على عدد من مدنهما، وأطاحوا بالسلطة السوفييتية في تلك المناطق، والتي فيها كانت تحتلها القوات الأجنبية التي كانت تعتقل وتسجن وتعدم الشيوعيين والنقابيين السوفييت، ومن ذلك ما حدث في العاصمة الأذربيجانية باكو أعدمت رمياً بالرصاص 26 من زعماء المدينة بلا محاكمة [75].

على إثر الثورة التشيكية، تم إنزال جيوش أميركية وبريطانية وفرنسية في شمال روسيا، أما اليابانيون فقد أنزلوا جيوشهم في سيبيريا الشرقية، وذلك دعماً من الجميع للثورة المضادة، ولكن بغايات أخرى مختلفة، فالبريطانيون والفرنسيون طامعون بإعادة روسيا إلى ساحة الحرب ضد المانيا، ولإخماد الثورة الشيوعية، واليابان تطمع في ضم مقاطعات روسية، والأميركيون يريدون كبح اليابانيين ومساعدة التشيك الثائرين[76].

وقد دامت الحرب الأهلية ثلاث سنوات تقريباً، وتعددت مواقعها على الأرض الروسية بين الشمال والوسط والجنوب، وبينما كان الجيش الأحمر يتألف من 300 ألف جندي في صيف عام 1918، قفز إلى المليون في بداية عام 1919، ثم إلى 5 ملايين جندي في نهاية عام 1920، كما استطاعت الثورة اجتذاب 35 ألفاً من ضباط الجيش القديم والويته[77]، وهذا يدل على أن القيادة البلشفية كانت ذات قدرة كبيرة على الإقناع والتنظيم، قبل أن تكون قادرة على التجنيد والحشد، والأرقام خير دليل.

وفي 30 آب 1918، وفي اجتماع حاشد بأحد المصانع، قام اليمينيون بإطلاق النار على لينين محاولين اغتياله، فأصابوه برصاصتين أحدثتا فيه جرحين بليغين[78].

وبالإضافة إلى محاولة اغتيال لينين، تمكن الثوار البيض من اغتيال عدد من قادة الحمر، وكان رد هؤلاء بحملة معلنة من الإرهاب خططت لاستئصال المعارضة في المقاطعات التي يسيطرعليها الحمر، وأصبح قتل الرهائن قاعدة متبعة عند الطرفين، وتعذيب المشتبه بهم، بلا محاكمة (79).

وتستمر مصانع الثورة في صنع السلاح، وكان العمل فيها جارياً ليل نهار، فأنتجت في النصف الثاني من عام 1918 " ألفي مدفع، وحوالي 2،5مليون قذيفة، وأكثر من 900 ألف بندقية، و8 آلاف رشاش، وأكثر من 500 مليون خرطوشة(رصاصة) وحوالي مليون قنبلة يدوية (80).

" وعلى الجانب الآخر استلمت الثورة المضادة من الامبرياليين الأجانب 400 ألف بندقية، و ألف رشاش، ومدافع وخراطيش وقذائف وملابس، وكثيراً من الأسلحة من الولايات المتحدة الأميركية.

وبلغت الشحنات الحربية التي أرسلها البريطانيون إلى سيبيريا 100 ألف طن على حد تعبير تشرشل نفسه، وأرسلت فرنسا1700 رشاش و400 مدفع و30 طائرة، وأرسلت اليابان 100 رشاش و70 ألف بندقية و120 ألف طقم من الملابس العسكرية (81).

وقد اتبعت الثورة البلشفية برنامجاً فاعلاً من الإجراءات لمقاومة الثورة المضادة، ومن ذلك:

1- استغلال تفتت الأعداء واختلاف وجهات نظرهم حول نظام الحكم الذي ينوون إقامته.

2- اعتماد الثورة على العمال والفلاحين.

3- اغتيال قادة المناهضين للثورة.

4- إخضاع الفلاحين للرقابة الصارمة واقتطاع جزء من إنتاجهم للقضاء على المجاعة.

5- تأميم المنشآت الصغيرة.

6- تأميم التجارة الداخلية والخارجية.

7- تأميم سكك الحديد والمصارف.

8- فرض العمل الإجباري على الذين تتراوح أعمارهم بين 16- 50 سنة (82).

ولا أظن أن باحثاً أو مؤرخاً يستطيع أن ينكر مدى صرامة برنامج الثورة وجديته، وقد عاد بالفائدة الكبرى على الثورة في هذه الظروف الصعبة.

واضطرت الدول الغربية للانسحاب من الأراضي الروسية خاصة بعد قيام الاحتجاجات والاضطرابات فيها، كما وجدت جيوش أميركا وبريطانيا وفرنسا أن هذا التدخل السافر يعرضها للخطر، وراحت المظاهرات الجماهيرية تهتف: "أوقفوا التدخل! ارفعوا أيديكم عن روسيا السوفييتية!"(83).

وبعد هزيمة ألمانيا، وانتهاء الحرب، انتهت أسباب تدخل القوى الأجنبية في روسيا، ففي الوقت ذاته بدا في ذلك الثورة العالمية التي توقعها الشيوعيون، ويقترح الرئيس الأميركي وودرو ولسون مؤتمر سلام بخصوص روسيا يعقد في جزيرة برنكيبو التركية، ولكن الثوار البيض، مدعومين من رئيس الوزراء الفرنسي كليمنصو والرئيس البريطاني تشرشل رفضوا الفكرة. بل وزادت الدولتان من جيوشهما التي عبرت إلى روسيا مزودة بالدعم اللوجستي اللازم دعما للثوار البيض، رغم انقسام الآراء في البلدين حول الثورة الروسية (84).

ويقدم لينين برنامجاً كفاحياً للنضال ضد القائد دينكين الذي كان يقود قوات المتمردين في الجنوب، وكان تشرشل يقول عن جيشه: "هذا جيشي"، وقد ورد في البرنامج:

"يجب على جميع الشيوعيين قبل كل شيء، وفوق كل شيء، وعلى جميع أصدقائهم، وعلى جميع العمال والفلاحين الشرفاء، وعلى جميع شغيلة الدوائر السوفييتية أن يشدوا عزائمهم كأنما يخضعون للنظام العسكري لكي يصبوا الحد الأقصى من عملهم وجهودهم وعنايتهم على المهمات المتعلقة بالحرب مباشرة..إن جمهورية السوفيتات يطوقها العدو، فعليها أن تؤلف معسكراً حربياً واحداً، لا بالقول بل بالفعل"(85).

وتوجهت قطارات الإمدادات إلى الجنوب، ووصل إلى الجبهة 15 ألف شيوعي، وعشرة آلاف من أعضاء اتحاد الشبيبة الشيوعي،وحققت القوات البلشفية النصر تلو النصر، فحررت الدونباس في كانون ثان 1920، ومدينة روستوف في القفقاس، ليتخلى دينكين عن القيادة ويفر من روسيا [86].

وفي خريف 1920، هاجمت القوات البولونية الاتحاد السوفييتي وتقدمت في عمق أوكرانيا، إلا أن الجيش السوفييتي استطاع ردها، وتم في تشرين أول 1920 توقيع معاهدة صلح مع البولنديين في ريغا ، استرد بها السوفييت معظم أوكرانيا، وفي تشرين ثان استردت القوات السوفييتية أوكرانيا بكاملها[87]، وبحكم هذه المعاهدة ظل أربعة ملايين روسي وأوكراني تحت الحكم البولندي، ولكنها بددت أحلام البيض بهزيمة الحكومة الشيوعية [88].

مجاعة 1921

وهذه صورة رائعة من صور التلاحم التي جسدها المجتمع السوفييتي...

ففي عام 1921 أصيبت أهم المناطق الخصبة في البلاد كمناطق الفولغا والقفقاس الشمالي وجنوب أوكرانيا بجفاف وجدب لم يسبق لهما مثيل، وشملت المجاعة أراض تزيد مساحتها على مساحة فرنسا، إذ امتدت إلى مسافة 800 كم من الشمال إلى الجنوب، و 350 كم من الغرب إلى الشرق، وكان يقطنها 25 مليون شخص، وأصبحت مكافحة المجاعة وآثارها قضية الشعب بأسره، وتبرع العمال بجزء من أجورهم ومخصصاتهم الغذائية إلى صندوق غوث الجياع، كما نظموا سبوت العمل المجاني لمساعدة هؤلاء، ونظم الفلاحون جمع الأغذية والبذور لزرع المناطق التي عانت من الجفاف، واستضافت العوائل العمالية والفلاحية أطفال الأماكن التي شملتها المجاعة، وفتحت للجياع مطاعم ومراكز تغذية كانت تمون وتخدم ليس فقط من قبل الدولة، ولكن أيضاً من قبل المنظمات الاجتماعية، وخاصة النقابات، وذهب آلاف العاملين في مجال الطب إلى المناطق المتضررة لأجل مكافحة الأوبئة [89].

ووزعت بطاقات تموينية لسد النقص في الطعام والذي كان سببه الحرب ونقص إنتاج الحبوب في أوكرانيا، وأجاز لينين طلبات المساعدة الروسية من الدول الأخرى، فتسلمت روسيا شحنات تموينية من بريطانيا وفرنسا وأميركا، ومن منظمات طوعية من دول أخرى [90].

وترأس نانسن رائد القطب الشمالي بعثة من هيئة الأمم قدمت 5 ملايين بود (البود = 16 كغم) من الأغذية للإتحاد السوفييتي، وتبرع الكاتب الفرنسي أناتول فرانس بجائزة نوبل الممنوحة له لمساعدة الجياع[91].

وبلغ عدد ضحايا الحرب والمجاعة ما بين عامي 1913 و 1921 حوالي 13 مليون نسمة، واختفت المواشي، وتهدمت المناجم، وانخفض الإنتاج الصناعي، وانخفضت قيمة العملة [92].

ولما أدت الأزمة الاقتصادية إلى انتفاضات في صفوف الفلاحين والعمال، وانقسامات في الحزب الشيوعي الحاكم، وتمرد في سلاح البحرية ضد النظام البلشفي وإجراءاته التعسفية، أدرك لينين أن نظريات أستاذه كارل ماركس لا تصلح لكل زمان ومكان، لذا لجأ إلى التخفيف من الحرب ضد الرأسمالية والملكية، فسمح للفقراء ببيع جزء من حبوبهم للأسواق الحرة أوغير الحكومية، وفرض ضريبة القمح المنتظمة بدلاً من الطلبات الإجبارية التي كانت تفرضها الدولة في أي وقت تشاء، وسمح بإقامة مشاريع تجارية صغيرة تحقق الربح الخاص، ولكنه أبقى على الصناعات الرئيسية تحت رقابة مجالس العمال السوفييتية [93].

وتمثلت السياسة الاقتصادية السوفييتية الجديدة فيما يلي:

1- **إلغاء مصادرة المحصولات الزراعية.**

2- **تأسيس مزارع الدولة (السوفخوزات) ومنح حق الفلاحين حق المشاركة فيها أو عدمه.**

3- **السماح للقطاع الخاص بتأسيس المشاريع الصناعية الصغيرة والمتوسطة.**

4- منح الامتيازات للرأسماليين الأجانب لإقامة مشاريع على الأراضي السوفييتية، فأنشأ فورد مصنعاً للسيارات عليها.

5- تشجيع القطاع الاشتراكي شاملاً النشاطات الرئيسية كالنقل والمصارف والتجارة الخارجية(94).

ويعلق كاتبان سوفييتيان على نظام المصادرة، مشجعين على الملكية الخاصة، والاستثمار الخاص الذي يؤدي إلى الإبداع (ولكن بدون أن يصرحا بذلك تماماً) يعلقان بالقول:

"... وكان جوهر القرار ينحصر في حصول الفلاح، بعد تسديده لضريبة عينية غذائية محددة مسبقاً، على حق التصرف بحرية بمنتوج استثماراته، سواء كان ذلك ببيعه أو استبداله او الخ، في حين كان يتحتم عليه في السابق بموجب نظام [illegible] أن يسلم للدولة الجزء الأعظم من منتوج استثماراته، على هذا النحو تولد باعث لتوسع إنتاج المنتجات الزراعية، وتمتين العلاقات الاقتصادية بين المدينة والقرية. مع العلم أن الضريبة العينية كانت أقل بكثير من نظام المصادرة"(95).

معاهدات مع دول أوروبا

"ولما يئس الإنجليز من التغلب على الشيوعيين، تم إعداد لويد جورج، رئيس الوزراء البريطاني (1916–1920) لعقد الصلح معهم، وقد انسجم هذا التوجه مع رغبة لينين في تحسين العلاقات مع الغرب لجذب التجارة ورأس المال الأجنبيين، فكانت النتيجة المعاهدة الأنجلو - روسية في آذار 1921، وقد كانت هذه المعاهدة مهمة لروسيا، ليس تجارياً فحسب، ولكن لأن بريطانيا كانت من أوائل الدول التي اعترفت بوجود الحكومة البلشفية، وهذا قاد إلى معاهدات مماثلة مع دول أخرى، ولاعتراف سياسي تام"(96).

كما بدأت العلاقات مع بريطانيا بالتحسن عام 1924 عندما اعترف مكدونالد وحكومته العمالية اعترافاً دبلوماسياً تاماً بالحكومة الشيوعية، فكان هناك معاهدة تجارية

أخرى، ولما تولى المحافظون الحكم(1924–1929) ساءت العلاقات مع روسيا، وتم العثور على أدلة تثبت تشجيع الروس الهندَ للمطالبة بالاستقلال، وكان رد الحكومة عنيفاً، فقصف الشرطة مبنى إدارة الحزب الشيوعي البريطاني في لندن عام 1925، ومركز تنظيم التجارة السوفييتية عام 1927، وطردت الحكومة البعثة السوفييتية، وقطعت العلاقات الدبلوماسية مع الحكومة الروسية التي ردت باعتقال بعض البريطانيين المقيمين في موسكو [97].

أما علاقات الروس مع الألمان فقد كانت أكثر ودية مما كانت عليه مع البريطانيين..

فتم توقيع معاهدة تجارية بين الدولتين في أيار 1921، تبعها توقيع معاهدة رابالو عام 1922، واستؤنفت العلاقات الدبلوماسية بينهما، وتعاونتا على أن تظل بولندة ضعيفة لأن في ذلك منفعة مشتركة لهما، كما سمح للألمان ببناء مصانع للطائرات والذخيرة على الأراضي الروسية مما فيه التفاف على معاهدة فرساي [98].

وتواصل شعوب آسيا الوسطى نضالها، وبعد كفاح مرير ضد دويلة حيوة وإمارة بخارى، وحكمهما التعسفي الذي استعبد أهالي البلاد فترة طويلة، وكان على وشك شن الحرب ضد الدولة السوفييتية وبمساعدة الجيش الأحمر تم في أواخر عام 1920 تحرير الأوزبك والطاجيك والتركمان من حكم خان وأمير تلك الدولتين[99].

وفي نهاية عام 1922 توحدت كل من جورجيا وأرمينيا وأذربيجان في الاتحاد الفدرالي ما وراء القفقاس، وتزامن ذلك مع خروج آخر ياباني من فلاديفوستوك [100]، فدخلها الجيش الشعبي مساء 25 تشرين أول 1922 ليكتمل بذلك تحرير البلاد من القوات الأجنبية، ولتنضم الجمهوريات الجديدة للإتحاد السوفييتي [101].

لقد كلفت الحرب الأهلية، وتدخل الدول الأخرى فيها الإتحاد السوفييتي الكثير، فانخفض الانتاج الزراعي إلى النصف، والصناعي بنسبة 4–20٪، وبلغ حجم الأضرار التي لحقت بالاقتصاد الوطني 50 مليار روبل ذهبي، وبلغت الخسائر في الأرواح 8 ملايين شخص، وفقد الجيش الأحمر حوالي مليون شخص [102].

وإكمالاً لجهود أستاذه كارل ماركس الذي أسس الأممية الأولى عام 1864 كأول اتحاد عالمي ثوري للبروليتاريا، كان لينين قد أسس تنظيم الأممية الشيوعية (الكومنترن) الذي عُقد مؤتمره الأول في آذار 1919 في موسكو، بحضور مندوبين عن الأحزاب الشيوعية في 30 دولة، وقد عُقد مؤتمره السابع والأخيرفي أيار عام 1943، والذي اتفق فيه على حل هذا التنظيم وذلك لترك المجال واسعاً لكل حزب شيوعي لتركيز قيادته فيه بعيداً عن أية قيادة خارجية[103].

وفاة لينين

ونتيجة للإجهاد والعمل المتواصل، وبسبب مضاعفات جراحه، أصيب لينين عام 1922 بفالج أدى إلى شلله، وتوفي في مدينة جوركي في 21 كانون ثاني 1924 عن 54 عاماً، ثم نقل إلى موسكو حيث حنط جثمانه ودفن في الميدان الأحمر فيها[104].

وبما أن الأقطار العربية كانت تخضع لحكم الدول الاستعمارية خلال فترة حكم لينين القصيرة، ونظراً للظروف التي كانت تمر بها بلاد السوفييت، فإن المصادر لا تشير إلى أية علاقات بين السوفييت ومصر، أو بين السوفييت وباقي أقطارالعرب في تلك الآونة، فكلا الطرفين كان يحاول جاهداً الخروج من ظروفه الصعبة قبل الشروع في أية علاقات مع دول غير مجاورة، وتمر بظروف مماثلة.

وما نجده هو فقط تلك الإشارة من لينين في نداء منه بعنوان:

"إلى كل مسلمي روسيا والشرق" بتاريخ 20 كانون أول 1917، وجاء فيه:

"أن العرب، يحق لهم، شأنهم شأن سائر المسلمين أن يكونوا أصحاباً لبلادهم، ليبنوا حياتهم حسب مشيئتهم"[105]، وكأن لينين هنا يريد حث العرب على الثورة، والاستمرار في النضال ضد الاستعمار الذي أنهك روسيا بتدخلاته، وتحالفاته مع أعدائها.

كما ورد من بين خطابات لينين أيضاً قوله عن الثورات العربية في عهده، بلهجة يتضح فيها التشجيع والتحريض ضد الاستعمار الغربي :

"إنكم أيها العرب تحاربون ما يسمى بالمدنية الغربية، بجيوشها المتقدمة، تحاربونها بالعصي والخناجر، ومع ذلك تثقون أنه سيأتي اليوم الذي ستحاربون فيه من أجل تحرير بلادكم بأرقى الأسلحة، لأنكم أبناء مدنية قديمة عريقة، إنهم يهتكون أعراضكم، ويقتلون أطفالكم وشيوخكم، لكنكم غداً سوف تلقنونهم درساً لن ينسى" [106].

ويخبرنا الكاتب المصري الشيوعي شهدي عطية متحدثاً عن دولة السوفييت الجديدة، أن هذه الدولة في عهد لينين قد عرضت على سعد زغلول إمداد بلاده بالسلاح لمقاومة الإنجليز، ولكن سعد خشي من ذلك ورفض الاقتراح [107].

السوفييت والعرب

في فترة العشرينيات لا نكاد نجد ذكراً لمصر – أو للعرب– في الاهتمامات السوفييتية بالشرق الأوسط، فالشرق عندهم يعني إيران وتركيا. لأن الشعوب العربية كانت قد تحررت لتوها من الحكم العثماني، لتصبح لقمة سائغة في فم الاستعمار الغربي، فقد تركها العثمانيون بلا حول ولا قوة، لذا لا يرى السوفييت داعياً لمزيد من الاكتراث بهذه الدول الضعيفة المستعمرة، وكانوا يرون أن المستعمرين الانجليز والفرنسيين قد خانوا العرب بعدم وفائهم بما تعهدوا به خلال الحرب العالمية الأولى [108].

وليس غريباً أن تكون مصر – ولا تزال– أهم دولة عربية في نظر السوفييت، لذا فإن ما كان يخص العرب في اهتمامهم كان منصرفاً إلى مصر، وقد أعربوا عن شكهم في تغيير الأوضاع السياسية فيها بعد إعلانها مملكة مستقلة، ووصفوها بأنها "مستعمرة غير رسمية"، كما لم يقتنعوا كثيراً بحزب الوفد الذي ظهر عام 1919، وإن كان لديهم تفاؤل بأن حركة ثورية قد ظهرت في مصر وبإمكانها تحقيق غايات ومطالب أخرى [109].

بينما كان "تروبانوفسكي" منظم "جمعية تحرير الشرق" ينادي بوجوب تأميم الأراضي في مصر، ولما كان الفلاحون المصريون غير منظمين، ولما كانوا ضعافاً، وعلى العموم غير قادرين على النضال الثوري، فإن على البروليتاريا المصرية الحضرية (ساكنة المدن) أن تقوم بتلك المهمة"، وعن قناة السويس، والتي كانت تشكل القضية الأساسية في السياسة الخارجية المصرية، رأى تروبانوفسكي "أن الحل الأمثل الأكثر فائدة للعالم، والأجدى نفعاً للبروليتاريا المصرية هو تدويل القناة، ولكن المطالبة بتأميم القناة هي في الظرو ف الراهنة الشعار الصحيح "[110].

وهكذا يكون هذا المفكر قد قرأ المستقبل بصورة دقيقة قبل تأميم القناة بعشرات السنين.

ولمزيد من الدقة عن موقف لينين من العرب والشرق عامة، ما قاله في عام 1920:

"كانت سياستنا تجاه بلاد أوروبا الغربية متميزة بالكثير من الحذر، ولكن على سياستنا في الشرق أن تكون أكثر حيطة وحذراً وأناة، إذ أننا نتعامل مع بلاد أكثر تخلفاً، وتقع تحت النفوذ الضاغط للتعصب الديني، وتحت تأثير عدم الثقة بالشعب الروسي، إذ ظلت هذه البلاد حقباً وأجيالاً طويلة واقعة تحت نير الحكم القيصري وسياساته الرأسمالية والامبريالية "[111].

ولكن الدولة الاشتراكية الناشئة لا تناصر الامبريالية في استعمارها لدول الشرق، بل تحث شعوبها على الثورة، فيصرح لينين عام 1917 قائلاً:

"عليكم أنتم أن تكونوا سادة بلادكم، وعليكم أنتم أن تقرروا الحياة التي تريدونها، فهذا حقكم، لأن مصيركم في أيديكم"[112].

كما كتب إلى أمان الله خان أمير أفغانستان يقول:

"إن روسيا تمد يد الصداقة والأخوة إلى جميع شعوب الشرق"، وعطفاً على ذلك، قامت الحكومة السوفييتية بإلغاء جميع المعاهدات والاتفاقات اللامتكافئة التي كانت الحكومة القيصرية قد فرضتها على مختلف البلاد "[113]، وبطبيعة الحال، لم يكن للعرب

جميعاً علاقة بهذا القرار، كون الدول العربية كانت ما تزال تحت الاستعمار، ولكن نوايا السوفييت في مد يد العون والصداقة للدول العربية والاسلامية أثبتت الأيام صدقها تماماً.

الحزب الشيوعي السوفيتي يقود السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي

أكد لينين على أهمية التوجيه الحزبي في السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي، وأن يكون هذا التوجيه مستمراً محدداً، كون السياسة الخارجية جزء لا يتجزأ من مبادىء الحزب وخططه، فكتب يقول:

"أولا يقوم المكتب السياسي ببحث الكثير من القضايا من وجهة نظر الحزب، مهما كانت ثانوية او مهمة، حول "الخطوات" التي يتحتم علينا القيام بها رداً على "تحركات" الدول الأجنبية، لنحبط عليها مكرها، إذا لم نستخدم تعبيراً أكثر صرامة؟ أولا يكون هذا الاندماج المرن للتنظيم السوفييتي مع التنظيم الحزبي مصدراً ضخماً لقوة سياستنا؟"[114] (24)

لذا، كانت القيادة الجماعية في نظر لينين هي المبدأ الأساسي للحياة الحزبية، وهي بالتالي المنظم الأول للعلاقات الخارجية، واتخاذ القرارات تجاه القضايا الدولية، وبذلك فالحزب هو الذي يقدم خلاصة التجارب التاريخية للحركات الشيوعية والعمالية في العالم بجانب التجربة التاريخية السوفييتية[115].

ولنتأمل تطبيق ذلك فيما يقوله لينين عن مساعدة البلاد لبعضها:

"لا شك في أن على الطبقة البروليتارية في البلاد المتقدمة أن تقدم كل عون إلى جماهير العمال في البلاد المتخلفة، وأن في وسع البلاد المتخلفة أن تخلص من مرحلة تنميتها الراهنة عندما تمد الطبقة البروليتارية المنتصرة في الجمهوريات السوفياتية إليها يد العون، وتكون قادرة على دعمها"[116].

فالمعجم الاشتراكي يحكم ألفاظ لينين، والمبادىء الشيوعية تتضح فيما يطرح من اقتراحات وتوصيات..

وفي اجتماعات اللجنة المركزية للحزب في أكتوبر 1964، أكد المجتمعون "على أن الحزب والحكومة لن يسمحا بالذاتية في السياسات، وأنهما يعتزمان السير بثبات في الطريق الذي حدده لينين"[117].

لذا لا غرابة أن نجد أن آراء الأحزاب الشيوعية ومواقفها في دول العالم تكون مرجعيتها الأولى مواقف الشيوعية السوفييتية من أية قضية محلية أو دولية.

الفصل الثالث

عهد ستالين (1924– 1953)

وطوال سنوات ثلاث بعد رحيل لينين، يشتعل صراع مرير بين خليفتيه، ستالين وتروتسكي..

وأهم مسائل الخلاف كانت اثنتين، أولاهما أن ستالين كان يرى أن بناء الاشتراكية وتطويرها يجب أن يكون أولاً في الاتحاد السوفييتي قبل محاولة إنجاز ثورة عالمية، بينما كان يرى تروتسكي أن الثورة الشيوعية يجب أن تعم دول العالم في أقصر وقت.

أما المسألة الثانية فكانت خلافاً في السياسة التي يجب تبنيها تجاه الفقراء، فقد كانت رغبة تروتسكي أن التحرك نحو المزارع الجماعية يجب أن يكون أكثر سرعة مما رغب فيه ستالين[1].

وبمساعدة رفيقيه كامينيف وزينوفيف انفرد ستالين بالسلطة، وأجرى تعديلاً على الدستور، وجرد تروتسكي من مسئولياته عام 1925[2]، لتكون الغلبة في النهاية له، وأقر مؤتمر الحزب الشيوعي آراءه ومبادئه ، فتم نفي تروتسكي إلى تركستان، ثم إلى خارج البلاد، ليصل إلى المكسيك حيث اغتيل عام 1940 [3].

وفي عام 1936، وبعد اتهامهما بالتآمر عليه، تخلص ستالين من كامينيف وزينوفيف بعد محاكمات دعيت بمحاكمات موسكو، وحكم عليهما بالإعدام [4]، كما طالت "المحاكمات الكبرى" عدداً كبيراً من البلاشفة ورفاق لينين، كالذين عارضوا برنامج ستالين الاقتصادي مثل بوخارين، وعدداً غير قليل من الفنانين والعلماء والأدباء وقادة الجيش[5].

وفي عام 1948، كان ستالين يرى أن مدة عشرين سنة أخرى من التجربة الشيوعية الدائبة المستمرة في الاتحاد السوفيتي كافية لكي تلحقه بمستوى الولايات المتحدة الصناعي، وأن سحر الشيوعية سيؤدي إلى التحاق أوروبا وآسيا بالحركة الشيوعية[6].

ولكن – كما يعلم القارىء– فالذي حصل هو العكس تماماً، فقد ماتت الشيوعية في بلادها بعد سبعين عاماً من قيامها، وهذا ما توقعه تماماً الكاتب العربي الكبير عباس محمود العقاد.

وإذا كنا نقدر قيمة التخطيط في إنجازات السوفييت الاقتصادية، فإننا لا ننسى أن أعداداً كبيرة من السجناء والمعتقلين تقدر في أقل التقادير بأربعة ملايين، وفي أقصاها بعشرين مليون، كانت تعمل قسراً في مصانع ستالين، وفي هذه السياسة عودة صريحة إلى الاستعباد [7].

ونستطيع تقسيم فترة حكم ستالين إلى مرحلتين، وهما:

المرحلة الأولى (1924– 1942)

واتسمت هذه المرحلة بالتخطيط الاقتصادي، وفيها تم وضع ثلاث خطط خمسية، الأولى 1928–1932، والثانية 1933–1937، والثالثة 1938–1942، وتمت فيها الاستعانة بالخبراء الأجانب،، وطور التعليم، وتضاعف إنتاج الصناعات الثقيلة (الفولاذ والحديد والفحم..الخ) ليصبح الإنتاج السوفييتي 12٪ من الإنتاج العالمي، وطورت الصناعات التحويلية، والمنتجات الاستهلاكية، وتقدم الانتاج العسكري بنسبة 300٪، وزيدت طرق المواصلات، ووسعت شبكة السكك الحديدية، وأصبحت سيبيريا مركز الثقل الصناعي ، وأصبح الاتحاد السوفييتي الدولة الصناعية الثالثة في العالم، واختفت الأمية، وصار لدى السوفييت 10 ملايين طفل يتابعون تحصيلهم العلمي [8].

ومنذ عام 1940 زاد الانتاج الصناعي 8 مرات عما كان عليه عام 1918، كما زاد إنتاج الصناعات الثقيلة 12 مرة عما كان عام 1913، وزاد إنتاج الكهرباء 24 مرة، وتم إنشاء طرق مائية داخلية كقناة البحر الأبيض – خليج البلطيق عام 1932، وقناة موسكو

التي ربطت بين نهر موسكو ونهر الفولغا عام 1937، كما تم إنشاء النقل الجوي، والنقل بالسيارات، وأنشيء أسطول بحري، وموانيء عديدة مجهزة، وتم بناء 400 مدينة(9).

أما التطور الذي طرأ على أهم المعادن عند السوفييت فقد كان هائلاً، فقد تضاعف إنتاج الفحم عام 1938 خمس مرات عما كان عليه عام 1913، وتضاعف إنتاج الفولاذ ست مرات في الفترة ذاتها وازدهرت مدينتا مغنوتوغرسك في الأورال، وستالينغراد كمركزي صناعة كبيرين، وتم بناء سد دنيبر لتزويد بلدات أوكرانيا وقراها بالكهرباء (10).

وفي المجال الزراعي، ازدهرت التعاونيات الزراعية، وارتفع إنتاج السكر والقطن والحبوب، وارتفعت قيمة الإنتاج الزراعي 41٪ منذ عام 1913(11).

والأغرب من ذلك أن نظام ستالين وفي أوج اضطهاداته ضد الكوادر الحزبية والسوفييتية عامي 1937–1939 قد استدعى كل أعضاء بعثته الدبلوماسية في جدة، وتم قطع العلاقات الدبلوماسية مع السعودية، ولم يكن هناك من يستطيع تغيير هذا الموقف في ظل الحكم الستاليني (12).

ولكن العلاقات الاقتصادية والتجارية في العشرينيات والثلاثينيات استمرت مع إيران وتركيا، بل وتم بناء مصانع للنسيج في تركيا (13)، وهذا يؤكد على أن الأهمية الأولى كانت لهاتين الدولتين لاعتبارات ذكرناها آنفاً.

المرحلة الثانية (1941– 1953)

وخلالها خاض السوفييت أشرس حرب في التاريخ، ألا وهي صدهم العدوان الألماني النازي على بلادهم خلال الحرب العالمية الثانية، وهو ما سنأتي على شرحه.

ورغم أن الإتحاد السوفييتي قد أنهى الحرب منتصراً، فقد كانت خسائره المادية والبشرية كبيرة من جراء هذه الحرب، فقد خسر حوالي 10٪ من سكانه، و50٪ من ممتلكاته العقارية، و70٪ من منشآته الصناعية، و60٪ من معدات النقل وتجهيزات الزراعة، وأعداداً كبيرة من مواشيه (14).

ولكن لا يستكين للمصائب والكوارث إلا الضعفاء والجبناء، فما ذكرته من خسائر كان دافعاً للسوفييت للعمل والبناء، وتكثيف الجهود وتضافرها، فما نقرأه من منجزات بعد الحرب يكاد يشعر القارىء أن البلاد لم تتعرض لحرب عالمية ضروس..

ومن منجزات هذه المرحلة :

1- تمت تصفية الآثار المدمرة الناجمة عن الحرب.

2- تحقق نهوض جديد للإقتصاد الوطني، فأمكن الوصول إلى مستوى عام 1940.

3- عام 1950زاد الإنتاج الصناعي 73 ٪ عما كان عليه عام 1940.

4- أصبح الإتحاد السوفييتي ينتج الآن في خمسة أيام ما كان تنتجه روسيا في عام في العهد القيصري.

5- زاد إنتاج وسائل الإنتاج 91٪، وكان المتوقع في الخطة 80٪

6- عام 1954 أنتج في الشرق السوفييتي أكثر من 60٪ من البترول السوفييتي، و50٪ من الفحم الحجري، وأكثر من 50٪ من الفولاذ، وأكثر من 40٪ من الكهرباء، وتضاعف الإنتاج الصناعي في هذه المناطق عام 1954 أربع مرات.

7- عام 1950زادت إنتاجية العمل بنسبة 50٪، وزادت إنتاجية العمل في البناء بمقدار 36٪، كما زادت إنتاجية الصناعة 44٪، وذلك عما كانت عليه عام 1940، ونتيجة لتراكمات إنجازات هذه المرحلة، أنتج الإتحاد السوفييتي 858 مليار كيلو وات من الكهرباء عام 1972، وهذا ما يعادل ألف مرة ما كان ينتجه عام 1922 (15).

8- صنع السوفييت أول قنبلة ذرية عام 1949(16).

ديكتاتورية ستالين

ويلخص بعض الكتاب المرحلة الستالينية التي أعقبت الحرب قائلاً:

"فبعد الحرب، مارس ستالين ديكتاتورية مطلقة شاملة: فاضطهد الأقليات القومية والدينية، وألزم الشعوب السوفييتية الالتفاف حول الشعب الروسي، فقضى بذلك على جميع التطلعات القومية، وبدأت عملية إعادة المثقفين الذين أصابتهم عدوى الأفكار الغربية إلى "صوابهم"، وتعيّن على الأدباء والمفكرين أن يصبحوا "مهندسي النفوس"، ومن لا يلتزم منهم توجيهات النظام يخضع لعمليات "التطهير"، وحلت الستالينية محل الماركسية – اللينينية" (17).

فمن تفاته إلى بعض ما سبق لما دعاه المؤرخون ب"محاكمات موسكو" والتي تمثل بعض أساليب الاضطهاد والتعسف التي مارسها ستالين ضد خصومه، أو من كان يراهم أعداء له وللنظام الحاكم، نستطيع استخلاص الكثير عن ديكتاتورية ستالين وطغيانه.

وكانت المحاكمة الأولى في آب 1936، وكان ضحيتها زينوفييف رئيس المؤتمر الشيوعي الثالث، وكامينييف، وكان كلاهما مع ستالين نواباً لرئيس الدولة، ومن التهم الموجهة إليهما الاتصال بتروتسكي وحكومة ألمانيا من أجل عقد مفاوضات مع الألمان للتخلي عن أوكرانيا، وقد أعدم الإثنان.

وجرت المحاكمة الثانية في شباط 1937، وكان من ضمن قائمة المتهمين ريكوف رئيس الوزراء، خليفة لينين، وبوخارين المشرع الإقتصادي للحزب، وقد حكم عليهما بالإعدام.

أما المحاكمة الثالثة – والتي جرت سراً – فكانت في أيار 1937، وكان ضحاياها من العسكريين، ومنهم المارشال توخاشفسكي وسبعة آخرون من الجنرالات، والتهمة التآمرعلى حياة ستالين، وضد سلامة الدولة، وقد أعدموا جميعاً رمياً بالرصاص، كما

زُعم لدى تنفيذ كل حكم من المحاكمات الثلاث أن المتهمين قد اعترفوا بالتهم الموجهة إليهم![18].

ولحق بهؤلاء القادة مئات الألوف من المدنيين والعسكريين الذين قدموا لمحاكمات صورية، وتم الحكم عليهم بالسجن أو الاعدام أو النفي إلى سيبيريا، أو تعرضوا للاغتيال الخفي بلا محاكمات، هذا إضافة إلى من تم فصلهم من الخدمة العامة [19].

ولما تمكن الألمان من إبادة الجيش السوفييتي السابع والثلاثين، طالب ستالين بمحاكمة بعض القادة وإعدامهم، فرد خروتشوف:

"لقد خسرنا حتى الآن عدداً كافياً من الجنرالات، فهل تريدون خسارة البقية الباقية ممن تمكنوا من النجاة أيضاً" [20].

مساندة سوفييتية لمصر في الأمم المتحدة

وتلعب البرجوازية المصرية دوراً غير قليل في إقامة العلاقات أو إلغائها وهذا ما حدث بخصوص العلاقات المصرية السوفييتية.

فقد كانت البرجوازية المصرية تصدر القطن المصري إلى بريطانيا بالسعر الذي تفرضه بريطانيا، ولكن كبار الملاك العقاريين والتجار يطالبون بتصدير القطن للإتحاد السوفييتي مستغلين تحالف بريطانيا مع السوفييت في الحرب العالمية الثانية، وقد أدى هذا التعامل التجاري بين البلدين إلى إقامة تمثيل دبلوماسي على مستوى القائم بالأعمال عام 1943.

ولكن "عندما عرض النقراشي قضية مصر على مجلس الأمن عام 1947، أبدى الاتحاد السوفييتي عن طريق ممثله في ذلك الوقت أندريه جروميكو استعداد بلاده لأي نوع من المساندة والتنسيق إثناء عرض القضية المصرية، لكن الجانب المصري في ذلك الوقت رفض العرض السوفييتي، بل إن النقراشي باشا شن هجوماً على الاتحاد السوفييتي في خطابه في الأمم المتحدة – الذي طالب فيه باستقلال مصر – بدلاً من أن يركز هجومه على الاستعمار البريطاني الذي يحتل مصر" [21].

وهذا النص الذي أورده أكثر من مصدر يوضح لنا مدى تحكم الطبقة البرجوازية في نظام الحكم المصري في العهد الملكي، وسيطرتها على قراراته ومواقفه، فهي تفضل مصالحها التجارية على قضايا الأمة القومية والوطنية، وهذا ما ألغته تماماً ثورة يوليو المباركة.

الفصل الرابع
الاتحاد السوفييتي
في الحرب العالمية الثانية

يقول هتلر: "فن الحرب يتلخص
في مفاجأة العدو الأكبر بالعدد الأكبر،
والاستبسال في الهجوم عليه" (عباس محمود العقاد،
هتلر في الميزان ص261).

غزو الألمان الاتحاد السوفييتي

إن كل المبررات التي يقدمها المؤرخون لغزو ألمانيا – أو هتلر – الاتحاد السوفييتي لا تكاد تشكل شيئاً بجانب طغيان هتلر وعدوانيته، وساديته، وفساد أخلاقه، فلو لم يأمر هتلر بذلك الغزو، لتغير مجرى التاريخ، ولتمكنت ألمانيا من حماية نفسها أمام الطوفان الهجومي الذي تعرضت له من الجهات الأربع بعد هزيمتها على الجبهة السوفييتية، وخسارتها عدة ملايين من الجنود في قتال لا مبرر له سوى ما ذكرت، ولما كان هذا الدمار الذي حاق بالإتحاد السوفيتي، وتلك الخسائر الفادحة في الأرواح والمعدات التي لحقت بالطرفين خاصة في الطرف الألماني الذي كان بأمس الحاجة لهذه الملاين من الجنود والضباط لرد الهجوم الأوروبي عليه في عقر داره في ألمانيا.

ألم يقل هتلر في خطاب له:

"أعطوني حرية الانسان... أعطوني حقوق الإنسان.. أعطوني ضمان الرأي والروح..أعطوني تراث الماضي، والرجاء في المستقبل.. أعطوني حقوق الفرد في الدولة ألغيها، وأعطوني الدول الصغيرة أدوسها، والدول الكبيرة أمزقها... وقواعد الطمأنينة في

الأرض كلها أزعزعها، وألقي الفزع والفوضى والمصير المجهول في مكانها..أعطوني كل ما تعزّون، ولا تسألوني ماذا تأخذون، لأنني آخذ ولا أعطي: آخذ الحرية التي عندكم، ولا أعطي القوة التي عندي، أو آخذ رجاءكم في الحرية ولا أعطي رجاءكم في القوة، إذ هي لي وحدي لا أعطيها أحداً حتى بين الألمان خلاصة بني الإنسان.. فكيف يعطاها غيرهم من المخلوقين للطاعة والهوان"[1].

ترى ماذا بقي عند هتلر ولم يعلنه عن أمراضه ونواياه بعد هذا الحديث القصير المعبر؟.

ويبرر بعض المؤرخين أمر هتلر بذلك الهجوم على الاتحاد السوفييتي ب:

1- خوف الألمان من غزو سوفييتي محتمل.

2- الأمل في أن تهاجم [illegible] الاتحاد السوفييتي من الشرق.

3- كره هتلر للنظام الشيوعي[2].

4- طمعه في الحصول على قمح أوكرانيا، وبترول القوقاز، والموارد الصناعية الغنية في واديي نهري الدونت والفولجا[3]

ولعل السبب الرابع هو الاكثر قبولاً عند كل من عرف هتلر.

لقد تم توزيع منشور هتلري لإعلان الحرب على السوفييت جاء فيه:

"لقد قررت اليوم أن أضع مصير الشعب الألماني، وحكومة الرايخ، ومصير أوروبا، في أيدي جنودنا"[4].

وقد أصاب هتلر كبد الحقيقة..

فقد قرر ذلك الهجوم على السوفييت مصير الرايخ، ومصير ألمانيا، فكان الدمار الشامل، أما مصير أوروبا فكان النجاة من براثن المانيا الهتلرية، بفضل الخسائر الفادحة، والهزيمة الساحقة التي تلقاها الألمان في حرب بلا دواع سوى جنون العظمة!

فهتلر – رغم أمراضه النفسية – مدرك خطورة ما هو مقبل على تنفيذه، وجسامة المهمة التي ألقى بها على أكتاف جنرالاته وجنوده، ولكنه لم يدرك ما يمكن حصوله من تأثير هائل على بلاده إذا ما فشل الهجوم، وأضحت ملايين الجنود والضباط فرائس الجوع والبرد، قبل أن تكون غايات المدافع والطائرات السوفييتية.

وكان هتلر قد وقع أمر هذا الهجوم في 18 كانون أول 1940، أي قبل الشروع فيه بستة أشهر، وقال في ذلك اليوم لمن حوله من الضباط والمسؤولين:

"كلما قضينا بصورة أسرع على روسيا، كلما كان ذلك أفضل، إن العملية ستكون ذات مغزى فقط إذا حطمنا الدولة بضربة واحدة"[5].

ولا يعبأ هتلر بمعاهدة التحالف التي كان قد وقعها مع الروس في آب 1939، فقد أراد تأمين حدوده الشرقية قبل الهجوم على بريطانيا[6]، ولو فعل العكس لكان أجدى له بكثير.

"أما ستالين، فقد مضى بصمت في خطته لرفع القدرة العسكرية الروسية، استعداداً للجولة الحتمية مع ألمانيا النازية، بدون أن يعتقد أن الحرب وشيكة الوقوع، وظل وفياً لالتزاماته التعاهدية مع هتلر، حتى أن القطارات الروسية ظلت تنقل القمح لألمانيا حتى يوم العدوان النازي على روسيا"[7].

حقاً.. لقد كانت كل أطراف الحرب أقل شراً، وأخف أذى من هتلر، حتى في النوايا!

بدأ الهجوم الألماني – والذي دعي بعملية بربا روسا – في فجر يوم 22 حزيران 1941، بهجوم الألمان على خطوط ثلاثة، وهي:

1- من الشمال باتجاه دول البلطيق وصولاً إلى لينينغراد بقيادة المشير فون ليب.
2- ومن الوسط على روسيا البيضاء باتجاه العاصمة موسكو وسمولنسك بقيادة المشير فون بوك.
3- ومن الجنوب خلال بولندة باتجاه أوكرانيا بقيادة المشير فون روندشتد.

وعد مؤرخو العصر الحديث الهجوم الألماني على الإتحاد السوفييتي أضخم هجوم في التاريخ، وكان تعداد الجيش الألماني 4 ملايين جندي في معظم الروايات، وهذا الرقم هو الأرجح، (وفي رواية سوفييتية 5،5 مليون) ومعهم 5 آلاف طائرة، و2800 دبابة، و 48 ألف مدفع هاون[8].

وانضم إلى ألمانيا في الهجوم فنلندة والجر ورومانيا وإيطاليا، في حين سارعت بريطانيا في 12 تموز1941 إلى توقيع معاهدة مع السوفييت في موسكو تنص على مساعدتهم في الحرب ضد الألمان.[9].

ففي الشمال تمكن الألمان من اجتياح دول البلطيق أستونيا ولاتفيا وليتوانيا، وبقيادة القائد فون ليب بلغوا ضواحي لينتغراد في تشرين أول، وحاصروا المدينة حصاراً شهيراً مدة 900 يوم أدخلها التاريخ من أوسع أبوابه، نظراً للصمود البطولي الأسطوري الذي صمده سكانها والجيش المدافع عنها [10]، وكان هتلر في 4 أيلول قد أمر بإبادة المدينة، فكتب يقول:

"في هذه الحرب المصيرية لا نملك أي مبرر للحفاظ حتى على قسم من سكانها [11]

وفي القطاع الأوسط، استولى الألمان على مدينة سمولنسك في 16 تموز، ويقول الروس أن الألمان قد فقدوا 100 ألف جندي في معركة سمولنسك [12]، مما اضطرهم للتوقف لمزيد من الاستعداد لغزو العاصمة موسكو، ولما ووجهوا بمقاومة عنيدة من الروس دفاعاً عنها اضطروا لتأجيل هجومهم حتى تشرين أول، وصاروا على بعد 60 كم من العاصمة، وحاصروها، وفي 16 تشرين ثان عادوا للهجوم مرة أخرى ليواجهوا بمقاومة شديدة من الروس، فتوقفوا على بعد 30 كم من ضواحيها [13].

وفي الجنوب، حقق الألمان نجاحاً ملحوظاً، فقد سقطت كييف عاصمة أوكراينا في 19 أيلول، تبعتها أوديسا في 16 تشرين أول، وفي 24 تشرين أول سقطت خاركوف، وبعد اختراقهم شبه جزيرة القرم عدا سيباستبول استولوا على مدينة روستوف في 22 تشرين

ثان، ولكن الروس استردوها بعد أسبوع، وبهذه النتائج استولى الألمان على حقول القمح في أوكرانيا، وعلى حقول الفحم في حوض الدونتز(14).

وفي آب 1942تقدمت قواتهم إلى ستالينغراد، حيث نشبت معارك طاحنة بين الطرفين، ودافع الروس عن مدينتهم شارعاً شارعاً، وبيتاً بيتاً، فتمكن الألمان من السيطرة على معظم أحياء المدينة، ولكن بعد خسارتهم مليون جندي، مما كان له أعظم التأثير على مسار الحرب فيما بعد(15).

وكان السوفييت قد قاموا بنقل ألوف المصانع إلى الأورال، ليواصلوا من هناك إمداد جبهتهم بالسلاح والعتاد، وفي عام 1942، كان هتلر لا يصدق ما أخبرته به مخابراته، من أن الروس يصنعون 600 – 700 دبابة شهرياً، فما كان رده إلا أن ضرب الطاولة بقبضته، وأعلن أن هذا مستحيل (16)، ولم يكن هذا مستحيلاً إلا في نظره هو.

كما نقل الروس معظم الوزارات والسفارات شرقاً إلى مدينة كويبيشيف. واستعانوا بمليون ونصف المليون من عربات القطار لنقل 1523 مصنعاً إلى الشرق، وهناك قاموا بصنع 22 ألف طائرة، و25 ألف دبابة، وهي التي استعان بها الروس للقيام بالهجوم المعاكس (17).

وكانت عمليات الإجلاء تجري تحت غارات الطائرات الألمانية التي قامت ب 6 آلاف غارة على الطرق، وقذفت 46 ألف قنبلة على السكك الحديدية والمحطات والجسور والقطارات(18)، ولكن العزم والإصرار السوفييتين كانا أقوى بكثير من جبروت الطغاة.

وإضافة لبناء مصانع كبيرة وجديدة في سيبيريا والأورال، كان لعملية النقل هذه نتائج باهرة، منها:

1- ارتفع كثيراً إستخراج الفحم والنفط والخامات الأخرى،

2- ازداد إنتاج الحديد والصلب والطاقة الكهربائية.

3- ارتفع إنتاج الصناعة الحربية.

4- تم تجهيز الجبهة بما يلزمها من معدات الحرب، وكانت الأرقام مذهلة حقاً، فحسب الرواية السوفييتية حصل الجيش السوفييتي ما بين عامي 1943-1945 على 30 ألف دبابة، 40 ألف طائرة، 120 ألف مدفع، وحوالي 500 ألف رشاش، و5 ملايين بندقية.

5- الأرقام السابقة جعلت الجيش السوفييتي يتفوق على الجيش الألماني الغازي [19].

وقد علق الرئيس السوفييتي بريجينيف لاحقاً على عملية النقل الضخمة قائلاً:

"..ومن حيث الواقع، فإن بلداً صناعياً كاملاً نقل إلى آلاف الكيلومترات، وهناك، في المناطق المأهولة، وفي كثير من الأحيان في العراء، كانت المكائن والآلات توضع قيد العمل على الفور بعد إنزالها من عربات السكك الحديدية"

وفي نهاية عام 1941 كانت هذه المصانع تنتج أكثر مما كانت تنتجه قبل الحرب [20].

وكان هتلر يحلم بأنه سيقيم يوم 7 تشرين أول عيد ثورة أكتوبر الاشتراكية، استعراضاً عسكرياً لقواته في الساحة الحمراء في موسكو، ولم يتحقق ذلك فحسب، بل إن القوات السوفييتية أخذت تحقق التقدم دفاعاً عن العاصمة، ففي نهاية شباط 1942 دحرالسوفييتُ الألمانَ إلى أبعد من 400 كم عن موسكو، وحرروا عدداً من مناطق مقاطعات لينينغراد وكالينين وسمولنسك وأوريول[21].

ويقول المارشال السوفييتي فاسيليفسكي عن معركة موسكو:

"كان لنتيجة المعركة العظيمة قرب العاصمة السوفييتية أهمية معنوية سياسية خارقة، فهتلر في سياسته العدوانية لم يعرف الفشل قبل ذلك، لقد كان يحتل البلدان واحداً تلو الآخر، وسيطر على أوروبا الغربية كلها تقريباً، وكان الجيش الألماني في أعين قسم كبير من البشرية يمثل الجيش الذي لا يقهر، ولكن ها هي القوات الألمانية التي "لا تقهر" تحطم لأول مرة، وتحطم بجد، لقد فقد الفاشيون قرب موسكو أكثر من 500 ألف شخص، و1300 دبابة، و2500 مدفع، وأكثر من 15 ألف سيارة، ومعدات أخرى كثيرة، لم يكن الجيش الفاشي قد عرف مثل هذا الخسائر بعد"[22].

وينبه هذا المارشال لنقطة مهمة لم يفطن لها هتلر لأنه لم يقرأ الجغرافيا كما أسلفنا، فيقول عن الأحوال على الجبهة في نهاية عام 1942:

"كان العدو ما يزال يتفوق علينا من حيث عدد الأفراد والمدفعية، إلا أننا كنا نتفوق عليه بعدد الدبابات، ونتساوى معه بعدد الطائرات، إلا أن ما كان أهم بكثير هو أن القيادة العامة العليا كانت تملك في مطلع كانون أول 1941 احتياطيات استراتيجية ضخمة، كان بوسع القيادة استخدامها لتدعيم الجيش العامل، في حين أن احتياطيات العدو الموجودة على الجبهة السوفييتية الألمانية كانت قد استنفذت بشكل أساسي"[23].

وفي 19 تشرين أول 1942يقود الجنرال زوكوف جيشاً نقل من قطاع موسكو، ليهاجم القوات الألمانية المحاصرة لستالينغراد، فطوقها من ثلاث جهات، وقطع المواصلات عنها، فاستسلمت هذه القوات في 31 كانون ثان 1943، وقد اقترنت هذه الهزيمة بهزيمة الألمان في شمال إفريقيا حين انتصر الجيش الإنجليزي بقيادة المشير مونتجمري في الموقعة الشهيرة "العلمين" على الجيش الألماني بقيادة المشير روميل[24].

وقد شكلت معركة ستالينغراد -- التي خسر فيها الألمان ربع قواتهم المقاتلة على الجبهة السوفييتية – انعطافاً كبيراً في مجرى الحرب على الجبهة السوفييتية، فقد قوضت قدرة الجيش الألماني على مواصلة الحرب بنفس القوة التي هاجم بها البلاد، كما اعترف هتلر في اجتماع عسكري في أول شباط 1943 بأن إمكانية إنهاء الحرب في الشرق عن طريق الهجوم لم يعد لها وجود[25].

ونظراً لتجنيد الألمان تلك الأعداد الكبيرة من عمال بلادهم في الحروب التي لا تنتهي،لا غرابة أن نعرف أنهم قد استعاضوا عنهم باستخدام عمال من مختلف الجنسيات من البلاد التي احتلوها، فتم ترحيل مليون رجل وامرأة من أوكرانيا، و300 الف عامل من تشيكوسلوفاكية، ومليون عامل من فرنسا، ومليون ونصف من بولندة إلى ألمانيا[26].

وفي مؤتمر ضم ممثلين عن حكومات الولايات المتحدة وانجلترا والاتحاد السوفييتي عقد في موسكو في 29 أيلول – الأول من تشرين أول 1941، اتفق على تقديم مساعدات

انجلو أميركية إلى الاتحاد السوفييتي، مقابل تقديم السوفييت لهما ما يلزمهما من الخامات الاستراتيجية [27].

ومع نهاية عام 1942، وبداية عام 1943، يبدأ الهجوم الألماني بالتراجع أمام المقاومة العنيدة للسوفييت، فبعد تحرير ستالينغراد، تحول هجومهم إلى ارتداد واضح، وتمكن السوفييت من تحرير القوقاز، وطردوا الألمان من حوض الدونتز، وتم تحرير مدينة خاركوف [28].

وتبدأ الكفة بالرجحان لصالح السوفييت، فتمكن المشير تيموشنكو من تحرير موسكو من تهديد الألمان لها في أواسط كانون ثان 1943، وفي أيلول استرد السوفييت سمولنسك، وكييف في 6 تشرين ثان، وما أن انتهى عام 1943 حتى كان السوفييت قد استردوا ثلثي ما احتله الألمان من بلادهم، وفي مطلع 1944، تم تحرير أوكرانيا بعد حصار عشر فرق ألمانية في كورسون أبيدت قتلاً وأسراً، وبسبب البرد الشديد يتوقف الطرفان عن القتال، ومع حلول الصيف يعود الروس للقتال، ويستردون شبه جزيرة القرم في أسبوع عدا مدينة سيباستبول التي حررت في أيار 1944[29].

ويلقي الفنلنديون السلاح، ويقرون بدفع 800 مليون دولار تعويضات للسوفييت، بينما تواصل القوات السوفييتية زحفها في روسيا البيضاء، فحاصرت في حزيران 1944 خمس فرق ألمانية أبيد معظمها، وأسر الباقي.

وقد كان عام 1944 وبالاً على الألمان، ففي المدة ما بين صيف وخريف ذلك العام كبدهم السوفييت 1.6 مليون قتيل، و6700 دبابة، و12 ألف طائرة، وقدرت خسائرهم في هذا العام بما يساوي 65٪ مما خسروه على الجبهة السوفييتية [30].

وفي 8 شباط 1945، هاجمت القوات البريطانية والكندية ألمانيا من الغرب، واستولت على كولون، بينما عبر الجيش الأميركي نهر الراين، وتم تطهير الشاطئ الغربي للراين من الألمان، لتأخذ المدن الألمانية في السقوط تباعاً في أيدي القوات الفرنسية والأميركية [31].

ويؤكد الحلفاء الدور الكبير الذي لعبته جيوش الاتحاد السوفييتي في النصر الكبير، وقد جاء ذلك قبل استسلام ألمانيا على لسان تشرشل في 23 شباط 1945، إذ قال:

"إن الجيش الأحمر يحتفل اليوم بذكرى تأسيسه السابعة والعشرين وقد حقق نصراً أثار إعجاباً لا حدود له لدى الحلفاء، وقرر مصير العسكرية الألمانية، وستعترف الأجيال المقبلة بواجبها أمام الجيش الأحمر بلا قيد أو شرط، مثلما نفعل اليوم نحن الذين عشنا لنكون شهوداً على هذه الانتصارات الرائعة"[32].

وفي 6 حزيران 1944 نزلت قوات بريطانية أميركية بقيادة ايزنهاور إلى أراضي فرنسا، وفي الخريف تم تحرير فرنسا ولوكسمبرج وبلجيكا، وفي صيف العام ذاته قام السوفييت بأكبر عملياتهم في الحرب، حين طوقوا 30 فرقة ألمانية في روسيا البيضاء وأبادوها جميعاً، وفي 12 كانون ثان 1945 انتقلت القوات السوفييتية إلى الهجوم على طول الجبهة السوفييتية الألمانية، فحررت النمسا الشرقية وبولندة وهنغاريا[33]، وشرعت في الهجوم على برلين في 16 نيسان 1945، واستبسل الألمان في الدفاع عن عاصمتهم ليصبح القتال في ضواحيها بعد خمسة أيام، وسقطت برلين في الثاني من أيار، وفي اليوم ذاته استسلمت القوات الألمانية في ايطاليا، وبعد يومين استسلمت الجيوش الألمانية المقاتلة في شمال غربي ألمانيا، وفي هولندة والدنمارك [34].

وفي الأول من أيار1945 يؤثر هتلر الانتحار على الاستسلام، فتجرع السم بين أنقاض الرايخ الذي كان يتوقع له أن يعمر ألف عام، وفي السابع من أيار وقع الجنرال يودل رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية وثيقة التسليم بدون شروط [35].

عودة إلى حصار لينينغراد

ولا نستطيع عبور الأحداث في الحرب العالمية الثانية متجاوزين عن لينينغراد، المدينة السوفييتية الباسلة التي حاصرها الألمان 872 يوماً، تعرضت خلالها لكل صنوف المعاناة التي عرفها – أو لم يعرفها – البشر من قبل!

ومن كتاب "حصار لينغراد" نقتطف بعض المعلومات..

فحتى أكتوبر 1941 – كما أذاع الروس– كانت الأقاليم التي احتلها الألمان تنتج 38٪ من إنتاج روسيا من القمح، و 84٪ من السكر، و63٪ من الفحم، و68٪ من الحديد، و68٪ من الألمنيوم، وكان يوجد بها 38٪ من الماشية، و60٪ من الخنازير[36].

أما لينغراد، فلم يكن في مخازنها ما يكفي من الدقيق والحبوب إلا مدة 35 يوماً، ومن البقول 30 يوماً، ومن اللحوم 35 يوماً، ومن الدهون والزيوت 45 يوماً، ومن السكر 60 يوماً[37].

وجرى تقنين توزيع الخبز واللحم والزيوت والدهن والسكر والبقول حسب بطاقات وزعت على سكان المدينة، ثم أعلن عن تخفيض الكميات الموزعة بسبب نقص الكميات المطلوبة وعدم وجود سبل لإدخال الإمدادات إلى المدينة. وكان هناك محاكمات تصل عقوباتها إلى الإعدام على من تثبت خيانتهم لأنظمة التقنين، كسارقي البطاقات، أو تجار السوق السوداء[38].

ففي تشرين ثان بلغت كمية الإعاشة اليومية 125 غراماً للموظف، و250 غراماً للعامل، وللجندي في الميدان 350 غراماً، وقد أدى هذا النقص إلى وفاة 52 ألفاً في كانون أول، وكانت تبلغ الوفيات أحياناً 4 آلاف في اليوم، هذا إلى جانب حرمان المدينة من الكهرباء والوقود تحت درجة من البرد بلغت 40 درجة تحت الصفر، ولكن المدينة ظلت تقاوم[39].

ولم تكن الغارات لتسمح للمدينة بالتقاط أنفاسها في أي جانب من جوانب الحياة، ففي يوم 8 أيلول – مثلاً – أحدثت الغارات أكثر من 150 حريقاً، فنشبت الحرائق في مخازن تحوي ثلاثة آلاف طن من السكرهو كل ما تملكه المدينة، وثلاثة آلاف طن من القمح، كما دمرت الطائرات المطارات التي كان من الممكن استعمال الطائرات الروسية لها لتزويد المدينة بالتموين، ورغم نجاح بعض السفن في الوصول بكميات من التموين، إلا ان سفناً أخرى تم تدميرها[40].

ويدل النظام الذي ساد المدينة على حضارة ورقي لا يستطيع الباحثون إنكارهما، وفي مثل هذه الظروف الصعبة جداً..

"وكان الأهالي يصطفون في صفوف طويلة في انتظار عربات الخبز، التي تحمله من الأفران التي تعاني من قلة الوقود اللازم لتسخين الأفران، ثم ينال كل فرد حصته الضئيلة ويمضي لشأنه، ولم يحدث هجوم أو تخاطف للخبز، بل كان يقف الكل في صمت مدخراً قوته لتناول حصته وأكلها في هدوء"[41].

"وقد أظهرت غارات الألمان على لينينغراد مدى كفاءة الدفاع الأهلي عن المدينة ضد الغارات، فقد قسمت المدينة إلى قطاعات، وألحق بكل قطاع فرقة للإنذار، وأخرى لمكافحة النيران، وثالثة للإنقاذ من المباني المدمرة، ورابعة لإعادة توطين وإسكان المدمرة مساكنهم"[42].

ويضيف المارشال السوفييتي فاسيليفسكي لما سبق:

"وخلال أسبوع واحد فقط من السنة الأولى للحرب – من 30 حزيران حتى 6 تموز– وصل عدد المتطوعين الشعبيين اللينينغراديين إلى أكثر من 96 ألف وطني، وقدمت لينينغراد إلى الجبهة في فترة وجيزة للغاية 9 فرق من المتطوعين، وعدة أفواج إبادة، وكتائب مدفعية ورشاشات.

لقد قام أكثر من نصف مليون لينينغرادي تحت القصف الجوي، في كثير من الأحيان، بتشييد المنشآت الدفاعية، كان هذا عملاً عظيماً بالفعل، تجلى في مئات الكيلومترات من الخنادق، والخنادق المضادة للدبابات، وحواجز الأسلاك الشائكة، والموانع من حطام الأخشاب، في آلاف الدشم الخرسانة، والاستحكامات المصنوعة من التراب والخشب"[43].

ورغم كل هذه الظروف "كان الأهالي يتوجهون لأعمالهم وليست لديهم القوة لمواصلة السير، أو الوصول، وسقط منهم آلاف في الطرق حيث لا يستطيع الانسان أن يحيا في درجة برودة وصلت إلى 30 تحت الصفرعلى غذاء مكون من أوقيتين من الخبز"[44].

وكان هناك مجموعات أخرى أغلب أعضائها من الفتيات كانت مهمتهم زيارة من هم أصعب حالة منهم، لرفع معنوياتهم، ومساعدتهم على الصمود، وبجانب هؤلاء، كان في كل حي جماعات أخرى يبلغ عدد كل منها 500–700 شاب رغم جوعهم وتعبهم كانوا يجدون من شبابهم طاقة تساعدهم على القيام بدورهم، وكان عليهم مساعدة السكان في التغلب على الصعوبات الشديدة التي لا يملك البعض حيالها شيئاً، يقومون بزيارة المنازل القذرة المتجمدة التي على جدرانها الصقيع، ثم يقومون بقطع الأخشاب، وإشعال المدافىء، ويحضرون جداول الماء من نهر النيفا، أو الغذاء من المخازن، ثم يغسلون الملابس وأرضيات الحجرات، ويتركون الساكن وقد علت وجهه ابتسامة الرضى والأمل، وكان هذا هو كل مكافأة لهم(45).

ولكن الأغرب مما سبق، أنه في يوم عيد الميلاد مات في المدينة 3700 فرد من الجنود، وهو أعلى رقم وصل إليه عدد الموتى في يوم واحد، كما صرف لكل فرد أوقيتان من الخبز، وقامت فرقة الأوبرا بالمدينة بتقديم مسرحية روزماري عصر ذلك اليوم. واستمر التمثيل حتى أعلنت صفارات الإنذار عن غارة جوية، فكان على النظارة بعدها التسلق إلى فوق سطح الأوبرا، وإطفاء القنابل التي سقطت فوقه، وعندما انتهوا من عملهم، وعادوا إلى المسرح، لم يكن لدى النظارة قوة للتصفيق إعراباً عن إعجابهم، واكتفوا بالصمت إعراباً عن تقديرهم للممثلين(46).

وكانت الفئران– التي أصابتها المجاعة مثل باقي السكان – قد تركت المخازن والمستودعات بعد أن خلت مما فيها من أغذية، وظهرت في الشوارع، ولكنها لم تستمر طويلاً، فقد أمسكوا بها وسلخوها وسلقوها، أو شووها على النار وأكلوها، وكذلك كان الأمر بالنسبة للكلاب والقطط والطيور، وكانت الجياد تسقط من الإعياء فوق بحيرة لادوغا، أو في شوارع المدينة، فيسارعون إلى ذبحها وتقطيعها والتهامها(47).

وكان الأهالي ينزعون أغلفة الكتب، ويقومون بجمع الغراء الذي يلصق الغلاف بباقي الكتاب، ويصنعون منه حساء، وشربوا زيت الشعر لما يحويه من دهون.

أما محتويات بطون القطط والكلاب والفئران، فكان يعمل منها نوع من الدهن يوضع على الخبز كأنه الزبدة، ويؤكل، وهذا في حالة وجود الخبز، أما أوراق الشجر فكانت تجمع ويصنع منها شوربة خضار، ونزعوا ورق الحائط ومزجوا الغراء الملصق به مع الدقيق وأكلوه، وكانت عظام الحيوانات – وأحياناً الإنسان – توضع على النار التي تغذى بالكتب والأوراق والخطابات لكي يمكن الحصول منها على شيء يملأ المعدة "[48].

"وكان هذا طعام أهل المدينة، بين خبز من السيليلوز، وحساء الغراء، ودهن الفئران، واللبن المصنوع من أعشاب البحر، ورغم أن هذه الأطعمة لم تكن تعطي تغذية تذكر إلا أنها كانت شيئاً من الشعور بالامتلاء المؤقت "[49].

"وإلى جانب هذا كله كان يوجد لحم البشر، من أولئك الذين ماتوا، فقد انتشر أكلة البشر محافظة على الحياة والبقاء والوجود "[50].

وكانت الجهود تبذل لاستعمال طريق بحيرة لادوغا لإحضار التموين بالقوارب، وعندما كانت تتجمد صارت السيارات تعبرها على الجليد تحت نيران طائرات العدو، ولكن ذلك لم يكن كافياً، "وأصبح الهزال والاستربوط ظاهرة عامة، واعتباراً من كانون أول ازدادت حوادث الموت جوعاً، وكان الموت قد أنشب براثنه في كل عائلة تقريباً، وتتحدث عشرات الآلاف من الرسائل والمذكرات وأقوال شهود العيان عن المشاهد الفظيعة، فأمام أنظار الأمهات كان الموت يختطف الأبناء والبنات، وكثيراً ما يظل الأطفال وحيدين قرب والديهم الموتى "[51].

ولا يغيب عن ذهن القارىء أن هذا كله كان يجري تحت قصف الطائرات، وهدير المدافع، التي كانت تحاول إجهاض أي إجراء يؤدي إلى صمود المدينة، وتمديد فترة بقائها على قيد الحياة..

فيوضح لنا المارشال فاسليفسكي استعمال بحيرة لادوغا وقت الانجماد، وقد دعوها "درب الحياة":

"إن درب الحياة لا سابقة له في تاريخ الحروب، وكان إنشاء هذا الطريق أحد أهم الإجراءات الرامية إلى التخفيف من وطأة الوضع في المدينة، ومد القوات والأسطول بكل ما هو ضروري لخوض الأعمال الحربية، كانت السيارات تسير نحو لينينغراد سيلاً لا ينقطع ليل نهار، تحت قصف الطيران والمدفعية في كثير من الأحيان، محملة بالمواد الغذائية والأدوية والوقود والمعدات والذخيرة، وتعود من هناك حاملة النساء والأطفال والشيوخ والجرحى والمرضى..

ويضيف:

"..وقد وضع الهتلريون على خريطة لينينغراد التي وقعت بأيدينا أرقاماً تدل على جميع المراكز الحيوية والثقافية في المدينة كأهداف للتدمير، لقد ألقي على المدينة خلال فترة الحصار حوالي 150 ألف قذيفة، وأكثر من 100 ألف قنبلة محرقة، وما يزيد عن 4.6 آلاف، قنبلة شديدة الانفجار، وقد دمر أو أصيب بأضرار بليغة الكثير من الأبنية ذات القيمة الأثرية الوطنية والعالمية [62].

لا يريد كاتب هذه السطور أن يصادر نضالات المناضلين، أو يقلل من كفاح الثائرين، ولكن هذه الصورة الرائعة التي رسمتها لينينغراد لم تعشها مدينة أو قطر من قبل، وبهذه الصورة القاسية المريرة، ولهذه المدة الطويلة، بدون أن تفكر في خيار آخر، كالتفاوض أو الاستسلام.

لقد كان بإمكان قادة المدينة البواسل أن يطرحوا حل إيفاد وفد إلى محاصريهم لتوقيع اتفاقية مّا تفرج كربهم، أو صلح يخفف عنهم، ولكنهم كانوا يعرفون عدوهم أكثر بكثير مما عرفه سواهم من ضحايا السلام، وعشاق الأوهام ، ويدركون تمام الإدراك أن الشعوب – مهما كانت ظروفها – إذا ما أرادت النضال والكفاح، والدفاع عن أوطانها، فإنها قادرة على هزيمة أقوى الطواغيت، وأعتى الجبابرة، فخسرت المدينة الباسلة 900 الف من سكانها جوعاً ومرضاً، ونضالاً وكفاحاً، وكسبت المعركة بالعلامة الكاملة، وانهزم الأعداء النازيون، وتبددت أحلامهم على صخور المدينة المناضلة الصامدة.

وكما قال روزفلت في تحيته للمدينة الباسلة :

"لقد ضربوا المثل عن الروح الإنسانية التي لا تقهر لسكان الاتحاد السوفييتي، ولكل أمم الأرض التي تقاوم الظلم والطغيان"[53].

تعمير عظيم بعد خراب هائل..

تقول رواية سوفييتية بأن الغزاة الألمان قد أبادوا أكثر من 6 ملايين من الشعب السوفييتي، ونقلوا 4 ملايين إلى ألمانيا للعمل في المصانع، وقد هلك منهم عدد كبير في معسكرات الاعتقال[54].

وقد خرب الألمان حوالي 32 ألف مؤسسة صناعية، و65 ألف كم من السكك الحديدية، وحوالي 100 ألف مزرعة تعاونية، و3 آلاف محطة مكائن وجرارات، وعدد كبير من مصانع الصلب والحديد والمحطات الكهربائية[55].

وبشكل أدق، خسر السوفييت حوالي 18 مليون قتيل بين عسكريين ومدنيين، و3 ملايين أسير، ودمر 32 ألف مشروع صناعي كانت تشغل 4 ملايين عامل، وأتلف 71 مليون هكتار من الأراضي الزراعية، وتعرضت للنهب والحرق 98 ألف كولخوز، وتقدر الخسائر ب 128 مليار دولار [56].

كما خربوا ونهبوا 1719 مدينة، ودمروا 70 ألف بلدة وقرية، وهدموا أكثر من 6 ملايين بناية، وحرموا 25 مليون شخص من المأوى، ومن المدن التي تعرضت للدمار والتخريب مدن كبيرة كانت مراكز صناعية وثقافية ضخمة مثل: ستالينغراد وسيفاستبول ولينينغراد وكييف ومنسك وأوديسا وسمولنسك ونوفغورود وبسكوف وأريول وخاركوف وفورونيج وروستوف..

وقد أكد ما سبق تقرير قدمه الجنرال الألماني شتوليناغل لرئيسه هتلر أكد فيه أن ما حصل من تدمير في الاتحاد السوفييتي يحتاج لأكثر من 25 عاماً لإعادة بنائه[57].

"وما أن بدأ التحرير الواسع للأراضي السوفييتية من الغزاة الفاشست حتى انتشر عمل هائل لإعادة بناء المؤسسات الصناعية، وطرق السكك الحديدية ، وطرق السيارات،

والكولخوزات والسوفخوزات(المزارع التعاونية) وكذلك لإنشاء دور السكن، إن التاريخ لم يعرف من ذي قبل مثالاً لبلد خاض حرباً مريرة دامية كهذه، وبدأ قبل أن تنتهي بإعادة بناء اقتصاده المخرب(58).

كما شملت سياسة التعمير والتصنيع الجديدة:

1- توظيف 250 مليار روبل في الاقتصاد الوطني، منها 5،157 مليار للصناعة.

2- إعادة إدخال مناجم الفحم في الدونيتز إلى حيز العمل.

3- إعادة بناء محطة الدنيبر الكهربائية.

4- أعيدت المؤسسات الصناعية الكبيرة إلى عملها السابق وبقدرات أكبر، مثل مجمعات الصلب والحديد.

5- إعادة تشغيل مصنع الجرارات في خاركوف.

6- توظيف أموال كبيرة في بناء المساكن والمدارس والمؤسسات الصحية والثقافية.

7- تخفيض أسعار المواد الغذائية والصناعية.

8- تزويد الجماعات الانتاجية بالآلات الأوتوماتيكية والخطوط الآلية، وخطوط الدلفنة المؤتمتة.

9- تنامي استخراج الفحم في حوض كوزنيتسك وقرغندا والأورال.

10 - إنشاء محطات كهربائية على نهري الفولجا وكاما.

11- إعادة بناء أكثر من 6 آلاف مؤسسة صناعية ضخمة، فارتفع انتاج المعادن والوقود والطاقة الكهربائية.

12- تطور كبير في صناعات بناء المكائن والفحم و النفط والكيمياء وسلع الاستهلاك الشعبي.

13- تقديم المساعدة بالحبوب والمكائن والمواشي للمناطق المتضررة من جراء الحرب.

14- تخصيص اعتمادات كبيرة لإعادة بناء الكولخوزات والسوفخوزات (أي المزارع الجماعية)[59].

15- بناء على ما سبق، أصبح الانتاج الاقتصادي السوفييتي هائلاً، ومن ذلك:

كان الاتحاد السوفييتي عام 1928 قد أنتج 3،4 ملايين طن من الصلب، ولكن الرقم قفز إلى 55 مليون طن عام 1958، ومن النفط 6،11 مليون طن قفز إلى 113 مليون طن، ومن الفحم 5،35 مليون طن فصارالانتاج 493 مليون طن، ومن الطاقة الكهربائية 5 مليار كيلو وات، فأصبح 220 مليار كيلو وات، وكان إنتاج الجرارات والسيارات عام 1928 بضعة آلاف فقط، ولكنه عام 1958 أصبح 511 ألف سيارة و 220 ألف جرار، وفاق المنتوج الصناعي سنة 1957 ما كان عليه عام 1913 ب 33 مرة، وتضاعف إنتاج وسائل الإنتاج 74 مرة، ومنتوج بناء المكائن وتحويل المعادن 200 مرة، وصار بإمكان الاتحاد السوفييتي إنتاج 4500 نوع جديد من المكائن والأجهزة والالات[60].

وفي عام 1972 كان المنتوج الصناعي للسوفييت قد تضاعف 320 مرة خلال خمسين عاماً، وبمقارنته مع عام 1940 كان قد تضاعف 14 مرة، وأصبح منتوج العام الواحد عام 1940 يتم إنتاجه في شهر واحد[61]، كما وصل المعدل السنوي لإنتاج النفط عام 1975 إلى 491مليون طن، وإنتاج الغاز إلى 289 مليار متر مكعب، وإنتاج الفحم إلى 701 مليون طن، وإنتاج الطاقة الكهربائية إلى 1038 مليار كيلو وات، وبلغت الزيادة السنوية 60- 70مليون كيلو وات[62].

وفي المجال النووي، وفي نهاية عام 1942 دعي إلى اجتماع في موسكو للعلماء السوفييت، لتنشط الأعمال في مجال الفيزياء النووية، ليعلن العالم كورتشاتوف في 25 كانون أول 1946 عن إنشاء أول مفاعل نووي[63].

مما سبق، يتبين لنا مدى قوة الاقتصاد السوفييتي، ومدى قدرته على التطور والنمو السريع الهائل، ولعل ذلك يعود إلى التخطيط العلمي السليم، والحزم في العمل والتنفيذ.

لذا لا أرى مالنكوف مبالغاً عندما قال مخاطباً الشعب الروسي:

"الآن، وقد أصبحنا نملك من الفحم والنفط والصلب ما نحتاج إليه، ونملك إضافة إلى ذلك القنبلة الهيدروجينية، فإننا نستطيع السماح لأنفسنا بأن نعطيكم كميات أكبر من الزبدة واللحم والأحذية والأدوات المنزلية"، فكان رد الشعب الروسي حفلات الرقص والغناء في شوارع المدن السوفييتية [64].

سياسة ستالين بعد الحرب

ومع توقع الروس نهاية الحرب قريباً بانتصارهم، يعلن ستالين برنامج بلاده لترتيب العالم بعد الحرب، وذلك في تقرير ألقاه بمناسبة الذكرى السادسة والعشرين لثورة أكتوبر الاشتراكية، وذلك في 6 نوفمبر 1943، فورد فيه:

"1- تحرير شعوب أوروبا من النير الفاشي، ومساعدتها على بعث دولها الوطنية.

2- منح الشعوب المحررة الحق الكامل والحرية لكي تقرر بنفسها مسألة نظام الدولة لها.

3- العقاب الصارم لمجرمي الحرب.

4- خلق ظروف ضرورية لدرء إمكانية وقوع عدوان جديد من جانب ألمانيا.

5- إقامة تعاون اقتصادي وسياسي وثقافي طويل الأمد بين شعوب أوروبا" [65].

ولا نجد ذكراً للشرق الأوسط في خطة ستالين، فالرجل منصرف الفكر عنه، مشغول البال بأوروبا، يريد تحرير شعوبها، وإقامة تعاون اقتصادي سياسي ثقافي طويل بين شعوبها، أما آسيا وإفريقيا فلا ذكر لهما في خططه وأفكاره.

ولهذا الموقف أسبابه، وهي:

1- مرارة الحرب العالمية الثانية، وما عاناه الشعب السوفييتي من ويلات ومآس، لذا متوقع أن ينصرف اهتمامه لمنع حرب أخرى، ولن تأتي رياح هذه الحرب إلا من أوروبا، فالشرق الأوسط لا قبل له بذلك.

2- الخسران الكبير الذي حصل لاقتصاد بلاده وسكانها، وهذا ما يصرف جزءاً كبيراً من اهتمامه إلى الإصلاحات الداخلية، وهذا ما حصل بالفعل.

3- أن دول الشرق الأوسط كانت ترزح تحت نير الاستعمار الأوروبي، وقبل ذلك رزحت أربعة قرون تحت الحكم العثماني الذي ردها عدة قرون إلى الوراء، لذا لا يجد ستالين الكثير لديها لإجراء أي تعاون مستقبلي.

4- محاولة ستالين الدائمة تجنب الاصطدام بالدول الكبرى التي كانت تحتل الوطن العربي، فتجربة الحربين العالميتين كافية لأخذ الدروس والعظات.

5- لم يملك ستالين بعد النظر لموقع الشرق الأوسط، وضرورة تواجد سوفييتي في المواقع الاستراتيجية في المنطقة، والتي خاض أسلافه الحروب من أجل مناطق نفوذ قليلة ولكن في الشمال على الجبهة التركية الضيقة.

الفصل الخامس

الاتحاد السوفييتي والشرق الأوسط في عهد ستالين

لم يكن الشرق الأوسط بالاقليم الجاذب لاهتمام السوفييت في عهد ستالين، لا سياسياً ولا اقتصادياً، فقد أهملته حكومة ستالين تبعاً لسياسة رئيسها الديكتاتور، فلم يكتشف السوفييت الشرق الأوسط إلا بعد وفاته عام 1953[1].

"كما لم يبذل ستالين أي جهد جدي لتحقيق تقارب مع الحركات الوطنية (والحكومات الوطنية) في آسيا، فلم يعترف بما يدعى "منطقة سلام" أو "المعسكر الثالث"، أو الكتلة المحايدة، هذا مع أن بروز فريق من الدول المحايدة غير المرتبطة، وبشكل رئيسي في آسيا، كان من بين أهم التطورات في فترة ما بعد الحرب[2].

ويذهب ستالين بعيداً في عدم ثقته في الزعماء الشرقيين، وحتى الشيوعيين الآسيويين لم يكن ستالين ليثق بهم، فهو يتساءل أن: "كيف له أن يستطيع الاعتماد على أمثال نهرو وسوكارنو وعبد الناصر وكلهم "إصلاحيون وطنيون"، وعلى استعداد للخيانة حسب المفاهيم الشيوعية"، بل كان يرى أن أياً من الزعماء الثلاثة المذكورين يمكن أن ينقلب إلى تشانغ كاي تشك، يقوم بخيانة عظمى، فينقلب على الشيوعيين، ويهدر دمهم، ويضرب نفوذ السوفييت كما حصل في الصين عام 1927[3].

وكانت الصحافة السوفييتية تصف عبد الناصر ونهرو والزعيم السوري الشيشكلي بأنهم خدم الاستعمار، وان الجامعة العربية أداة في يد الاستعمار البريطاني[4].

إذن.. هذا هو الشرق وقادته حسب مفهوم ستالين الضيق المحدود، وقد أثبت العهد اللاحق مدى الخطأ وضيق الأفق الذي اتصف به ستالين، والذي لم يجرؤ أحد على نقضه، أو حتى نقده!

أما عن العلاقات مع مصر في هذه الفترة، فقد قدم الاتحاد السوفييتي لمصر عام 1932 قرضاً قدره 8 ملايين دولار لشراء ماكينات ومعدات صناعية من الاتحاد السوفييتي [5].

ولكن المصدر نفسه يقول أن العلاقات مع مصر لم يحالفها النجاح "ذلك لأنه وجهت إلى المبعوثين التجاريين السوفييت تُهم النشاط التخريبي، مما أسفر عن إبعادهم عن مصر في مطلع الثلاثينيات" [6].

محاولات للحصول على السلاح من الغرب

وكانت حكومة بريطانيا قد اعتذرت عن تسليح الجيش المصري قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، بدعوى أنها بحاجة إلى كل قطعة سلاح... .

وكان رئيس الوزراء المصري محمود النقراشي قد طلب خبراء عسكريين أميركيين إثناء وجوده في أميركا لعرض القضية المصرية على مجلس الأمن، ولكن لم يلب طلبه.

ولما توصلت حكومة الوفد إلى اتفاق مع بريطانيا لشراء 80 دبابة سنتوريون منها، ودفعت 80٪ من الثمن مقدماً، ولكن الحكومة البريطانية اعتذرت عن إتمام الصفقة بداعي وجود طلبات مسبقة لحلف الأطلنطي ودول الكومنولث، ولما تسلم حزب العمل الحكم، لم ينفذ الصفقة [7].

محاولات مع الدول الشرقية

ويقول فؤاد سراج الدين وزير الداخلية المصري في عهد الملك فاروق، أنه قد اجتمع بسفراء يوغسلافيا وتشيكوسلوفاكية والاتحاد السوفييتي من أجل الحصول على

الأسلحة من دولهم، ولكن محاولاته باءت بالفشل، لأن زعماء تلك الدول لم يرغبوا في استفزاز الدول الغربية، خاصة وأن أول تبادل للتمثيل الدبلوماسي بين مصر والاتحاد السوفييتي لم يتم إلا عام 1942، وذلك في عهد وزارة الوفد الأولى، وأن صحيفة الوفد دعت السلطات المصرية إلى عقد مفاوضات مع دول أوروبا الشرقية لتزويد مصر بالسلاح، بعد أن أخفقت في الحصول عليه من دول الغرب [8].

وكان الملك فاروق قد كلف كامل عبد الرحيم كأول وزير مفوض إلى موسكو، والغريب أنه قد أخبر قبل سفره "أن العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي كانت قد أقيمت بسبب الاصرار البريطاني، وأن مهمته لم تكن أن ينشط علاقات طيبة بين البلدين، بل ان يحبطها" ومن الجانب الآخر كلف الروس مسلماً مستعرباً هو عبد الرحمن سلطانوف سفيراً لهم في القاهرة[9].

ونجد صحيفة الوفد تدرك الحقائق غير مزورة، فتدعو إلى عقد مفاوضات مع الدول الشرقية لشراء السلاح بعد رفض الدول الغربية الخاضعة للنفوذ الغربي تزويدها به [10].

وكم يسرنا أن عمال الميناء في بورسعيد يقومون بربط سفن الأسطول السوفييتي، وتموينه وتحميته رغم إضرابهم عن العمل، عرفاناً منهم لتأييد السوفييت لمصر في مجلس الأمن[11].

ويؤيد ما سبق، توجهات حزب مصر الفتاة، فيصرح رئيسه أحمد حسين قائلاً:

"علينا أن نزيد صلاتنا الاقتصادية بروسيا – رغم موقفها من السودان – ولقد حان الوقت الذي نفرق فيه بين الشيوعية كمبدأ، وبين التعامل مع روسيا كدولة عظمى، لأنها نفسها تفرق بين الاثنين" وطالب "بإبرام معاهدة صداقة مع السوفييت لحمل الانجليز على الجلاء، وبالوقوف إلى جانبهم في أي حرب قادمة، لأن الحياد مستحيل طالما الإنجليز على أرضنا، وطالب بشدة أيضاً بإنشاء مصانع أسلحة وذخيرة بدعم من السوفييت أو تشيكوسلوفاكية ما دامت إنجلترا وأمريكا ترفضان تزويدنا بالسلاح"[12].

حقاً لقد درس أحمد حسين الواقع بكل وعي وخبرة، ولا نبالغ إذا قلنا أنه قد قرأ المستقبل كما حصل تماماً.

على الجانب العربي، يصدر المفكران القوميان ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار عام 1944 كراساً عن "البعث والحزب الشيوعي" يقولان فيه:

"لسنا ضد الاتحاد السوفييتي، ولا يجد العرب ضرورة في معاداة دولة كبيرة مثله، وهو الذي قام منذ نشوئه بإظهار العطف على الدول التي تناضل من أجل استقلالها، إن هدفنا هو إقامة علاقات صداقة معه، بواسطة المعاهدات الرسمية بين الحكومات، وليس بواسطة أداته الحزب الشيوعي المحلي"[13].

ولا يبتعد الإسلاميون كثيراً عن القوميين في هذا التوجه، فيصرح مصطفى السباعي – زعيم الاخوان المسلمين في سوريا – في آذار 1950 قائلاً:

"نعتزم التوجه إلى المعسكر الشرقي إذا لم ينصفنا الديمقراطيون، ونجيب أولئك الذين يقولون أن المعسكر الشرقي هو عدونا، متى كان المعسكر الغربي صديقاً لنا؟ إننا سنربط أنفسنا بروسيا، ولو كانت الشيطان نفسه"[14].

السوفييت وقضية فلسطين

ولا يستطيع مؤرخ أن يزعم أن مواقف السوفييت في عهد ستالين كانت مؤيدة للقضية الفلسطينية!

فقد أيد السوفييت مشروع التقسيم عام 1947، كما أيدوا إقامة دولة يهودية في فلسطين.

وكان الاتحاد السوفييتي من أوائل الدول التي اعترفت بإسرائيل المستقلة.

كما كلف السوفييت تشيكوسلوفاكية بإمداد إسرائيل بحاجتها من السلاح لكسب حرب 1948 [15].

ولكن قيام ثورة يوليو دفع السوفييت لتغيير مواقفهم جذرياً من دول المنطقة، وبالذات مصر، ورافق ذلك وفاة ستالين.

فقد أغرت الدعوة القومية المناهضة للغرب السوفييت بالسعي لطلب ود مصر.

وانتهزوا فرصة إلقاء قنبلة على سفارتهم في تل أبيب في شباط عام 1953، فقطعوا علاقاتهم الدبلوماسية مع اسرائيل[16].

ومع ذلك لا نعدم علاقات كانت الحاجة وراءها..

فقد وجد السوفييت في الأقطار العربية سوقاً للمنتجات الزائدة لديهم، فتم عام 1948 توريد 235 ألف طن من القمح إلى مصر مقابل 38 ألف طن من القطن المصري [17].

كما أيدت الحكومة السوفييتية في نقاشات الأمم المتحدة في الأعوام 1952-1955 مطالب تونس والمغرب في الاستقلال [18].

ويبدو أن الاتحاد السوفييتي لم يجد في نفسه الثقة الكافية بالقدر لتحدي الدولتين العظميين آنذاك بريطانيا وفرنسا، وهما اللتان كانتا تعتقدان أن العالم العربي خاضع لنفوذهما، يدل على ذلك أن الملك فاروق كان قد طلب السلاح من الإتحاد السوفييتي لإخراج الانجليز من مصر، فرد ستالين:

"إن الشرق الأدنى هو جزء من منطقة نفوذ بريطانيا، ولذلك فإننا لا نستطيع أن نحشر أنفسنا في شئون مصر"[19].

ولكن التعاطف مع الأقطار العربية ظل وارداً في السياسة السوفييتية..

فقد سجل السوفييت موقفاً شجاعاً في مجلس الأمن باستخدامهم حق النقض (الفيتو) في 30 آذار 1954، عندما بحث المجلس القيود التي تفرضها مصر على الملاحة في قناة السويس، وعدّ الأميركان والانجليز هذا الموقف تدخلاً من السوفييت في شئون الشرق الأوسط الذي يعتبرونه محمية لهم، لا يجوز للآخرين التدخل فيه [20].

وفي أكتوبر 1951، تقترح حكومات الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا وتركيا على الحكومات العربية وإسرائيل قيادة موحدة تحت اسم "قيادة الشرق الأوسط" للدفاع عن المنطقة، بإرسال بعثات وقوات من تلك الدول للمرابطة في البلاد العربية، فأدان الاتحاد السوفييتي هذه الخطة.

وأعلنت إذاعة القاهرة قرار مصر في تلك الخطة، قائلة:

"إن مصر توافق تماماً على ما جاء في المذكرة السوفييتية، من أن مشاركة الأقطار العربية في قيادة الشرق الأوسط يمكن أن تحد من سيادة هذه البلدان وتخضعها للمصالح الأنانية للدول العظمى"[21].

ويصرح النائب السوري عبد اللطيف يونس في أيار 1951 قائلاً:

"إني أطالب الحكومة السورية وحكومات بلدان عربية أخرى بعقد معاهدات مع الاتحاد السوفييتي بأسرع ما يمكن"[22].

كما كتبت صحيفة المصري لسان حال حزب الوفد يوم 20 أكتوبر 1951، تقول:

إن أحداث الأيام الأخيرة أثبتت تماماً أن مصر لا يمكن أن تنتظر أي شيء جيد من الدول الامبريالية،.. ولا يتبقى لنا إلا أن نلتفت إلى حليف جديد يستحسن سياستنا، ومن شأنه أن يؤيدنا في تحقيق تطلعاتنا الوطنية"[23].

وما ورد في تصريحات النائب السوري، وصحيفة المصري الوفدية، يدل على وعي مبكر بحاجة الدول العربية إلى حليف لا نجد في صفحات التاريخ أي علاقة له بتاريخ الاستعمار في منطقتنا، وما جره على الأمة من ويلات ومصائب، ولا يحمل لها خلاصة نوايا الامبريالية المتربصة بهذا الوطن الكبير، والأروع أن يحدد النائب السوري الاتحاد السوفييتي كحليف قادم لدولته والدول العربية الأخرى، وقد حدث ذلك بصورة كاملة، فأصبح الاتحاد السوفييتي الحليف الأول والوحيد لأحرار الأمة في صراعهم الطويل مع أعدائها وفي مقدمتهم إسرائيل.

وقد نترك عذراً لستالين لإحجامه عما فعله خلفاؤه إزاء الشرق الأوسط ، وهو تغير الزمن، وحصول أحداث غيرت مواقف الغرب والشرق، وأهم هذه الأحداث ثورة يوليو وتأميم قناة السويس.

وما سيأتي من فصول يثبت أن خليفته خروتشوف كان أبعد نظراً منه، وأكثر حكمة، بُعد النظر هذا استفادت منه الدول العربية في الشرق الأوسط، خاصة مصر عبد الناصر.

وفاة ستالين وتولي خروتشوف

توفي ستالين في السادس من آذار 1953، وكان بيريا - مدير قوى الأمن- في التسلسل الهرمي للسلطة الرجل الثاني بعد مالنكوف، ويليهما نيكيتا خروتشوف، (1894-1971) الذي انتخب سكرتيراً أول للحزب الحاكم، وهو المنصب الذي شغله ستالين 30 عاماً، ثم انتخب رئيساً للوزراء في آذار 1958 [24].

وبعد إعدام بيريا عام 1954، تم تشكيل لجنة للتحقيق في ضحاياه، فوضعت قائمة بأسماء 7379 شخصاً برأ القضاء ساحتهم، لتقوم الدولة بعد ذلك بإعادة الاعتبار لهم، أو لأهلهم ممن حكم عليهم بالإعدام بتهمة العداء للشعب، وكان هذا هو نهج ستالين في الحكم، بتوجيه تلك التهمة لضحاياه بلا ضرورة لتقديم الأدلة[25].

آراء سوفييتية متسرعة في ثورة يوليو..

ولما قامت ثورة يوليو عام 1952، لم يشعر القادة السوفييت بالثقة في الثورة وقادتها، فقد ظنوها صورة أخرى عن انقلابات العسكر في أميركا الجنوبية، وأن قادتها من الطبقة البرجوازية، وليسو من الطبقة الكادحة، كما أن الثورة لم تعلن سياسة داخلية أو خارجية واضحة، ولكن مطالبة عبد الناصر الانجليز بالانسحاب من مصر، دفعت القادة السوفييت إلى تغيير موقفهم، فإبعاد الانجليز - أو أي شكل من أشكال الاستعمار - عن دول الشرق كان هدفاً من أهداف السوفييت، لذا كان التعاطف مع الثورة

واضحاً، وقد لعب الرئيس اليوغسلافي تيتو دوراً ايجابياً في الشروع في نشوء علاقات متينة بين السوفييت ومصر عبد الناصر، وذلك بنشره صورة ناصعة صادقة عن ناصر والثورة الفتية بين القادة السوفييت، ولما تحفظ خروتشوف على عبد الناصر لأنه "لم يتعرض حتى ذلك التاريخ للبرجوازية الوطنية التي تسيطر على المصارف- البنوك- رد تيتو على ملاحظة خروتشوف بأن عبد الناصر شاب لا يتمتع بخبرة سياسية واسعة، إلا أنه حسن النية، ولا يزال يحتاج للوقت حتى يدعم سلطته في الحكم"[26].

وقد شهد عهد خروتشوف (1953– 1964) تطوراً كبيراً في العلاقات السوفييتية المصرية، وهو ما سنتناوله بالبحث المفصل في الفصول القادمة.

وبعد قيام ثورة يوليو بحوالي العام، وبعد وفاة ستالين، وقعت مصر والاتحاد السوفييتي في 18 آب 1953 اتفاقاً للمدفوعات، ثم أتبعته الدولتان باتفاق تجاري وقع في 27 آذار 1954 [27].

ولما شنت إسرائيل هجومها على قرية نحالين الأردنية، وتقدمت الحكومة الأردنية بشكوى إلى مجلس الأمن، وقف المندوب السوفييتي بجانبها، وأيدها في حقها، فارسل مجلس النواب الأردني برقية شكر للمندوب السوفييتي، مما أثار ثائرة الإنجليز والأميركيين الذين أنكروا قيام أي علاقة بين دول العروبة والسوفييت[28].

مراجع

الباب الثاني

الفصل الأول

(1) د. محمد عبد الغني سعودي، الجغرافية والمشكلات الدولية، ص 171.

(2) الموسوعة العربية، المجلد الأول، ص 192.

المعلومات عن جمهوريات الاتحاد السوفييتي

(1)عبد الوهاب الكيالي وآخرون، موسوعة السياسة

(2)عبد الرزاق الصافي، القاموس السياسي.

(3) أحمد عطية،القاموس السياسي

الفصل الثاني

(1)مجموعة من المؤلفين، النار والجليد، ص 19-20.

(2) بيوتر يبيفانوف وإيفان فيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوفييتي، ص 198.

(3) أحمد عطية، القاموس السياسي، ص 577.

(4) بيوتر يبيفانوف، م س، ص 215-217.

(5)الموسوعة العربية الميسرة، ج 11، ص 357.

(6) جورج كتن، العلاقات العربية الروسية، ص 12.

(7) م ن، ص 13.

(8) الموسوعة العربية الميسرة، ج 11، ص 357.

(9) بيوتر يبيفانوف، م س، 287-291.

(10)H.L Peacock, A history of Modern Europe 1789 – 1981, p 239.

(11) بيوتر ييفانوف، م س، 300–310.

(12)H.L Peacock, A history of Modern Europe 1789 – 1981, p 240.

(13) بيوتر ييفانوف، م س، 312.

(14) الموسوعة العربية الميسرة، ج 11، ص 358.

(15) بيوتر ييفانوف، م س، ص 351–352.

(16) منير البعلبكي، المورد، معجم الأعلام، ص 71.

(17) بيوتر ييبنانوف، م س، 351–352.

(18) م ن، ص 351–352.

(19) الموسوعة العربية الميسرة، ج 11، ص 358..

(20) م ن، ص 358.

(21)H.L Peacock, A history of Modern Europe 1789 – 1981, p 246..

(22) بيوتر ييفانوف، م س، ص 372.

(23) م ن، ص 381–383.

(24) م ن، ص 380.

(25) م ن، ص 420.

(26)H.L Peacock, A history of Modern Europe 1789 – 1981, p 252.

(27) م ن، 252.

(28) فيشر، تاريخ اوروبا في العصر الحديث، ص 478.

(29) الموسوعة العربية الميسرة، ج 11، ص 359.

(30) بيوتر ييفانوف، م س، ص 490–493.

(31) فيشر، م س، ص 479.

(32) غوسيف ونعوموف، الاتحاد السوفييتي لمحة تاريخية موجزة، ص 3-5.

(33) م ن، ص 6.

(34) م ن، ص 11.

(35) م ن، ص 29.

(36) م ن، ص 30-31.

(37) عيسى الحسن، الحرب العالمية الأولى، ص 29.

(38) فيشر، م س، ص 497.

(39) م ن، ص 510-511.

(40) بيوتر بيبفانوف، ص 556.

(41) م ن، ص 559.

(42) م ن، ص 558-560.

(43) م ن، ص 560.

(44) غوسيف ونعوموف، م س، ص 46.

(45) بيوتر بيبفانوف، م س، ص 565.

(46) م ن، ص 568.

(47) م ن، ص 568.

(48) جون ريد، عشرة أيام هزت العالم، ص 36-37.

(49) أحمد عطية، م س، ص 362.

(50) فيشر، م س، ص 526.

(51) أحمد عطية، م س، ص 1086.

(52)H.L Peacock, A history of Modern Europe 1789 – 1981, p 306..

(53) م ن، ص 306.

(54) جون ريد، م س، ص 37.

(55) غوسيف ونعوموف، م س، ص 92.

(56) م ن، 94–95.

(57) فيشر، م س، ص 526– 527.

(58) بيوتر يبفانوف، م س، 575.

(59) غوسيف ونعوموف، م س، ص 109.

(60) م ن، ص 117.

(61) م ن، ص 119– 120.

(62) م ن، ص 123-124.

(63) ليانتشوك وآخرون، موجز تاريخ المجتمع السوفييتي، ص 55-57.

(64) م ن، ص 59.

(65) الموسوعة البريطانية، ج 28، ص 999–1000.

(66)H.L Peacock, A history of Modern Europe 1789 – 1981, p 308..

(67) فيشر، م س، ص 527–528.

(68) غوسيف ونعوموف، م س، ص 131.

(69) م ن، ص 117.

(70) ليلتشوك، م س، ص 60.

(71) عيسى الحسن، م س، ص 345.

(72) ليلتشوك، م س، ص 72.

(73) م ن، ص 73.

(74) م ن، ص 75.

(75) م ن، ص 76-77.

(76) الموسوعة البريطانية، ج 28، ص 999- 1000.

(77) غوسيف ونعوموف، م س، ص 153-154.

(78) ليلتشوك، م س، ص 87.

(79) الموسوعة البريطانية، ج 28، ص 1000.

(80) ليلتشوك، م س، ص 90.

(81) م ن، ص 97.

(82) الموسوعة العربية، سوريا، ج 1، ص 196.

(83) ليلتشوك، م س، ص 101-102.

(84) الموسوعة البريطانية، ج 28، ص 1000.

(85) ليلتشوك، م س، ص 104.

(86) م ن، ص 106.

(87) غوسيف ونعوموف، م س، ص 163.

(88)H.L Peacock, A history of Modern Europe 1789 – 1981, p 308.

(89) غوسيف ونعوموف، م س، ص 181.

(90)H.L Peacock, A history of Modern Europe 1789 – 1981, p 309-310..

(91) م ن، ص 181-182.

(92) الموسوعة العربية، ج 1، ص 196.

(93) H.L Peacock, A history of Modern Europe 1789 – 1981, p 310..

(94) الموسوعة العربية، ج 1، ص 196-197.

(95) غوسيف ونعوموف، م س، ص 179-180.

(96)Normal Lowe, Mastering Modern World History p63.

(97) م ن، ص 63.

(98) م ن، ص 64.

(99) ليلتشوك، م س، 116-117.

(100) غوسيف ونعوموف، م س، ص 193.

(101) ليلتشوك، م س، ص 118.

(102) غوسيف ونعوموف، م س، 162-164.

(103) عبد الرزاق الصافي، القاموس السياسي، ص 71-75.

(104) أحمد عطية، م س، ص 1086.

(105) اليكسي فاسلييف، روسيا في الشرقين الأدنى والأوسط، ص 18.

(106) محمد عودة وآخران، قصة السوفييت مع مصر، ص 76.

(107) اليكسي فاسلييف، ص 19.

(108) والتر لاكور، الاتحاد السوفييتي والشرق الأوسط، ص 73.

(109) م ن، 74.

(110) م ن، ص 74.

(111) داي بوش وآخرون، السياسة الخارجية السوفييتية 1955-1965، ص 83-84.

(112) م ن، ص 84.

(113) م ن، ص 84.

(114) م ن، ص 24.

(115) م ن، ص 24.

(116) م ن، ص 84.

(117) م ن، ص 24.

الفصل الثالث

H.L Peacock, A history of Modern Europe 1789 – 1981, p1) 311 .

(2) الموسوعة العربية، ج 1، ص 198.

(3)H.L Peacock, A history of Modern Europe 1789 – 1981, p 311.

(4) أحمد عطية، م س، ص 1146.

(5) الموسوعة العربية، ج 1، ص 199.

(6) اسحق دويتشر، روسيا بعد ستالين، ص 57–58.

(7) م ن، ص 57–58.

(8) الموسوعة العربية، ج 1، ص 198.

(9) عبد الرزاق الصافي، م س، ص 5–16.

(10)H.L Peacock, A history of Modern Europe 1789 – 1981, p 313.

(11) الموسوعة العربية، ج 1، ص 198– 199.

(12) فاسلييف، ص 34

(13) م ن ص 33.

(14) الموسوعة العربية، ج 1، ص 200.

(15) عبد الرزاق الصافي، م س، 17–18.

(16) الموسوعة العربية، ج 1، ص 200.

(17) الموسوعة العربية، ج 1، ص 200

(18) أحمد عطية، م سن ص 1146-1147.

(19) فيشر، م س، ص 667-668.

(20) بسام العسلي، م س، ص 163.

(21) محمد عودة وآخران، م س، ص 77.

الفصل الرابع

(1) عباس محمود العقاد، هتلر في الميزان، ص 180.

(2)Nonnal Lowe, Mastering Modern World History p98.

(3)فيشر، م س، ص 681.

(4) م ن، ص 680.

(5) غوسيف ونعوموف، م س، ص 277 ز

(6) فيشر، م س، ص 680.

(7) عبد الوهاب الكيالي،موسوعة السياسة، ج 2، ص 579.

(8) غوسيف ونعوموف، م س، ص 275.

(9) أ ج جرانت، أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج 2، ص 506.

(10) م ن، ص 506- 507.

(11) رمضان لاوند، الحرب العالمية الثانية، ص 137.

(12) غوسيف ونعوموف، م س، ص 282.

(13) أ ج جرانت، م س، ص 507.

(14) م ن، ص 507-508.

(15) فيشر، م س، ص 683.

(16) ليدل هارت، القادة الألمان يتكلمون، ص 218.

(17) رمضان لاوند، م س، ص 141.

(18) غوسيف ونعوموف، م س، ص 285.

(19) م س، ص 306.

(20) م ن، ص 386.

(21) م ن، ص 290.

(22) المارشال فاسيليفسكي، قضية حياتي، ص 155.

(23)م ن، ص 146.

(24) أ ج جرانت، م س، ص 510.

(25) ب بوناريف، تاريخ السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي، ص 509.

(26) دانييل براور، العالم في القرن العشرين، ص 216.

(27) غوسيف ونعوموف، م س، ص 292.

(28) فيشر، م س، ص 700.

(29) م ن، ص 701.

(30) ليونيد بريجنيف، الإتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية، ص 107.

(31) فيشر، م س، ص 701.

(32) غوسيف ونعوموف، م س، ص 311-312.

(33) م ن، ص 310 – 311.

(34) فيشر، م س، ص 710.

(35) م ن، ص 710.

(36) كمال عبد الله (مترجم) حصار لينينغراد، ص 65.

(37) م ن، ص 64.

(38) م ن، 67–68.

(39) رمضان لاوند، م س، ص 137.

(40) كمال عبد الله، م س، ص 71–76.

(41) م ن، 83.

(42) م ن، ص 83.

(43) المارشال فاسيلفسكي، م س، ص 161.

(44) كمال عبد الله، م س، ص 105.

(45) م ن، ص 115– 117.

(46) م ن، ص 125.

(47) م ن، ص 106.

(48) م ن، ص 80.

(49) م ن، 109.

(50) م ن، ص 109.

(51) ليلتشوك، م س، ص 359.

(52) م ن، ص 169–170.

(53) كمال عبد الله، م س، ص 178.

(54) غوسيف ونعوموف، م س، ص 316.

(55) م ن، ص 317.

(56) د، نور الدين حاطوم، تاريخ عصرنا، ص 238–239.

(57) غوسيف ونعوموف، م س، ص 317.

(58) م ن 317– 318.

(59) م ن، ص 320– 325.

(60) غوسيف ونعوموف، م س، ص 338–339

(61) م ن، ص 394.

(62) م ن، ص 408.

(63) م ن، ص 333.

(64) اسحق دويتشر، روسيا بعد ستالين، ص 82.

(65) ب بوناريف، م س، ص 510–511.

الفصل الخامس

(1)والتر لاكور، م س، ص 216.

(2) م ن، ص 185.

(3) م ن، ص 216– 217.

(4) روبرت فريدمان، السوفييت والشرق الأوسط، ص 17

(5) فاسلييف، م س، ص 33.

(6) م ن، ص 17.

(7) أحمد حمروش، مجتمع جمال عبد الناصر، ص 60–61.

(8) م ن، ص 61.

(9) محمد حسنين هيكل، حكاية العرب والسوفييت،ص 37

(10) م ن، ص 61.

(11) م ن، ص 61.

(12) جورج كتن، م س، ص 38.

(13) م ن، ص 39.

(14) م ن، ص 39.

(15) أنتوني ناتنج، ناصر، ص 133.

(16) م ن، ص 133.

(17) فاسلييف،، م س، ص 42.

(18) م ن، ص 42.

(19) بسام العسلي، خروشزوف، ص 270.

(20) أمين سعيد، الثورة، ص 323.

(21) م ن، ص 43.

(22) م ن، ص 43.

(23) م ن، ص 42-43.

(24) أحمد عطية، م س، ص 404.

(25) بسام العسلي، م س، ص 208.

(26) م ن، ص 272–273.

(27) أمين سعيد، م س، ص 324.

(28) م ن، ص 324.

الباب الثالث

عهـد خروتشـوف

الفصل الأول

اهتمام سوفييتي بالشرق الأوسط

"صفقة الأسلحة المصرية السوفييتية أخطر إجراء

منذ حرب فيتنام" جون فوستر دالاس

وزير الخارجية الأمريكي.

"إن هذه الاتفاقية التجارية التي

وقعناها بلا قيد أو شرط لا تعتبر فتحاً للنفوذ الروسي ولا للنفوذ الأجنبي،

لكنها تعتبر قضاء على النفوذ الطويل الذي تحكم فينا وسيطر علينا"

(عبد الناصر، خطاب 27/9/1955)

(أحمد حمروش، مجتمع عبد الناصر، ص59).

لقد كان انتهاء عهد ستالين بداية حقبة جديدة إيجابية في العلاقات بين السوفييت والشرق الأوسط، وبالذات مع مصر..

فقد رحلت مع صاحبها تلك النظرة الضيقة لدول العالم من حوله، فقد كان ستالين يراها معسكرين: معسكر شيوعي ومعسكر معاد للشيوعية.

أما خليفته خروتشوف فكان ذا بعد نظر، وصاحب موقف واقعي مرن، إذ رأى العالم منقسماً إلى ثلاث كتل: الكتلة الاشتراكية، والكتلة الرأسمالية، والعالم الثالث الذي رغب في كسبه إلى جانب الشيوعية [1].

وبتعبير آخر يفتح خروتشوف صدره، وحدود بلاده الواسعة الغنية، باقتصادها الهائل، وقواها السياسية والعسكرية والعلمية، لهذا العالم الثالث، المنتظر - بكل شوق وعوز- إهتمام حليف كبير، ونصرته وعونه، في عالم تتكالب فيه الدول الاستعمارية على

صغار الدول، غير مراعية لمبدأ أو خلق، تريد العودة إليه مستعمرة مغتصبة، اتضح هذا في حملة السويس عام 1956، والتي كانت على وشك أن تعيد المنطقة بأسرها إلى عهد الاستعمار الأوروبي..

ورغم الخلاف الكبير والعميق الذي كان يثار أحياناً بين السوفييت وحكام العرب – خاصة في مصر – حول تعامل حكوماتهم مع الأحزاب الشيوعية في أقطارها، فالباحث لا يستطيع إنكار دور خروتشوف الذي أحدث تغييراً حقيقياً في السياسة السوفييتية تجاه الشرق الأوسط سيكون له الأثر البالغ على أحوال دول المنطقة، ومواقفها وسياساتها، ومركزها على خارطة العالم الحديث.

عقبات أمام الامتداد السوفييتي

وكان لدى الشرق الأوسط من المشاكل والانقسامات، والخلافات والتعقيدات، ما كان بإمكانه أن يعيق أي علاقة بينه وبين السوفييت. وأن يشكل إحباطاً كبيراً لهم، ومع الأسف، لا تزال هذه المشاكل موجودة حتى اليوم..

فإضافة إلى حالة عدم الاستقرار التي تسود المنطقة، فسكان الشرق الأوسط منقسمون بين سنيين وشيعة، وكاثوليك وبروتستانت، ويهود وأكراد وأقباط وموارنة وأرمن، يضاف إلى ما سبق الصراعات المريرة التي قامت بين اللبنانيين نصارى ومسلمين، وبين العراقيين والأكراد، وبين الفلسطينيين والأردنيين، وبين اليمنيين الشماليين والجنوبيين، وأخيراً بين الإيرانيين والعراقيين [2].

وحتى أنماط الحكم في الشرق الأوسط مختلفة متباينة، ففيه ديمقراطيات تشبه ما في الغرب، وملكيات إقطاعية، وديكتاتوريات عسكرية، يضاف إليها الأنظمة الاقتصادية السائدة والمتأرجحة بين الرأسمالية واشتراكية الدولة [3].

ثم تأتي ثالثة الأثافي، وهي الصراعات الدائمة بين دول هذا الشرق الأوسط عندما كان السوفييت على وشك دخول المنطقة..

فهناك صراع أزلي بين إيران والعراق..

- وصراع بين سوريا وجارتيها لبنان والأردن..
- وصراع بين مصر والسعودية حول اليمن..
- وصراع على زعامة المنطقة بين مصر والعراق.
- وصراع بين الجزائر والمغرب أدى إلى حرب عام 1963.
- وصراع بين العراق والكويت عندما حاولت العراق ضم الكويت إليها عام 1961 [4].

وقد شكلت هذه الأوضاع الصعبة عقبة كأداء في وجه الاتحاد السوفييتي....

فإذا ما اختار الوقوف إلى جانب مّا من حلبات الصراع، فمعنى ذلك ارتماء الطرف الآخر في أحضان الغرب. يضاف إلى هذا الخلاف الكبير أحياناً بين أهداف الدولة المتعاملة معه من دول المنطقة والأهداف العالمية السوفييتية، وفي بعض الفترات كان السوفييت يجدون صعوبة في تقديم المساعدات للدول العربية خشية التورط في مواجهة مع الولايات المتحدة [5].

ويضاف إلى ما سبق:

1- أن الأحزاب الشيوعية في الدول العربية كانت تتعرض للقمع من قبل الأنظمة الحاكمة.

2- مشروع الوحدة العربية يجعل العالم العربي موحداً، وهذا يعيق التغلغل السوفييتي في الشرق الأوسط.

3- منافسة القوى الأخرى – وخاصة الولايات المتحدة- للسوفييت في المنطقة، مما يعيق أي محاولة لبسط نفوذه فيها.

4- الصراع السوفييتي الصيني الذي يجعل السوفييت في خطر هجوم صيني إذا ما تورط السوفييت في حرب في الشرق الأوسط، خاصة وأن الصين كانت تطالب بأجزاء كبيرة من سيبيريا.

5- الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفييتي إلى إسرائيل كانت تلقى اعتراض العرب لأنها تزيد من قوة إسرائيل العسكرية (6).

وقارىء خطابات عبد الناصر وأحاديثه في الفترة ما بين قيام الثورة عام 1952 حتى نهاية عام 1954، يلاحظ خلوها من ذكر الإتحاد السوفييتي، وهذا دليل آخر على أن السوفييت لم يكونوا في مجال اهتمام الساسة المصريين في تلك الآونة.

موقف العرب من السوفييت

وقد كان للعرب أيضاً تحفظاتهم على السوفييت..

فأول ما يمكن إدراجه تحت هذا العنوان مسألة الدين، والتي لها مكانة كبيرة عند المسلمين والشرقيين بشكل عام.

فالإلحاد والدعوة إليه، لم يكن – ولن يكون– بالأمر السهل الذي يمكن للمؤمن بالله غفرانه، واتباع أهله ودعاته.

بينما يرى المؤرخ الكبير محمد حسنين هيكل أسباباً أخرى دعاها "بذور المتاعب" في سبيل تطوير السوفييت علاقاتهم مع العرب، نجملها في:

1- عداء روسيا القيصرية القديم للدولة العثمانية طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومحاولتها الدائمة التوسع على حسابها.

2- وقوف طبقة ملاك الأرض في وجه الفكر الماركسي الذي يضر بامتيازاتهم، ويحرمهم من ممتلكاتهم.

3- تزامن الدعوة للفكر الماركسي في الأربعينيات مع تقدم الحركة الصهيونية لاغتصاب فلسطين، وغلبة العنصر اليهودي على التنظيمات الماركسية.

4- لجوء العرب للسوفييت كان لجوء اضطرار لا خيار.

5- التعقيدات البيروقراطية السائدة في دوائر الجانبين، مما سبب عدم التماسك في أطر التعامل بين الفريقين.

6- الخلفية الثقافية للعرب كانت غربية، بعيدة عن الشرق، فتعثر الحوار بينهما [7].

ولست مع الكاتب الكبير في جعل حرب روسيا القيصرية على العثمانيين سبباً يحول دون تعامل السوفييت مع العرب، فقد قامت الثورات العربية في كل قطر ضد الأتراك، وتسلطهم وجورهم، لذا لم يأسف أحد على خروجهم، ألم تكن العبارة "يا رب يا متجلي..تهلك العثمانلي" دارجة في مصر، وربما في سواها، كرهاً في التسلط التركي على البلاد؟.

وبناء على ما سبق، فإنه يعد انجازاً لمصر عبد الناصر وقيادتها الرائدة، [illegible] الجسر المتين بين العرب والسوفييت في ظل وجود هذه الصعوبات، فقد نجحت مصر في تذليلها، وأزالت الحاجز النفسي بين الجانبين، ليصبح السوفييت مصدرنا الوحيد للسلاح والدعم الاقتصادي والسياسي.

ولكن هيكل ينبه ساسة "مصر السادات" لأمر كان عليهم فهمه واستيعابه جيداً قبل الاقدام على ما أقدموا عليه بإلغاء معاهدة الصداقة مع السوفييت عام 1976، فيردف:

"ثم أن العرب – وهم يعرفون أن علاقاتهم الطارئة مع السوفييت هي معبر إلى طريق آخر واصل إلى الغرب – لم يبذلوا جهداً كافياً لفهم صديقهم الاضطراري بما في ذلك تكوينه الجغرافي والتاريخي والثقافي، وكذلك مصالحه الدائمة في المنطقة داخل حدود بلاده أو خارجها، وبالتالي فإنهم أخذوه "مضموناً" بحكم الاحتياجات، وكانت الاحتياجات في تلك الفترة هي منافسة الحرب الباردة مع الغرب، ومبيعات السلاح السوفييتي للعرب، وعندما بدأت ثلوج الحرب الباردة تذوب، تحولت ساحة العلاقات إلى مستنقعات من الوحل، غرقت فيها المدافع والدبابات ومدارج الطائرات، ومعها الحاجة إلى فهم أعمق" [8].

موقف السوفييت من الشرق الأوسط 1952- 1955 نجاح للواقعية

نستطيع أن نقول أن نظرة حكام الكرملين تجاه الشرق الأوسط أصبحت أكثر واقعية – وبالذات تجاه مصر – بعد وفاة ستالين، وقد قام هذا الموقف على عدة أسباب، منها:

1- رأوا من العبث إثارة عداء الشرق للسوفييت بالطلب إليه أن يعتنق الشيوعية.

2- حبذوا تقديم العون لدول الشرق لأنها تنادي بالحياد، إذن فهي ليست في صف الامبريالية.

3- كانوا مطمئنين إلى أن الشيوعية، في المدى البعيد، سوف تسيطر على الشرق، وذلك نتاج طبيعي – كما ظنوا - للتطورات السياسية والاقتصادية والا جتماعية.

4- وظنوا أيضاً، أن القيادات القومية في أقطار الشرق – رغم تحقيقها الاستقلال لبلدانها – لن تستطيع القيام بمهامها الاقتصادية والاجتماعية العاجلة الملحة.

5- كانوا واثقين من انتصار نفوذهم وشيوعيتهم، نظراً لازدياد اتكال الدول المحايدة على الكتلة السوفييتية[9].

6- ولأنهم عدوا أنظمة الشرق برجوازية وطنية، ذهبوا بعيداً في ظنونهم وأحلامهم، فقالوا أن " النظام الرأسمالي في العالم قد أصبح عموماً في حالة عامة من التأزم والتفكك..وأن الطبقة البرجوازية ستلعب – ولو عن غير وعي منها– وكما فعلت في اوروبا، دور القابلة(المولدة) التي ستولد قوى اجتماعية جديدة، بالإضافة إلى توليدها حفاري قبور النظام الجديد[10].

وكم هو رائع لجوء الساسة السوفييت إلى خبرائهم في الشرق الأوسط لتحديد مواقف الدولة والحزب من المسائل الشائكة التي تعترض قراراتهم وسياساتهم..

فالسيد فاتولينا الخبير في شئون الشرق الأوسط، يقول في بحث له نشر في مجلة سوفييتية عام 1955:

"إن البروليتاريا وحدها تستطيع أن تقود حركة التحرر الوطني، وأن البرجوازية الوطنية كانت قد حاولت في الماضي أن تضع نفسها على رأس الحركة وتتزعمها، ولكنها تكشفت عن عدم أهليتها للقيادة نظراً لتشتتها وجنوحها إلى التفاهم مع الاستعمار، هذا بالإضافة إلى أن البرجوازية العربية كانت ضعيفة من الناحيتين السياسية والاقتصادية"(11).

ولكن هذا الباحث يعود عن معظم ما قاله آنفاً، فيقول في عام 1957:

"إن مساهمة البرجوازية الوطنية مساهمة كبيرة وناشطة في كفاح التحرر الوطني، وهي لمحة فارقة من ملامح النضال ضد الاستعمار في العالم العربي، وبأن البرجوازية القومية قد ازدادت قوة مؤخراً، وبأن البروليتاريا (القوة القيادية في عام 1955) قد أخذت تباشر في عام 1957 لعب دور الطليعة في النضال من أجل التحرر الوطني"(12).

ومع الأسف لا نملك المقال كله. فلعل هذا الباحث قد تأثر بانتصار مصر في حرب السويس، وموقف مصر الواضح الجلي من الاستعمار والقوى الامبريالية التي أرادت إعادة المنطقة إلى عصر الاستعمار المظلم، وبالطبع فبلاده وقفت ذلك الموقف الشهير مع تلك "البرجوازية" القومية في مصر، فلا بد من كلام علمي يعكس الواقع بعيداً عن نظريات ستالين ومواقفه من الشرق الأوسط..غير الشيوعي!

بينما رأى الخبير "رايزنر" أن الالتزام الإجباري بسياسة ستالين ومبادئه قد عرقل دراسة الشرق المعاصر في الاتحاد السوفييتي، وأن المبادىء الأساسية السائدة في الاتحاد السوفييتي يجب أن تنقح على ضوء الحقائق الجديدة التي ظهرت مؤخراً بعد عام 1956.

ومن هذه الحقائق أن "البرجوازية الوطنية في دول الشرق (بما فيها حتى البرجوازية الاحتكارية!) هي تقدمية في طبيعتها، ولذا فيمكن أن تكون حليفة للاتحاد السوفييتي"(13).

وأنه "إذا كان حكام الجمهورية العربية المتحدة يمثلون أية طبقة اجتماعية محددة، فإن هذه الطبقة بالطبع هي أقرب إلى أن تكون الطبقة الوسطى الدنيا منها إلى البرجوازية الوطنية"، ولا ينسى هؤلاء الخبراء أن هذه الانتلجنسيا العسكرية قد قضت على الرواسب الاقطاعية في مصر، لذا فهي تقدمية بامتياز [14].

مما سبق يدرك القارىء أن العهد الجديد قد شهد ليونة وواقعية في رؤية الأحداث، ودرسها وتفهمها، قبل الحكم عليها بأنها في صف الأعداء أم في صف الأصدقاء، أو في قائمة المرشحين ليكونوا أحلاف في المستقبل، وبالتالي فإنه من حسن السياسة فتح أبواب التعاون لها قبل أن يغويها الغرب بأي سبب من أسباب الغواية والاستقطاب.

ومع أن المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي الذي عقد في تشرين أول 1952 لم يذكر ثورة يوليو انتظاراً لدراستها، ومعرفة أهدافها، إلا أن محمد نجيب وجمال عبد الناصر قاما بزيارة المفوضية السوفييتية في 7 تشرين ثان 1952 مهنئين بالعيد الخامس والثلاثين للثورة الاشتراكية [15]، ولا تخبرنا المصادر بشيء عن هذه الزيارة، وواضح أنها كانت زيارة مجاملة لا أكثر..

وكانت بعثة مصر إلى تشيكوسلوفاكية برئاسة المهندس حسن رجب في صيف عام 1953 قد تلقت رداً على طلب توريد السلاح إلى مصر جاء فيه: نحن بلد نحب السلام ولا نعطي أحداً السلاح [16].

ولأن الوضع الاقتصادي لمصر كان سيئاً، يحسن قادة الثورة صنعاً بإرسالهم البعثات التجارية والاقتصادية إلى الدول الشرقية، ومنها الاتحاد السوفييتي.

بداية مبكرة لثوار يوليو مع السوفييت

إذ يخبرنا خالد محي الدين أحد قادة الثورة بأن التفكير في إقامة علاقات مع الاتحاد السوفييتي بدأ بعد شهرين فقط من قيام ثورة 23 يوليو"، وسبب ذلك أن مصر كانت تشكو وضعاً اقتصادياً سيئاً، وأن عدم القدرة على بيع محصول القطن سيضر بالاقتصاد

القومي، فاتصل المسئولون بسفارات الدول الاشتراكية في القاهرة لمناقشتهم في إمكانية شراء القطن، فاتصل يوسف صديق بالمستشار الاقتصادي السوفييتي، واتصل خالد محي الدين بالمستشار المجري [17].

ويضيف خالد محي الدين :

"عادت البعثة من موسكو لتتحدث (وهذا للمرة الأولى) عن إمكانية الحصول على مساعدات وقروض، وبناء مصانع، وشراء أسلحة من الاتحاد السوفييتي، ولكن للحقيقة لم يكن الأمر بالوضوح الذي عرفناه في علاقتنا مع السوفييت بعد ذلك، لقد كانت مجرد بدايات في فترة مبكرة من أواخر عام 1953، وأوائل 1954"[18].

وهذا الخبر على صغره، لا يخبرنا برغبة السوفييت فحسب في التعاون الجدي مع مصر، بل يخبرنا أيضاً بأن السوفييت لا يرفضون التعاون [illegible] ويعد ذلك بدايات طيبة في عالم السياسة.

ثورة يوليو وخطط تسليح الجيش

وإذا كان تحقيق جلاء الاستعمار عن مصر الهدف الأول لثورة يوليو، فقد كان تسليح الجيش هدفها الثاني، وليس هذا بمستغرب كون الثورة قد قام بها العسكريون من مختلف الأسلحة، لذا فهم أعرف الجهات والدوائر في مدى حاجة الجيش للسلاح خاصة بعد خوضهم تجربتهم المريرة في حرب 1948 على ثرى فلسطين، واطلاعهم على فارق التسليح بينهم وبين الجيش الإسرائيلي.

وكانت حكومة الوفد عام 1951 قد وقعت عقد شراء 80 دبابة من بريطانيا، والتي تذرعت بطلبات حلف الأطلنطي التي سبقت الطلب المصري، ورغم أن مصر قد دفعت 80٪ من قيمة الصفقة إلا أن الأسلحة المطلوبة لم تصل مصر!.

ويصرح محمد نجيب في شهر آب 1952 والثورة في أيامها الأولى، بأن مصر إذا لم تحصل على السلاح من الدول الغربية، فسوف تبحث عن جهة أخرى [19].

وكان التطور الحديث قد طرأ على صناعة الأسلحة في العالم بعد الحرب العالمية الثانية، ولكن مصر لم تصب شيئاً من ذلك، فالاستعمار البريطاني كان حريصاً على إبقاء الجيش المصري في مستوى متدن لكي لا يشكل خطراً عليه وهو ما يزال جاثماً على الأراضي المصرية [20].

ولما لجأ مجلس قيادة الثورة إلى أميركا لطلب السلاح، فوجئوا بأن مصر كانت مرتبطة معها بعقد في عهد حكومة أحمد ماهر لتوريد أسلحة لمصر بمبلغ 5 ملايين دولار، ولكن لما اطلع العسكريون على قائمة الأسلحة وجدوها تصلح للبوليس وليس للجيش[21]، وهذا يثبت أن الغرب لم يكن جاداً يوماً في تسليح مصر، بل كان حريصاً على إبقائها دائماً ضعيفة، لكي لا تقاوم أي مخطط استعماري لاحتواء المنطقة، أو للوقوف أمام المخططات والمطامع الاسرائيلية.

وبعد قيام الثورة، يلتقي عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وعبد المنعم أمين بوليام فوستر وكيل وزارة الدفاع الامريكية إثناء زيارته لمصر في تشرين ثان 1952، ويتم الاتفاق على صفقة أسلحة قيمتها مئة مليون دولار. وأوفد قائد الجناح علي صبري إلى أميركا لتسهيل شحن الصفقة، فقضى هناك عدة أشهر متنقلاً بين من يهمهم الأمر بدون الوصول إلى نتيجة إيجابية، فلم يصل شيء من أميركا[22].

ويفيدنا خالد محي الدين بالقناعة المبكرة لدى مجلس قيادة الثورة المصري بقدرات السوفييت بعد بعثة حسن رجب إليهم، فيضيف بعد ذكره اعتراض عضو المجلس جمال سالم على الاتصال مع السوفييت لأن علي صبري كان على وشك السفر لأميركا لطلب السلاح :

".. ومن المهم على أي حال أن نذكر أن الحديث في ذلك الوقت عن قدرات الاتحاد السوفييتي الصناعية وإمكانياته الاقتصادية، واستعداده للمساعدة الخارجية كان جديداً تماماً، وغير مألوف على نطاق واسع، ولن تحدث المعارضة من جانب جمال سالم أثراً ذا بال، وظل تقرير بعثة حسن رجب من أهم التقارير التي قدمت لمجلس قيادة الثورة

عن العلاقات مع الاتحاد السوفيتي، وفي تقديري – رغم أنني تركت مجلس قيادة الثورة بعد ذلك عام 1954– إلا أنني أعتقد أن ذلك التقرير كان له أثره عندما تأزمت الأمور بعد ذلك مع الغرب، ابتداء من الغارة الاسرائيلية على قطاع غزة (28 شباط 1955) إلى ان تم توقيع صفقة السلاح المعروفة مع الاتحاد السوفييتي "[23].

ومع الأسف..لم أعثر على تقرير حسن رجب فيما بين يدي من مراجع، وواضح أنه اعتبر من الوثائق غير قابلة للنشر.

ويقول الدكتور مراد غالب السفير المصري الأسبق في الاتحاد السوفييتي أن مجلس قيادة الثورة قد كلف عام 1953عزيز المصري السفير في الاتحاد السوفيتي آنذاك بالتباحث مع السوفييت بشأن تزويد مصر بالبترول والسلاح، توقعاً أن بريطانيا ستقطع عن مصر مصادر البترول الرئيسية في منطقة السويس في حالة نشوء الصراع المرتقب، وقد استجاب السوفييت لطلب البترول فوراً، أما السلاح فتم إرجاؤه حتى تتم دراسته، وقد ظل الموضوع قيد الدرس من عام 1953 حتى توقيع اتفاقية تسليح مصر عام 1955[24].

ويصوغ الدكتور مراد غالب الواقع المرير الذي كانت تعيشه المنطقة في عبارة قصيرة معبرة، فيقول:

" وقد كان واضحاً للثورة أيضاً، أنها كلما سارت في اتجاه تدعيم استقلال مصر (سواء عن طريق رفض الدخول في الأحلاف العسكرية عام 54–1955، أو باعتناق سياسة عدم الانحياز)، كلما شدد الاستعمار من حربه ضدنا، وزاد الاتحاد السوفييتي من تدعيمه لنا"[25].

ولم يجانب مسار الأحداث الحقيقة السابقة قيد أنملة، فكل ما جرى من أحداث وقضايا وصراعات في الثلاثين سنة التالية، وبالذات خلال حكم الزعيم الراحل عبد الناصر يدل على خبرة قيادة الثورة، بتاريخ المنطقة، وطبيعة الصراع، وتكالب دول

الاستعمار الغربي على الشرق الأوسط، وتركيزها على مصر، الدولة الأم، ومركز الثقل العسكري والسياسي والعلمي لدول العروبة جمعاء.

ويعبر عبد الناصر عن الفكرة السابقة في خطاب له في 27/ 9/ 1955 متناولاً صفقة السلاح التشيكية:

"..فإنكم تعلمون أن الأسلحة الثقيلة تتحكم فيها الدول الكبرى، وإنكم تعلمون أن الدول الكبرى لن ترضى أبداً أن تمول الجيش بالأسلحة الثقيلة إلا بشروط، وإلا باشتراطات.. وإنكم تعلمون أننا رفضنا هذه الشروط، ورفضنا هذه الاشتراطات لأننا نحرص على الحرية الحقيقية، ونحرص على السياسة المستقلة، ونحرص على أن تكون لمصر سياسة مستقلة حتى نخلق من مصر شخصية جديدة مستقلة تخلصت فعلاً من الاستعمار، تخلصت فعلاً من الاحتلال.. تخلصت فعلاً من السيطرة.. السيطرة الأجنبية بكل معانيها.

كنا نسعى في هذا السبيل.. واليوم يا إخواني نسمع ضجة من لندن.. ونسمع ضجة من واشنطن على تسليح الجيش المصري، وأنا أحب أن أقول لكم أننا حاولنا طوال السنين الثلاث الماضية أن نسلح الجيش بأسلحة ثقيلة، بكل وسيلة من الوسائل.. لا بغرض العدوان، ولا بغرض الاعتداء، ولا بغرض الحرب..ولكن بغرض الدفاع، بغرض الأمن..بغرض السلام "[26].

وتتواصل اتصالات المسئولين المصريين، ومن عدة مستويات، بالمسئولين السوفييت..ونورد هنا بعضاً منها.

فيلتقي محمد نجيب بالسفير السوفييتي في القاهرة بنيامين سولود في كانون أول 1953، ويدور حديث حول تزويد مصر بالسلاح السوفييتي.

كما اتصل أحمد لطفي مدير مكتب عبد الناصر بمستشار في السفارة السوفييتية بعد اتفاقية الجلاء سائلاً عن موقف السوفييت من سفر ناصر لباندونج، وتطرق الحديث لتسليح مصر.

ويعطي صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة تصريحاً للصحف في شباط 1954، لا يخلو من وضوح وثقة، يقول فيه:

"إن مصر قد عرضت كل مشروعاتها على الدول المختلفة، ومنها روسيا، وأنه توجد اتصالات في هذا الخصوص، وهناك احتمال أكيد أن تقدم روسيا على إقامة بعض المشروعات لو حصل اتفاق نهائي على التفصيلات , وأحب أن أضيف أن مصلحة مصر سيكون لها الكلمة الصلب"(27).

ويقوم السفير السوفييتي سولود بزيارة لمحمد نجيب في منزله، ويخبره أن الاتحاد السوفييتي قد وافق على تقديم السلاح لمصر، فقام نجيب بالطلب من عبد الحكيم عامر تقديم قائمة بالأسلحة المطلوبة (28).

موقف عبد الناصر من الشيوعية

ويجدر بنا قبل الذهاب بعيداً في تطور العلاقات بين السوفييت ومصر، أن ننوه بأن القيادة المصرية كانت تفصل بين إقامة علاقات مع السوفييت، والحركات الشيوعية وأنشطتها في مصر، وأن موقف الثورة كان المعارضة والعداء للشيوعية بدون مواربة أو تمويه، أو مجاملة للسوفييت.

يقول ناصر في خطاب له في احتفال نقابة عمال النقل المشترك في 29/ 4/ 1954 مصوراً الشيوعية عوناً للصهيونية:

"ولعلكم ترون يا إخواني، أن كل الدلائل تجمع على أن هؤلاء الذين يخدعون المواطنين باسم الشيوعية قد أثبتت القضايا والتحقيقات أنهم أكبر عون للصهيونية التي تعمل على إيجاد تنظيمات شيوعية، وهي التي تحاول أن تخدع الناس تحت هذا الاسم الخلاب البراق"(29).

وفي حديث له لمجلة نيوزويك الأمريكية في 21/ 7/ 1954، يقول ما هو أشد عداء للشيوعية مما ورد في الحديث السابق، مع أنه ذكر في الحديث ذاته حاجة مصر الماسة للأسلحة، يقول:

"إن الثورة المصرية وجهت أقوى ضربة إلى الشيوعية، لا في مصر وحدها، بل في الشرق الأوسط كله، ولكن ما زال للشيوعية حليف خبيث مقيم في مصر، وهو القوات البريطانية المرابطة في منطقة قناة السويس، إذ أن بقاء هذه القوات في مصر يهيء الفرصة أمام الشيوعيين للتظاهر بمظهر الوطنية، وإثارة القلاقل، والعمل على اجتذاب أنصار لهم" (30).

ويصفهم في كلمة له في 21/ 8/ 1954 بأنهم فوضويون وهدامون:

"..ومن الذي يعارض الآن حباً في المعارضة والهدم؟

إنهم أولاً الشيوعيون، فكلنا يعرف، أن الشيوعية في مصر ليس لها من غرض إلا بث الفوضى، لأنها لا تعيش إلا في الفوضى، وهي لا تقبل ارتفاع مستوى الشعب، لأنه إذا ارتفع مستوى الشعب، فلن تستطيع أن تبث سمومها فيه" (31).

ويصفهم في خطاب له في هيئة التحرير يوم 5/ 9/ 1954 بأنهم مأجورون حين يقول:

"لن تحكم مصر من لندن أو موسكو، من الآن فصاعداً ستحكم مصر من مصر، هذا يجيبني قائلاً أنه شيوعي، ويتكلم عن الشيوعية الدولية، ومن أين يأكل؟ إنه لا عمل له.

إنه مأجور يعيش من أموال الشيوعية، ولن نخدع بعد اليوم في قضية الشيوعية، فتاة يهودية كانت تتحكم في الجميع، تتزوج أحدهم ثم تتركه وتتزوج الثاني، وفتاة أخرى تزوجت إثنين منهم ثم تركتهما وتزوجت الثالث" (32).

ويلقي بآخر آماله في أن تمد أميركا يد العون للشرق الأوسط لعلها تمنع بذلك الامتداد الشيوعي، فيقول في حديث لمجلة فورين أفيرز الأمريكية في 20/ 12/ 1954:

"إذا سلكت الولايات المتحدة الأمريكية سياسة شجاعة، وعاونت الشعوب المستعمرة على التخلص من السيطرة الأجنبية والاستغلال، فلن يكون ثمة سبيل إلى تسرب الشيوعية إلى أي جزء من أجزاء الشرق الأوسط وإفريقيا، والرجال الأحرار هم أكثر المدافعين حماسة عن حريتهم، وهم لن ينسوا الذين ظاهروا كفاحهم من أجل الاستقلال"[33].

والأحاديث السابقة ليست بحاجة لشرح أو تبسيط، فالعداء للشيوعية واضح فيها، عداء رجل لا يتوقع شيئاً من السوفييت أو من غيرهم من الكتلة الشيوعية، وعداء لا تمنعه المصالح والمنافع المرتقبة، رغم أن ناصر لم يتلق شيئاً من الغرب حتى يدلي بكل ما سبق ضد الشرق، نورد هذا وذاك لإدراك ذلك التغير الجذري الذي طرأ على العلاقات بين السوفييت ومصر بعد مؤتمر باندونج، ولكن ناصر ظل على موقفه من الشيوعية كفكر وعقيدة، ولكن بلهجة أقل حدة، وسوف نقرأ ذلك في الفصول القادمة..

ويوضح لنا خالد محي الدين الصورة عن الموقف المصري من السوفييت في تلك الآونة بالتحديد..1954، فيقول أن مجلس قيادة الثورة لم يكن بحاجة للكثير من الدراسة والتفكير لاتخاذ القرارات بخصوص طلب العون من الغرب أو الشرق، لأن الجهة التي استعدت لهذا العون أمست معروفة، والدليل على ذلك تقرير السيد حسن رجب عن استعداد السوفييت لذلك، ويضيف:

"وبالرغم من ذلك، فلم يكن هناك تحيز أعمى ضد الاتحاد السوفييتي، كان هناك خوف أو تخوف من أن تعجز الدول الاشتراكية عن مساعدتنا، وكانت الدعايات الغربية ضد الاتحاد السوفييتي والشيوعية في أوجها، واستغلت في ذلك الوقت الفترة التي سميت "بالستالينية"، والتي لم يكن خلالها للاتحاد السوفييتي علاقات واسعة بالعالم، بسبب ظروف خارجة عن إرادته.

ورغم هذا لا أستطيع أن أقول أنه كان هناك خط "معاد للشيوعية"، أو للاتحاد السوفييتي داخل مجلس قيادة الثورة، لكن كان هناك أعضاء في المجلس معادين للشيوعية للأسباب التي ذكرتها من قبل، وكانوا يخشون من نمو حركة الطبقة العاملة بشكل سياسي "(34).

مقاربات ودية

ويشهد عام 1954 تحسناً واضحاً في العلاقات، ويصبح السفير السوفييتي دانيال سولود زائراً دائماً لوزارة الخارجية المصرية، وأخذت مصر تستورد القمح والوقود بكميات كبيرة من روسيا، كما وسعت من علاقاتها مع الدول الشرقية كالمجر وتشيكوسلوفاكية وألمانيا الشرقية، وبدأت الفرق الرياضية السوفييتية بالتوافد على مصر لمقابلة الفرق المصرية، ويصرح المشير عبد الحكيم عامر لصحيفة "أزفستيا السوفييتية" بأن الخطر الوحيد الذي يهدد الوطن العربي صادر عن الغرب وليس عن الكتلة السوفييتية "[35].

مقاومة ناصر لسياسة الأحلاف

وفي عام 1954، اشتدت حملة ناصر على سياسة الأحلاف، والتي كان الشرق الأوسط ساحة لها..

فيبدي لمندوب مجلة يو إس نيوز آند ورلد ريبورت " في 30/ 8/ 1954 اعتراضه على أية معاهدة دفاعية عن الشرق الأوسط وآسيا، أو عن الشرق الأوسط وحده، تكون الدول الكبرى مشتركة فيها، وقال أن العرب يعلمون تنظيم الدفاع عن كيانهم، والوقوف في وجه أي اعتداء يوجه ضدهم.

وأضاف " أنه ضد مساهمة أي دولة عربية في أي حلف دفاعي كالحلف المعقود بين تركيا وباكستان، فإن اشتراك أية دولة عربية في الحلف التركي - الباكستاني سيثير ثائرة العرب.

وأبدى رأيه في قيام نظام للدفاع عن الشرق الأوسط تساهم فيه بريطانيا وأميركا، فقال:

إنه لا يستطيع أن يقبل أي مشروع بين هذه المشروعات،لأن شعوبنا ضد أي نظام من هذا النوع، إذ أنها تعده نوعاً من الاستعمار المقنع، وقال:

"أنه أوضح هذه الحقيقة للمستر دالاس، وأكد له أن فرض أي نظام من هذا النوع على الشرق الأوسط سيعود بأضرار بالغة على الجميع، لأنه سيهيء الفرصة أمام الشيوعيين لإثارة الحقد والكراهية ضده"[36].

الأوضاع جاهزة للتوجه إلى الاتحاد السوفييتي..

لقد كانت غاية القيادات " طنية في الوطن العربي التخلص من الاستعمار اولاً، بحصول بلادهم على الاستقلال التام، ورفع مستواها العسكري للوقوف في وجه التيارات والأطماع المعادية، وأولها إسرائيل. والنهوض ببلادهم - التي عانت الحكم التركي أربعة قرون - اقتصادياً واجتماعياً وحضارياً لمواكبة التقدم الذي حظيت به مختلف الأمم.

على الجانب الآخر، كانت القوى الغربية – ممثلة في بريطانيا وفرنسا- تحاول إبقاء موطىء قدم لها في الشرق الأوسط، بعد انتهاء فقدانها – تقريباً – تواجدها العسكري فيه.

ولا شك أن سلوك وزير الخارجية الأميركي جون فوستر دلاس(1888–1959)، قد أنتج المردود العكسي الذي كان يبتغيه وبلاده ضد القوى الوطنية في الشرق الأوسط، وأولها عبد الناصر، والذي كان مستهدفاً قبل غيره – في معظم الأحيان - بالساسات الغربية المعادية..

فقد كان فوستر وبلاده، يمارسون ما يسمى "سياسة ملء الفراغ" الذي حصل بسبب رحيل بريطانيا وفرنسا عن المنطقة، لذا لا بد من استقطاب حكام الشرق الأوسط بعقد معاهدات وأحلاف معهم للوقوف أمام أي امتداد سوفييتي محتمل...

وعليه، فإن أي محاولة للتيارات الوطنية للحصول على أصدقاء لدعم توجهاتم وخططهم، ستلقى الدعم والمؤازرة من أعداء الاستعمار الغربي، "وهكذا، فإن المائدة كانت جاهزة، وكانوا في انتظار الضيف، ولم يكن هناك أحد يستطيع أداء هذا الدور سوى الاتحاد السوفييتي، الذي كانت سياسته المعلنة تستجيب مع التطور العام للعملية التاريخية في المنطقة، وميول الشعوب"[37].

موقف السوفييت من مبدأ ايزنهاور وسياسة ملء الفراغ

وكانت الولايات المتحدة قد وقفت إلى جانب مصر في حرب السويس طالبة انسحاب المعتدين، ظانة أنها بذلك سوف تحل مكان الاستعمار البريطاني في المنطقة، فتقدم دوايت ايزنهاور(1890– 1969) الرئيس الأميركي الرابع والثلاثون (1953– 1961) إلى الكونغرس طالباً 200 مليون دولار لتقديمها إلى دول الشرق الأوسط دعماً لها مقابل رفضها أي عرض سوفييتي في كل المجالات، منعاً للخطر السوفييتي الشيوعي أن يمتد إلى المنطقة، غير مدرك احساس شعوب هذه المنطقة بالاستقلال، ورفض التبعية لأحد، وأن الخارج من نير الاستعمار لن يقبل خضوع البلاد لاستعمار جديد[38].

وقد كشفت السياسة الأميركية تجاه المنطقة سوء نواياها من طرح هذا المبدأ في عدة أمور:

1– فقد انضمت للجنة العسكرية لحلف بغداد، وبذا صارت أميركا دولة معادية للدول الحرة التي رفضت سياسة الأحلاف.

2– تجميدها الأموال المصرية الموجودة لديها، وكانت مصر خارجة لتوها من صدها للعدوان الثلاثي، وتواجه أوضاعاً سيئة من نقص الغذاء والأدوية، فرفضت اميركا الإفراج عن 27 مليون دولار من الأموال المصرية لديها، مما ألجأ مصر للاتحاد السوفييتي الذي سارع بالطائرات والمراكب لإمداد مصر بالأدوية والقمح[39].

"أما سوريا، فقد أكدت التحقيقات والمحاكمات التي تمت في المؤامرة الكبرى لقلب نظام الحكم اشتراك الولايات المتحدة في المؤامرة، وفي 10 يناير، أصدرت الحكومة السورية بياناً ترفض فيه نظرية الفراغ التي يتحدث عنها ايزنهاور، وأعلنت أن الدول الاشتراكية لا تشكل تهديداً للمنطقة، وأن الخطر الوحيد الذي يهدد الأمة العربية هو الاستعمار الصهيوني" (40).

من بيان وكالة تاس بخصوص مبدأ ايزنهاور، 13 كانون ثان 1957

"في الخامس من كانون الثاني توجه رئيس الولايات المتحدة الأميركية السيد ايزنهاور إلى الكونجرس برسالة خاصة عن سياسة الولايات المتحدة الأميركية في بلدان الشرقين الأدنى والأوسط.

وبعد أن وصف الرئيس في رسالته، الغاصة بالتهجمات على الاتحاد السوفييتي، الوضع الحالي في الشرقين الأدنى والأوسط بأنه وضع "حرج"، طالب بأن يسمح له باستخدام القوات المسلحة الأميركية في الشرقين الأدنى والأوسط في أية لحظة يرى فيها أن ذلك ضروري دون التماس سماح من الكونجرس كما ينص عليه دستور البلاد، وطالب رئيس الولايات المتحدة الأميركية كذلك بأن تمنح له صلاحيات تقديم "المساعدة" العسكرية والاقتصادية إلى بلدان المنطقة المذكورة، والمقصود خصوصاً، إنفاق 200 مليون دولار على "الدعم الاقتصادي" لبلدان هذه المنطقة.

إن طلب الرئيس ايزنهاور هذا يتعارض ومبادىء وأهداف هيئة الأمم المتحدة، وينطوي على تهجيج للسلام والأمن في منطقة الشرقين الأدنى والأوسط.

إن تصريحات رئيس الولايات المتحدة الإعلانية بأن الولايات المتحدة الأميركية تؤيد سيادة واستقلال بلدان الشرقين الأدنى والأوسط لا يمكن أن تتلاءم مع البرنامج العدواني الذي ينص على استخدام القوات المسلحة الأميركية في هذه المنطقة، ومن المعروف جيداً أن الاقتراح باستخدام القوات المسلحة الأميركية في الشرق الأوسط يسير شوطاً أبعد كثيراً من بيان عام 1950 الثلاثي البريطاني الفرنسي الأميركي السيء

الصيت، ومن مشروع تأسيس ما يسمى بقيادة الشرق الأوسط في عام 1951، اللذين رفضتهما االبلدان العربية بحزم، ووجدت في ذلك، عن حق، خطراً فعلياً على استقلالها الوطني..

إن برنامج الاستعمار الإمبريالي الذي طرحته الولايات المتحدة يدل على أن الأوساط الحاكمة الأميركية لم تستخلص العبر اللازمة من واقع فشل العدوان على مصر، وهي تحاول، كما هو واضح، العودة إلى سياسة "مواقع القوة" التي أفلست.

إن ذلك كله لا يساعد على تخفيف التوتر في هذه المنطقة، بل يؤدي، على العكس، إلى تأزيم الوضع، وإلى اشتداد الخطر على السلام في الشرقين الأدنى والأوسط، وهو يمثل تطاولاً على مبادىء هيئة الأمم المتحدة السلمية، التي استرشدت بها الجمعية العامة حيث أدانت العدوان على مصر منذ وقت قريب، انما يسمع في رسالة السيد ايزنهاور ليس صوت السلام، بل صوت الحرب.

وترى الأوساط السوفييتية المسموعة الكلمة أن الخطوات التي تنوي القيام بها حكومة الولايات المتحدة الأميركية إزاء منطقة الشرقين الأدنى والأوسط، والتي تنص على إمكانية استخدام الولايات المتحدة الأميركية قواتها المسلحة في هذه المنطقة يمكن أن تسفر عن عواقب وخيمة تقع مسئوليتها كاملة على حكومة الولايات المتحدة الأميركية [41].

ووجد السوفييت في مسألة ملء الفراغ الأميركية التي ابتكرها ايزنهاور فرصة ذهبية لشن حملة ضد الولايات المتحدة وسياستها في الشرق، مستفيدين من الأجواء السياسية السائدة في الوطن العربي آنذاك، فجاء في موجة البيانات والاحتجاجات السوفييتية ما خلاصته:

1- أن الولايات المتحدة تحاول أن تخدع العالم بإضفاء صفة معاداة الاستعمار على سياستها في المنطقة.

2- يحاول الأميركيون بهذا المبدأ تحويل الشرق الاوسط إلى مستعمرة أميركية.

3- واضعو هذا المبدأ ليسوا سوى آل روكفلر وآل ميلتون ورجال البترول التكساسيين، والصيارفة النيويوركيين.

4- أن تاريخ أميركا المليء بالمظالم والطغيان لا يدل على نية حسنة من وراء هذا المبدأ.

5- يتنافى هذا المبدأ مع ميثاق الأمم المتحدة ومقررات باندونج، فهو مبدأ يبشر بالحرب الذرية، ويوحي بالحرب لا بالسلام.

6- ولم ينس السوفييت المسألة النفسية في المبدأ لأنهم كانوا يعرفون جيداً أن ما من شيء يمكن أن يثير العرب، ويسيء لهم أكثر من لفت الأنظار إلى ضعفهم العسكري، وأكثر من التقول عنهم بأنهم لا يستطيعون دفع عدوان [illegible][42].

ورغم السماح للسفارة الأميركية بتوزيع مبدأ ايزنهاور، إلا أن الردود السوفييتية - ومنها ردود خروتشوف نفسه - لقيت صدى موافقاً لها في الصحافة المصرية، فاعتبر المبدأ [illegible] عن العدوان الثلاثي، [illegible] ثماره الفشل الذريع[43].

حلف بغداد وحوار ناصر مع نوري السعيد

يعود مشروع حلف بغداد إلى عام 1951، عندما تقدمت أميركا وبريطانيا في 13 تشرين أول 1951، وباشتراك تركيا، بإنشاء كتلة للدفاع عن الشرق الأوسط ضد الكتلة الشرقية (قاصدين بالطبع الاتحاد السوفييتي لا غير، لأن حلف وارسو لم يكن قد تأسس بعد)، وكان من الدول المقترحة للانضمام للحلف مصر واستراليا ونيوزيلندة وجنوب إفريقيا وإسرائيل، ولكن بدلاً من أن ينجح الحلف في ضم أعضاء جدد من الدول التي تشكل حداً شمالياً للشرق الأوسط كمصر وافغانستان وسوريا والهند، فقد دفع وجوده لدفع هذه الدول لإقامة علاقات قوية مع الاتحاد السوفييتي[44].

وفي كتابه "ملفات السويس" يروي لنا محمد حسنين هيكل الحوار الذي دار بين رئيس الوزراء العراقي نوري السعيد وعبد الناصر في السفارة العراقية في القاهرة في 14 أيلول 1954.

فبعد أن أبدى نوري السعيد استغرابه من موقف ناصر من الأحلاف، وأن هذا العصر هو عصر العمل الجماعي، بدليل تأسيس حلف الأطلنطي وحلف جنوب شرق آسيا، وإن لم يعد بمقدور أية دولة أن تقف وحدها، وتساءل ضاحكاً: على من يمكن الاعتماد، على اليمن على ليبيا على لبنان؟

فرد ناصر: لا، وإنما على مصر وسوريا والعراق والسعودية، وفي نفس الوقت فإن اليمن وتونس ولبنان يمكن أن يكون لها أدوار مؤثرة.

نوري السعيد: ولكن من يعطينا السلاح؟ ومن يساعدنا إذا حوجنا؟ ثم ان الاعتماد لن يفي بأغراضه إلا بعد عشرات السنين، وماذا سيحدث لنا في هذه العشرات من السنين؟

ناصر: هناك سؤال مبدئي يجب تحديده أولاً، وتحديد الإجابة عنه : من هو العدو المحتمل أن نواجهه، وما مصدر أو مصادر التهديد على العرب؟ عندما نحدد الإجابة عن هذا السؤال نكون قد حددنا في نفس الوقت المهمة التي تنتظرنا، إنه في رأيي ورأي الشعب المصري أن الخطر علينا والتهديد المحتمل مصدره إسرائيل...

فقاطعه نوري السعيد: والروس؟

ناصر: الروس ليسو خطراً حالاً، فهم بعيدون عنا، وليست بيننا وبينهم حدود، وإذا اقتربوا منا خطوة واحدة فمعنى ذلك حرب عالمية أكبر منا، فضلاً عن أننا لا نملك أسلحتها لأنها ستكون ذرية.

نوري السعيد: هذا الوضع قد يكون صحيحاً بالنسبة لمصر، ولكنه ليس صحيحاً بالنسبة للعراق، فبيننا وبين الحدود الروسية عبر جبال راندوز مسافة 30 كيلو متر فقط من الأراضي الإيرانية، وهذا يفرض علينا أن نتوجه إلى الخطر الروسي.

ناصر: إن الروس لن يقتربوا من هذه الثلاثين كيلو في إيران إلا إذا قرروا اجتياحها، وهذا يعني حرباً عالمية، وهذا أمر يجب أن نبقيه خارج حساباتنا في الغد المرئي على الأقل.

وبدا على نوري السعيد التضايق مما سمع، ورد:

نوري السعيد: أنت لا تصدقني أنها ثلاثين كيلو متر فقط التي تفصل بيننا وبين الاتحاد السوفييتي، سوف أجيئك بخارطة لترى المسألة بنفسك.

وأتى له أعوانه بخريطة كبيرة ثم فرشها على الأرض، ودعا ناصر لرؤية جبال راندوز..

وأصر نوري السعيد على رأيه أن الخطر الشيوعي لا يمكن مواجهته إلا بحلف مع الأمريكان والإنجليز.

ناصر: ولكن أين إسرائيل من ذلك كله؟

نوري السعيد: إن الغرب سيعطينا سلاحاً للوقوف معنا ضد الروس، والسلاح الذي سنأخذه منهم سوف يكون في أيدينا لمحارب به من نشاء.

ناصر: وهل يعطيك الأميركان والإنجليز سلاحاً تحارب به إسرائيل؟

وسكت نوري السعيد..ثم قال:

- إنك ترغمني أن أقول لك خطتي قبل أوانها، ما هو رأيك في ستين فرقة إضافية تضاف إلى قواتنا في معركة مع إسرائيل؟

ناصر: يدي على كتفك، أين هي هذه الفرق الستون؟

نوري السعيد: أتراك وباكستانيون، إذا دخلنا معهم فسوف يدخلون معنا.

ناصر: وهل يسمح لهم الإنجليز والأميركان؟

نوري السعيد: إنهم لن يطلبوا إذناً.

ناصر: وكيف تضمن ذلك؟

نوري السعيد: اعتمد علي..

ناصر: أريد ان اعتمد عليك ولكني لا أريد ان ألغي عقلي..

ويضيف هيكل بأن المناقشات استمرت في حلقة مفرغة، وبدا واضحاً أنها لا تصل بهما إلى شيء [45].

ومن هذا الحوار نستطيع أن ندرك مدى ارتباط نوري السعيد الوثيق بالغرب، وقناعتة بما مثله له أسياده الغربيين من خطر سوفييتي داهم على بلده العراق وعلى المنطقة، ومع أن سنه كان ضعف سن ناصر آنذاك، إلا أنه لا يستطيع إقناع ناصر بشيء، فالقارىء يلاحظ أن ناصر كان مقنعاً بكل حججه وآرائه، وعلى عكسه تماماً كانت طروحات محاوره نوري السعيد، المتحالف، بكل وجدانه وأحاسيسه، مع الغرب.

ولم تكن الولايات المتحدة عضواً في حلف بغداد، ولكنها اشتركت عضواً في لجنتيه الاقتصادية والعسكرية، ولكن الاتحاد السوفييتي لم يقف مكتوف الأيدي إزاء حلف بغداد، فقد وجه إنذاراً إلى دول الحلف حذرها فيه من إقامة قواعد للصواريخ أو الأسلحة في دول المنطقة[46].

وقد أثبتت الأيام صحة ما ذهب إليه عبد الناصر بالكامل..

فالغرب لم يقدم شيئاً للعراق مقابل انضمامه للحلف.

والسوفييت لم يشكلوا أي خطر على العراق، ولا على المنطقة رغم مضي أكثر من 58 عاماً على هذه المناظرة، بل ما شكلوه هو العكس تماماً، فكانوا النصير العظيم والوحيد لدول المواجهة ضد اسرائيل ودول الاستعمار..

ولم يقبل العراقيون هذا الإنضواء تحت الراية الغربية، فقام انقلاب في العراق في 14 تموز 1958، وانسحب العراق من الحلف، وقتل نوري السعيد!

الا مجاملات رغم حاجتنا للكبار

وفي خطاب له في 6 تموز 1955 يبين سبب معارضته للأحلاف، فيقول:

"وعندما رفضنا الدعوة إلى الأحلاف، قلنا إن لنا نظرية، ولنا فكرة نؤمن بها كل الإيمان، لأن أي تحالف مع الدول الكبرى يعني السيطرة، وطلبنا من الدول العربية التضامن تحت لواء الدفاع المشترك، لأن هذه الأحلاف هي أحلاف الذئب والحمل، ولا بد أن يأكل الذئب الحمل"[47].

ويوضح لنا ناصر سبب موقفه الصارم من الإنضواء تحت راية أي حلف من الأحلاف في كلمات قليلة، وذلك في حديث له لصحيفة لوموند الفرنسية في 2/ 8/ 1955، فيقول:

"إن أول واجباتنا هو التخلص من كل سيطرة أجنبية..

لقد قلت وأنا أوقع الاتفاق المصري البريطاني في العام الماضي إن هذه المعاهدة ستكون آخر المعاهدات التي نعقدها مع دولة أجنبية.. إن بلادنا لن تقبل أية التزامات عسكرية جديدة، والواقع أنه ليس هناك من سبب يحملنا على الانضمام إلى هذا المعسكر أو ذاك، وإن جوابي لمن يسألني عما إذا كنت أفضل الولايات المتحدة أو روسيا هو أنني أفضل مصر، فمصلحة بلادنا وحدها يجب أن تملي علينا خطتنا"[48].

ولدى سؤاله فيما إذا كانت مصر قد أغلقت الطريق نهائياً في وجه الشيوعية، يصرح لنفس الصحيفة في اليوم ذاته:

"الحق يقال أن الحرب الباردة قد استعرت في مصر، فكل من المعسكرين يلقي فيها بذخيرته، فالأمريكيون يلقون بدولاراتهم، والشيوعيون يوزعون نشراتهم، ولكن الكل يعلم أننا نعمل على منع أولئك وهؤلاء من تسميمنا، وإيقاع شعب سليم في الضلال"[49].

وفي الخطاب الذي أعلن فيه عن عقد الصفقة التشيكية في 27 أيلول 1955، يقول ناصر كاشفاً أساليب الغرب للضغط على مصر لدخول الأحلاف:

"...منذ قامت الثورة ونحن نطالب بالسلاح.. ونحن نوعد بالسلاح، وماذا كانت النتيجة؟

كانت الوعود، وعوداً مرتبطة بشروط، نأخذ السلاح على أساس أن نوقع على ميثاق أمن متبادل، نأخذ السلاح على أساس أن نوقع على حلف من الأحلاف، ورفضنا أن نوقع وثيقة الأمن المتبادل، ورفضنا أن نوقع على حلف من الأحلاف، ولم نستطع أبداً يا إخواني أن نأخذ من أمريكا قطعة من السلاح "[50].

ويلخص موقفه من الأحلاف في كلمات قليلة في حديث لصحيفة "جورنالي إيطاليا" في 28/ 11/ 1955، فيقول:

"وقد رفضت الاشتراك في الأحلاف لأني أعتقد أن التحالف مع الشرق أو الغرب معناه تسرب النفوذ الأجنبي، وضياع الاستقلال في نهاية الأمر"[51].

لقد كان ناصر يرى أن انضمام المنطقة للأحلاف سيفقدها حريتها واستقلالها، ويعيدها إلى الوراء إلى زمن العبودية والتخلف، ويحيلها إلى التبعية للاستعمار الذي بذلت الأمة الكثير للخلاص منه، عبر عقود من الثورات والكفاح.

وقد كان رد الدول الغربية على هذه السياسة المعلنة الدعم المطلق لإسرائيل، وإمدادها بالمال والسلاح ، ومنع السلاح وكل وسائل الدعم عن مصر وبقية دول الشرق الأوسط.

إذن.. فنحن أمام سياسة واقعية لا يجامل أصحابها أحداً..

فرغم حاجة مصر الماسة لدولة كبرى تقف معها في صراعها مع إسرائيل، ومن يقف معها في خندق واحد، فإن هذا لا يعني خنوعها وخضوعها لمطالب وغايات من يقدم هذه المساعدة والعون.

فكان رفض سياسة الأحلاف مطلباً لا بد عنه، لأن مصر ذاقت ويلات الاستعمار ومصائبه، لذا ليس لديها ما تقدمه له سوى الرفض والمقاومة، بل ومساعدة الآخرين وتأييدهم – سواء من الدول الشقيقة أو الصديقة – على مقاومته، والتحرر منه.

وسوف نرى في الفصول القادمة ان السوفييت لم يسببوا الإحراج لمصر بمطالب استعمارية، بل ما سنعرفه أن ما قدم لمصر كان مجاناً، بغض النظر عن غايات السوفييت وأهدافهم.

الفصل الثاني

البدايات من مؤتمر باندونج

18- 25 نيسان 1955

تمهيد

قبل التعرف على مؤتمر باندونج، وهو أول مؤتمر يجمع بين شعوب القارتين، تم عقد مؤتمرات عدة، إقليمية أو قارية، فمنها ما عقد على صعيد القارة الآسيوية، ومنها ما عقد على صعيد القارة الأفريقية، وكل هذه المؤتمرات كانت تندد بالاستعمار، وتطالب بحرية تقرير المصير، والاستقلال، ولم تكن قرارات هذه المؤتمرات تشمل شعوب القارتين في نفس الوقت، رغم المعاناة المشتركة التي كانت تعاني منها شعوب القارتين[1].

ومن هذه المؤتمرات لشعوب آسيا:

1- مؤتمر برفيل: وقد عقد عام 1926، وقد نددت الوفود المشاركة فيه بالسياسة الاستعمارية التي تمارسها الدول المستعمرة في مستعمراتها الآسيوية.

2- مؤتمر ناجازاكي: عقد عام 1926 باليابان، وقد دعا المجتمعون فيه إلى الوحدة في تنسيق الجهود لمواجهة الاستعمار.

3- مؤتمر طوكيو: عقد في نوفمبر 1943، شارك فيه ممثلو الدول التي احتلتها اليابان، وقد كان مناهضاً للسياسة التوسعية اليابانية.

4- مؤتمر نيودلهي الأول: عقد في نهاية آذار 1947 بعد استقلال الهند، وبحث في المشاكل العنصرية، وسبل التعاون الاقتصادي والثقافي، وقد حضره الزعيم الهندي نهرو، وشاركت فيه مصر وبعض الدول العربية.

5- مؤتمر نيودلهي الثاني، 23 كانون ثان 1949: وقد شارك فيه حوالي خمس عشرة دولة، وكان الهدف منه مناقشة المسألة الاندونيسية، وتبرز أهمية المؤتمر في تأكيد جميع الوفود – باستثناء استراليا- على ضرورة إنشاء مجموعة آسيوية.

6- مؤتمر باجيو- الفلبين 26-30 أيار 1950: وكان الهدف منه تأسيس كتلة آسيوية لمواجهة الصين الاشتراكية.

7- مؤتمر كولمبو – سيري لانكا، 5 نيسان 1954: وحضرته كل من بورما وسيري لانكا وأندونيسيا وباكستان، وكان الهدف منه إنهاء الحرب بين فرنسا وفيتنام [2].

أما المؤتمرات الإفريقية فكانت:

1- المؤتمر الإفريقي الأول عام 1919 في باريس، واشترك فيه 57 وفداً من إفريقيا وجزر الكاريبي، وكانت الغاية من انعقاده التنديد بالعنصرية، ومحاربة التمييز العنصري.

2- المؤتمر الإفريقي الثاني عام 1921، في لندن. وكان الهدف منه بحث قضايا الشعوب الإفريقية، وما تعانيه من اضطهاد على يد مستعمريها.

3- المؤتمر الإفريقي الثالث، لندن، صيف 1923، وحضره شخصيات أوروبية اشتراكية أمثال هارولد لاسكي، والكاتب الإنجليزي ه. ج. ويلز.

4- المؤتمر الإفريقي الرابع، نيويورك، 1927، واشترك فيه 100 مندوب، وقد اتخذ قرارات تتعلق بالمرأة الزنجية في اميركا وإفريقيا. وفي العام ذاته عقد مؤتمر الشعوب المضطهدة في بروكسل في شباط 1927، وقد ندد بالاستعمار واعتبره سبباً للحروب.

5- المؤتمر الإفريقي الخامس، عقد في مانشستر – بريطانيا، في تشرين اول 1945، ومن قراراته الاستقلال التام لشعوب المنطقة، وإلغاء الحكم البريطاني المصري للسودان وتأييده في الاستقلال عنهما [3].

وما نستطيع الوصول إليه مما سبق، أن شعوب القارتين قد تمرست بالمؤتمرات، وأهدافها، وما يمكن أن تتمخض عنه من تأسيس للكتل التي تساعد على توحيد المواقف تجاه المشاكل والقضايا المشتركة، وقد أدى هذا التمرس إلى عقد مؤتمر باندونج، أول مؤتمر لشعوب القارتين معاً، والذي كان له دوراً أعظم وأعمق في تشكيل وتوجيه العلاقات الدولية، وبالذات على ساحة الشرق الأوسط.

بعد الحرب العالمية الثانية، وبداية الحرب الباردة، رأت الدول الأوروبية، فرنسا وانجلترا وبلجيكا وهولندة ولوكسمبورج أن مصالحها تقتضي أن تتحالف، وقد تم ذلك في ميثاق وقعته هذه الدول في بروكسل في 17 آذار 1948، ولكن هذه الدول مجتمعة وجدت أنها لا تستطيع مجابهة ما دعته بالتوسع السوفييتي، ليتبنى السناتور الأميركي فاندنبرج انضمام الولايات المتحدة لهذا الحلف، فتم ابرام معاهدة حلف شمال الاطلسي NATO، وبعد موافقة الكونجرس الاميركي عليها، تم توقيعها في واشنطن في 25 تموز 1949. فكانت الدول المؤسسة لهذا الحلف: بلجيكا، كندا، فرنسا، وايسلندة، وايطاليا، اللوكسمبورج، هولندة، النرويج، البرتغال، المملكة المتحدة، الولايات المتحدة، ثم انضمت إليها اليونان وتركيا عام 1952، وألمانيا عام 1954.

والمتأمل مواقع هذه الدول يدرك أن الهدف غير المعلن لهذا الحلف "إقامة حزام أمان واحد قبالة الاتحاد السوفييتي"[4].

أما حلف وارسو، فقد ظهر إلى الوجود في 14 ايار 1955، اي بعد 6 سنوات من تأسيس حلف شمال الاطلسي، ولعله جاء رداً مباشراً على انضمام المانيا إلى الحلف المذكور، وقد انضم لهذا الحلف: البانيا، بلغاريا، تشيكوسلوفاكية، المانيا الديمقراطية، المجر، بولونيا، رومانيا، الاتحاد السوفييتي[5].

ولا يخفى على الباحثين أن دول هذا الحلف قد تداعت للتحالف بعد "انبعاث المانيا الغربية كدولة عسكرية قوية في قلب أوروبا وادماجها في الترتيبات العسكرية للكتلة الغربية"[6]، فالذكريات – غير السارة – عن المطامع الألمانية في ما جاورها من دول ما

تزال في أذهان الأوروبيين الشرقيين، وبالذات التجربة السوفييتية خلال الحرب العالمية الثانية، لذا لا بد من تحالف قوي يقابل ويقاوم أي حلم ألماني هتلري جديد!

وفي جنوب شرق آسيا تم تأسيس حلف جنوب شرق آسيا، والذي ضم الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا واستراليا ونيوزيلندة والفيليبين وتايلاند.

فلم يبق لاكمال الطوق حول الاتحاد السوفييتي سوى حزام من تركيا الى الباكستان، فتم تأسيس ما دعيَ بحلف بغداد، والذي ضم تركيا وايران والعراق والباكستان[7]، والذي رفضت مصر بقوة الانضمام إليه.

وعلى إثر إبرام حلف بغداد وحلف جنوب شرق آسيا، تقرر عقد أول مؤتمر للدول الإفريقية الآسيوية المستقلة في باندونج ثالثة مدن إندونيسيا، في الفترة ما بين 18-25 نيسان 1955، وقد حضره مندوبون عن 29 دولة، وهي:

جمهوريات: الهند، سيلان، إندونيسيا، مصر، الصين الشعبية، كمبوديا، لبنان، لاوس، الفلبين، سوريا، تايلاند، تركيا، فيتنام الشمالية، فيتنام الجنوبية، السودان، غانا، بورما، باكستان.

والممالك: اليابان، أفغانستان، أثيوبيا، إيران، العراق، الأردن، ليبيا، نيبال، السعودية، اليمن[8].

ويرجع الفضل لانعقاد المؤتمر إلى نهرو رئيس وزراء الهند، وشو إن لاي رئيس وزراء الصين، وكان نهرو في زيارته للقاهرة قد أعرب عن رغبته الشديدة في حضور عبد الناصر المؤتمر، والذي كان الهدف من انعقاده إثبات تضامن دول آسيا وإفريقيا المحايدة غير المنحازة"[9].

رأي السوفييت في مؤتمر باندونج

وقبل انعقاد المؤتمر بيومين، أصدرت وزارة الخارجية السوفييتية بياناً لا يخلو من التشجيع والدعم للمؤتمرين، وقد جاء فيه:

"..لأول مرة في التاريخ يجتمع مندوبون من تسع وعشرين دولة، آسيوية وإفريقية، يمثلون أكثر من نصف تعداد البشر، ليتدارسوا معاً مشاكل على جانب من الخطورة والأهمية في تدعيم السلام والتعاون بين الشعوب"[10].

وجاء في البيان "أن الحالة العامة في الشرق الأوسط قد ازدادت خطورة في الأشهر الأخيرة، نتيجة محاولة الدول الغربية جر الأقطار العربية إلى أحلاف عسكرية، وأتى البيان بشكل خاص على ذكر الضغط الذي تعرضت له سوريا ومصر من أجل الانضمام إلى تلك الأحلاف، وأكد البيان بأن الاتحاد السوفييتي لن يقف مكتوف الأيدي في وجه هذه المغامرات الغربية، وأن هذا الموقف من الاتحاد السوفييتي لا يحتاج إلى تفسير، لأن الاتحاد السوفييتي خلافاً للولايات المتحدة، هو دولة مجاورة لأقطار االشرق الأوسط.

وكان هذا البيان بمثابة إشعار بأن السياسة السوفييتية للشرق الأوسط ستنشط، ومع ذلك فإن القليل الأقل من المراقبين الغربيين هم الذين أولوا الأمر الاهتمام الوافي[11].

ولم ترحب الدولتان العظميان بقيام سياسة عدم الانحياز، بل وقفت موقف المعارضة منهما، فوجد فيها دالاس وزير الخارجية الاميركي نوعاً من اللاأخلاقية وقصر النظر، واتهمت أميركا الزعيم الهندي نهرو بالانصياع للشيوعية، ووافق هذا الموقف موقف السوفييت الذين وجدوا في هذه السياسة تبعية جديدة للاستعمار[12].

ولكن، على ما يبدو، أن السوفييت كانوا يريدون كسب أعضاء المؤتمر قبل انعقاده، فمنذ عصر ستالين، كان السوفييت لا يحبون ما يسمى بالحياد، وقد شرحنا رأي ستالين ذاك في الصفحات السابقة، لذا لا نستغرب ما صرح به خروتشوف عام 1958، مبدياً عدم ارتياحه للنشاط اليوغسلافي في موضوع الحياد:

"..إن سياسة الحياد الايجابي التي يعمل اليوغسلافيون على التبشير لها تحتوي على رائحة نفوذ الاحتكارات الأمريكية التي تساهم في بناء الاشتراكية اليوغسلافية"[13].

وفي طريقه إلى باندونج، يلتقي عبد الناصر في بورما بشو إن لاي وزير خارجية الصين آنذاك، وبعد الحديث عن نية الصين استيراد القطن من مصر، طرح ناصر موضوع

تسليح الجيش المصري، وسأله عن استعداد الروس لإمداد مصر بالأسلحة، ووعده شو إن لاي ببحث الأمر معهم، لكنه حذر ناصر من التعقيدات التي ستخلقها له الدول الغربية إذا ما وافق الروس ، فرد ناصر أنه مستعد لمواجهة كل التعقيدات، إذ لم يبق إلا الروس كسبيل وحيد لتسليح مصر، وبعد عودة ناصر من المؤتمر، جاءه رد شو إن لاي بأن الروس مستعدون لعقد الصفقة إذا ما طلب ناصر ذلك [(14)].

وافتتح الرئيس الإندونيسي سوكارنو المؤتمر بكلمة لخصت غايات عقده، فقال:

"إنه ليشرفني أعظم الشرف ان أرحب بكم باسم اندونيسيا..

إن هذا المؤتمر ينعقد باتفاق من كل دوله، على عداء للاستعمار والتفرقة العنصرية، وفي عزمها على العمل جميعاً لكفالة أمن العالم واستقراره، والمسائل المعروضة إنما تتصل بمستقبل الجنس البشري، بحياته أو بفنائه، وعلينا أن نواجهها بشجاعة وحزم.

إن الاستعمار لم ينته، ولكنه اتخذ شكلاً آخر له يبدو بالتحكم الاقتصادي والثقافي، ويبدو في السيطرة على شئون هذا العالم..إن الحرب تهدد الاستقلال، وفيها القضاء المبرم على المدنية والجنس البشري، فلنعش، ولندع غيرنا يعيش، وليكن شعار المؤتمر "لنعمل على خلق آسيا وإفريقيا خلقاً جديداً" ثم ختم خطابه قائلاً:

"لنضع نصب أعيننا، ولنذكر أن أكبر نعم الله هي الحياة والحرية، وسيظل وضع البشرية مهيناً ما بقيت شعوب بأسرها أو أجزاء منها غير حرة، ولنذكر أن أرفع هدف إنساني هو تحرير الانسان مما يكبله في أغلال الخوف والهوان والفاقة التي أعاقت تقدمنا زمناً طويلاً،..من أجل ذلك يجب علينا نحن الآسيويين والإفريقيين أن نتحد"[(15)].

وينبه الدكتور بطرس غالي إلى مسألة مهمة في تحديد هوية مؤتمر باندونج، فهو لم يكن مؤتمراً لدول عدم الانحياز، فيقول:

"إن مؤتمر باندونج كان أول مؤتمر للدول الأفروآسيوية، وليس أول مؤتمر لدول عدم الانحياز، وأن الدول المنحازة في هذا المؤتمر كانت تمثل الأغلبية الكبرى من أعضاء هذا المؤتمر، إذ أن الدول التي اشتركت في المؤتمر وعددها تسع وعشرون دولة كان

معظمها مرتبطاً بالمعسكر الغربي، بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر، او عن طريق معونات اقتصادية، بل إن عشرين دولة من مجموع الدول المشتركة في المؤتمر نالت في عام انعقاده معونات اقتصادية من الولايات المتحدة قدرها خمسمائة مليون دولار، والحق أنه لم يكن من الدول التي اشتركت في المؤتمر إلا ست دول نستطيع ان نقول أنها حيادية، ملتزمة بسياسة عدم الانحياز، وهي: أفغانستان، اندونيسيا، بورما، سوريا، ومصر، والهند، وحتى هذه الدول الست لم يكن عدم الانحياز واضحاً أمامها، متبلوراً في آثاره وأبعاده فيها"[16].

وهنا تواجهنا إشكالية نادرة...

فحسب طبعة خطابات عبد الناصر والصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت في طبعتها الأولى عام 1996، وتضم نص الخطاب الذي ألقاه عبد الناصر في مؤتمر باندونج في 21/ 4/ 1955، لا يذكر فيه عبد الناصر "عدم الانحياز" ولا "الحياد الايجابي على الإطلاق!..

ولكن النص الذي يورده الباحث مختار مرزاق في كتابه "حركة عدم الانحياز في العلاقات الدولية"، يورد فيه فقرات من ذلك الخطاب التاريخي ناقلاً عن خطابات ناصر طبعة دار الهلال (بلا تاريخ)، بتقديم فتحي رضوان، فيقول بعد فقرة وردت في طبعة بيروت، أن ناصر قد أضاف قائلاً:

"..ظهر في المنطقة الحياد الايجابي، وعدم الانحياز، كلام سيؤمن به كل مواطن في المنطقة العربية، كان ينادي بعدم الانحياز، بالحياد الايجابي، إن الدفاع عن المنطقة يجب أن ينبعث من المنطقة نفسها بدون الاشتراك مع أية دولة كبرى معناه وضعنا ضمن مناطق النفوذ..

ويضيف ناصر حسب تلك الطبعة:

"إن مصر تتبع سياسة عدم الانحياز.. سياسة الحياد الايجابي.. لكن توسع معسكر السلام..لأن العالم انقسم إلى معسكرين..وأصبحت دول العالم مقسمة..جزء منها مع

هذا المعسكر، وجزء مع المعسكر الآخر..لا بد أن تقوم حرب.. ولا بد أن تقاسي البشرية الأهوال.. اليوم ونحن ننادي بالحياد الايجابي، وبعدم الانحياز، إنما نعمل على كسر حدة التوتر، وإنما نعمل على إبعاد شبح الحرب، وإنما نعمل على تثبيت السلام[17].

ولا يعرف الباحث لم تم حذف هذه الفقرات من خطابه المهم هذا في طبعة بيروت التي ذكرت، وما المنفعة من ذلك!

وبناء على ما سبق..

ومع بداية عام 1955 يحاول الأميركيون والإنجليز، وبكل الوسائل، منع ناصر من الذهاب إلى باندونج، وبلغ بهم الأمر أن زعموا أن هناك محاولة لاغتياله هناك، ولكن ذلك كله لم يردع ناصر عن المشاركة في باندونج.

ولا ننس أن مصر كان لها توجهات شرقية قبل مؤتمر باندونج، هذه التوجهات مهدت السبيل لتحركات كبيرة عام 1955، ومن ذلك عقد مصر اتفاقيات تجارية مع المجر وبولندة، وأقامت تشيكوسلوفاكية معرضاً تجارياً في القاهرة في آذار 1955، وقام السوفييت مساعدة مالية لمنكوبي الفيضانات في إقليم قنا[18].

وكانت تواجه ناصر في تلك الآونة عدة مشاكل، منها:

1- مشكلة الأحلاف والضغوط التي يتعرض لها بسببها.

2- مشكلة ارتباطه بالحركة الآسيوية – الإفريقية.

3- ظن الانجليز أن ناصر كان يناور حين قبل في معاهدته معهم وجود قاعدة لهم في منطقة السويس.

4- مشكلة تسليح الجيش المصري.

5- تنمية مصر الاقتصادية.

6- مشاكل مصر الاقتصادية والاجتماعية[19].

وكانت مصر قد خفضت من ميزانية الجيش 5 ملايين لصالح التنمية الاقتصادية، ولكن الغارة الإسرائيلية على غزة في 28 شباط 1955، دفعت ناصر للتصريح بأن موضوع السلاح هو الأهم، لأن كل ما يمكن أن تبنيه مصر سيكون تحت رحمة إسرائيل وعدوانيتها، وكان مصيباً[20].

ومن أهم ما جرى في المؤتمر تمسك تركيا والباكستان والفيليبين بروابطها السياسية والعسكرية مع الغرب، في حين ركزت الهند ومصر وبعض الأقطار على العلاقات السياسية بين الشرق والغرب، ومع أن معظم دول المؤتمر أعلنت حيادها بين المعسكرين الشرقي والغربي، الا أن حيادها لم يساعدها على التخلص من تورطها في الحرب الباردة بين المعسكرين، فهي خارجة لتوها من عهد الاستعمار، وما زالت بحاجة للمعونات العسكرية والتجارية والمالية لتستطيع الوقوف على أقدامها في خضم الحرب الباردة التي حفلت بها العقود التالية للحرب العالمية الثانية[21].

ومما جاء في كلمة عبد الناصر في المؤتمر:

"لقد اجتمعنا في هذا المؤتمر ممثلين للدول الآسيوية والإفريقية، وثمة تشابه يسترعي النظر بين الظروف القائمة في القارتين، وهو تشابه من شأنه أن يوحد بينها، وقد تخلصنا من عهد طال أمده، كنا فيه تحت تأثير نفوذ أجنبي في شؤوننا الاقتصادية والسياسية سواء، تواجهنا الآن مشاكل النهوض الاقتصادي والتطور الاجتماعي والسياسي، فليس يعجب إذن أن تقرب هذه الأمور بعضنا من بعض، فنشعر بشعور واحد، وهو ما يبدو جلياً في وجهات نظرنا لحو السلم العالمي، والعدالة الدولية"[22].

وكان الأميركيون ينظرون لعدم الإنحياز نظرة عدائية، وقد عبر عن هذه النظرة جون دالاس وزير الخارجية الأميركي حين قال:

"باستثناء ظروف نادرة جداً، فإن الحياد فكرة لا أخلاقية، وقصيرة النظر"[23]، ولم يكن السوفييت في عهد ستالين بمنأى عن هذا الرأي، ففي مؤتمر شيوعي دولي عام 1947، يخاطب زادانوف سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي المؤتمر قائلاً:

"إن العالم مقسوم إلى معسكرين متعاديين ومتعارضين، يقود أحدهما الرأسماليون الأمريكيون، وكان هذا المعسكر يعد العدة لشن الحرب، والمعسكر الآخر، يقوده الاتحاد السوفييتي، المحب للسلام، والذي يدافع عن الحرية"(24).

ولا يخبرنا زادانوف بنبذ المعسكرالسوفييتي أيضاً للحياد الذي تمارسه معظم الدول المستقلة!

ولم يكن ازدياد عدد الدول المستقلة في صالح المعسكرين المتعاديين، وهذا ما دفعهما إلى التعاون الاقتصادي والسياسي مع هذه الدول، وقد كان الشرق الأوسط مرتعاً خصباً لهذا التعاون، وبالتالي الصراع بما يسمى بالحرب الباردة.

لقد أخذ السوفييت في إسقاط مقولة ستالين "من ليس معنا فهو ضدنا، واستبدلوها بالشعار الجديد الذي خطه خروتشوف، وهو "من ليس ضدنا فهو معنا"(25).

وفي 18 أيار 1955، وفي حفلة في السفارة السودانية، يلتقي ناصر بالسفير السوفييتي في مصر دانييل سولود، الذي صرح بأنه تلقى تعليمات بلاده للقائه، فتم اجتماعهما في 21 أيار 1955 في مكتب رئيس الوزراء، لتكون السطور الأولى لصفقة الأسلحة التشيكية الشهيرة، وأرسل الروس الكولونيل تيموشنكا لبحث متطلبات مصر من السلاح(26).

ويضيف المؤرخ أحمد حمروش أن سولود قد ذكر "استعداد السوفييت للمساهمة في المشروعات الصناعية التي يحتاجها تطوير المجتمع"(27).

ولم يخل استعداد الروس هذا من الإحراج لهم..

فقد كان مزمعاً عقد مؤتمر القمة للدول الأربع الكبرى في جنيف في الفترة 18-24 تموز 1955، وقد حضره الرئيس الأمريكي أيزنهاور، ووزير خارجيته جون دالاس، والزعيم السوفييتي خروتشوف، ورئيس الوزراء السوفييتي بولجانين، ورئيس الوزراء البريطاني انتوني إيدن، ورئيس الوزراء الفرنسي إدغار فور، "لذا شعر الروس بأنهم إذا ما أقدموا على تزويد مصر علناً بالسلاح فإن ذلك قد يعتبر خرقاً متعمداً لروح جنيف"(28) (ناصر والعالم 78)، والذي كانت الغاية من عقده "تقسيم مناطق النفوذ بين الكبار بما يسلب غيرهم إمكانيات الحركة والمناورة"(29).

وكان الاتحاد السوفييتي قد طلب إدراج قضية الشرق الأوسط على جدول أعمال المؤتمر.

ويراقب عبد الناصر المؤتمر باهتمام بالغ، فعزز السفارة المصرية في جنيف بعدد من المراقبين الخبراء أمثال الدكتور مصطفى كامل أستاذ الحقوق وسفير مصر فيما بعد في الهند والولايات المتحدة، والدكتور عبد الله العريان المستشار القانوني في وزارة الخارجية[30].

وبعد أن قطعت المحادثات حول صفقة السلاح مدى طيباً في القاهرة، ومن أجل الحفاظ على السرية، اختار الاتحاد السوفييتي ومصر العاصمة التشيكية براج لتكون مكان المباحثات القادمة، كما اتفق الطرفان على أن الصفقة شكلياً بين مصر والتشيك[31].

ويرسل السفير المصري في الولايات المتحدة أحمد حسين رسالة لعبد الناصر عن تفاصيل ما جرى في حفل عشاء أقامه السفير السوري في واشنطن لوزير خارجيته، وقد ورد فيها:

"صرح سعادة سفير سوريا في واشنطن (لنا على العشاء) بأن الحكومة الروسية على استعداد لتوريد الأسلحة إلى الدول العربية بالكميات والأسعار التي ترضي هذه الدول. وقد أبديت رأيي في هذا، وأوضحت أنه من الصالح أن تدرس الدول العربية مسألة استيراد أسلحة من روسيا دراسة عملية، لنتبين ما يمكن أن يترتب عليها من نفع أو ضرر، ولنتبين إذا ما كان صالح روسيا الشيوعية في هذه المساعدة يتفق أو لا يتفق مع صالح العرب العام، ولتقدير أثر ذلك على موقف العرب في معالجة القضية الفلسطينية في الوقت الحالي، وما يثيره حصولهم على أسلحة من روسيا من شبهات الغرب والحكومة الأمريكية بشكل خاص، خصوصاً وأن إسرائيل تعمل منذ وقت على تقديم الحجة بأنها الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، وأنها سند الغرب الوحيد فيه، إلى غير ذلك من النتائج والاعتبارات التي تستحق البحث والعناية، حتى تكون سياسة البلاد العربية محققة لصالحها الحقيقي"[32].

الفصل الثالث

صفقة الأسلحة التشيكية أيلول 1955

نقطة تحول عظمى في تاريخ المنطقة

ويضع عبد الناصر الغرب في صورة ما يجري..

فأخبر سفيري أميركا وبريطانيا بأنباء الصفقة، محذراً بقبولها إذا لم تصله أسلحة من دولتيهما، ولم يصله رد حتى شهر حزيران، فاستعجل السفير السوفييتي لإبلاغ موسكو بموقف مصر.

كما استدعى الملحق العسكري في السفارة المصرية في واشنطن وطلب منه إبلاغ المسئولين في واشنطن عن الصفقة المرتقبة مع السوفييت، والتي لم تكن قد وقعت بعد.

وبناء على اقتراح السفير السوفييتي سولود، دعت مصر شبيلوف رئيس تحرير صحيفة البرافدا – الناطقة باسم الحزب الشيوعي السوفييتي – والسياسي الكبير لحضور احتفالات مصر بالذكرى الثالثة للثورة، فجاء حاملاً تفويضاً لإتمام الصفقة، فتم الاتفاق على توريد أسلحة لمصر بقيمة 80 مليون جنيه، وتشمل الصفقة طائرات ميج وقاذفات اليوشن ودبابات، على أن يتم الدفع خلال 12 عاماً، ويكون التعاقد بين الحكومة المصرية والحكومة التشيكوسلوفاكية، وهو ما أطلق عليه صفقة الأسلحة التشيكية فيما بعد، ولتكون مصر أول دولة غير شيوعية تتلقى أسلحة من الاتحاد السوفييتي[1].

ويصرح شبيلوف إثر مقابلاته الشخصيات السياسية القيادية في مصر "بأن مصر خليقة بان تصبح أقوى دولة في حوض البحر الأبيض المتوسط، إذا ما تم تنفيذ برنامج الحكومة المصرية"[2].

ولم تجانب توقعاته الصواب..

كما ودع البلاد بتصريح أثنى فيه كثيراً على همة الشعب المصري وجده، وعلى ما أظهره من حيوية عظمى في نضاله ضد الطغاة الاستعماريين، مؤكداً أن الشعب السوفييتي يولي الشعب المصري بكل عطفه[3].

وفي مطلع أيلول 1955، وصل وفد سوفييتي من مجلس العلاقات الثقافية مع الأقطار الأجنبية، وقام بتدشين المركز الثقافي السوفييتي في القاهرة، كما تمت دعوة وفود من الأطباء والصحفيين المصريين لزيارة موسكو ، وفي السادس من أيلول أعلن عن مقايضة أول صفقة من الرز المصري بالبترول السوفييتي [4].

ولم يكن ناصر بالراغب في الإعلان عن الصفقة، ولكن أحد الموظفين في السفارة الأميركية في القاهرة ويدعى ايكل برغر اتصل بمحمد حسنين هيكل، وأخبره بأن لدى الأميركيين معلومات أكيدة بأن مصر قد عقدت صفقة سلاح، وأن وزير الخارجية الأميركي جون دالاس قد أوفد جورج ألن إلى القاهرة لبحث هذا الشأن مع ناصر، فقرر ناصر على الفور الإعلان عن الصفقة قبل وصول المبعوث الأميركي. وذلك تفويتاً على اميركا بأن تطرح السؤال عليه عن الصفقة [5].

وكانت الصفقة تضم:

530 عربة مصفحة230 دبابة ستالين

200 ناقلة جنود100 مدفع ذاتي الحركة

500 قطعة مدفعية 200 طائرة مقاتلة وقاذفة

ومجموعة بحرية تضم مدمرات وكاسحات ألغام وثلاث غواصات [6].

واتفق على أن تكون الأسلحة جميعها من صنع روسي، ولكن حكومة تشيكوسلوفاكية هي التي تتولى تسليمها لمصر[7].

وفي معرض للصور في 27 أيلول 1955 أعلن عبد الناصر عن هذه الصفقة، وذلك في خطاب لم يكن أحد يعلم بأنه سيلقيه في غرفة فيها ستون شخصاً فقط، وكان من أهم خطاباته [8](م ن 84).

وكانت أولى طلائع الصفقة قد وصلت في سفينة، وتم تفريغها قبل الإعلان عنها [9].

الموقف الأميركي كان واضحاً..

ويخبرنا الموقف الأميركي من الصفقة مدى حرص الغرب على عدم قيام أي علاقة لمصر بأية قوة عظمى، لأن ذلك سوف يؤثر على ميزان القوى في المنطقة.

فترى السلطات الأميركية أنها قد تستوعب هذه الصفقة شريطة أن تكون لمرة واحدة غير قابلة للتكرار، فتوصلت لحل وسط. ألا وهو "مقايضة السد العالي بالصلح مع إسرائيل تمهيداً لإقامة الحلف العسكري الغربي المسئول عن أمن المنطقة بأكملها"، وتقرر أن يحمل وزير الخزانة روبرت أندرسون المشروع لعرضه على عبد الناصر[10].

ويرسل كيرميت روزفلت ممثل وكالة المخابرات الأميركية في الشرق الأوسط رسالة إلى مساعده ايكلبرجر ورد فيها:

"..إن معركة القرن قد بدأت بالفعل، كما لا بد وأنك استنتجت، وسوف تبين الأسابيع القادمة والأشهر التي تليها ما إذا كنا نستطيع أن نرسم طريقاً يحقق مصالح كل من الولايات المتحدة والعرب، وأن نحصل على التأييد لهذا الطريق..

إن كل جهودنا، وبالتأكيد، كل نجاحنا، يعتمد على افتراض أن ارتباط مصر الحالي بالسوفييت ليس أكثر من حل مؤقت من جانب ناصر، ونحن نبلغ الجميع أننا ما زلنا نعتقد أن النية الأساسية لناصر هي أن يجد صيغة للتعاون مع الغرب، فهل ما زال ذلك صحيحاً؟.

لقد شعرنا بالانزعاج للأنباء التي جاءت اخيراً عن قبول بعض المقربين من ناصر للخط السوفييتي، وأنهم مقتنعون بأن هدف السوفييت في العالم العربي لا يعدو أن يكون

الإيحاء بالثقة وكسب الأصدقاء، ويكفي أن تتصور ما يمكن أن يفعله ذلك في" المناطق الهشة" مثل سوريا والعراق، وما يمكن أن يصيب مكانة مصر نتيجة لذلك.

يجب أن نظل قادرين على إبقاء المراجع العليا مقتنعة بأن ناصر لن يتسامح أبداً مع هذا العرض الساذج للدوافع السوفييتية، وأن يكون في وسعنا إعطاء تأكيد بأن ناصر لا يطلب منا أن نتقاسم صداقة مصر مع الاتحاد السوفييتي على قدم المساواة"[11].

وبطبيعة الحال، رفض عبد الناصر العرض الأميركي بمقايضة السد العالي بالصلح مع إسرائيل، لتكون النتيجة التي توصلت إليها الحكومة الأميركية:

" اعتبار جمال عبد الناصر عدواً في المنطقة، يتحتم حصاره وعزله، والخلاف معه، وإلا، فإن الشرق الأوسط بأسره معرض للخطر"[12].

وفي مساء 28 أيلول 1955 اتصل كيرميت روزفلت مبعوث الرئيس الأمريكي بمحمد حسنين هيكل طالباً إلغاء الصفقة، ولكن هيكل رد عليه بأن لا سبيل إلى ذلك، وأن التهديد الأميركي لن يجدي شيئاً، ليضطر روزفلت إلى البوح بأن دالاس قد فقد عقله بعد أن تأكد من عقد الصفقة، وأنه يجهز سلسلة من الإجراءات، وهي:

" 1- وقف كل معونة أميركية عن مصر.

2- وقف كل تعامل اقتصادي وثقافي بين البلدين.

3- قطع العلاقات الدبلوماسية إذا لزم الأمر.

4- فرض حصار بحري على الشواطيء المصرية، بمنع البواخر الحاملة للسلاح من الوصول إلى موانئكم مهما كان العالم الذي ترفعه هذه البواخر"

وقد رد ناصر على ذلك كله برفضه مقابلة روزفلت، وأضاف أنه إذا كان لديهم إنذارات فليقدموها لوزارة الخارجية[13].

ويقول المؤرخ أحمد حمروش – الذي عاصر الأحداث عن كثب– عن قيمة هذه الأسلحة وأثرها:

" والأسلحة التي حصلت عليها مصر كانت حديثة تماماً، أدخلتها عصر النفاثات في عالم الطيران، ووفرت لها الدبابات الثقيلة، وشبكة اتصالات الكترونية، ومحطات رادار حديثة، وقوارب طوربيد، وكاسحات ألغام.. وكانت هذه أسلحة يسيل لها لعاب العسكريين "(14).

وقد صرح ناصر في 30 أيلول 1955 أن مصر ستدفع ثمن الأسلحة على أساس المقايضة بمنتجات مصرية كالقطن والأرز(15).

وعلق عليها قائلاً:

" إن هذه الاتفاقية التجارية التي وقعناها بلا قيد أو شرط، لا تعتبر فتحاً للنفوذ الروسي، ولا للنفوذ الأجنبي، ولكنها تعتبر قضاء على النفوذ الطويل الذي تحكم فينا، وسيطر علينا "(16).

ونقول: إن الاتفاقية كانت فرجاً كبيراً، وفتحاً رائعاً للعون العسكري السوفييتي الذي حاربت به مصر أربع حروب، هذا بجانب العون الاقتصادي الهائل الذي سنأتي على شرحه.

وفي 6 / 10/ 1955 يصرح ناصر بأسباب اللجوء للسوفييت للحصول على السلاح، فيقول:

" لقد أخطرت واشنطن في شهر يوليو بأننا سنشتري أسلحة من روسيا إذا لم تزودنا أمريكا بالأسلحة، ولكنهم لم يكترثوا لذلك، إذ اعتقدوا انها مجرد مناورة، ولكني لم أكن أناور، ولقد كنت أحتاج إلى الأسلحة ولم يكن أمامي حل سوى أن أسلح بلادي من أي مكان..

لقد حاولنا خلال ثلاث سنوات أن نحصل على الأسلحة من المصدر الذي اعتدنا أن نتعامل معه، وهو الغرب، ولكننا أخفقنا، لأنه يميل إلى الاحتكار، لقد ظنت الدول الغربية أنها تستطيع أن تعطينا أو لا تعطينا، وتنتقي ما تشاء، ومن النوع الذي تشاء هي، لأنها كانت تعتقد أنها السوق الوحيدة أمامنا، وكان نفوذ إسرائيل في هذه الدول، لا سيما فرنسا، سبباً لأن يزداد الموقف سوءاً.

وانتظرنا ثلاث سنوات، وحاولنا أكثر من مرة، وكان هناك سباق للتسلح، ولكنه سباق من جانب واحد، كانت إسرائيل تعدو، ونحن واقفون في مكاننا، ولهذا لم يكن أمامنا مجال كبير للاختيار بين الغرب والشرق، فاضطررنا أن نشتري السلاح من دول الشرق، لأنه لم يكن أمامنا حل آخر [17].

وفي 8/11/1955، يمتدح موقف الاتحاد السوفييتي قائلاً :

" قرأت في الصحف الأمريكية تحليلاً لموقفنا جاء فيه أنه سيكون في وسع إسرائيل دائماً أن تهزم الدول العربية ما لم تستطع مصر شراء أسلحة من روسيا، وقد عملت بهذه النصيحة الأمريكية السديدة، فسألت السفير الروسي عما إذا كان الاتحاد السوفييتي على استعداد لبيعنا أسلحة، وظننت ان الجواب سيكون سلباً، ولكن السفير جاءني بعد أربعة أيام وقال لي أنه لا يوجد أي مانع [18].

ترى، ماذا كان سيكون حال الأمة لو لم تُفتح لها تلك البوابة السوفييتية الهائلة من العون العسكري والاقتصادي، والتأييد السياسي، والتي مكنتها من خوض أربع حروب بتلك الأسلحة والإمدادات؟

وبدأت البعثات العسكرية المصرية بالتوافد على الاتحاد السوفييتي لتلقي الدورات التدريبية، كما بدأ الخبراء السوفييت بالوصول إلى مصر لتدريب الجيش المصري [19].

ولما ترددت أميركا في تزويد إسرائيل بالطائرات النفاثة والدبابات لحفظ تفوقها العسكري على مصر، سارعت فرنسا لإمدادها بما تريد، مما دفع بناصر لعقد صفقة سلاح جديدة مع السوفييت بقيمة 300 مليون دولار، وقد تضمنت طائرات ميج 17 [20].

ويتساءل المؤرخ والتر لاكور: ما الذي حمل عبد الناصر على عقد صفقة الأسلحة التشيكية؟

ويجيب على السؤال بعوامل ثلاثة: "قيام حلف بغداد، والهجوم الإسرائيلي على غزة في شباط 1955، وروح مؤتمر باندونج التي أقرت الحياد، ومبدأ التعامل على قدم المساواة مع الشرق أو الغرب"[21].

ولكن لو لم يكن وجود لهذه العوامل الثلاثة، هل كان في نية ناصر – وقادة ثورة يوليو – إبقاء حال الجيش المصري على ما كان عليه من ضعف زمن الحكم الملكي البائد؟ ولو تلقينا رداً بالإيجاب، لقلنا: إذن لم يكن هناك داع لثورة يوليو!

ولدعوناها بالإنقلاب – كما يحلو للمارقين والجهلة أن يدعوها به – ولما كان هناك دواع لتلك القائمة الطويلة من التغييرات التي طرأت على مصر – وعلى المنطقة – بعد الثورة..

وهناك سبب رابع لم يمل عبد الناصر ذكره كلما ذكرت الصفقة التشيكية، ألا وهو إمدادات السلاح المستمرة التي كان الغرب لا يمل تزويد إسرائيل بها، ففي حديث له مع صحيفة نيويورك تايمز في 6/ 10/ 1955 يقول جواباً على السؤال: ما هو سبب حاجة مصر للأسلحة:

"إن حاجة مصر الملحة للأسلحة لا تعود إلى تفوق إسرائيل في العتاد الحربي على مصر، ولكن لأن هذا التفوق سيزداد بسرعة في السنة القادمة.

إن لي مصادر معلومة في باريس وأثينا وروما وبروكسل وقبرص، وأنا أعلم أن إسرائيل قد تعاقدت على استلام أسلحة في العشرة أشهر القادمة، وانا لا أفكر في جيش إسرائيل اليوم، ولكن أفكر في ماذا سيكون في الغد.

فمثلاً تستلم إسرائيل الآن 100 دبابة خفيفة"

ويضيف أن هذه الكمية كانت ستباع لمصر، وهي الآن تقدم لإسرائيل، وبعد بحثه عن طائرات تقابل النفاثات الإسرائيلية، فرنسية الصنع، لم يجد سوى السوفييت الذين قدموا له طائرات الميج [22].

ويصور لنا المؤرخ أحمد حمروش تغير أحوال مصر، وارتفاع معنويات الجيش والشعب بعد وصول الأسلحة السوفييتية، فيصف احتفال مصر بجلاء آخر جندي بريطاني عنها وذلك في حزيران 1956، فيقول:

"وهدرت في شوارع القاهرة يوم العرض العسكري احتفالاً بعيد الجلاء لمدة أربع ساعات دبابات ستالين، وقاذفات اللهب، والمدفعية الخفيفة والثقيلة، وغطت السماء أسراب الميج النفاثة، وقاذفات القنابل الأليوشن.

وانبهرت الجماهير بما رأته من تسليح حديث، وزغردت النساء، وتأثر العرب الذين حضروا العرض العسكري مشاركة لمصر في احتفالها التاريخي..، كان يوماً حافلاً بالنشوة والابتهاج، وخاصة العسكريين الذن حققوا هدفاً من أعظم أهدافهم، ولم تعد استعراضاتهم العسكرية هزيلة متخلفة [23].

ونعود إلى ما افتتحنا به هذا الفصل، وهو أن هذه الصفقة كانت نقطة تحول في تاريخ مصر والمنطقة، وقد أشاد ناصر بذلك قائلاً في خطاب له في الكلية الحربية في 2/ 10/ 1955:

"أشعر أن مصر اصبحت تحس اليوم أنها تستطيع أن تعوض ما فاتها.. وأشعر أيضاً أن مصر تستطيع اليوم أن تكون غنية برجالها، غنية بإيمانها، غنية بتضحياتها، غنية بسلاحها، وهذه يا إخواني نقطة التحول التي نمر بها الآن...

لقد عملنا كل ما في وسعنا لكي نكمل هذه الرجولة، ونكمل هذه التضحية، ونكمل هذا الإيمان، بالسلاح، فطلبنا السلاح من كل مكان، وطلبناه من الموردين التقليديين الذين تعودوا أن يتعاملوا معنا،... ولكننا يا إخواني لم نتمكن أبداً أن نشعر أن

ما يصل إلينا يمكننا من أن نحقق الدفاع الحقيقي عن وطننا، وشعرنا أيضاً أن ما يصل إلينا من هذا السلاح لا يتناسب مع ما يصل إلى عدونا.

ويضيف عن موازين القوى المعادية لمصر، فيقول:

" وهم يعلمون أننا إذا استطعنا أن نجد السلاح بحرية من أي مكان في العالم، سيكون هذا هو التحرير، وسيكون هذا هو الحرية الحقيقية، وأنا أقول لكم إننا اليوم – بعد ان استطعنا أن نحصل على السلاح بدون قيد أو شرط – نستكمل حريتنا الحقيقية،.. وإننا بهذا يا إخواني قضينا على التحكم، وقضينا على النفوذ الأجنبي، فلن يكون هناك إلا نفوذ مصر في داخل مصر، ولن يكون هناك في داخل مصر نفوذ إلا لأبناء مصر "[24].

ويوضح أسباب عقد الصفقة التشيكية في خطاب له في عيد العمال عام 1970، فيقول:

"...وكانت إسرائيل في هذه الأيام تحصل على السلاح أساساً من بريطانيا ومن فرنسا، وكانت النتيجة الطبيعية لندافع عن أنفسنا أن نعقد صفقة السلاح مع تشيكوسلوفاكيا سنة 1955، وكان لا بد لنا أن نقوي قواتنا المسلحة من أجل الدفاع عن بلادنا، وكان من الواضح في سنة 1955 أن إسرائيل ومن هم وراء إسرائيل يعملون على التخطيط، وعلى الترتيب لكسر القوة العربية من أقوال زعماء إسرائيل التي نشرت بعد سنة 1956 "[25].

وبعد اسابيع قليلة من عقد الصفقة، شرعت نوافذ العلاقات بين البلدين، وذلك ب:

1- افتتح مركز ثقافي سوفييتي في القاهرة.

2- عقدت اتفاقية بينهما للتعاون في مجال الذرة.

3- أسست بعثة تجارية سوفييتية دائمة في القاهرة.

4- بدأت وفود المدربين والخبراء الروس بالتوافد على مصر [26].

ونستطيع من قراءتنا الصفحات السابقة أن نستنتج ما يلي:

1- حرص قيادة ثورة يوليو منذ أيامها الأولى على تسليح الجيش، الذي كان بحاجة ماسة إلى السلاح أمام عدو يتربص ويراقب، ويعتدي مراراً على البلاد غيرعابىء بقوانين، أو مكترث لأنظمة ومواثيق.

2- أن عبد الناصر كان ذكياً في التعامل مع المعسكرين، الغربي والشرقي، فهو لا يستسلم لأحدهما نكاية في الآخر، ومع استعداد السوفييت لتزويده بالسلاح، إلا أنه ظل على اتصال بالغرب، كي لا يكون يتم احتواؤه من قبل السوفييت.

3- هذه السياسة في التعامل مع المعسكرين كانت لمصلحة مصر والأمة، فهي ليست نابعة من مصلحة شخصية، أو تبعية، أو عمالة لجهة ما.

4- ـ أن الاتحاد السوفييتي كان مستعداً راغباً في تقديم المساعدات لمصر، بدون شروط مسبقة ولا لاحقة، وهذا طور العلاقات بين البلدين إلى آفاق أوسع كما سنرى في الفصول القادمة.

5- رغم حاجة بلاده الماسة للمساعدات، رفض ناصر سياسة الأحلاف، فلم ينضم لأي منها، بل وعارض بشدة انضمام العرب إليها.

6- كانت صفقة الأسلحة التشيكية، وما تلاها من صفقات، بداية لمساعدات سوفييتية كبيرة أخرى سنأتي على ذكرها، كالسد العالي، وحرب السويس، وغيرهما.

وكان من نتائج التقارب السوفييتي المصري قيام تبادل في العلاقات الدبلوماسية بين السوفييت وليبيا عام 1955، ومع تونس والسودان عام 1956، ومع العراق عام 1958، ومع الصومال عام 1960، وحاول السوفييت عام 1955 إعادة العلاقات مع السعودية، إلا أن الولايات المتحدة حالت دون ذلك[27].

غليان في إسرائيل..

وما أن سمع زعماء إسرائيل بالصفقة حتى راحوا يراقبون ويخططون لإيقافها، أو للقيام بعمل عسكري قبل وصولها، أو قبل استيعاب الجيش المصري لها..

وكأنه يقرأ المستقبل في كتاب مفتوح، كان الزعيم الصهيوني بن غوريون قد صرح عام 1946 قائلاً:

"إذا وافقت بريطانيا على إنشاء دولة يهودية في فلسطين، فنحن على استعداد أن نضمن ان تكون هذه الدولة قاعدة ضد روسيا"[28].

ففي 18/ 10/ 1955، عقدت الكنيست اجتماعاً لمناقشة صفقة الأسلحة السوفييتية، وخلص جميع الخطباء إلى أن الهدف من الصفقة هو الحرب، وطالب موشي شريت بموازنة في التسلح تقدمها الدول الغربية[29].

وبالطبع، لا يجد بن غوريون أخلص ولا أقرب من أميركا، حليفه الأبدي، ليخبرها بالأخبار السيئة، ولطلب المشورة والنجدة، فاستدعى السفير الأميركي في إسرائيل (ادوارد لسون) في 15/ 1/ 1956، وقال له:

"من الواضح أن رصاص السلاح السوفييتي هدفه الصدور الإسرائيلية، لكن هل سيتحمل العالم مثل هذه المبادرة الهجومية ضد إسرائيل؟ وهل أسمح لنفسي بالتسرع بقبول المبادرة، وشن حرب تؤدي إلى موت المئات بل الآلاف قبل أن أتمكن من الحصول على السلاح اللازم (لموازنة التسليح) من جديد، وإعادة الجيش الإسرائيلي إلى كامل لياقته وقدرته على الردع"[30].

لذا يجد بن غوريون في صفقة الأسلحة ضالته للتحريض والتجنيد ضد الثورة الناشئة التي أعلن عداءه لها منذ قيامها، فقال بكل وضوح:

"لا بد أن يسقط النظام في مصر قبل أن تصل الأسلحة الروسية"[31].

واستدعى بن غوريون موشيه ديان من فرنسا – التي كانت تمد إسرائيل بالأسلحة المتطورة نكاية في مصر التي كانت تساعد الثورة الجزائرية – وطلب منه إعداد خطة حربية لغزو مصر، وأقنع أميركا بالسماح لفرنسا بإمداد إسرائيل بطائرات المستير 4 التي كانت تنتجها خاصة لحلف الأطلسي (32).

ويقول موشيه ديان:

".. ومن أجل إحباط الخطط المصرية، قدمت مذكرة إلى بن غوريون يوم 10 نوفمبر/تشرين 2 أوصي فيها بالقيام بعمليات إنتقامية حادة ضد المصريين، والاستيلاء الفوري على قطاع غزة وشرم الشيخ لفك الحصار عن خليج العقبة...

وكانت الشهور التي تلت صفقة الأسلحة التشيكية شهوراً صعبة، إذ كان علينا أن نعد البلاد لمواجهة الحرب، وقررت الحصول على السلاح من أي مصدر كان، وبدأ وصول طائرات المستير الفرنسية في إبريل/نيسان 1956، كما وعدتنا فرنسا بإمدادنا بدبابات "إيه إم أكس" وشيرمان..." (33).

وفي نيسان 1956، تسلمت إسرائيل من فرنسا 24 طائرة ميستير، ووقعت معها اتفاقاً للتعاون الاستخباري، واتفاقاً آخر للتزود بالسلاح، أسفر عن معونات أخرى لاحقاً (34).

وأعطت الأسلحة الروسية، بالإضافة إلى الموقف الروسي المؤيد، لجمال عبد الناصر شعوراً هائلاً بالثقة، فكان قراره الذي أعلنه في أحد ميادين القاهرة يوم 26 يوليو/تموز 1956 بتأميم قناة السويس، وأحدث القرار أبعاداً دولية واسعة (35).

وصرح بن غوريون لصحيفة نيويورك تايمز قائلاً:

"سوف نكون في العقبة في العام القادم، وسوف نستولي عليها من البر والبحر والجو معاً" (36).

ومن أجل متطلبات المرحلة، قام بن غوريون بتنحية وزير خارجيته موشى شاريت لميوله السلمية، وعين مكانه جولدا مئير (37).

هذه هي إسرائيل..تحسب حساب كل شيء مهما صغر، فكيف إذا كان هذا الشيء فتح بوابة الأسلحة السوفييتية لمصر، مصر العدو الأول لإسرائيل باعتراف زعمائها، إنها لا تحاول زيادة طاقتها التسليحية فحسب، بل تخطط لهجوم على مصر قبل استيعاب جيشها للأسلحة السوفيتية، وتخطط لاحتلال بقاع جديدة زيادة في إضعاف عدوها، وزيادة في قوتها ونفوذها على المعابر.

الصفقة التشيكية في الصحافة الغربية

قالت صحيفة التايمز البريطانية: "إن حصول مصر على أسلحة من الشيوعيين سيستوجب وجود خبراء ومستشارين منهم في مصر، وأن تزويد مصر بالأسلحة الروسية من شأنه ازدياد نفوذ روسيا في مصر خاصة، وفي الدول العربية عامة"

وقالت صحيفة الديلي ميل: "إنه سيكون من نتيجة تعاقد مصر مع الشيوعيين على تزويدها بالأسلحة أن ينتقل عملاء روسيا الشيوعية إلى منطقة قناة السويس بوصفهم خبراء في الأسلحة يستدعي الحال إيفادهم إلى مصر لتدريب المصريين على استخدام تلك الأسلحة"

ووصفت صحيفة الديلي تلغراف الأمر" بأنه خطوة مشؤومة من جانب مصر، وقالت أن السلام في المنطقة يعتمد أساساً على توازن التسليح بين مصر وإسرائيل"

وقالت الإيفننج ستار الأمريكية: "إن تقديم روسيا أسلحة لمصر عمل يتمشى مع هدف روسيا الدولي وهو إنشاء منطقة نفوذ لها في الشرق الأوسط"(38).

وقلق إسرائيلي وغربي..!

ويذهب القلق بالحكومة الاسرائيلية كل مذهب، فتلجأ لمخاطبة السوفييت بشكل مباشر، وبأسلوب لا يخلو من الرجاء والتوسل، فقالت في مذكرة وجهتها للسوفييت " تلفت فيها انتباههم للتهديد الخطير لأمن إسرائيل نتيجة صفقة الأسلحة لمصر، وقالت أن تقديم الأسلحة لمصر يمكنها من شن حرب جديدة ضد إسرائيل، واستشهدت المذكرة

ببعض فقرات من خطب عبد الناصر" كما طالبت المذكرة بأن لا يرسل السوفييت السلاح لدول عربية أخرى، وان لا يفعل ذلك بقية الدول الحليفة للسوفييت [39].

إذن فالخوف لم يعد من السوفييت وحدهم، ومن مصر وحدها، فإسرائيل تخشى أن تحذو بقية دول أوروبا الشرقية حذو السوفييت، بل وأن تتلقى دول عربية أخرى صفقات أخرى..

وكان الرد السوفييتي أن أميركا وبريطانيا كانتا على استعداد لبيع الأسلحة لمصر شريطة انضمام مصر للأحلاف الغربية، إلا أن مصر فضلت العرض التشيكي لأنه يخلو من أي ارتباطات[40].

بينما كان الرد التشيكي أكثر جرأة ووضوحاً، فقد أذاع راديو براغ "أن عبد الناصر قبل الدعوة التي وجهتها إليه الحكومة التشيكية لزيارة تشيكوسلوفاكيا، ثم أشار المذيع إلى صفقة الأسلحة وقال:

"إن الحكومة المصرية رأت – حرصاً على سلامة بلادها، وعلى مصلحة السلام في الشرق الأوسط – أن تحصل على أسلحة من حيث تستطيع الحصول عليها، على أسس تجارية خالية من القيود السياسية، وغيرها من الشروط" ثم أعلنت حكومة تشيكوسلوفاكيا أنها متمسكة بتنفيذ التزاماتها بشأن الاتفاق المصري معها، ورفض أي تدخل أجنبي يمس سيادة البلدين [41].

وفي لندن يصرح انتوني أيدن رئيس الوزراء البريطاني: "إن الحالة في الشرق الأوسط متوترة، وتنذر بالخطر، وأضاف قائلاً أن تقديم أي من الدول الكبرى أسلحة بكميات كبيرة يزيد من الخطر في الشرق الأوسط" [42].

وفي جنيف يلتقي وزراء خارجية أميركا وبريطانيا وفرنسا زميلهم وزير الخارجية السوفييتي مولوتوف، واحتجوا على تلك الصفقة، فكان رد مولوتوف:

"إن صفقة الأسلحة التي عقدتها مصر مع تشيكوسلوفاكيا تمت على أساس المقايضة بين هاتين الدولتين، وان الإتحاد السوفييتي لن يتدخل" [43].

وفي 22 تشرين ثان 1955 تدور مناقشات في مجلس العموم البريطاني، فيصرح أنتوني إيدن "بأن الاتحاد السوفييتي رفض الأخذ بوجهة النظر البريطانية، وأعلن أنه ليس من المحتمل الوصول إلى اتفاق مع الاتحاد السوفييتي حول هذه المسألة، وأنه يجب على الغرب أن يستمر في إرسال الأسلحة إلى بلدان تلك المنطقة"[44]، ويقصد بالطبع إسرائيل.

أصداء الصفقة التشيكية في بريطانيا وأميركا بالوثائق..

وتكشف وثيقتان صدرت أولاهما عن الخارجية البريطانية، والثانية عن اجتماع لممثلي الخارجية البريطانية والخارجية الأميركية، خلاصة موقف بريطانيا وأميركا تجاه صفقة الأسلحة التشيكية.

ففي الوثيقة الاولى التي أعدها قسم الشرق الأدنى بالخارجية البريطانية في 23 أيلول 1955، ورد ما يلي:

"كان موضوع صفقة السلاح الروسي متوقعاً منذ أيام، فقد أبدى الأمريكان عدم ارتياحهم لبيع السلاح لمصر، وكان برنامج أمريكا لبيع السلاح لمصر يتضمن ما قيمته 27 مليون دولار، خصصت للمرحلة الأولى منها عشرة ملايين دولار، ولكن المصريين طلبوا مدهم بثلاثين قاذفة من طراز B26 على أن يدفعوا ثمنها بالعملة المحلية التي تخصص لإنفاق الأمريكان في مصر.

وفيما يتعلق بما يجب أن يكون عليه موقفنا من التطورات الأخيرة، فإن النقاط الأساسية تتمثل فيما يلي:

1- لا نستطيع تجاوز خطى الأمريكان، فقد يصل الأمر حد الكارثة إذا نشأت ظروف نؤيد فيها العراق، على حين تؤيد الولايات المتحدة مصر.

2- يعلم الغرب أن مصر كانت تعمل ضد بريطانيا في السودان وليبيا، وأخرجتنا من السويس، وأعلنت عداءها للحلف التركي- العراقي، وتريد مصر التأثير

على وضعنا في الأردن، واشتركت مع السعودية واليمن في الهجوم علينا فيما يتعلق بعدن واليمن.

3- يدرك العرب اتجاه عبد الناصر نحو الحياد، على نحو ما حدث في باندونج، ولا نعرف على وجه اليقين إلى أي مدى يريد عبد الناصر أن يكون نهرو الشرق الأوسط، ولا يعني عقد صفقة أسلحة مع روسيا أنه دخل المعسكر الروسي، ولكنها تعكس تردده بين الشرق والغرب.

4- فإذا قمنا نحن والأمريكان بمعالجة المسألة باعتبارها ابتزاز على الطريقة المصرية، فسوف يجد العرب في التعامل مع الشرق كرهينة عليها دفع الفدية، أكثر نفعاً لهم من التعاون مع الغرب، وقد أصبح العراق محط أنظار الدول العربية الأخرى منذ تحالف مع تركيا، وبعد تسعة شهور من هذا التحالف كان كل ما حصل عليه العراق 12 دبابة سنتوريون.

5- مما تقدم يتضح لنا أن تقديم صفقة أسلحة غربية سخية لمصر (منافسة للروس) سوف يؤذي مشاعر العرب الموالين للغرب.

6- وتبقى مشكلة إسرائيل، فمن غير المعقول أن تنال مصر السلاح من الغرب، بدون أن تحصل إسرائيل على ما يوازن ذلك السلاح، ويمتد ذلك إلى الأردن الذي لا يملك القدرة على شراء السلاح، وبذلك سنجد أنفسنا مضطرين لزيادة معونة الفيلق العربي زيادة كبيرة، وتزويد الأردن بقوة جوية مناسبة.

الخلاصة

لا بد أن يشترك الأمريكان معنا في أي سياسة نعتزم إتباعها، ويجب ألا نجعل العرب يفهمون أن الابتزاز والحياد يحققان مغنماً، ويصرف النظر عن ذلك، يجب ان نسمح بتزويد السلاح الغربي إلى مصر إذا حسنت تصرفاتها، على أن يتضمن ذلك إطلاق مد السلاح لإسرائيل...

وألحق بهذا التقرير مساعد وزير الخارجية البريطانية لشئون الشرق الأوسط مذكرة لوزير الخارجية، هذا نصها:

"سعادة وزير الخارجية:

إذا لم يستجب عبد الناصر لاحتجاجاتنا وتحذيرنا، فقد يدفعنا ذلك إلى تحويل تعاوننا مع مصر إلى إسرائيل، أو الدول العربية التي تقودها العراق، أو هما معاً، وهي السياسة التي لمح إليها السيد راسل (مستشار السفارة الأمريكية في تل أبيب) حيث قال أنه في حال تفاقم المشكلة مع مصر، سوف تنضم الولايات المتحدة إلى حلف الحزام الشمالي، وتضمن لإسرائيل أمنها، بالدخول في أي تسوية.

وفي رأيي، تعد هذه السياسة غير عملية، وتضر ضرراً بليغاً بمصالح الغرب في الشرق الأوسط، ولا غبار على فكرة إقامة كتلة عربية شمالية تقودها العراق وتركيا في زمن السلم، وفي مرحلة بناء النظام الدفاعي، رغم ما تبين من أن غياب مصر وسوريا عن الحلف جعله ضعيفاً، ولكن التفكير في تأسيس حلف تقف منه مصر موقف الحياد، تفكير غير واقعي، ومن الناحية الجغرافية، قد يؤدي ذلك إلى إضعاف الحلف، وخاصة إذا انضمت سوريا إلى مصر.

وسوف تتفاقم هذه الأخطار بدرجة كبيرة، إذا كان التحول إلى كتلة الحزام الشمالي مقترناً بالتحرك تجاه مزيد من التعاون مع إسرائيل، فليس من المؤكد أن نوري السعيد وغيره من القادة العرب يقبل أن يكون طرفاً في سياسة غربية تحابي إسرائيل، ولن

يستطيع العرب مقاومة إغراء الانضمام إلى الموقف المصري الذي يتبنى أكثر المواقف تطرفاً ضد إسرائيل، وضد الامبريالية.

وجملة القول، أننا لو فقدنا مصر، فسوف نفقد معها العالم العربي كله، وليس لدينا سوى الاعتماد تماماً على إسرائيل، مما يفقدنا أيضاً العالم العربي وموارده البترولية.

ونتيجة لذلك، أمامنا حقيقة مرة لا بد من مواجهتها، وهي ان علينا أن تبقى مصر إلى جانبنا مهما كان الثمن الذي قد يتضمن التخلي عن إسرائيل، لقد كان واضحاً أننا استعدنا وضعنا في الشرق الأوسط لأن روسيا لم تكن فيه، ولما كان الروس قد دخلوا المزاد ضدنا، فعلينا أن نتفوق عليهم، وإلا خسرنا مصدر القوة الذي يعتمد عليه اقتصادنا الآن.

عفواً للإطالة، ولكني كنت دائماً على يقين أن دعمنا الدائم لإسرائيل لا يتوافق مع مصالحنا، وهذه مناسبة لتاكيد ذلك "(45).

الوثيقة الثانية

محضر اجتماع لممثلي الخارجية البريطانية

والخارجية الأميركية في 3 تشرين أول 1955

" اقترح ماكميلان (وزير الخارجية البريطاني) أن تبدأ المناقشة باستعراض للتطورات التي حدثت في القاهرة، فتساءل دالاس (وزير الخارجية الأمريكي) عما إذا كانت هناك معلومات جديدة عن كميات السلاح التي تسلمتها مصر، وتواريخ التسليم، فقال المستر هير أن هناك معلومات قديمة، وأن الصفقة تكتمل في غضون خمسة شهور حسب العقد، فقال دالاس:

إن المستر آلان سمع في القاهرة أن الروس عرضوا على مصر معونات اقتصادية أيضاً، كما عرضوا عليهم مساعدتهم في بناء السد العالي في أسوان.

وقال المستر ريموند هير أن النية اتجهت إلى السعي لإيقاف الصفقة، أو على الأقل، تحجيمها لدى عبد الناصر أو لدى موسكو، فأصاب الفشل هذه المحاولة، ونشك في نجاحها لو حاولنا ذلك مرة أخرى، لذلك علينا أن نضع في اعتبارنا أن الصفقة مستمرة، وأن علينا أن نتعايش معها وهناك ثلاثة خطوط للعمل يمكن اتباعها: أن نحاول وضع عملية "ألفا ALPHA" (الخاصة بتسوية النزاع بين العرب وإسرائيل) في المقدمة على نحو ما يذهب إليه السفير البريطاني في القاهرة، وفي الوقت نفسه، نعمل على عدم انتشار العدوى في المنطقة (سوريا والسعودية على سبيل المثال)، فإذا فشلت هذه السياسة، يجب أن ننظر في اتخاذ موقف حازم من عبد الناصر، فنعمل ضده أولاً، ثم نقوم بعزل مصر، وهنا تبرز مشكلة من يخلف عبد الناصر؟ وهل عزل مصر مرغوب فيه، وهل الحكمة تقتضي أن نقسم العالم العربي إلى قسمين: أحدهما مع الغرب، والآخر مع السوفييت؟.

وقال المستر دالاس إنه لا يريد موقفاً عنيفاً الآن، فإذا كان التغيير في مصر مطلوباً، فلا يجب أن يبدو أنه قد جاء نتيجة لتهديداتنا، فقد يقلب ذلك العالم العربي ضدنا ويجعله أكثر تقبلاً للتغلغل السوفييتي، مما قد يلحق الضرر بمصالحنا الاستراتيجية والبترولية، وقال: إن لديه انطباع أن عبد الناصر لا يريد الارتماء في أحضان السوفييت، ولكنه يريد أن يلعب دور "تيتو"، فيحصل من الطرفين على أقصى ما يمكن الحصول عليه، وهذا أفضل على أي حال من أن يورط نفسه مع الطرف الآخر، لذلك رأى دالاس أن التزام الهدوء أفضل، حتى نرى ما يمكن عمله على ضوء معرفة حجم السلاح الذي تم توريده وقدرته العسكرية، ونشك في جدوى هذه الأسلحة بالنسبة لمصر، ونراقب تأثيرها في الشرق الأوسط ككل، ولكن العامل الأساسي هنا هو السوفييت وليس العرب، فإذا كان السوفييت يرمون إلى التوسع في المعونات الاقتصادية، وبيع السلاح في الشرق الأوسط، فإن ذلك يؤدي إلى توتر علاقتنا معهم، وفي هذه الحالة يجب أن نمارس ضغطاً عليهم حتى يتراجعوا، ومن الأفضل أن نحاول عزل الحادثة الحالية، ورغم أن هذه السياسة ليست مغرية، إلا أن دالاس طرحها لعدم وجود بدائل.

وإذا أردنا أن نضغط على مصر، فإن السودان يصبح أداة مناسبة، رغم أن الحكومة الأمريكية لا تعرف الكثير عن السودان، فقال ماكميلان: إن لديه انطباعاً من تقارير السفير البريطاني في القاهرة أن عبد الناصر قد ارتبك بسبب ردود أفعالنا إزاء الصفقة، وأنه لا يرغب في أن يدخل في نزاع معنا، وأن السياسة التي قد تحقق نجاحاً هي الذهاب إليه قائلين أننا نفهم الصعاب التي يواجهها، وأننا على استعداد للتعاون معه من أجل التغلب عليها، ويجب أن نتحدث معه بلهجة الأسف، وليس لهجة التأنيب والغضب، ونطلب منه أن يضع حدوداً للصفقة، وألا يسمح للفنيين السوفييت بالقدوم إلى مصر، ونطالبه بأن يتخذ أفعالاً تدل على حسن نواياه، ومن الأفعال التي لن تكلفه شيئاً، أن يعلن تأييده لمشروع جونسون(لري وادي الأردن عن طريق مشروع لإعادة توزيع المياه تمهيداً لتوطين بعض اللاجئين هناك).

واستطرد ماكميلان قائلاً: إن علينا إقناع عبد الناصر بأن السبيل الوحيد للتغلب على المشكلات التي تواجهه هو إبرام الصلح مع إسرائيل، وننتهز هذه الفرصة للدفع بمشروع ALPHA ، فإذا لم يستجب، ضغطنا عليه من أجل ذلك.

واقترح راسل(المستشار السياسي بسفارة أمريكا بتل أبيب) نقاطاً أخرى يتم طرحها على عبد الناصر، فيقال له أنه رغم مطالبته بمعاملة صفقة السلاح باعتبارها عملاً تجارياً، فإن السوفييت يرون غير ذلك، فهم يريدون التغلغل في الشرق الأوسط من خلال المعونات الاقتصادية والسلاح، وأنه تتوافر لدينا معلومات أن السوفييت سوف يضمنون حدود البلاد العربية في حالة توقيع الولايات المتحدة على حلف مع إسرائيل، وأن السوفييت يريدون التقدم في المنطقة، وقد قدموا عروضاً لسوريا والسعودية، فإذا أبدى عبد الناصر عدم استعداده لوضع نفسه تحت النير السوفييتي، فإن ذلك يعني عدم قبوله بالتورط مع السوفييت.

عندئذ قال ماكميلان: إن سياستنا يجب أن تكون ذات شقين، ان نقول لعبد الناصر أننا على استعداد لمساعدته على عزل الصفقة التي عقدها، ومع النتائج السياسية التي قد ترتبت عليها، وتثير قلقنا، ويجب أن يصاحب ذلك بذل جهد أكبر مع البلاد

العربية المتعاونة معنا، والخطان معاً سوف يساعدان على تحديد أثر الانتصار السياسي الذي حققه السوفييت.

ويسأل دالاس المستر ماكميلان عما إذا كان نهرو قد لعب دوراً في تلك الصفقة، فنفى ماكميلان ذلك، غير أن دالاس قال إن لديه إحساس بأن لنهرو دور في ذلك.

ولفت المستر هير النظر إلى ما يمثله النموذج المصري من خطر على العالم العربي، مما يتطلب أن يعلن عبد الناصر أن الصفقة لا تعني التوجه إلى السوفييت، فمهما قال في الأحاديث الخاصة، تأتي تصريحاته العلنية مختلفة تماماً.

وذكر المستر دالاس أن السفير الإسرائيلي أبا إيبان زاره في 30 سبتمبر، وقال له: إن الخطوط أصبحت الآن فاصلة في الشرق الأوسط، فقد اتجه عبد الناصر إلى السوفييت ضد الغرب، ومن ثم وجب على الغرب أن يدعم إسرائيل، وأن إسرائيل تطالب بميثاق أمن إضافة إلى السلاح، ولمح إيبان إلى إمكان قيام إسرائيل بحرب وقائية ضد مصر، وأضاف راسل أن إيبان صرح في لقاء تلفزيوني أن إسرائيل لن تجلس جلسة الأرنب المذعور الذي ينتظر أن يبتلعه الثعبان المصري.

وتساءل دالاس عما إذا كان من الممكن استخدام التصريح الثلاثي الصادر عام 1950 (الخاص بتقييد تصدير السلاح إلى الشرق الأوسط)، فقال مكميلان إن التصريح قام على أساس اشتراك الدول الثلاث في مراقبة التسليح في المنطقة، وأن الوضع تغير الآن، ومن الأفضل أن نركز على ضرورة إبرام العرب الصلح مع إسرائيل" [46].

انتهت الوثيقتان

تعليق

نستطيع أن نعرف من الوثيقتين السابقتين ما يلي:

1- تثبت الوثيقتان مدى أهمية صفقة الأسلحة السوفييتية (التشيكية) وأثرها على ميزان القوى بين دول المنطقة، وعلى الدول المتعاونة مع إسرائيل، لذا ينهمك ساسة الغرب في اجتماعات ومشاورات لا تنتهي بحثاً عن حلول توقف تلك الصفقة، أو ما يتلوها من صفقات، ويدرك الخبراء الانجليز والأميركيون ان إمداد السوفييت مصر بالسلاح سيقود إلى إمدادها اقتصادياً، كالمساعدة في بناء السد العالي.

2- عدم جدية الغرب في بيع السلاح لمصر، لذا يتوقع أن تلجأ مصر لجهات أخرى للحصول عليه.

3- بريطانيا وأميركا متفقتان في موقفيهما من دول الشرق. لذا لا نجد في التاريخ الحديث صراعاً بينهما بسبب دولة عربية او شرقية.

4- إدراك الدولتين خطورة السياسة المصرية عليهما بعد ثورة يوليو، فهي سياسة قومية تحرص من خلالها مصر على مصالح الدول العربية، وتدافع عن حقوقها واستقلالها.

5- إدراك الدولتين مدى أهمية قيادة ناصر الواعية ودورها في المنطقة، خاصة بعد مؤتمر باندونج، فتدعوه بنهرو الشرق الأوسط.

6- تحرص الدولتان على رضا الدول العربية التي تدور في فلكهما، بالتضحية بمصر، أو على الأقل عزلها، وذلك بحرمانها من السلاح لكي لا تغضب تلك الدول!

7- تبين الوثيقتان أن سياسة الأحلاف استعمارية، ولا يمكن أن تفيد حتى الدول المنضوية تحت لوائها بشيء، والدليل حصولها على القليل من العون رغم ولائها للغرب، وعدائها لمصر.

8- يخطىء مساعد وزير الخارجية البريطاني في تقييمه لرئيس الوزراء العراقي نوري السعيد، فهو يراه لا يضحي بوطنيته ويحابي إسرائيل، وقد أثبتت الأحداث عكس ذلك، وبالذات موقفه من حرب السويس، وطلبه من الغرب ضرب مصر حال سماعه خبر التأميم.

9- يزعم السيد ماكميلان وزير الخارجية البريطاني أن ناصر قد ارتبك بسبب ردود أفعال الغرب على الصفقة، والوثيقتان تثبتان أن الغرب هو المرتبك والقلق، وأن ناصر قد أقدم على إبرام الصفقة غير قلق ولا نادم، لعدم وجود خيار آخر، بينما يطرح الانجليز والأميركيون الحل تلو الحل لما يرونه خطراً داهماً لا يمكن رده، أو فعل شيء إزاءه.

10- يكمن الخوف والقلق لدى بريطانيا وأميركا في خوفهما من تفوق مصر في القوة العسكرية على إسرائيل، وقلقهما من الامتداد السوفييتي إلى المنطقة، وهذا سيجعل مواردهما النفطية في خطر، علاوة على خشيتهما من حصول الدول العربية الأخرى على السلاح السوفييتي، وهذا ما حصل بالفعل.

وتراقب بريطانيا بدقة ما يجري على الساحة الشرق أوسطية، لتكتشف التطورات الكبيرة التي طرأت على العلاقات السوفييتية المصرية في الشهور التالية لصفقة الأسلحة، فرصدت ما يلي:

1- قبول ناصر الدعوة لزيارة الاتحاد السوفييتي.

2- تصريح مصري للسوفييت بإنشاء مركز أعلامي لهم في القاهرة

3- إعلان السوفييت بأنهم سيمنحون مصر مساعدات عسكرية واقتصادية وفنية.

4- إعلانهم بأنهم سيقدمون معونات مماثلة للدول العربية.

5- عرض سوفييتي لمصر لتأسيس معمل نووي في القاهرة.

6- توطد العلاقات المصرية السوفييتية في مجال التعليم والفنون والسياحة.

7- افتتاح قنصلية سوفييتية في بور سعيد.

8- ازدياد النشاط التجاري بين البلدين(47).

وتدرك بريطانيا أنها المتضرر الأكبر من العلاقة الوطيدة التي بدأت خيوطها تنسج بين مصر والاتحاد السوفييتي، فهي لا زالت تملك قاعدة لها في السويس، ولا زالت تعتمد على النفط العربي، وقناة السويس ممرها الوحيد نحو مستعمراتها، والشريان الاقتصادي الذي يوصلها بدول المشرق، لذا لا بد من حلول تحاولها في سبيل إيقاف هذه العلاقة المتطورة بين البلدين(48).

"ويأتي تقرير المخابرات البريطانية ليتعرض لتلك العلاقة التي ربطت مصر بالإتحاد السوفييتي، وكيف أنها تعتمد على تبادل المصالح، إذ جمعتهما الرغبة في القضاء على النفوذ الغربي في الشرق الأوسط، وإفريقيا، ويمضي التقرير ليحلل خطوات تحول مصر عن الغرب وعلاقاتها مع الشرق، وتمسك عبد الناصر باستقلال مصر وحيادها"(49).

وفي اجتماع لندن للحوار حول الشرق الأوسط، والذي عقد في نيسان 1956، وحضره الزعيم السوفييتي خروتشوف ورئيس وزرائه بولجانين، ورئيس الوزراء البريطاني أنتوني إيدن، ركز إيدن على محاولة إيقاف السوفييت عن دعم مصر بالسلاح حفاظاً على مصالح بلاده في الشرق الأوسط، ويشير إلى أهمية النفط، ويلوح باستعمال القوة، ولما رفض السوفييت هذا التحذير، فشل الاجتماع.

وصرح خرونشوف قبل مغادرته لندن قائلاً:

"أن الاتحاد السوفييتي على استعداد للموافقة على حظر شحن الأسلحة للشرق الأوسط بشرط أن تفرضه الأمم المتحدة، واتهم بولجانين بريطانيا بأنها السبب في حالة التوتر القائمة في الشرق الأوسط، لخلقها المتاعب مثل حلف بغداد، كما أعلن السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفييتي أن شحن الأسلحة لمصر مستمر ما دامت هناك دول أخرى ترسل الأسلحة للشرق الأوسط"(50).

لذا لم تؤد المباحثات إلى نتيجة سوى الخلاف المتجدد!

وكان ناصر قد عبر عن التوجهات والغايات الغربية قبل هذا الاجتماع ب 3 شهور، فصرح لصحيفة سندي تايمز في 24 آذار 1956 بقوله:

"إنكم تهتمون بالشرق الأوسط لسببين: البترول، ومناطق النفوذ، ويجب أن تضحوا بشيء، فأنا لا أعتقد أن في إمكانكم المحافظة على الفرصتين معاً ، إنكم تنتجون البترول في دول عربية معينة، وتدافعون عن هذا البترول، وإن من صالحكم أن تستمر هذه الترتيبات، ولا أعتقد أنهم سيحاولون منع هذا البترول عنكم، ولكن ألا تعلمون ماذا حدث حين زار المستر سلوين لويد إمارة البحرين؟ لقد أمضى المساعد البريطاني لشيخ الإمارة عشرين عاماً فيها ممثلاً للإستعمار كما كان جلوب حتى عهد قريب في الأردن"[51].

ويؤكد على استقلالية مصر، فيقول في تصريح لصحيفة الأبزرفر اللندنية في 26 آذار 1956:

"إنني لا أقاوم المصالح البريطانية أو الأجنبية، وإنما أحارب السيطرة، وما يسمونه في بريطانيا "مناطق النفوذ"، فلن نقبل أن نكون منطقة نفوذ لأحد، فالعرب والبريطانيون مثلاً يفيدون من حقول الزيت، وأنا أعتقد أن بريطانيا إذ تحاول إبقاء هذه المنطقة مجالاً لنفوذها ستفقد مصالحها الحقة، وتسيء إلى نفسها..

إن سياسة بريطانيا كانت ستؤدي إلى تفريق الدول العربية، وعزل مصر عنها في تلك المنطقة، وكانت تضن علينا بالسلاح في الوقت الذي يجري فيه تسليح إسرائيل على قدم وساق"[52].

التوجه شرقاً مصر تعترف بالصين...

ويمارس ناصر اللعبة السياسية حسب أصولها..

فلما شك في احتمال أن يشارك السوفييت في حظر الأسلحة، سارع إلى الإعلان عن اعتراف مصر بالصين الشعبية، والتي لم تكن عضواً في الأمم المتحدة، لذا فهي لن تخضع لقرار حظر الأسلحة إذا ما اتخذ، وليستفيد بذلك اثباته للغرب أنه ليس تابعاً للسوفييت، لذا أثنى رئيس وزراء الصين على مصر ورئيسها، ولتشرع مصر بذلك برواية شرقية جديدة من العلاقات الثقافية والتجارية، وليكون للشيوعيين وجود مضاعف في الشرق الأوسط [53]، وبذا سبب ناصر التوتر الشديد لدى أميركا وبريطانيا اللتين كانتا بعدو واحد، فأمستا بعدوين، الاتحاد السوفييتي والصين [54].

وفي تشرين ثان 1955 وقعت مصر اتفاقيه تجارية مع ألمانيا الشرقية، وأسست مكتباً تجارياً لها في برلين الشرقية. ومارست السياسة ذاتها مع دول اوروبا الشرقية، ثم رفعت مصر تمثيلها الدبلوماسي مع هذه الدول [55].

حقاً، لقد كانت السياسة المصرية في منتهى الواقعية، فبما أن الأعداء الغربيين يتكالبون عليها، فمن الأحرى أن لا تقتصر صداقاتها على دولة واحدة، مهما كانت قوتها ونفوذها، وبسياسة الانفتاح على دول الكتلة الشرقية، تتيح مصر لنفسها الخيارات الكثيرة للتحرك السياسي والاقتصادي والعسكري، وهذا لا تفرضه الظروف فحسب، بل تفرضه النوايا العدائية لدى الغرب، والذين جعلوا من مصر عبد الناصر غاية مكرهم ومخططاتهم.

الموقف من اليسار المصري

ورغم هذه البدايات القوية، المبشرة بالخير العميم القادم، إلا أن مصر لم تغير موقفها تجاه المعارضين، سواء من الإخوان المسلمين، أو من الشيوعيين، وقد شهد عام

1955 حملات على التنظيمين، ولم يعلق السوفييت بشيء على ذلك، وإن كانوا غير راضين عنه [56].

ورحب الشيوعيون بالصفقة، ورأوا فيها تحولاً كبيراً في التوجهات المصرية، ومع أن معظم قياداتهم كانت في السجون، إلا أنهم أرسلوا برقيات تأييد لجمال عبد الناصر[57].

ولم يشترط السوفييت شيئاً يتعلق بتنفيذ صفقة الأسلحة، كضرورة الإفراج عن الشيوعيين، متوقعين أن مراحل النضال القادمة سوف تبرز دور الشيوعيين المصريين [58].

وتتعدد الفوائد التي بدأت مصر تجنيها من الانفتاح على السوفييت بعد الصفقة الشهيرة، مثل:

1- وصول قياديين من الجيش السوفييتي اشتركوا في إعادة تنظيم الجيش المصري.

2- إيفاد فرق إلى الاتحاد السوفييتي لدراسة نظم المخابرات السوفييتية.

3- استقرار الجيش المصري على التنظيم السوفييتي بعد فترة من فقدان الكثير من الضبط العسكري بعد الثورة.

4- "كان وصول الخبراء السوفييت للقوات المسلحة المصرية بعد خبرتهم العالية في الحرب العالمية الثانية بداية مرحلة اهتمام جدي بالتدريب لم يعرفها الجيش المصري من قبل،... وبداية وصول القوات الجوية والقوات البحرية إلى مستوى عال لم يتوفر لها من قبل، مما حقق بعثاً جديداً للجيش المصري بعد الضغوط التي تعرض لها عقب معاهدة لندن في عهد محمد علي"[59].

وفي السطور السابقة، يعيدنا المؤرخ أحمد حمروش إلى معاهدة لندن التي وقعت عام 1840، والتي"كان هدف الدول الأوروبية (لا سيما بريطانيا) من إبرامها - والتي اشتركت فيها بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا - القضاء على قوة مصر العسكرية، البرية

والبحرية، كدولة كبرى في شرق البحر الأبيض المتوسط، وعلى الطريق البحري والبري إلى الممتلكات الأوروبية في آسيا، لا سيما الهند البريطانية [60].

ردود فعل عربية..

وليس غريباً أن يكون هناك ردود فعل عربية إزاء الصفقة الشهيرة..

فحضر إلى مصر صلاح البيطار وزير خارجية سوريا للتعرف على الصفقة.

وتم توقيع ميثاق عسكري بين سوريا ومصر، اعتبر فيه أي اعتداء على أي منهما اعتداء على الأخرى.

وبعد عدة شهور، تعاقدت سوريا واليمن وأفغانستان على شراء أسلحة سوفييتية، وتبعتها دول أخرى [61].

الخلاصة

في أسباب الاهتمام الغربي بالصفقة التشيكية

هذا الاهتمام الكبير الهائل الذي أحدثته صفقة السلاح السوفييتية لمصر، والتي دعيت بالصفقة التشيكية، في الدوائر الإسرائيلية والغربية كان وراءه أسباب عديدة تكاد تلخص واقع الصراع العربي – الإسرائيلي، والعربي – الغربي، بل ولا نذهب بعيداً إن قلنا الصراع الاستعماري مع دول إفريقيا وآسيا التين كانتا لعشرات السنين مرعى خصباً لحركات الاستعمار الغربي، الاستعمار الذي لم يترك بلداً إلا وترك فيه آثاره في أشكال عديدة من التخلف والمرض والجهل.

لذا متوقع جداً أن دول الاستعمار، وصنيعتها وقاعدتها إسرائيل، لا تقبل ان تظهر في منطقة الشرق الأوسط، قلب العالم، دولة قوية قد تكوّن سداً منيعاً أمام طموحات الاستعمار ومخططاته وغاياته التي لا تنتهي، يعززها هذه القاعدة الصهيونية، والتي يعرف قادتها، مدى استراتيجية وجودها، واهمية بقائها لدول الغرب الاستعمارية..

لذا.. يبدو طبيعياً لكل باحث ومؤرخ، أن توجه مصر للسوفييت، طلباً للسلاح والعون، كابوس يقض مضاجع دول الاستعمار التي لا تعدم الخبراء والعلماء والمستشارين، الذين يجودون عليها بكل تفسير وتعليل، وشرح وتأويل، لما يمكن أن تسببه الصفقة، وما يكمن وراء حصول مصر عليها من أخطار لا يعرفها غيرهم – حسب اعتقادهم- لذا راح الغرب يؤول ويفسر، ويراوغ ويساوم، محاولاً منع الصفقة، أو منع سواها، سواء عن مصر، أو عن دول المنطقة، ولذلك أسباب نحاول تلخيصها فيما يلي:

1- عبر التاريخ، كانت مصر، وما تزال، مركز الثقل البشري والحضاري، والعلمي والعسكري في الوطن العربي، مما أهلها لتكون مركز الثقل العربي في أي منحى من مناحي الصراع مع الغرب، وقد جسد عبد الناصر هذه القيادة العربية،

بإدراكه المبكر أن الأمة العربية ككل غاية الصهيونية، ومن ورائها دول الاستعمار الغربي، إضافة إلى تجربة الصراع مع الاستعمار التي أثبتت له أن مصر لم تكن وحدها حلبة الصراع مع إسرائيل.

لذا فالاهتمام بمصر له ما يبرره، فالغرب حريص على إضعافها وعزلها، وعلى محاولة سلخها عن دول العروبة للإستفراد بتلك الدول، وفرض الحلول والقرارات الغربية عليها، فلا تجد من ينجد أو يغيث، وقد كانت قمة إنجازات الغرب بهذه السياسة معاهدة كمب ديفيد، التي سلخت مصر عن شقيقاتها العربيات.

2- بما أن إسرائيل وريثة الاستعمار الغربي في المنطقة، فليس من مصلحتها، ولا من مصلحة الغرب، أن تكون بجوارها دولة قوية قد تكون لها الغلبة في أي صدام قادم، فكيف إذا كانت هذه الدولة مرشحة لتزعم النضال العربي ضد الاستعمار، وضد إسرائيل؟.

3- يعترف بن جوريون بأن الحرب القادمة التي تنوي إسرائيل شنها على مصر غايتها ناصر نفسه، فيقول في محاضرة ألقاها أمام طاقم القيادة العسكرية الإسرائيلية الأعلى في كانون أول 1955: "إن المكسب الوحيد الذي قد تسفر عنه هذه الحرب- إذا ما أسفرت عن مكسب ما – هو أن تتمكن من إسقاط عبد الناصر"[62].

4- خشية الغرب من تغلغل السوفييت وامتدادهم في منطقة الشرق الأوسط، وهذا يحبط أي مخطط استعماري، سابق أو لاحق، لدول الغرب، ويسبب القلق على قاعدتهم الاستعمارية إسرائيل.

5- محاولة منع الدول العربية من مجاراة مصر في التعامل مع السوفييت، وهذا ما حدث بالفعل.

6- تصبح المنطقة سوقاً للسلاح السوفييتي ومنتجاته الاقتصادية، وهذا سيحدث تأثيراً كبيراً على مستوردات دول المنطقة وما جاورها من الغرب.

7- تغلغل السوفييت في المنطقة يشكل خطراً على استعمال الغرب لقناة السويس، شريانهم للاتصال بآسيا.

8- خوف الغرب على منابع النفط في الشرق الأوسط.

9- تحالف السوفييت مع مصر يجعلهم يضمنون حدودهم الغربية ضد أي عدوان غربي، لأنهم سوف يضمنون حدود البلاد العربية في حالة توقيع الولايات المتحدة على حلف مع إسرائيل، خاصة وأن السوفييت يريدون التقدم في المنطقة، وقد قدموا عروضاً لسوريا والسعودية، فما الذي يمنعهم من تقديم عروض أخرى لغيرهما في المستقبل.

10-هذا التحالف بين مصر والاتحاد السوفييتي يؤذي مشاعر العرب الموالين للغرب، مثل نوري السعيد وغيره.

الفصل الرابع

حرب السويس

"لم يكن تدخلنا في حرب السويس عام 1956 من أجل شركة أممت، ولكن كان ذلك لمواجهة خطر أصبح يهدد الاستراتيجية الغربية، متمثلاً في التواجد السوفييتي في المنطقة عقب صفقة السلاح التي عقدها عبد الناصر مع تشيكوسلوفاكية، لقد غير هذا التواجد الخريطة الاستراتيجية العالمية" (كريستيان بينو، وزير خارجية فرنسا)(الفرص الضائعة،امين هويدي 245).

تأميم قناة السويس

بناء على سحب البنك الدولي تمويله لمشروع السد العالي، وتلاه في ذلك القرار الولايات المتحدة وبريطانيا في 20 تموز 1956، أعلن الزعيم الراحل في 24 تموز استقلال سياسة مصر الاقتصادية رغم شح الموارد، وقلة الإمكانيات، إلا أن الإرادة الصادقة قادرة على استغلال المتاح من الموارد، وإيجاد الممكن من الإمكانيات، وليس برهن البلاد ومصيرها ومقدراتها للدول الكبرى واستغلالها.

من خطاب التأميم..

وفي خطابه الشهير الذي ألقاه في الاسكندرية في 26 تموز 1956، امتدح عبد الناصر الاتحاد السوفييتي، وذكر استعداده اللامحدود لمساعدة مصر، فقال:

"وحدثت محادثات بيننا وبين شبيلوف، الذي عرض مساعدة روسيا لمصر في جميع الميادين، إلى درجة إعطاء قروض طويلة الأجل، وقال إن ذلك سيكون دون قيد أو شرط، وعلينا أن نطلب منهم، وقال أنهم لا يريدون مواد خاماً، وقال أيضاً أنهم لا

يريدون أن يوقعوا بيننا وبين الدول الغربية، وأن روسيا يهمها أن يسود السلام بيننا وبين الدول الغربية.

فالروس يعملون الآن على كسر حدة التوتر في العالم، ويهمهم أن تكون السياسة بين مصر والغرب طيبة، فشكرته، وأجلت الكلام في التفاصيل لحين زيارتي في شهر أغسطس [1].

وفي يوم 26 تموز (يوليو) 1956 وفي الاجتماع الذي عقد بميدان المنشية بمناسبة الاحتفال بالذكرى الرابعة للثورة، كان القرار الشجاع الجريء بتأميم القناة – التي كانت أرباحها 35 مليون جنيه سنوياً – وتحويل إيراداتها لقرار شجاع آخر...لبناء السد العالي.

قال عبد الناصر:

"قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقنال السويس البحرية

مادة 1: تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية، وينتقل إلى الدولة جميع ما لها من أموال وحقوق وما عليها من التزامات، وتحل جميع الهيئات واللجان القائمة حالياً على إداراتها، ويعوض المساهمون وحملة حصص التأسيس عما يملكونه من أسهم وحصص بقيمتها، مقدرة بحسب سعر الإقفال السابق على تاريخ العمل بهذا القانون في بورصة الأوراق المالية بباريس، ويتم دفع هذا التعويض بعد إتمام استلام الدولة لجميع أموال وممتلكات الدولة المؤممة.

مادة 2: تتولى إدارة مرفق المرور بقناة السويس هيئة مستقلة تكون لها الشخصية الاعتبارية، وتلحق بوزارة التجارة، يصدر بتشكيل هذه الهيئة قرار من رئيس الجمهورية، ويكون لها في سبيل إدارة المرفق جميع السلطات اللازمة لهذا الغرض، بدون التقيد بالنظم والأوضاع الحكومية.

مادة 3: تجمد أموال الشركة المؤممة وحقوقها في جمهورية مصر وفي الخارج، ويحظر على البنوك والهيئات والأفراد التصرف في تلك الأموال بأي وجه من الوجوه، أو

صرف أي مبلغ أو أداء أية مطالبات أو مستحقات عليها إلا بقرار من الهيئة المنصوص عليها في المادة الثانية .

مادة 4: تحتفظ الهيئة بجميع موظفي الشركة المؤممة ومستخدميها وعمالها الحاليين، وعليهم الاستمرارفي أداء أعمالهم، ولا يجوز لأي منهم ترك عمله أو التخلي عنه بأي وجه من الوجوه، أو لأي سبب من الأسباب إلا بإذن من الهيئة المنصوص عليها في المادة الثانية "[2].

ردود الفعل الغربية

- وفي اليوم التالي 27 تموز 1956، قدمت بريطانيا وفرنسا مذكرتي احتجاج لمصر على قرار التأميم، وأعلنتا عدم اعترافهما بشرعية القرار المصري.
- وفي يوم 28 تموز أعلنت بريطانيا وفرنسا تجميد الأرصدة والأموال المصرية، وتجميد ممتلكات وأموال شركة قناة السويس في بريطانيا وفرنسا.
- في [illegible] آب دعت بريطانيا وفرنسا إلى مؤتمر يعقد في لندن في 16 آب لإنشاء جهاز دولي للإشراف على القناة.
- في 18 آب أعلن الرئيس عبد الناصر أن مصر ترفض الإشراف الدولي على القناة.
- **في 23 آب قرر مؤتمر لندن بالتصويت تأليف لجنة خماسية لمفاوضة مصر.**
- **في 6 أيلول وبعد اجتماعه مع اللجنة الخماسية، عبد لناصر يرفض الإدارة الدولية للقناة.**
- **في 13 أيلول أبلغت مصر الولايات المتحدة بأن تطبيق نظام هيئة مستعملي القناة سيكون معناه الحرب.**
- **في 19 أيلول أذاعت الحكومة السوفييتية بياناً رسمياً بأن تشكيل هيئة لمستعملي القناة استفزاز خطير قد يؤدي إلى نشوب نزاع مسلح.**

- في 24 أيلول بريطانيا وفرنسا ترفعان قضية القناة لمجلس الأمن.
- في 29 أيلول أصدر مؤتمر الرياض الذي حضره حكام سوريا ومصر والسعودية بلاغاً يدعو لمفاوضة مصر لضمان مصالح الملاحة في القناة.
- في 6 تشرين أول اجتمع مجلس الأمن للنظر في مشكلة قناة السويس، وقد تقدمت بريطانيا وفرنسا بمشروع وضع القناة تحت سلطة المستخدمين الدولية.
- في 8 تشرين أول مصر ترفض المشروع المقدم من بريطانيا وفرنسا لمجلس الأمن.
- في 27 تشرين أول تلقت مصر رسالة من الأمين العام للأمم المتحدة يقترح عقد اجتماع يوم 29 تشرين أول في جنيف بين ممثلي مصر والدول المهتمة بالملاحة في القناة، وفي اليوم المحدد بدأ العدوان (3).

العدوان الثلاثي

في 29 تشرين أول 1956 بدأ الاجتياح الإسرائيلي لسيناء، وخاضت القوات المصرية معارك باسلة طاحنة ضد القوات الاسرائيلية المتفوقة عدداً وعدة، تساندها الطائرات الفرنسية بإنزال المظليين والطعام والأدوية.

وفي اليوم ذاته، وجهت الحكومتان البريطانية والفرنسية إنذاراً لمصر وإسرائيل بإيقاف العمليات العسكرية وإلا فسوف تتدخل قواتهما لفصل المتحاربين حماية القناة.(واضح للقارىء أن هذا الإنذار كان مقدمة تآمرية للعدوان الثلاثي على مصر).

في 31 تشرين أول صدر في نيقوسيا بلاغ رسمي عن مقر القيادة البريطانية – الفرنسية بأن القوات الجوية للبلدين بدأت بقصف الأهداف العسكرية في مصر.

وحسب الخطة هاميلكار كما دعتها دول التحالف، كانت القوات المعادية من فرنسا وبريطانيا:

1- القوات البريطانية: 45 ألف جندي

300 طائرة 135 سفينة منها حاملات طائرات

2- القوات الفرنسية: 34 ألف جندي

200 طائرة 30 سفينة منها حاملتي طائرات[4](حروب عبد الناصر 75)

3- القوات الاسرائيلية القيادة الجنوبية: 45 ألف جندي

القيادة الشمالية 6 ألوية (22 ألف جندي)

قوات الاحتياط 90 ألف جندي

مئات الدبابات والمدافع [5] 155 طائرة [6]

"وفي الأيام التالية أغارت الطائرات البريطانية والفرنسية على القاهرة والاسكندرية ومدن القناة الثلاث، وقامت بضرب الأهداف المدنية من منازل ومساجد وكنائس ومبنى الإذاعة المصرية... وفي بور سعيد تم توزيع السلاح على الأهالي بعد أن قاموا بتهجير الشيوخ والأطفال خارج المدينة، كما تم إغراق خمس سفن في مدخل القناة في ميناء بور سعيد حتى لا تتكرر مأساة 1882، وتركز الطائرات الأنجلو فرنسية ضربها على الأهداف المدنية والحيوية في بور سعيد." [7].

وفي مساء 31- 10، بدأت الطائرات البريطانية والفرنسية قصف المطارات العسكرية المصرية، ومطار القاهرة الدولي، ولكي لا تتعرض القوات المصرية المقاتلة في سيناء للوقوع بين فكي الكماشة – بين القوات الاسرائيلية القادمة باتجاه القناة والقوات البريطانية الفرنسية على القناة – أمر عبد الناصر بانسحاب القوات المصرية من سيناء مع بقاء 8 كتائب فقط تقاتل القوات الاسرائيلية تغطية لانسحاب الكتائب الأخرى، فتم بذلك إنقاذ آلاف الجنود من مجزرة محققة [8].

كما أمر ناصر بألا يشتبك الطيارون المصريون مع الطائرات البريطانية الفرنسية في معركة غير متكافئة، حيث قدرت طائرات العدو بألف طائرة، ولم تكن مصر تملك سوى 120 طياراً، فإذا فقدتهم فهي بحاجة لعشر سنوات لتأهيل من يحل مكانهم [9].

وكان أنتوني ايدن يحلم بأن الشعب المصري حين يتعرض للقصف الجوي العنيف، سيتخلى عن إرادته، وما أن يرى قوات الإنزال على شواطىء بلاده، فسوف يخرج إلى الشوارع، يحرق ويدمر، مطالباً بقيادة جديدة [10]، وهو أقصى حلم تحلمه القيادة البريطانية، ومن ورائها إسرائيل.

ولكن ما حصل كان العكس تماماً، فقد استمرت المعارك والمواجهات بين المصريين والقوات المعادية براً وبحراً، وقاتل أهالي بورسعيد رجالاً ونساء وأطفال قتالاً مريراً باسلاً، وكان الجيش قد وزع عليهم 200 ألف بندقية قاتلوا بها بجانب استعمالهم القنابل اليدوية.

هذه المقاومة دفعت السفير البريطاني في موسكو إلى إرسال برقية شفوية لوزير خارجيته دالاس، يقول فيها:

" إن خطورة الموقف تدعوني إلى الاعتقاد أنه من الخطر أن نتصور أن الاتحاد السوفييتي سوف يكتفي بالموقف الدعائي إزاء تطورات الحوادث في مصر، إن المقاومة المصرية للغزو استمرت حتى الآن أكثر من أسبوع، ومن اعتبار طول هذه المدة أساساً، فأنا لا أظن أن السوفييت يمكنهم البقاء بعيداً عن التدخل " [11].

أي ان المقاومة الشعبية الباسلة هي التي شجعت السوفييت على التدخل، وليس العكس!.

وفي 2 تشرين ثان تأمر الجمعية العامة للأمم المتحدة بوقف إطلاق النار، ووافقت مصر على القرار.

الإنذار السوفييتي

وفي 5 تشرين ثان كان الإنذار السوفييتي الشهير، الذي أطلقه الماريشال بولجانين موجهاً لبريطانيا وفرنسا، وآخر لإسرائيل والذي هدد فيه بقصف باريس ولندن بالصواريخ، وفي الثاني تلميح باستعمال القوة ضد إسرائيل إذا لم توقف أعمالها الحربية.

وقد ورد في الإنذار الموجه لبريطانيا وفرنسا ما يلي:

"إن قناة السويس استعملت كمبرر فقط من أجل شن حرب عدوانية مدبرة ضد الأمة العربية بقصد تصفية الاستقلال الوطني لدولها... وإني لأتساءل في أي موقف تجد فيه بريطانيا – أو فرنسا – نفسها إذا هوجمت بواسطة قوى أكبر منها تملك أنواعاً حديثة من أسلحة الدمار الشامل، إن هذه القوى الكبيرة لن ترسل أساطيلها البحرية أو الجوية لتقتحم الشواطئ البريطانية (أو الفرنسية)، وبدلاً من ذلك فإنها تستطيع أن تستعمل وسائل أخرى كالصواريخ مثلاً، وإذا استعملت الصواريخ ضد بريطانيا وفرنسا، فإنكم بالتأكيد سوف تسمون ذلك عملاً بربرياً، ومع ذلك فأي فارق بين هذا وبين غزوكم لمصر"[12].

وورد في الإنذار الموجه إلى إسرائيل المؤرخ في 5 تشرين ثاني أيضاً:

"السيد رئيس الوزراء:

لقد أعربت الحكومة السوفييتية من قبل عن تنديدها بالعدوان المسلح الإسرائيلي، بالإضافة إلى العدوان الفرنسي ضد مصر، والذي يؤلف خرقاً واضحاً وصريحاً لميثاق الأمم المتحدة وأسسها. وفي الجلسة الطارئة للجمعية العامة نددت معظم دول العالم بالعدوان الذي استهدف جمهورية مصر، وطالبوا حكومات إسرائيل وبريطانيا وفرنسا إنهاء الأعمال العسكرية بدون تأخير، وسحب الجيوش المغيرة من المناطق المصرية، إن جميع البشر المحبين للسلام يشجبون بسخط الأعمال الإجرامية للمعتدين الذين خرقوا وحدة أراضي وسيادة استقلال جمهورية مصر.

وبدون أخذ هذا بالاعتبار، تستمر حكومة إسرائيل بعملها كأداة في أيدي قوى الإمبريالية الخارجية في هذه المغامرة، وبهذا تتحدى جميع الشعوب المحبة للسلام في العالم.

إن أعمال حكومة إسرائيل هذه توضح بجلاء التقييم الذي يوضع لجميع تصريحاتها الباطلة عن حب إسرائيل للسلام، ورغبتها في تعايش سلمي مع الأقطار العربية المجاورة، وفي هذه التصريحات، فقد هدفت حكومة إسرائيل في الواقع إلى تحذير

يقظة الشعوب الأخرى، بينما كانت قد بينت هجوماً غادراً على جيرانها، لإطاعة إرادة أجنبية، والعمل بأوامر خارجية.

إن حكومة إسرائيل تلعب بمصير السلام بشكل إجرامي، وبدون تقدير للمسئولية، كما تلعب بمصير شعبها نفسه، إنها بعملها هذا تزرع الحقد بين شعوب الشرق الأوسط على إسرائيل، وتضع علامة استفهام على الوجود الحقيقي لها كدولة في الشرق الأوسط.

إن الحكومة السوفييتية باهتمامها الحيوي في الحفاظ على السلام، والإبقاء على الهدوء في الشرق الأوسط، تتخذ في هذه اللحظة الخطوات لإنهاء الحرب وكبح المعتدين.

نحن نقترح أن تدرس حكومة إسرائيل – وقبل فوات الأوان– أن تنهي إجراءاتها العسكرية ضد مصر.

نحن نطلب منكم ومن البرلمان، ومن العمال في دولة إسرائيل، ولجميع شعوب إسرائيل، إيقاف العدوان، وإيقاف هدر الدماء، وأن تسحبوا جيوشكم من المناطق المصرية "[13].

وفي مصدر آخر أضاف بولجانين:

ونظراً للوضع الراهن اتخذت الحكومة السوفييتية قراراً يوصي سفيرها في تل أبيب بمغادرة إسرائيل، والتوجه إلى موسكو بدون إبطاء.

ونأمل أن تدرك حكومة إسرائيل تحذيرنا وتقيمه بالشكل اللازم "[14].

وكان لهذا الإنذار أثره البالغ على مجريات الأحداث، فتوقف إطلاق النار، وبدأت القوات البريطانية والفرنسية في 3 تشرين ثان انسحابها من مصر، تلتها القوات الإسرائيلية في الأول من آذار 1957[15].

رد إيدن

وقبل أن ندرس إنذارات السوفييت وأثرها، حري بنا ان نقرأ بشيء من العمق رد رئيس الوزراء البريطاني أنتوني إيدن على الإنذار، ففيه مدلولات سنأتي على ذكرها والتعليق عليها لاحقاً، يقول مخاطباً بولجانين:

"لقد تلقيت بأسف بالغ رسالتكم أمس، وإن اللهجة التي صيغت بها جعلتني أفكر في البداية بإصدار الأمر إلى سفير حكومة جلالتها لإعادتها إليك، على اعتبارها غير مقبولة مطلقاً، لكن خطورة الوضع الراهن تحملني على محاولة الرد عليك، مستخدماً مشورة العقل التي كثيراً ما لجانا أنا وأنت إليها لبحث جميع قضايا العالم الحيوية".

"إننا حققنا فعلاً هدفنا بالفصل بين القوات المتحاربة في مصر، وإننا رحبنا بالقوة الدولية المقترحة التي تستطيع أن تتولى المسئولية عنا".

"وإذا أيدت حكومتكم إنشاء قوة دولية مهمتها منع استئناف القتال بين مصر وإسرائيل، وضمان انسحاب القوات الإسرائيلية، واتخاذ التدابير الضرورية لإزالة العوائق، وإعادة حركة المرور عبر القناة، وإيجاد تسوية لجميع مشاكل المنطقة فإنها تكون بذلك قد أسهمت في ضمان السلام الذي نرحب به".

"إن هدفنا إقامة حل سلمي، لا الدخول في جدال ومناقشات معكم، ولكني لا أستطيع أن أترك اتهاماتك التي لا أساس لها بدون رد، فأنت تتهمنا بإشعال حرب ضد الاستقلال الوطني لبلاد الشرقيين الأدنى والأوسط، وقد أثبتنا عملياً سخافة هذه التهمة عن طريق التصريح برغبتنا في أن تحل الأمم المتحدة محلنا في مهمة صيانة السلام في المنطقة".

"ويعرف العالم أن القوات السوفييتية خلال الأيام الثلاثة الماضية، كانت تسحق بلا رحمة، المقاومة البطولية، لحركة وطنية صادقة تستهدف الاستقلال في حركة أثبتت بإعلان حيدتها، أنها لا تشكل تهديداً لأمن الاتحاد السوفييتي وسلامته.

وفي مثل هذا الوقت بالذات، لا يليق بالحكومة السوفييتية أن تصف أعمال حكومة جلالتها بالبربرية، وقد ناشدت الأمم المتحدة، حكومتك الكف عن هجومها المسلح على شعب المجر، وسحب قواتها من الأراضي المجرية، وقبول المراقبين الدوليين في المجر، وسيحكم العالم على ضوء ردك، على مدى ما في الكلمات التي وجدت من المناسب توجيهها لحكومة جلالتها، من صدق" (16).

وفي الساعة الثانية من فجر اليوم التالي 7/ 11، أصدرت الدول الثلاث المعتدية قراراً بوقف إطلاق النار، وقبلت مصر القرار.

تقييم الإنذار السوفييتي

بالرغم من مضي أكثر من نصف قرن على حرب السويس، إلا أن موضوع الإنذار السوفييتي، ومدى مصداقيته وجديته، مازال قيد البحث والدرس.

فقد أظهر السوفييت، أنهم جادون فيما يقولون.

فطلبوا من تركيا السماح لخمس سفن عسكرية روسية بعبور مضيق الدردنيل.

وظهرت غواصات سوفييتية في المياه المصرية.

كما ظهرت أسراب من الطائرات السوفييتية على أجهزة الرادار التركية وهي في طريقها إلى سوريا [17].

ترى هل كان السوفييت جادين في تهديدهم بقصف باريس ولندن وتل أبيب بالصواريخ؟

أم أنه كان مجرد تهديد ووعيد لحفظ ماء الوجه، ولإثبات وجود الاتحاد السوفييتي كدولة عظمى لها وزنها، وقد خرجت للتو من الحرب العالمية الثانية منتصرة على ألمانيا النازية التي اجتاحت جيوشها معظم البلدان الأوروبية.

وهل يهمنا نحن كعرب وجود الجدية أو غيابها إذا كان التهديد قد حقق الهدف المراد؟.

وما حجم هذا الإنذار؟ وماذا كان أثره على أطراف النزاع؟ وهل نجح في تحقيق ما أحببنا – كعرب – تحقيقه؟.

للإجابة على السؤال الأول أقول:

1- إني أستبعد الجدية والمصداقية في ضرب أحد بالصواريخ، لأن ذلك كان سيكلف السوفييت والعالم حرباً عالمية ثالثة.

2- كان بإمكان أصدقائنا السوفييت نجدة مصر بأشياء أقل من الصواريخ ودك العواصم، وذلك بإرسال بعض الفرق العسكرية للدفاع عن القاهرة والمدن الأخرى، فيقاتل المصريون على الجبهة وظهورهم مستندة إلى جيش مسلح مدرب قادر على الرد الفاعل.

3- لقد هدد السوفييت بإرسال متطوعين للقتال إلى جانب المصريين، ولكن لم يصل منهم أحد، وهذا أقل ما يمكن أن تقدمه دولة عظمى.

4- قبل نشوب الحرب العراقية الأميركية، كان هناك معاهدة دفاعية موقعة بين العراق والاتحاد السوفييتي، ولكن السوفييت لم ينفذوا منها حرفاً عندما حصل الغزو الأميركي للعراق.

5- خاضت فيتنام الشمالية الشيوعية حرباً تحريرية ضروساً ضد أمريكا مدة عشر سنوات، وكان السوفييت يدعمونها بالسلاح والمؤن، ولكنهم لم يرسلوا جندياً واحداً للقتال إلى جانبهم وهم في أقسى ظروف الحرب.

6- وفي حرب عام 1967، فقدت مصر غطاءها الجوي بعد ضرب مطاراتها ولم تكن مصر بحاجة لصواريخ عابرة للقارات لتدمير باريس ولندن، بل كانت في أمس الحاجة إلى الطائرات لتغطية انسحاب جيشها من سيناء، ولكن السوفييت لم يستخدموا طائرة واحدة لهذا الغرض، ولم يرسلوا جندياً ولا متطوعاً!

7- هناك رسالة أرسلها خروتشوف إلى الرئيس عبد الناصر حملها الرئيس السوري شكري القوتلي "تنبئه صراحة أن روسيا لن تغامر بالتورط في حرب عالمية ثالثة من أجل قناة السويس، وأنه إذا كان لا بد من خوض مثل هذه الحرب، فإن الروس سيختارون مكاناً وزماناً أكثر ملائمة، وفي نفس الوقت أشار خروتشوف بضرورة أن تعقد مصر صلحاً بأسرع ما يمكن مع بريطانيا وفرنسا لأن قواتهما المتفوقة لن يجدي معها القيام بمزيد من المقاومة،

وأن روسيا سوف تقدم لها كل تأييد أدبي لازم ، إلا أنها لا تستطيع تقديم أية مساعدة أخرى في هذه المرحلة [18].

ولكن السؤال الأجمل والأصدق الذي علينا طرحه والإجابة عليه بكل أمانة وصدق: هل أدى الإنذار السوفييتي دوره؟.

تأمل عزيزي القارئ رد السيد ايدن على تهديد بولجانين الصريح والشجاع، إنه ينضح بالخوف والتقية والحذر...!

فهو مثلاً لا يرد: إذا ما قصفتم بلادنا بالصواريخ فسوف نرد بكل ما أوتينا من قوة، وسوف نقاتلكم إلى آخر رجل (وقد فعل ذلك عبد الناصر وهو في أسوأ الظروف، ونفذ ما قال).

وإيدن لا يقول لبولجانين إنكم غير قادرين على فعل شيء من هذا القبيل؛ وتاريخكم يشهد بذلك.

بل إنه يختار عباراته بكل أدب وتهذيب:

تلقيت رسالتكم بأسف بالغ..

لنستخدم مشورة العقل لبحث المشكلة..

هدفنا إقامة حل سلمي...

نؤيد حكومتكم لإنشاء قوة دولية..

وغير ذلك من الخطاب الدبلوماسي المكتوب بعناية!

ولنقرأ الآن ردود فعل بقية ضحايا هذا التهديد من قادة الدول المعتدية وكبارها:

جولدا مائير وزيرة الخارجية الإسرائيلية: إنها إنذارات مخيفة توحي بتهديد يؤدي إلى قيام حرب عالمية ثالثة[19].

بن جوريون: أؤكد أن إسرائيل لا تستطيع الوقوف في وجه الاتحاد السوفييتي [20].

الرئيس الأمريكي إيزنهاور موجهاً حديثه إلى بن جوريون :

"يجب أن أقول لك صراحة – يا سيدي رئيس الوزراء- أنه لو صحت التقارير التي تصلنا عن رفضكم الانسحاب، فإن ذلك موقف سوف يؤدي إلى إدانتكم، وسوف يكون من دواعي أسفي أن تضطرنا سياسة إسرائيل – التي يمكن أن تؤدي إلى عواقب وخيمة – إلى اتخاذ موقف يؤثر في التعاون الودي القائم بيننا "(21).

وسارع بن جوريون إلى كتابة رسالة إلى إيزنهاور يقول فيها: إنك سوف تجد إسرائيل مستعدة دائماً للقيام بدورها المتواضع إلى جانب الولايات المتحدة الأميركية من أجل تعزيز العدل، وتقوية السلام العالمي "(22) , فها هو بن جوريون قد صار قلقاً على العدل والسلام العالمي!

إيتان وكيل وزارة الخارجية الإسرائيلي:

"الأنباء الموثوق بها يوم 8 نوفمبر عن المخاوف من احتمال قيام الاتحاد السوفييتي بهجوم جوي على إسرائيل في اليوم التالي، إذا لم يتلق المندوب السوفييتي الدائم إخطاراً من المندوب الإسرائيلي بأن إسرائيل قبلت الانسحاب"(23).

شمعون بيريز وزير الدفاع الإسرائيلي:

"لقد وجدنا الفرنسيين منقسمين في آرائهم حول معنى التهديد السوفييتي، ولكنهم كانوا أبعد ما يكونون عن الهدوء"(24).

المستشار الألماني أديناور مخاطباً رئيس وزراء فرنسا :

"أرجوكم.. كصديق لفرنسا أن تنظروا في هذا الموضوع بدون أية محاولة لخداع النفس.. إن الأمريكيين لن يهرعوا لمساعدتكم، بالرغم من حلف الأطلنطي"(25).

حكومة الولايات المتحدة - على لسان أحد الصحفيين:

"من العسير أن نكون فعالين إذا وصفنا التوتر المتناهي الذي استولى على حكومة الولايات المتحدة، من الساعة السادسة مساء أمس حتى الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم، عندما أعلنت بريطانيا وفرنسا وقف إطلاق النار في مصر، لقد أخذت الحكومة الأمريكية موضوع التهديد مأخذ الجد الشديد، لقد كانت اللهجة التي صيغت بها المذكرات الثلاث مفاجأة ولدت الذعر في الحال"[26].

وزير الدفاع الفرنسي بينو مخاطباً بيريز:

"ليست لدينا وسائل للدفاع ضد الصواريخ، وإذا هاجمكم الروس فسنكون بلا حول أو قوة أمام الصواريخ حتى لو هرعنا لمساعدتكم بكل قوانا"[27].

مجلس الوزراء الإسرائيلي:

"وتكهرب الموقف في مجلس الوزراء الإسرائيلي بعد ظهر يوم 7 نوفمبر، عندما وصلت تقارير الوفد الإسرائيلي في باريس كاملة، ومعها نسخة من تقرير كتبه بوهلن السفير الأمريكي في موسكو، وقال فيه "إن السوفييت يعتزمون تسوية إسرائيل بالأرض في اليوم التالي"

"واحتدت المناقشات في مجلس الوزراء الإسرائيلي، وارتفعت الأصوات، وتبودلت الاتهامات، وأجهش بعض الوزراء بالبكاء، واضطر رئيس الدولة "بن زفاي" إلى التوجه عند الفجر إلى اجتماع مجلس الوزراء يطلب سرعة اتخاذ قرار لأن الموقف لا يحتمل الانتظار، وابلغه بن جوريون أن مجلس الوزراء قرر قبول وقف إطلاق النار وقبول الانسحاب من سيناء"[28].

هكذا إذن...

كل أنواع الخوف وأصنافه نقرأها ونحسها في تصريحات المعتدين وأصدقائهم

قد تنشب حرب عالمية ثالثة.

لا أحد يستطيع الوقوف أمام الاتحاد السوفييتي.

بن جوريون صار قلقاً على السلام العالمي، بعد أن قال أن احتلاله سيناء حقق أملاً قديماً!

الفارق بين إنذار بولجانين ومسح إسرائيل عن الوجود يوم واحد!

الولايات المتحدة لن تنجد أحداً إذا ما نفذ السوفييت إنذارهم.

لهجة بولجانين صعبة وجادة.

فرنسا... تجمع وتطرح.. ليس لديها وسائل للدفاع ضد الصواريخ السوفييتية.

وزراء إسرائيل يجتمعون في ساعات الفجر لاتخاذ قرار مّا... ويبلغ بهم الرعب أن يجهشوا بالبكاء...!

كل هذه المخاوف والمواقف تحدث هنا وهناك، ولم نسمع عن مسئول واحد قال للسوفييت: بلطوا البحر... فنحن جاهزون لأي هجوم، وسوف نقاتل دفاعاً عن أوطاننا وحقوقنا.

بل ولم نقرأ عن زعيم واحد فكر في توحيد هؤلاء المهددين بالفناء على يد السوفييت، ليقفوا صفاً واحداً ضد هذا الخطر الداهم!

إذن.. ما الذي بقي عند الغزاة من مشاعر الحذر والخوف ولم يعلمه الناس في أنحاء المعمورة سواء في زمن الحدث أو بعده بسنوات؟ وذلك بعد أن بدأ أصحاب القرار من قادة ووزراء وزعماء الذين عايشوا الأحداث ورسموها ينشرون مؤلفاتهم ومذكراتهم وأسرارهم على الملأ، وكل شيء أضحى معروفاً.

ونعود إلى السؤال:

هل أدى الإنذار دوره؟

والجواب نعم، وأكثر مما توقعه اكبر المتفائلين.

فالكل يريد أن ينسحب ولا بديل عن الانسحاب، وهذا الانسحاب غير مشروط والسؤال يولد عادة سؤالاً آخر...!

وسؤالنا الذي طرحناه وأجبنا عليه يولد عدة أسئلة..!

هل كان الاتحاد السوفييتي سينذر المعتدين ويهددهم لو أن المقاومة المصرية فشلت في صد الهجوم الاستعماري؟.

هل كان هناك موقف سوفييتي شجاع كهذا الموقف لو أن مصر لم تكن أشجع، وأعلنت استسلامها، ولم تستبسل في القتال في كل المعارك والجبهات وهي تعلم أنها الطرف الأضعف عدة وعتاداً؟.

وهل كان هذا الإنذار لو لم تقف أميركا موقفها السلبي من عدوان حلفائها؟.

وهل كان هناك إنذار سوفييتي لو لم تتخذ الأمم المتحدة قرارها بوقف إطلاق النار في يوم 2/ 11، في حين جاء الإنذار في 5/ 11؟.

ها هو عبد الناصر نفسه يرد على الزعيم السوفييتي خروتشوف الذي قال في رسالة أرسلها لناصر في نيسان1959:

"وهل كانت هناك أية شكوك تخامر أي إنسان في أنه لو تجاهلت القوات التي شنت العدوان المسلح على مصر التحذير القطعي من الاتحاد السوفييتي، ولم توقف الأعمال الحربية، لكان الاتحاد السوفييتي استخدم وسائل أكثر فعالية لوقف المعتدين وإحباطهم"

فرد عبد الناصر:

"ولعلك تعلم يا سيادة الرئيس أن الإنذار السوفييتي – الذي لا يستطيع أحد أن ينكر مفعوله – صدر من موسكو دون علمنا تماماً، وبعد مرور تسعة أيام كنا فيها وحدنا في ميدان المعركة.

كان هناك احتمال أن نفقد عزيمتنا، وكان ثمة احتمال آخر أن نستسلم بعد يومين، أو ثلاثة أيام، أو أسبوع، بل كان حتى من الممكن أن نستسلم في صبيحة اليوم الذي صدر فيه إنذاركم.

فأي جدوى كان يمكن أن تكون لهذا الإنذار يومها- يا سيادة الرئيس – لو كنا وصلنا إلى النهاية وسقطنا "[29].

هذه الأسئلة طرحها أكثر من كاتب ومؤرخ في الخمسين سنة الماضية، ولكن السؤال الذي لم أقرأه حتى اليوم، ولربما كان هناك من طرحه:

لماذا لم يكن هناك إنذار مماثل كنا بأمس الحاجة إليه بعد حرب حزيران عام 1967؟

لقد خسرنا في تلك الحرب سيناء والضفة الغربية وهضبة الجولان، وحتى اليوم لم ينذر أحد أحداً.

وأعود فأقول: إن ما طرحناه من أسئلة يقف أمامها مواقف الزعماء والكبار من الغزاة الذين قرروا الانسحاب بدون جدل أو مراء، وقد أطلنا في شرح تلك المواقف.

لقد كان الإنذار السوفييتي موقفاً شجاعاً يسجل للسوفييت، ولكن – مع الأسف – لا نستطيع إثبات كذبه أو صدقه، ومؤكد أن لديهم ردودهم على ما نقول ونزعم عن عدم جديتهم!

والفرق كبير بين الباحث والسياسي....

فالباحث الأمين الذي يحترم أمانته العلمية غايته الوصول إلى الحقيقة ونقلها للأجيال القادمة.

ولكن السياسي يريد إضعاف حجج الخصوم ودحضها، وإثبات حجته بكل الوسائل، وذلك لأن انتماءه – الحزبي أو العقائدي أو الإقليمي ـ يتطلب ذلك.

لذا.. نقول أن أثر هذا الإنذار لن يستطيع المؤرخ الحصيف إنكاره، والأدلة موجودة، ولا يستطيع إنكارها من يريد الاطلاع والمعرفة، وتسجيل الحقائق قبل كل شيء.

ويوضح هذه المسألة الدكتور مراد غالب سفير مصر لدى موسكو في تلك الآونة، ووزير خارجية مصر فيما بعد، حين يقول:

"إن ما تردد حول الإنذار من بعض الدوائر المعادية للإتحاد السوفييتي لا يخرج عن كونه تكهنات لا تستند إلى الواقع..

فهم يقولون أن الانذار لم يكن جدياً، حسناً.. هل نحن نحكم في السياسة بالنوايا أو بالآثار المادية والواقعية؟

لقد أدى الإنذار الهدف منه في تدعيم الثورة المصرية، ومساندة الشعب والجيش المصري في الرد على العدوان الثلاثي، كما أنه لم يكن بالتأكيد مبنياً على فكرة "صراع القوى" بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأميركية، لقد كان نابعاً من فهم حقيقي لطبيعة الظروف التي تمر بها حركة الثورة الوطنية، والنتائج الوخيمة التي تترتب على هزيمة الثورة لو تركت لمصيرها أمام عدوان من ثلاث دول أقوى عدداً وعدة"[30].

ردود الفعل في الوطن العربي

وفي سوريا أعلنت التعبئة العامة، وتقرر قطع العلاقات مع إنجلترا وفرنسا، وخرجت المظاهرات مؤيدة مصر في كفاحها ضد العدوان الغاشم.

وفي العراق، شجب نوري السعيد والملك فيصل الثاني العدوان الإسرائيلي، ولم يذكرا العدوان البريطاني الفرنسي، في حين تظاهر الشعب مطالباً بالانسحاب من حلف بغداد، وتجمع الألوف أمام السفارة المصرية طالبين التطوع.

وفي السعودية صدر بيان بإعلان التعبئة، وأرسل الملك سعود رسالة لناصر معلناً استعداد السعودية لتنفيذ اتفاقية الدفاع المشترك [31].

"وفي عدن، أضرم المتظاهرون النار في ثكنات القوات الإنجليزية، والمؤسسات البترولية.

وفي الكويت شبت النيران في حقول البترول.

وفي إمارة قطر، نشبت اضطرابات عنيفة.

وقامت فتنة في البحرين [32]

الانسحاب في سطور

في 6/ 11 / 1956، الأمم المتحدة توافق على إرسال قوات الطوارئ الدولية

وفي 15/ 11، وصول أول دفعة من قوات الأمم المتحدة إلى بور سعيد.

وفي 3/ 12، القوات البريطانية والفرنسية تبدأ الانسحاب من مصر، ووعد من إسرائيل بأنها ستنسحب من سيناء.

22/ 12، القوات البريطانية والفرنسية تغادر أرض مصر عن آخرها، وبذلك تم الجلاء.

كانون ثان وشباط 1957، الأمم المتحدة تضغط على إسرائيل للانسحاب التام غير المشروط، والتهديد بتوقيع العقوبات عليها إذا لم تلتزم.

1/ 3، إسرائيل تبدي استعدادها للانسحاب من الجزء الباقي من سيناء.

8/ 3، إسرائيل تسحب جميع قواتها[33]

14/ 3، تسلمت الإدارة المصرية رسمياً مهام إدارة قطاع غزة، بينما أعلن وزير الخارجية البريطاني إصرار حكومته على رأيها بضرورة تدويل القطاع[34].

زمن مختلف...

ويقول أنتوني ناتنج في كتابه "ناصر" عن نتائج حرب السويس:

"كان عبد الناصر يلقى تقديراً وإعجاباً بالغين لا يقلان عما تردده هتافات المظاهرات الصاخبة في كل بلد عربي مستقل آخر باعتباره صلاح الدين العصر الحديث، إذ أن شهيد الانتقام الغربي قد أصبح بطلاً ومخططاً لإذلال الغرب وهزيمته، كان مجرد ذكر اسمه يلمس وتراً سحرياً في قلب كل وطني عربي، وكانت صورته موجودة في الأسواق والمقاهي، وداخل سيارات الأجرة والمحال التجارية من المحيط الأطلسي إلى

المحيط الهندي، وأصبحت القاهرة في ذلك الوقت أكثر من ذي قبل قلب العالم العربي، ومنبع القومية الجديدة التي كانت تندفع بقوة في أنحاء الشرق الأوسط، وعلى امتداد شاطىء إفريقيا التي يحج إليها قادة كل الفكر التقدمي في العالم العربي لينهلوا من حكمتها، ويرتشفوا من أفكارها الملهمة [35].

ناصر يلخص الأوضاع الراهنة بعد الحرب

وفي حديث له مع المؤرخ محمد حسنين هيكل في 4 نيسان 1957، يلخص عبد الناصر، بخلفيته العسكرية، الأوضاع السائدة بعد الحرب ، فيقول:

"إننا انتصرنا في معركة السويس، وهذه مسألة ليست موضع شك، لكن كل انتصار يحتاج إلى تعزيز، وإلا فإنه معرض للخطر، وقواعد العسكرية تعلمنا أننا نعزز النجاح ولا نعزز الفشل، إذا لم نعزز أي نجاح، فإن مراحل الصراع القادمة قد تفلته من أيدينا، ولذلك فإن علينا الآن تحديد مصادر الخطر [36].

ويضيف ناصر أن بريطانيا وفرنسا لا خطر منهما الآن، لتعرضهما للهزيمة في السويس، ويستعرض أحوال السوفييت مع العرب، ليجد أن لا خطر محتمل منهم، ولذا لا يتردد في القول:

"الخطر الحقيقي إذن من الولايات المتحدة"

لذا راح يعدد الأسلحة التي يمكن أن تواجه الولايات المتحدة بها العرب، وخاصة مصر، فيجدها كما يلي:

1- **الحرب النفسية: بالإدعاءات الباطلة، والتي على القادة العرب أن يكونوا جاهزين للرد عليها.**

2- **الحرب الاقتصادية: فطلب ناصر من الخبراء المصريين وضع الاقتصاد المصري في مستوى اقتصاد الحرب.**

3- الغزو من الداخل: ويرى أنه جرب قبل الحرب ففشل، والآن لن يجدي بعد النصر.

4- محاولة عزل مصر عن الوطن العربي

5- سلاح الاغتيال.

6- سلاح الإرهاب ووسيلته إسرائيل [37].

ويقدم لنا المؤرخ الكبير محمد حسنين هيكل خلاصة تجربة حرب السويس في سطور، فيقول:

"لقد بدأ السوفييت يغيرون رأيهم في طبيعة النظام المصري، أولاً من حيث عدائه للاستعمار، وثانياً من حيث تأثيره في المنطقة العربية...

وفي ذلك الوقت كان موضوع السد العالي مطروحاً للبحث، وأراد الأميركيون أن يدخلوا مرة أخرى إلى مسألة السلاح عن طريق السد العالي. ولعلنا لم ننس أن سحب عرض تمويل السد العالي كان نتيجة لمسألة السلاح. وبهذه المناسبة فقد كان رأي الأميركيين الفني والعلمي هو أن مشروع السد العالي سليم مئة في المئة، وضروري للإقتصاد والزراعة المصرية، ومربح أيضاً.

لكن عندما رفض عبد الناصر أن يوقف صفقة الأسلحة مع الاتحاد السوفييتي، سحب الأميركيون عرضهم لتمويل السد العالي.

وفوجىء الاتحاد السوفييتي بتأميم مصر لشركة قناة السويس، ثم تبعتها حرب السويس أو العدوان الثلاثي، وهو الذي عمق بصورة نهائية مقاومة مصر للاستعمار، كما حدد تأييد الاتحاد السوفييتي لمصر بطريقة واضحة، لقد كانت حرب السويس هي كشف الغطاء الاجتماعي عن الحقيقة المصرية" [38].

ويضيف هيكل:

"وأصبح الموقف بعد الحرب وقرارات التأميم وتصفية القاعدة البريطانية:

عداء واضح للاستعمار والاحلاف العسكرية.

علاقات واضحة مع الاتحاد السوفييتي بعد صفقة الأسلحة والسد العالي.

اتجاه اجتماعي يزداد وضوحاً.

وبهذا نستطيع أن نقول أن عام 1957 تميز بالتفهم العميق مع الاتحاد السوفييتي، ولقد بدا ذلك واضحاً من الاهتمام الشديد، والود العميق الذي عومل به الوفد المصري الذي حضر احتفالات العيد الأربعين للثورة الروسية، وأعتقد أن الأزمة الطارئة عام 58-59 لم تؤثر على العلاقات المصرية السوفييتية بسبب البناء المتين الذي تحقق في الأعوام الثلاثة السابقة[39].

الفصل الخامس

العلاقات بين الاتحاد السوفييتي ومصر حتى عام 1964

العلاقات التجارية بين السوفييت ودول الشرق الأوسط

بعد الحرب العالمية الثانية، وحتى عام 1954، كانت تجارة دول الشرق الأوسط مع الاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية لا تشكل أكثر من 10٪ من مجموع تجارة دول الشرق الاوسط الخارجية [1]، ولذلك أسباب عدة أهمها أن هذه الدول كانت تخضع للاستعمار الأوروبي لعشرات السنين قبل التاريخ المذكور، لذا فإن هذا الاستعمار يبقى له أثره الكبير حتى بعد رحيله، فلا أحد يستطيع أن يزعم أن هذه الدول كان لديها إنتاج صناعي كبير– مثلاً – بحيث يمكنها به المشاركة في الأسواق العالمية لتتعامل مع دولة عظمى، فبعد عصر تركي طويل مظلم، هي خارجة من عصر الاستعمار الأوروبي الذي كان يحرص كل الحرص – وما زال– على أن تبقى هذه الدول متخلفة، وبحاجة إليه في كل لوازم الحياة واحتياجاتها، فكيف يتيح لها فرصة النمو والتطور لتكون دولة مصدرة...

كما كان للبعد الجغرافي عن الاتحاد السوفييتي أثره أيضاً.

وقد كان للإتفاقيات التجارية التي عقدت بين الاتحاد السوفييتي ودول الشرق الأوسط دوراً لتطوير العلاقات التجارية بين الطرفين، مثل التي وقعت مع مصر في آذار 1954، ومع لبنان في نيسان 1954، ومع سوريا في تشرين ثان 1955، كما عقدت سوريا عام 1957 اتفاقاً للمساعدات الاقتصادية والفنية مدته 12 عاماً لتنفيذ مشاريع إنمائية قيمتها 400 مليون دولار، وهذا دفع دول أوروبا الشرقية لتوسيع علاقاتها مع الشرق الأوسط، فوقعت الصين الشعبية اتفاقاً تجارياً مع مصر عام 1955 [2].

وفي كانون ثان 1958 يمنح السوفييت مصر قرضاً قيمته 185 مليون دولار يدفع على 12 عاماً [3].

وفي الوقت الذي اتسعت فيه العلاقات التجارية بين الاتحاد السوفييتي مع كل من تركيا وإيران والعراق، تراجعت هذه العلاقات مع إسرائيل من 5،11 مليون دولار عام 1954، إلى 5،8 مليون عام 1956، ثم أوقف السوفييت هذه العلاقات عام 1957 بعد العدوان الثلاثي على مصر[4].

ولكن بعد عام 1956، تتصاعد نسبة صادرات دول الشرق الأوسط إلى الاتحاد السوفييتي لتصبح ثلاثة أضعاف، كما تضاعفت وارداتها منه، وكان لمصر الحجم الأكبر من هذه التجارة، فقد كان نصف صادراتها لأقطار الكتلة السوفييتية عام 1957، كما قدم الاتحاد السوفييتي مساعدات للجمهورية العربية المتحدة (سوريا ومصر) قيمتها 760 مليون دولار، وهذا أكثر مما قدمه لأي قطر شيوعي في العالم[5].

وكان لصفقة السلاح التشيكية أثر كبير على العلاقات بين السوفييت ودول المنطقة، فهي التي فتحت البوابة الشرقية على مصراعيها لدول الشرق الأوسط، وبالذات دول المواجهة وفي طليعتها مصر..

فقد أصبح نصيب مصر من تجارة الكتلة السوفييتة مع دول البحر الأبيض المتوسط 50٪، ثم أصبح نصيب سوريا ومصر عام 1958 ثلثي هذه التجارة، وعقد السوفييت مع مصر اتفاقيات على عدد كبير من المشاريع الصناعية، ومنها إقامة مختبر ذري في القاهرة، ثم توجت هذه العروض باتفاق قرض كبير قيمته 700 مليون روبل تم توقيعه بين البلدين في تشرين ثان 1957، وتزايدت صادرات مصر من الأقطان إلى منطقة الكتلة السوفييتية والصين من 35 مليون دولار عام 1953 إلى 95 مليون دولار عام 1956، وجاء منشيكوف رئيس وكالة التجارة الخارجية السوفييتية إلى القاهرة عام 1956، كما زار العاصمة المصرية عدد كبير من رؤساء دوائر التجارة الخارجية لبلدان أوروبا الشرقية وذلك بين 1956 و 1957[6].

ولا تشمل هذه الأرقام السلعة الرئيسة في النشاطات الاقتصادية بين الطرفين، السلاح، فقد شحن السوفييت إلى مصر وسوريا واليمن ما قيمته 400– 500 مليون دولار من الأسلحة والذخائر ما بين عامي 1955– 1958، كما قيل أن ثمن الشحنة الأولى (التشيكية) قد بلغ 80 مليون دولار(7).

"فقد تلقت سوريا ومصر عدة مئات من طائرات ميغ 15 وميغ 17 وميغ 19، بالإضافة إلى كمية مماثلة من طائرات اليوشن النفاثة التي تستخدم كقاذفات متوسطة، وبالإضافة إلى ذلك تلقى البلدان عدة مئات من دبابات تي 34 الثقيلة، والمدافع ذات الاندفاع الذاتي، وعدة قوارب طوربيد، وكاسحات الغام، وعدة سفن حربية متنوعة"(8).

عقود بشروط ميسرة..

وليس غريباً – أو كثيراً – أن توصف التجارة الخارجية السوفييتية بأنها "جزء عضوي من النظام الاقتصادي الاشتراكي، وعنصر جوهري من عناصر السياسة الخارجية السوفييتية"، لذا قسطت القروض التي عقدها السوفييت مع الأقطار الآسيوية والإفريقية على 15 عاماً، وبفائدة 2.5 ٪، وكان السوفييت يقبلون تسديد قروضهم بالمقايضة، وبلغ عدد الاتفاقات التي عقدوها مع أقطار الشرق الأوسط 297 اتفاقاً حتى عام 1957 (9).

وفي كلمات قليلة، يلخص لنا الدكتور عزيز صدقي وزير الصناعة والتعدين المصري في ذلك الوقت، طبيعة العلاقة الاقتصادية مع السوفييت بعد ثورة يوليو، فيقول أنه كان يلزم مصر لخطة السنوات الخمس التي وضعت عام 1952، خمسون مليون جنيه سنوياً، وبما أن مصر لم تكن تملك هذه المبالغ، توجهت مصر للسوفييت.

يضيف جواباً على السؤال أن لماذا الاتحاد السوفييتي بالذات:

"لسبب غاية في البساطة، وهو أن شروط التعامل مع الدول الغربية تقتضي إما الدفع الفوري، أو التقسيط على خمسة أعوام بعد دفع 25 في المائة من الثمن أولاً، ثم فائدة حوالي 6٪ على ما تبقى من الدين، أما الشروط السوفييتية فهي الدفع بعد مرور عام من استكمال بناء المصنع (لكي يكون الدفع من عائد الانتاج) وبأقساط لمدة اثني

عشر عاماً، وبفائدة لا تتجاوز 5،2 في المائة، هذا هو الفرق!... وقد سافرت إلى موسكو في يناير(كانون ثان) 1958 بعد إقرار الخطة في القاهرة، ووقعت أول اتفاقية للتعاون الاقتصادي والفني، حصلنا بموجبها على قرض قيمته 62 مليون جنيه استرليني لتنفيذ مشروعات الخطة..

لا بد أن أذكر هنا أن الشروط التي تم على أساسها توقيع الاتفاقية كانت تؤكد رغبة الاتحاد السوفييتي في مساعدتنا[10].

مساهمة السوفييت في تأسيس صناعات ضخمة

ويضيف الدكتور عزيز صدقي:

"كان تنفيذ هذه الاتفاقية هو السبيل الوحيد لإنجاز الخطة الخمسية الأولى في أقل من خمسة أعوام، وبسبب ذلك النجاح قرر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الأخذ بمبدأ التطبيق الشامل للتخطيط في كل مجالات الاقتصاد، وتم وضع الخطة الخمسية الأولى عام 1959؛ ودفعنا نجاح التعاون المصري السوفييتي إلى مزيد من التعاون، فتعاقدنا على قروض أخرى لمشروعات أخرى..

.. وفي المرحلة الثانية مباشرة، ركزنا على تصنيع السلع الأساسية، كمشروعات التعدين، وتكرير البترول، والدرفلة (أي تحويل بلاطات الصلب الضخمة الى صفائح مختلفة السماكة) في مجمع الحديد والصلب.

وفي كل المراحل - كما سبق أن أشرت- لم يكن دور الاتحاد السوفييتي معنا مجرد بناء مصانع، كانت رغبته التي عبر عنها عملياً هي دعم الاقتصاد المصري بشكل كامل، وإلا تعثرت عملية التنمية، ولذلك فإلى جانب التعاون الصناعي، واتفاقية السد العالي، ومجمع الحديد والصلب، واستصلاح 300 ألف فدان، اتخذت المعونة سبيلاً آخر، وهو الاتفاقيات التجارية، فقد فتحت هذه الاتفاقيات أسواق الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية لسلعنا، التي أفادت من المنافسة بين أسواق الشرق والغرب، كما عاوننا

الاتحاد السوفييتي على استيراد سلع نصف مصنوعة، لم يكن من السهل استيرادها من الغرب وقد ساهمت هذه المواقف في تخفيف أعبائنا الاقتصادية، وتيسير صعوبات كثيرة تحيط بعمليات التنمية بالنسبة لدولة نامية كمصر، وأستطيع أن أقول بدون أي مبالغة أننا بدون هذه المعونة لم يكن ممكناً أن ننجز ما تم بالفعل، كما أنه كان من المستحيل التعاون مع أي جهة غربية في هذا المجال"(11).

ويمتدح عزيز صدقي مجمع الحديد والصلب الذي أنشأه السوفييت قائلاً:

"بدون الصلب لا تستطيع أن تصنع دراجة أو ثلاجة أو قضبان السكك الحديدية أو حديد التسليح وغيرها من الصناعات الضرورية، فإذا لم تنتجها يجب أن تستوردها، ولكي تستورد كل ما تريده منها يجب أن تكون قدراتك المالية ومن النقد الأجنبي بالتحديد أضعاف ما تستطيع توفيره فعلاً، ولذلك نحن لم نقم بمغامرة غير محمودة العواقب، ويكفي أن تعلم ان إنتاج المجمع بحسابات ذلك الوقت يتجاوز 165 مليون جنيه سنوياً، تستطيع ان تخصص منها جزءاً للأقساط، وتستخدم الباقي في مجالات أخرى للإستثمار، وكذلك الحال في صناعات أخرى كالتعدين والبترول والاسمنت، إن تكاليف إقامة مثل هذا النوع من الصناعات الأساسية تتجاوز عشرات الملايين من الجنيهات، فكيف كان من الممكن أن ننفذها مع ضعف قدراتنا المالية إذا لم نجد العون، والرغبة الصادقة من الاتحاد السوفييتي"(12).

وهذا حديث وزير خبير، وليس حديث صحفي أو إعلامي..

إذن.. فالاتحاد السوفييتي يستقطب الأصدقاء بالمساعدة الصادقة الواضحة، وبكل بساطة، لا يحاول استعباد إرادة الشعوب والدول بقروضه ومساعداته..، فلا هو يشترط انضمامهم إلى حلف، ولا مشاركته في معركة أو غزو ، ولا الانتماء للحزب الشيوعي..ولا اعتناق فكره، ثم هو لا يطلب فوائد كبيرة، ولا دفعاً فورياً، بل يخالف ذلك لما هو في مصلحة الدولة المستدينة، ولا نبحث هنا مسألة أن معظم الأسلحة التي

حصلت عليها مصر من السوفييت كانت مجانية، وبشهادة كبار المؤرخين والمسئولين والضباط، وهذا ما سنقف عنده في الفصول القادمة.

لا بديل عن السوفييت..

ولدى سؤال عزيز صدقي عن إمكانية التعامل مع جهة أخرى غير الاتحاد السوفييتي، رد قائلاً:

"يجب أن نكون واضحين، ليس لنا شيء في العالم ليس له بديل، لكننا نستطيع أن نقول ان الاتحاد السوفييتي كان وسيظل، ويجب أن يظل، أساسياً بالنسبة لإمكانية التصنيع بالصورة التي نأملها للنمو الصناعي في بلادنا، لأن المسألة ليست بالبساطة التي قد يتصورها البعض، فكلما تقدمنا في مراحل التصنيع، تنفتح أمامنا إمكانيات صناعية لم تكن ممكنة أو متصورة قبل النمو الصناعي..

ويضيف عن حديث ناصر له عن إمكانية مساعدة البنك الدولي، قال ناصر لعزيز:

"كان عندي دلوقت مستر وودز من البنك الدولي، وقال لي ريح نفسك ولا تطلب قروضاً للصناعة، لأنه ليس من سياسة البنك الدولي أن يساعد دولة كمصر على التصنيع، لأن سياسة البنك محكومة بسياسة الولايات المتحدة الأميركية، وسياسة الولايات المتحدة الأميركية لا تشجع على معاونة الدول النامية على التصنيع" وأضاف عبد الناصر:

"أمامك الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية، ولا تضيع وقتاً مع غيرهم" (13).

ولا ننس ما ذكرناه في الفصول السابقة أن عبد الناصر قد لجأ أولاً للولايات المتحدة لتزويد مصر بالسلاح، فكلف قائد الجناح علي صبري بهذه المهمة، والذي قضى سبعة شهور هناك متنقلاً بين أولي الأمر لتنفيذ أي اتفاق، فلم ينل شيئاً (14).

رأي العسكر..

ويزيد اللواء حافظ اسماعيل الصورة وضوحاً عن تلك الصفقة التشيكية التي كُتب عنها الكثير، فيقول:

"... لم تكن مجرد صفقة بقدر ما كانت بداية طويلة من التعاون مع الاتحاد السوفييتي في مجال التسليح، وقد عقدنا بعدها مباشرة صفقة أخرى في أوائل 1956، لإكمال ما يلزمنا، كما عقدنا صفقة أخرى مع بولندة تتعلق بالقوات البحرية، وفيما بين خريف 1955 وربيع 1956 تم وضع كل الاحتياجات في صورتها الموسعة الكاملة، وبهذه المناسبة كان من بين اشتراطاتنا هو أن يتم نقل الأسلحة على سفن سوفييتية، وأن يتم توريد بعض الطائرات على الفور، واستجاب الاتحاد السوفييتي لما طلبناه بدون تردد"[15].

فها هو الطرف المحتاج يفرض شروطه على الطرف المساعد، وهذا من الغرائب، إلا أنه حصل بين مصر والسوفييت.

وبعد حديثه عن إعادة مصر تقييم مواقفها بعد حرب السويس، ودخول السياسة الخارجية المصرية آفاقاً جديدة من المفاهيم، يقول اللواء حافظ إسماعيل جوابا على سؤال آخر:

"في الفترة ما بين أوائل 1957 وحتى عام 1960، كانت القوات المسلحة كلها قد دخلت في مرحلة من أكبر مراحل التطوير، بالتعاون مع الاتحاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكية، وتضمن هذا التطور إعادة تنظيم القيادة العامة تنظيماً شاملاً بحيث تستطيع هذه القيادة الموحدة أن تقوم، ليس فقط بعمليات التخطيط والتنظيم والتدرب إثناء السلم، ولكن أن يكون لها أيضاً القدرة على السيطرة على القوات المسلحة بكل فرعها، وهو ما لم يكن متوفراً قبل عام 1956.

وكان الشق الثاني لعملية التطوير الشامل هو إعادة تنظيم القوات المقاتلة براً وجواً وبحراً، وقد تم إحداث تطورات جوهرية فيها جعلتها أكثر قدرة في ميادين القتال"[16].

وبعد حديثه عن التغيير الشامل الذي طرأ على النظام التعليمي في الجيش المصري بسبب علاقاته الجديدة مع الكتلة الشرقية، يوضح:

"وفي النهاية نجحنا في إقامة القاعدة الفنية للقوات المسلحة بالاشتراك مع تشيكوسلوفاكية عام 1960، وهي أيضا من الأمور التي تعتز بها القوات المسلحة اليوم"[17].

ويرد حافظ إسماعيل عن وجود سوق للسلاح وقتئذ، والبيع لمن يدفع، فيقول:

"نعم كان من الممكن...بشرط أن تضمن الدول الغربية مجتمعة، وبالتنسيق فيما بينها، ما تسميه يالتوازن بيننا وبين إسرائيل، أي بين إسرائيل من ناحية وبين كل الدول العربية من جانب آخر، وهذا ما رفضته مصر في أوائل عام 1955، واتخذت بعد ذلك قرار الحصول على التسليح من الاتحاد السوفييتي..

إنني لا أتصور أن مسألة التسليح مسألة تجارية، إنها تتصل أساساً بالاعتبارات السياسية، ولعل موقف مصر من رفض دخول الأحلاف العسكرية الأجنبية عام 1955، بالإضافة إلى إحساس مصر أن تسليحها مقيد بمبدأ التوازن مع إسرائيل، هي الأسباب التي تدفع الغرب أن يعطي مصر بقدر"(18).

وهذا حديث لا يختلف فيه مؤرخ مع حافظ إسماعيل..

فتزويد مصر بالسلاح– بقدر أو بدون قدر – لم يكن يوماً مسألة تجارية حتى من أيام محمد علي باشا، فمواقفها من كل الدول التي حولها، وتأثير ذلك على الاستعمار وخططه وأحلافه هو المقياس، لذا، لم يتح لمصر عبد الناصر أن تبتاع السلاح من الغرب مع أنها لم تزعم أنها تريده مجاناً، أو أرخص من سعره العالمي، بدليل أن دول الغرب لم تعرض السلاح على مصر بسعر عال مثلاً..

فموقف مصر – في ذلك الزمن – من الأحلاف، وموقفها من كل دولة ترغب في دخول الأحلاف، وموقفها من دولة العدو الصهيوني، ورفضها الحلول الاستسلامية معها، كان هو المقياس الأول للتعامل معها في مسألة التزويد بالسلاح..

وينبه حافظ إسماعيل إلى مسألة يغفلها المؤرخون، ألا وهي مدى قدرات الاتحاد السوفييتي الخارج لتوه من الحرب العالمية الثانية التي كلفته أكثر مما كلفت أي دولة أخرى، فيضيف:

"وحتى من خلال التجارب مع الاتحاد السوفييتي، لم نستطع أن نفهمه، ونفهم القيود المادية التي يتعرض لها، لقد دخل الاتحاد السوفييتي الحرب العالمية الثانية وفقد 20

مليون مواطن، وخرج من الحرب ليبني نفسه، ويساعد في بناء دول إشتراكية معه، وفي نفس الوقت يحاول التصدي لتحديات الولايات المتحدة الأمريكية، ويبني قوة عسكرية على نفس المستوى، وذلك رغم أنه لا يملك نفس موارد أميركا وأوروبا الغربية [19].

وهذا حديث في منتهى الواقعية...

فالاتحاد السوفييتي تعرض لأكبر وأشرس هجوم في التاريخ، وخاض الحرب العالمية الثانية لأطول مدة بين المتحاربين، وخسر الكثير الكثير، فمن الأجدى له أن يشرع في محاولة بناء ذاته الجريحة، وتعويض ما خسره خلال تلك الحرب، إلا أنه يقدم كل ما بوسعه وأكثر لدول المواجهة مع إسرائيل، غير عابىء بما قد يجره عليه ذلك من تبعات اقتصادية، وعداوات هو في غنى عنها.

ويؤكد الزعيم الراحل ما سبق في خطابه الشهير في 26تموز 1956، والذي أعلن فيه تأميم القناة، فيقول:

"استطعنا بعد ذلك أن نحصل على السلاح من روسيا، من روسيا لا من تشيكوسلوفاكيا، ووافقت روسيا على إمدادنا بالأسلحة، وتمت صفقة الأسلحة، فحصلت ضجة، وقالوا أنه سلاح شيوعي، ولكنني أعرف أن السلاح هنا سلاح مصر، وبدأت صحافتهم تقيم ضجة.. ما سببها؟ قالوا أن لديهم خطة، وهي حفظ التوازن بين الدول العربية وإسرائيل، طيارة للدول العربية كلها وأخرى لإسرائيل لحفظ التوازن! من ذا الذي أقامكم أوصياء علينا لحفظ التوازن؟

نحن لا نقبل وصاية أحد، ولكنه الاحتكار للسلاح الذي كانوا يتحكمون به فينا.

فلما استطعنا تحطيم هذا الاحتكار انهارت كل خططهم، لم يستطع الاستعمار التحكم عن طريق منع الأسلحة، من ذا الذي أوجد إسرائيل في هذه المنطقة؟ من كان مسئولاً عن الانتداب على فلسطين؟ بريطانيا!"

ولا يكتم عبد الناصر شعوره بالثقة ولكن بدون أن يذكر سببها، فيقول:

"قامت الضجة في كل مكان بشأن الأسلحة، فكنت أرى العجب والشتائم في الجرائد الانجليزية والفرنسية والأمريكية.. كانوا يشتمونا لأننا تخلصنا من السلاسل، واستطعنا أن نحرر بلدنا، وندعم قوتنا، ونقرر سياسة مستقلة..

هذه هي ضجة الأسلحة، وصفقةالأسلحة.

كنت أتكلم وانا مطمئن أشعر بالقوة، لماذا؟

لأني أشعر أن الشعب جميعه 22 مليونا كلهم سيكافحون في سبيل الاستقلال لآخر قطرة من دمائهم، لم أكن أتكلم بقوة جمال عبد الناصر، ولكن كنت متأكداً أن كل أبناء مصر سيكافحون لآخر قطرة من دمائهم.. لا حزبية ولا خلافات..إننا جميعاً كتلة وطنية وراء اهداف الثورة"[20].

وهذا وضوح لا يدانيه وضوح...

فهو ليس اعترافاً بمصدر صفقة الأسلحة التشيكية فقط، بل هو توضيح للأمة كلها عن لب صراعنا، وهوية أعدائنا من دول الغرب، تلك الدول التي لا تريد لهذه الأمة نهضة ولا تطوراً، ولا قوة ولا صعوداً، بل إن كل ما تسعى إليه أن تظل الأمة العربية في ضعف وفقر وهوان كما تركتها بعد استعمارها لها، لتكون دائماً لقمة سائغة، وصيداً سهلاً لها، ولقاعدتها الاستعمارية..إسرائيل..

حقاً لقد كان اكتساب مصر وسوريا صداقة السوفييت إنجازاً رائعاً يذكر لعبد الناصر، ولكل من سعى في توطيد أواصر هذه الصداقة، وقد كانت مكاسب دول المواجهة منها هائلة يصعب إحصاؤها ورصدها.

ولعدم توفر المراجع لهذا الموضوع، كان لا بد من الرجوع للإنترنت، فكان فيها بعض ما نريد.

ففي عام 1956، حصلت مصر من الاتحاد السوفييتي على:

215 طائرة ميج 17

6 طائرات زيلين التشيكية

138 طائرة ميج 15 خلال طوال الخمسينات.

80 قاذفة اليوشن 28 وقد استخدمت في حروب 1956 -1967 – 1973

70 طائرة نقل اليوشن 14

10 طائرات نقل انتينوف 2

30 طائرة ياك 18

طائرات الهيل مي 1

طائرات الهيل مي 2[21].

عبد الحكيم عامر

يزور الاتحاد السوفييتي

تشرين ثان 1957

وبدعوة من حكومة موسكو بمناسبة العيد الأربعين للثورة السوفييتية- بعد اعتذار ناصر - يزور وزير الحربية المصري والقائد العام للجيش المشير عبد الحكيم عامر الاتحاد السوفييتي في الأول من تشرين ثان 1957، فاستقبل بحفاوة بالغة رسمياً وشعبياً، وامتدت الزيارة إلى 21 يوماً، زار خلالها عدداً من جمهوريات الاتحاد، والتقى بكبار ساستها وأعلامها العسكريين والاقتصاديين، وأجرى مباحثات في مواضيع عدة تهم البلدين، انتهت بتوافق وجهات نظر المسئولين في مصر والاتحاد السوفييتي.

وكان ناصر حكيماً في اعتذاره عن الزيارة، لأسباب عدة، فهو لم يردها زيارة لتقديم الشكر على الإنذار السوفييتي في حرب السويس، او على صفقة الأسلحة، بل أراد اكتشاف المواقع قبل زيارتها، ففي نيته طلب صفقة أسلحة أخرى، وقرضاً لمرحلة

التصنيع، وجس نبض نوايا السوفييت للمساعدة في بناء السد العالي، كما لم يرغب في ظل الضغوط على سوريا آنذاك بالظهور في موسكو ليكون ذلك ذريعة للدعاية الغربية [22]، وقد كان في منتهى الحكمة في كل هذه الأعذار..

ولإخفاء الغايات الاقتصادية من زيارة عامر، ضم الوفد عدداً من العسكريين مثل الفريق بحري سليمان عزت، واللواء طيار جمال عفيفي، واللواء حافظ إسماعيل، واللواء عبد العزيز مصطفى، وعدداً آخر من المساعدين والمرافقين.

كما كلف الزعيم الراحل المؤرخ الكبير محمد حسنين هيكل بمرافقة عامر، فكان المدني الوحيد ضمن الوفد، وبرر ذلك التكليف بطريقة دبلوماسية، بقوله:

"إن الاتحاد السوفييتي قوة عظمى، ونحن ستتعامل معهم لسنوات طويلة، وفي مسائل حيوية بالنسبة لنا، وسوف يفيدني كثيراً أن أسمع منك حين تعود بالتفاصيل، أريدك أيضاً مع عبد الحكيم عامر، ولا تنس أنها فرصة لك أيضاً كصحفي" [23].

ناصر يختبر السوفييت

ولكي يعرف عبد الناصر مدى جدية السوفييت في الوقوف مع بلاده، أذيعت في القاهرة يوم وصول عامر للاتحاد السوفييتي الأحكام الصادرة عن المحكمة العسكرية العليا في قضية الشيوعية، فتم الحكم على 18 متهماً شيوعياً بالسجن 6– 12 سنة، ولكن مع ذلك لا نجد أي تغير في الموقف السوفييتي من مصر وقيادتها، ولا من ضيوف موسكو منها، فقد استقبل من قبل أعظم الشخصيات السوفييتية وفي مقدمتهم خروتشوف وبولجانين وجروميكو وغيرهم من كبار القادة والمسئولين السوفييت، وأقيمت له حفلات الاستقبال في أفخم قاعات الكرملين [24].

والتقى عامر والوفد المصري المرافق في اجتماع موسع في الكرملين في 19تشرين ثان بالزعيم السوفيتي خروتشوف، ورئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بولجانين، ووزير الخارجية أندريه جروميكو، وبعدد آخر من المسئولين السوفييت، وقد أعرب

الفريقان عن رضائهما عن النتائج التي تمخض عنها الاجتماع الذي بحث فيه الجانبان مواضيع سياسية واقتصادية وعسكرية جسدت أواصر الصداقة الحقة بين البلدين.

وفي اجتماعه مع خروتشوف وبولغانين عرض عامر مشروع السنوات الخمس الأولى للتصنيع، قائلاً:

"إنه بالفعل مشروع طموح، لكن الاستقلال الاقتصادي هو الوسيلة الوحيدة التي تراها مصر لتحقيق ثلاثة أهداف في نفس الوقت:

أن تقدر على مواجهة الحصار الاقتصادي الذي يحاولون فرضه عليها.

أن تواجه المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الحقيقية بما فيها زيادة عدد السكان.

وأن تأخذ دورها الطبيعي كدولة قوية في المنطقة.

وأضاف: إن مصر لا تحتاج إلى منح، ولا إلى هبات، وإنما تريد مصانع، وتريد أن تدفع ثمنها بشروط محتملة، فهي تريد أن تدفع بالتقسيط، وتريد أن يبدأ الدفع بعد أن تبدأ هذه المصانع في إنتاجها فعلاً" (25).

وفي المساء أبلغ خروتشوف عبد الحكيم عامر بقرار القيادة السوفييتية رفع مساهمتها في خطة التصنيع المصرية إلى 700 مليون روبل (5،62مليون جنيه)، فرد عامر متأثراً:

"الحقيقة إن هذا التجاوب من جانبكم يستحق التقدير، وقد كنت أريد أن أطرح موضوعاً آخر للمناقشة، ولكني سوف أطرحه الآن كمجرد رأس موضوع لمجرد التفكير فيه، وليس لاتخاذ قرار عاجل، وأقصد مشروع السد العالي ، إن مشروع السد العالي – كما تعرفون – هو الآن محور نضالنا بعد معركة قناة السويس، ونحن نتصور أن بناءه هو الهدف الرئيسي لنا في المرحلة القادمة" (26).

ولما عاد عامر والوفد المرافق إلى مصر ألقى بياناً مطولاً أمام مجلس الأمة عن زيارته تلك، وعن المواضيع التي تباحث فيها مع السوفييت، ومنها:

1- التعاون الاقتصادي لتنفيذ مشروع السنوات الخمس الصناعية في مصر.

2- تقديم الاتحاد السوفيتي مبلغ 600 مليون روبل - رفع لاحقاً إلى 700 مليون روبل- لتنفيذ بعض المشروعات في مصر.

3- تدفع مصر قيمة القرض بفائدة قدرها اثنان ونصف في المئة، ويسدد القرض في 12 عاماً.

كما أطلع عامر مجلس الأمة على ما اطلع عليه والوفد العسكري المرافق من آخر فنون الحرب وأساليبها، والمناقشات التي خاضها مع العسكريين السوفييت، وقد قابل مجلس الأمة خطاب عامر بالتصفيق المتواصل، وعده بداية طيبة للعلاقات بين القطرين [27].

هذه الزيارة، وهذه الاجتماعات الثرية تدلنا على حسن النوايا التي عمرت نفوس المسئولين في البلدين الصديقين، واجتماع رئيس الدولة نفسه مع الوزير المصري - بجانب تلك الكوكبة من المسئولين السوفييت الكبار - يدلنا على جدية السوفييت في تعاملهم مع الشرق الأوسط، ومع مصر بشكل خاص، بتلك الروح المتعاونة، التي تريد الخير لمصر، وشعب مصر الذي عبر مجلس أمته عن رضاه التام بتلك الزيارة التي عدها فاتحة طيبة لعلاقات تعاون مشترك بين البلدين، جمع بينهما الهم المشترك ألا وهو كره الاستعمار.

حديث هيكل مع خروتشوف 16 تشرين ثان 1957

ولأهمية الحديث الذي أجراه محمد حسنين هيكل مع خروتشوف خلال تلك الزيارة، أورده كما نشر في كتابه "سنوات الغليان"، وفي هذا الحديث إضاءات للأحداث في تلك الفترة الخصبة من التاريخ، وتوضيح لأدوار الدول الاستعمارية في ما جرى على الساحة، وكشف لمطامعها وغاياتها في إبقاء سيطرتها على الشرق الأوسط.

سألت خروتشوف عن سياسة الاتحاد السوفييتي في الشرق الأوسط، فأجاب:

"إن سياسة الاتحاد السوفييتي في الشرق الأوسط وأهدافه لا تختلف عن سياسته وأهدافه في أي منطقة أخرى غير الشرق الأوسط، ولكن الشرق الأوسط بسبب ظروفه يمثل جزءاً هاماً وحساساً من أحداث العالم الآن، ذلك أن شعوب هذه المنطقة تكافح في

سبيل استقلالها، بعضها استطاع تحرير نفسه، وبعضها ما زال يواصل معارك التحرير، بعضها حقق استقلاله، وبعضها أخذ استقلالاً ظاهرياً تدعيه حكومات لا تمثل في الواقع أماني شعوبها، وهذه الحكومات تمارس سياسة هي في حقيقة الأمر سياسة الاستعمار، وبسبب هذه الظروف كلها في هذا المكان، في هذا الوقت من التاريخ، يعلق الاتحاد السوفييتي أهمية كبرى على كفاح شعوب المنطقة، وسياسته في هذا هي أن يساهم في تدعيم الاستقلال السياسي والاقتصادي للدول المستقلة حتى يصان استقلالها، وأن يناصر الذين يكافحون من أجل استقلالهم حتى يصلوا إلى هذا الاستقلال كاملاً".

وسألت خروتشوف عن رأيه في أسباب التوتر في الشرق الأوسط، فقال:

"إن الأسباب الحقيقية للتوتر – كما نراها– أن الاستعمار اضطر تحت ضغط شعوب المنطقة إلى التسليم بتنازلات لهذه الشعوب، ولكنه ما زال يحاول إبقاء زمام السيطرة الفعلية في يده، خذ بريطانيا مثلاً، وبريطانيا في هذا الموضوع لها تجربة كبيرة، إن بريطانيا تدعي أن سياستها هي منح المستعمرات استقلالها تمشياً مع أماني الشعوب، ولكن هذه تصريحات مكشوفة، إنها اضطرت للتراجع بعض الشيء لأنها لم تستطع أن تستمر في سيطرتها بالوسائل التقليدية، وبريطانيا لا تريد أن تسلم، لهذا فهي تلجأ إلى وسائل اخرى: أولها على سبيل المثال أن تبدو في الظاهر كمن يحاول الاستجابة لمطالب الشعوب، بينما تعمل في الواقع على استبقاء مراكز نفوذها، وإحدى الوسائل في هذا السبيل هي خلق الحكومات الخائنة لشعوبها، المرتشية من المستعمرين، يريد الاستعمار بذلك أن يوهم الشعوب أنها تحكم نفسها بابنائها، بينما الواقع القائم يقول أن الاستعمار هو الذي يحكم.

إن الاستعمار يريد أن يبقى في مواقعه، لكي يواصل استغلاله للموارد الطبيعية في المنطقة، والشعوب تريده أن يخرج، وقوة الاستعمار وقوة الشعوب في معركة حامية من أجل هذا السبب، إن الشعوب تريد حكومات تعكس إرادتها، وهذا آخر ما يريده الاستعمار، بدليل أنه عندما قامت في بعض هذه الدول حكومات تمثل شعوبها تمثيلا حقيقياً، كما حدث في مصر وسوريا، فإن حقد الاستعمار عليها، وحربه ضدها، لا

يعرف حداً بعده، إن الاستعمار في حقده يلجأ إلى كل سبيل، يلجأ إلى الشك، يلجأ إلى إرسال جواسيس، يلجأ إلى نشر الاشاعات، بل يلجأ إلى القتل، وصدقني إن ترسانة الاستعمار مليئة بأنواع كثيرة من السموم.

خذ مصر.. إن مصر تملك في أرضها قناة، هي قناة السويس، التي تعتبر أهم نقطة في المواصلات بين أوروبا وآسيا وإفرقيا، والاستعمار يريد إبقاء سيطرته على هذه المنطقة، لهذا فهو يريد أن تكون في مصر حكومة موالية يختارها وينتقيها على هواه، ويصل الأمر إلى حد أن تتكاتف دول الاستعمار جميعها في الهجوم على مصر، وحتى الولايات المتحدة الأمريكية التي أعلنت في الظاهر عدم رضائها عن هجوم حلفائها على مصر كانت معهم في المؤامرة، وإنما كان هناك نوع من توزيع أدوار الرواية على الممثلين، ولقد فشلت الرواية – أعني فشلت المؤامرة– وبقيت الحكومة المصرية الوطنية التي كان الاستعمار يريد الخلاص منها، ولقد كانت الخطة أن يتم القضاء على هذه الحكومة الوطنية، بينما الأمم المتحدة تناقش مشكلة العدوان، وكان التقدير أن لا تنتهي هذه المناقشة إلا وتكون في مصر حكومة موالية، مستعدة للتسليم، وهكذا لا بد أن أقول:

إن مقاومة الشعب المصري وحكومته كانت العامل الأول في إحباط المؤامرة، ولكني أيضاً لا أريد أن اكون متواضعاً إلى الحد الذي أتغافل معه عن الدور الذي قام به الاتحاد السوفييتي في سبييل إحباط العدوان.

ولقد كان قصدنا أن نكشف أمريكا حين عرضنا عليها – قبل ان نوجه إنذارنا للمعتدين – أن تشترك معنا باسم الأمم المتحدة في عمل مسلح لوقف العدوان على مصر، إن امريكا رفضت، وكنا نعرف أنها سوف ترفض، ولكن قصدنا كان أن نكشف حيلتها، ونفضح دورها في المؤامرة، ولقد افتضح هذا الدور الأمريكي، وانكشف ما كان خافياً من أمره بعد فشل العدوان على مصر، فلقد خرجت الولايات المتحدة علناً تحاول أن تساعد حلفاءها في ما لم يستطيعوا وحدهم القيام به، وكانت تساعدهم بطريقة غريبة، كانت تساعدهم على طريقة حبل المشنقة حين يساعد المشنوق! أعلنت الولايات المتحدة فجأة مبدأ ايزنهاور الذي يدعي نظرية ملء الفراغ في الشرق الأوسط، وكنت في دهشة

من حكاية هذا الفراغ الذي يريدون ملأه في الشرق الأوسط، أين هو هذا الفراغ؟ إن الشرق الأوسط منطقة مزدحمة بالسكان، ثم إنه المنطقة التي نشأ فيها الجنس البشري، وحبا إلى الحضارة، ثم هو منبت الثقافات.

كان المعنى الوحيد لإعلان هذا المبدأ من جانب ايزنهاور هو أن أمريكا لا تعترف بحق الشعوب في تقرير مصيرها، وتعتقد بأن هذه الشعوب يجب أن تظل تحت الوصاية، وصايتها طبعاً، ولجأت الولايات المتحدة إلى اساليب جديدة وحديثة ومبتكرة، ولكن القفازات البيضاء في يد القاتل لا تستطيع تخفيف الألم عن الضحية، وهنا لم تكن الولايات المتحدة تعمل لضمان مصالح بريطانيا وفرنسا، وإنما كانت تعمل لضمان مصالح احتكارات البترول، إنهم يريدون الغنى بأي شكل من الأشكال، وأي وسيلة، ورائحة البترول – بما تشيعه حولها من أحلام– تفقدهم اعصابهم، ولما وجدوا ان الخطة ضد الهدف الأول وهو مصر لم تنجح، تحولوا إلى هدف ثان، وهكذا بدأت العملية في سوريا"

وسألت خروتشوف عن معلومات الاتحاد السوفييتي عما يجري في سوريا، والضغوط الواقعة عليها، وما إذا كان لديهم ما يثبت المؤامرة ضد سوريا، وقال خروتشوف:

"لدينا معلومات كاملة، ونحن واثقون من دقتها، وسوف أطلعك على ملخصها..

إنهم دبروا مؤامرات للاستيلاء على سوريا من الداخل، وعندما لم تنجح هذه المؤامرات، رأت الولايات المتحدة أن تدفع الأردن والعراق إلى مهاجمة سوريا، وكان تصورهم أن ذلك لو حدث، فإن الولايات المتحدة الأمريكية تبدو بعيدة، بينما ينحصر الأمر في نطاق دول عربية تتقاتل مع بعضها، ولقد تبين أن تنفيذ المؤامرة ضد سوريا على هذا النحو مستحيل، وأريد أن أحدد لك نقطة هامة، وهي أن مبعث الاستحالة هنا لم يكن رفض حكومة الأردن وحكومة العراق القيام بما طلب منهما، ولكن كان مبعث الاستحالة أن كلاً من الحكومتين وجدت أنها لا تستطيع ضمان جيشها في مثل هذه الحالة، ولقد قالت هاتان الحكومتان هذا الكلام بصراحة للحكومة الأمريكية، وقالتا

أنهما تخشيان في مثل هذه الظروف أن تنضم قواتهما إلى الناحية الاخرى، وفي هذا الوقت عرضت إسرائيل استعدادها لتنفيذ المهمة، ولكن الولايات المتحدة منعت إسرائيل من الهجوم، لأنها وجدت أن ظهور إسرائيل على المسرح سيكون دافعاً إلى تكتل جميع الشعوب العربية، وهنا اتجه تفكير الولايات المتحدة إلى تركيا، وكانت وجهة نظرها أن تركيا دولة مسلمة، وسوريا دولة مسلمة، وعلى هذا النحو فإن هذا الوضع كان يضمن للولايات المتحدة أن تظل بعيدة عن خشبة المسرح، بينما الدول الإسلامية تتقاتل مع بعضها، إن أمام الأتراك الفرصة كاملة ليروا أن الآراء التي تجيئهم من أصدقاء عبر الأطلنطي ليست دائماً ناضجة، ولقد وجهنا إنذاراً للحكومة التركية، ولعلها تكتشف أن الإله الأمريكي الذي تعبده ليس قوياً إلى الحد الذي تتصوره، إن تركيا جار لنا، ونحن نريد أن نعيش معها في صداقة وهدوء، وكذلك فنحن نريد من تركيا أن تعيش مع بقية جيرانها في صداقة وهدوء، إن صداقة القوي عقل، وأما صداقة الضعيف ففيها وحدها يبدو حسن النوايا، وحسن الأخلاق[28].

تعليق على حديث خروتشوف

لا غرابة أن يعرف خروتشوف كل هذه المعلومات التي أدلى بها لهيكل، بل الغريب ألا يعرفها، فكزعيم دولة عظمى ليس صعباً عليه معرفة وإدراك كل ما يجري حوله من أحداث سياسية، خاصة تلك التي تهم بلاده، فلديه من الأجهزة والمصادر ما يفي بكل ذلك.

ولكن إدلاءه بذلك كله في زمن الأحداث، وهو طرف قوي فيها، وتعليله لها، وتعليقه عليها بكل شفافية ووضوح، موضحاً مواقفه ومواقف بلده مما يجري، يشكل للمؤرخ والقارىء أهمية استثنائية لا غنى عنها.

فالاتحاد السوفييتي حريص على تأمين حدوده الغربية، لذا يراقب ما يجري عن كثب، فيحاول جاهداً عدم ترك أقطار الشرق الأوسط تقع – مرة أخرى– فريسة لدول الاستعمار الغربي، ولا ننس أن تجربة الاتحاد السوفييتي المريرة في الحرب العالمية الثانية تجعله في حالة يقظة دائمة تجاه ما يجري..

لذا بات وقوفه إلى جانب هذه الدول، ودخوله أزماتها، ومشاركته في تفاصيل ما يجري فيها، هو سلوك لا غنى عنه، لتظل هذه الدول - كما قال- ذات استقلال سياسي اقتصادي مصون، مفسراً ذلك كله بحب التعايش السلمي مع هذه الدول.

فالاستعمار قد رحل منذ زمن عن الشرق الأوسط ، ولكنه يبقي مراكز نفوذ له على شكل حكومات خائنة لشعوبها.

وقد شذت مصر عبد الناصر عن القاعدة برفضها مثل هذا النوع من التبعية والخنوع، فكان لا بد من عدوان ثلاثي عليها، يعرفها حجمها، ويعيدها لساحة الاستعمار، لكن مصر لم تستسلم، بل خرجت من الحرب أقوى مما كانت عليه، معززة بوقوف السوفييت معها.

ويحاول الاستعمار توزيع أدوار تمثيلية -لا يجهلها خروتشوف - فالولايات المتحدة تزعم عدم رضاها عن العدوان الثلاثي، بدليل أنها لم تشارك فيه، ولكنها كانت تنتظر هزيمة مصر، وفضلت الاحتفاظ بدورها في الرواية، وعدم التدخل في أدوار الآخرين.

ويأتي دورها تحت ما سمته "ملء الفراغ"، فرحيل بريطانيا وفرنسا أشعر أميركا "بالوحدة والوحشة"، لذا تحاول خلق حلف تابع لها في الشرق الأوسط، ينوب عن دورها، ولو لفترة معينة، وقد كان لمصر الدور الأكبر في نهاية هذا المشروع وموته.

وواضح لنا أن معلومات خروتشوف كما قال "كاملة" عما جرى في سوريا، وحالها لا يختلف كثيراً عن حال مصر، فلما فشلت في هدمها من الداخل، راحت تجند القوى الخارجية لغزوها وتركيعها، وبينما اكتفى الاتحاد السوفييتي بإنذار تركيا، كان عبد الناصر يرسل فرقه العسكرية للدفاع عن سوريا، فانتهى المشروع الأميركي الجديد بالفشل الذريع.

وينهي خروتشوف حديثه بحكمة لا يخالفه عاقل في صحتها، فصداقة القوي عقل، وصداقة الضعيف تدل على حسن النوايا والأخلاق، وكأن الرجل يريد أن ينصحنا بضرورة حرصنا على صداقة بلاده، والتي أثبتت الأيام أن لا صداقة لنا غيرها.

الأفكار ذاتها في خطاب لناصر 1957/12/23

ولا نستغرب أن تكون أفكار خروتشوف مقاربة لأفكار ناصر في هذه الآونة، سواء علم كل منهما ما يحمله الآخر أم لم يعلم.

يقول ناصر:

"لم تنته معاركنا في سبيل استقلالنا، وفي سبيل تثبيت هذا الاستقلال بانتهاء العدوان، والانسحاب من بورسعيد ومن سيناء، ومن غزة، ولكن هذه المعارك استمرت بطريقة قد تكون أشد عنفاً وأشد قوة.

بدأت معركة الغرب ومعركة التجويع، ومعارك الأعصاب، وكان لهذه المعارك جميعاً هدف واحد: هو القضاء على الفكرة التي انبعثت من مصر، تنادي بالحرية والاستقلال، وبالقومية العربية.

الفكرة التي انبعثت من مصر تنادي بأن لا مكان لمناطق النفوذ، وأننا لن نخضع لمنطقة نفوذ أحد، ولن نخضع لسلطان أحد.

...أما المعركة الأخرى فقد كان سلاحها هم أعوان الاستعمار العرب، وأعداء القومية العربية العرب.

لقد ظهرت مشاريع وخطط للقضاء على القومية العربية، ولعزل مصر، والقضاء على فكرة الحرية، وعمل أعوان الاستعمار بكل طاقتهم لتحقيق الهدف بالتعاون مع الاستعمار، ولكنهم فشلوا.

كانت هذه معركة الاستعمار الرئيسية، انتصرنا فيها لأنه لا مكان لأعوان الاستعمار في أرضنا..

عرفنا الداء الذي قاسينا منه في الماضي بسبب أعوان الاستعمار، فتخلصنا منهم، ولهذا لم تصبح للخيانة أية فرصة في هذا الوطن، ولكن بعد الانسحاب من بورسعيد، هل يئس الاستعمار أو تخلى عن أغراضه، أو تخلى عن أهدافه؟

قطعاً الاستعمار لم ييأس، وحينما انهزم في المعركة السافرة كما قلت لكم، بدأ معارك مستترة، وبدأ معارك مريرة، استخدم فيها أعوان الاستعمار في باقي البلاد العربية،

لكي يعزل مصر، ويخضع مصر، ويقضي على شعلة الحرية التي انبعثت في مصر بثورة يوليو [29].

صفقة أسلحة جديدة

وفي عام 1958 استلمت مصر من الإتحاد السوفيتي أولى طائراتها التي تطير أسرع من الصوت وهي ميج 19، ومن الأسلحة البرية حصلت مصر على:

150 دبابة تي 34

60 دبابة جوزيف ستالين

وعدد من المدفعية متعدد الأعيرة، ومدفعية ميدان، ومدفعية الهاوتزر، وهاونات متعددة الأعيرة، وفي المجال البحري تسلمت مصر غواصات ويسكي، ومدمرات سيكوري، كما توالى دخول العديد من أنظمة التسلح البري من لنشات صواريخ، ولنشات طوربيد، ولنشات مدفعية، وفرقاطات مسلحة بالصواريخ، وقراويط، وكاسحات ألغام، وسفن إنزال، وغواصات روميو [30].

ثم في عام 1961 اشترت مصر من الإتحاد السوفييتي طائرات الميج 21 الشهيرة والتي تطير بضعف سرعة الصوت، و هو ما يوازى تقريبا 2000 كم في الساعة، كما حصلت على طائرات الهيل مي 4.

وفي الفترة من 1961–1967 اشترت مصر عدداً آخر من الطائرات السوفييتية مثل القاذفة توبوليف 16، وصواريخ كينيل أرض– جو، كما اشترت طائرات الهجوم الأرضي سوخوي7، وقامت بتصنيع طائرة التدريب والهجوم الخفيف حلوان–100 و 200.

وهنا بدأت مرحلة الاعتماد على التسلح الشرقي بصورة كبيرة، و قدرت واردات مصر من الأنظمه السوفيتية من عام 1955 حتى عام 1975 بأكثر من 20 مليار دولار [31].

الفصل السادس

خلافات أيديولوجية

لما تبنى الرئيس الأميركي أيزنهاور في رسالة إلى الكونجرس في 5 كانون ثان 1957 نظرية ملء الفراغ في الشرق الأوسط بعد انسحاب بريطانيا وفرنسا من المنطقة، رد الاتحاد السوفييتي في 11 شباط 1957 بما سمي "مشروع شبيلوف"، رامياً إلى عقد اتفاق مع الدول الغربية الكبرى الثلاث حول الاعتراف بالمبادىء المشتركة لعملهم في الشرق الأوسط، وكانت مقترحات السوفييت نابعة من مبادىء باندونج، فجاء في اقتراحاتهم :

1- تسوية المشاكل التي تهدد السلام عن طريق المفاوضات.

2- عدم التدخل في الشئون الداخلية.

3- عدم إدخال بلدان المنطقة في كتل أو أحلاف.

4- تصفية القواعد الأجنبية، وسحب القوات الأجنبية.

5- وقف شحنات السلاح.

6- تقديم المساعدات الاقتصادية بلا شروط [1].

وقد رأى عبد الناصر وسوريا في مشروع شبيلوف مبرراً للاعتماد على السوفييت لمواجهة المطامع الأميركية في السيطرة على المنطقة تحت ما يسمى بملء الفراغ، "بالإضافة إلى ذلك كان عبد الناصر مقتنعاً آنذاك أن الشيوعية لا يمكن أن تتقدم في العالم العربي، الذي لا يستشعر فراغاً ايديولوجياً، ولا فراغاً سياسياً، فالأيديولوجية القومية كانت تعبىء القوى العربية بدون أن تترك مكاناً للشيوعية"[2].

أميركا تسد الفراغ والسوفييت ينجدون سوريا..

وفي حزيران 1956، تظهر بوادر لتوطيد العلاقات بين سوريا والاتحاد السوفييتي، وبالذات على الصعيد العسكري والاقتصادي، وبالطبع العيون الأميركية تراقب..

ففي حزيران 1956 زار شبيلوف سوريا، وبدأت حركة من العلاقات بين البلدين، مثل:

1- عقد اتفاق ثقافي فتح المجال للفنانين والكتاب والمعارض السوفييتية.

2- تضاعفت الوفود السياسية بين البلدين.

3- الرئيس السوري شكري القوتلي يزور الإتحاد السوفييتي في الخريف بهدف تزويد بلاده بالسلاح.

وفي صيف 1957، ردت أميركا – التي خشيت أن تجر هذه التحركات الوطن العربي إلى مثلها – بأن حركت أسطولها السادس في مناورات للإرهاب، ووجهت طائراتها إلى مدينة اضنة التركية، ووقفت تركيا والعراق موقفاً عدائياً، ولم يكن صعباً على السوريين والسوفييت أن يدركوا أن الغرض من كل ذلك سد الفراغ الذي نادت به اميركا [3].

"هنا أنذرت موسكو الغرب في 3 سبتمبر بأن أي تدخل ضد سوريا سيؤدي إلى مواجهة، وهدد اندريه جروميكو وزير الخارجية السوفييتية بإصدار إعلان بعدم اللجوء إلى القوة، وبعد ذلك بعدة أيام بعث بولجانين بخطاب إلى الرئيس التركي مندريس يحذره فيه من أنه لن يسمح بوقوع هجوم على سوريا، وأيد الاتحاد السوفييتي الموقف السوري تماماً إثناء مناقشة الأزمة في الأمم المتحدة في 18 أكتوبر 1957، وخلال ذلك بدأت حدة الأزمة تخف تدريجياً، وكانت نتيجتها الرئيسية هي التقريب ما بين مصر وسوريا، ففي 15 أكتوبر نزلت قوات مصرية في اللاذقية لمساندة الأشقاء العرب المهددين، وزال الخطر

تدريجياً عن سوريا، وخرج الاتحاد السوفييتي من ذلك الموقف وقد تدعمت فيه ثقة عبد الناصر أكثر[4].

الفقرة السابقة- والتي آثرت نقلها كما هي- تدل على أن السوفييت لم يكونوا معنا بالأقوال فقط، بل بالفعل العسكري أيضاً، كما يدل على موقف مصري ناصري أوضح، فمصر لم تنتظر الهجوم على سوريا لترسل نجدتها، بل إن إرسال مثل هذا الجيش أشعر الأتراك والأميركيين أن العمل العسكري المضاد وارد، وأن موقفهم ضد سوريا لن يكون نزهة عسكرية، وفي الوقت ذاته زادت ثقة السوريين والمصريين في حليفهم السوفييتي.

وكان عام 1957 عاماً ذهبياً في العلاقات السوفييتية -المصرية، والسوفييتية - السورية، خاصة في المجال الثقافي، رافق ذلك صعود وازدهار القوى الشيوعية في مصر وسوريا، وكانت دور العرض في القاهرة والاسكندرية تقدم منتجات الفن والثقافة السوفييتية وسط إقبال جماهيري كبير، يعكس عرفان المصريين وامتنانهم لهذه الدولة التي وقفت معهم في أيامهم الصعبة، ويتبنى نظاماً اشتراكياً يتعاطف معه اليساريون، قبل أن يحصل الخلاف بين الدولتين في العام التالي، بسبب صدام نظام الثورة مع الشيوعيين في مصر، وتصبح مشاهدة تلك العروض مخاطرة سياسية يتعرض ممارسها للملاحقة [5].

وكما أسلفنا، ففي الوقت الذي سمحت فيه مصر للسفارة الأميركية بتوزيع نص مبدأ أيزنهاور، وجدت التفنيدات السوفييتية مجالاً أرحب لها في الصحف والنشرات والكتب شبه الرسمية، وأيدهم في حملتهم تلك أنصار السلام المصريون الذين أعلنوا أن مشروع ايزنهاور لا يختلف عن العدوان الثلاثي، وتبع ذلك مذكرات وخطب رسمية سوفييتية، مما أدى لفشل ذريع للمشروع [6].

خلافات بين مصر والشيوعيين في مصر والاتحاد السوفييتي!

ونلخص هنا بعض ما رواه المؤرخ أحمد حمروش عن طبيعة الخلاف بين الفريقين..

ففي الأيام الأولى لثورة يوليو، عارض الشيوعيون إخراج الملك فاروق وحاشيته من البلاد بدون محاكمة، وصنفوا الحركة على أنها "حركة عسكرية ستسير في اتجاه فاشي لمصلحة أعداء البلد والاستعمار الأنجلو أميركي" (7).

والجدير بالذكر أن أغلبية الشيوعيين المصريين قد طلبت إزاحة العناصر اليهودية والأجنبية عن قيادة الحركة الشيوعية المصرية، وقد أدى تنفيذ ذلك إلى وحدة تنظيمية أيدت سياسة عبد الناصر، إلا أن الانشقاق دب من جديد في صفوف الشيوعيين المصريين بسبب موقفهم المعادي للوحدة العربية بزعامة ناصر (8).

وفي تشرين أول 1958 التقى أنور السادات ببعض قيادات الشيوعيين في مصر، وطلب إليهم دخول الاتحاد القومي كأفراد، لا كحزب، ولكن لم يحصل اتفاق على ذلك، وبعد أيام على هذه المقابلة بدأت حركة اعتقالات فردية للشيوعيين(9)، وقد أدت هذه الخلافات إلى انقسام في الحزب الشيوعي المصري إلى حزبين، أحدهما يؤيد الحكومة، والآخر يعارضها (10).

وتخبرنا المصادر "ان استهداف إنشاء جبهة قومية في سوريا كان من جملة المقررات التي اتخذتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري في أيار 1956" لذا كان السعي لتحقيق الوحدة بين مصر وسوريا مفاجأة غير سارة للشيوعيين (11).

ولما قامت الوحدة بين مصر وسوريا عام 1958، عارضها الشيوعيون السوريون في بيان لهم في آب 1958، وانتقلوا إلى النشاط السري الذي كان رئيس الحزب الشيوعي السوري خالد بكداش ينظر إليه نظرة تفاؤل وفق تصريحه للصحف في شباط 1958 (12).

أما في الاتحاد السوفييتي، فقد استقبل خبر الوحدة بدون حماس، لأن القيادة السوفييتية كانت ترى أن من نتائج هذه الوحدة وقف تقدم الحزب الشيوعي السوري ذي الوضع القوي آنذاك [13].

وكما حصل في مصر، كان هناك انقسام في الحزب الشيوعي السوري، فقد علت أصوات فيه تندد بسياسة خالد بكداش الانفصالية الشعوبية[14].

وكان تعليق عبد الناصر على سياسة الحزب الشيوعي السوري واضحاً جلياً في خطاب مطول له في بورسعيد في 23 / 12/ 1958، قال فيه:

"حينما اتحد الشعب في مصر، واتحد الشعب في سوريا، وحينما ارتفعت راية القومية العربية عالية منتصرة من جديد، قام لنا أعداء يشعرون أن انتصار القومية العربية، وان ارتفاع علم النصر للقومية العربية سيقضي على مصالح لهم، سواء كانت هذه المصالح مصالح استغلالية، أو مصالح انتهازية.

..قامت الرجعية ضد الوحدة، وقام الحزب الشيوعي في سوريا يعمل ضد الوحدة، ويعمل ضد القومية العربية، ولكن قوتكم، وقوة الشعب العربي في سوريا جعلتهم يدخلون الجحور، ويهربون من مواجهة الشعب، وقامت الوحدة، وقام الاستفتاء، وكان هناك إجماع من الشعب العربي، لأن الشعب العربي كان يؤمن بأن قوته في وحدته، وأن الوحدة العربية هي الاستقلال، وأن القومية العربية هي الحرية.. ولن نستطيع أن نحارب الصهيونية، وأن نحارب الاستعمار، إذا كنا نحارب أنفسنا، ولكن الحزب الشيوعي في سوريا رفض هذا، وأعلن أنه لا يقبل أن يتحد مع الأمة في وحدة عربية، وفي اتحاد قومي، ورفض أن تكون الأمة أمة واحدة تحارب أعداء القومية العربية، وأعداء الأمة العربية، بل رفض أيضاً القومية العربية والوحدة العربية، وأعلن بعض أفراده في الأسبوع الماضي أنهم ينادون بالانفصال، وينادون بألا تكون هناك وحدة عربية أو قومية عربية"[15].

ويكتب محمد حسنين هيكل في الأهرام في 4 / 1/ 1959 محدداً شكل الخلاف بين القومية العربية والشيوعية ما معناه:

"أن النشاط الشيوعي قد تزايد بعد فوات الوقت قليلاً، ففي الماضي أيدت المنظمات الشيوعية القوى القومية، ووقفت بجانبها في الصراع العنيف مع الاستعمار والأحلاف الاستعمارية، وأعوان الاستعمار والرجعية، إلا ان هذا الصراع قد انتهى، او يكاد، فما يكون موقف الشيوعيين في المستقبل؟ هل ينشزون عن الصف القومية من أجل أن يرفعوا الأعلام الحمراء في الشرق الأوسط؟ أم هل يطبقون أفواههم؟"(16).

وفي ليلة رأس السنة 1959 اعتقل البوليس مئات من الشيوعيين، وتم ترحيلهم إلى المعتقلات.

ولكن مع ذلك تنشر الصحف في اليوم التالي صور برقيات تهنئة بين ناصر وخروتشوف بمناسبة توقيع اتفاقية السد العالي (17).

ويضيف المؤرخ أحمد حمروش:

"لكن هذه البرقيات المتبادلة لم تمنع مواصلة اتهامات عبد الناصر للشيوعيين بالعمالة، ومواصلة خروتشوف مهاجمة عبد الناصر في حفلات الاستقبال، وفي المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعي"، وأن ناصر قد قال في العيد الأول للوحدة في 2شباط 1959 أن خروتشوف قد ارسل إليه خطاباً في عشر صفحات، وقد قرأ ناصر – كما يقول حمروش- فقرات من الخطاب على الجماهير "بعد أن قال أن هناك أحاديث سببت بلبلة للناس مثل القول بوقف السلاح والمعونة، والعلاقات الاقتصادية، والمشاريع الصناعية، بل والسد العالي"(18).

وقد عدت لخطاب ناصر في تلك المناسبة، ولكن لم أجد ذكراً لخروتشوف، ولا للإتحاد السوفييتي، ولا أثر لقطع شيء عن مصر، بل إن حمروش يضيف لهذا الخبر:

"قال خروتشوف في رده:

إذا نظر الإنسان إلى الموقف الحالي نظرة عملية، تمكن بسهولة من أن يرى أعداء الصداقة بين الاتحاد السوفييتي والجمهورية العربية المتحدة يريدون في الوقت الحاضر أن يجنوا أرباحاً جشعة في الخلافات العقائدية بيننا..أما فيما سيتعلق بموقفنا من الشيوعية في الجمهورية العربية المتحدة فإن الاتحاد السوفييتي لا يرغب في التدخل في الشئون الداخلية"[19].

وفي 28/ 1/ 1959كان خروتشوف في المؤتمر الحادي والعشرين للحزب الشيوعي، قد هاجم ناصر شخصياً، وقال إن أولئك الذين يهاجمون الشيوعيين لا يمكن أن يكونوا قوميين حقيقيين، وان عبد الناصر شاب مندفع انفعالي لا يستطيع أن يفرض إرادته على الوطن العربي، وأن المصريين يتحدثون عن الاشتراكية بينما تؤلف الاشتراكية الخطوة الأولى نحو الشيوعية، وبأن عبد الناصر لم يحلل أو لم يفهم الحتمية التاريخية للوضع"[20].

كما أشار إلى مطاردة الشيوعيين السوريين والمصريين بسبب نشاطهم الانفصالي قائلاً:

"إنه من غير الصحيح اتهام الشيوعيين العرب بمحاولة إضعاف الحركة القومية، وزرع بذور التفرقة في صفوفها، ذلك لأن كل إنسان يعرف، أن الشيوعيين في كل مكان،حتى في إسرائيل، يحاربون الصهيونية"[21].

وجاء في رد محمد حسنين هيكل في الأهرام في 29/ 1/ 1959 ما فحواه:

"إن القاهرة لم توجه الاتهامات إلى الشيوعية كعقيدة، ولم تتهم الشيوعيين الأجانب على العموم، فبعضهم مثل خروتشوف وماوتسي تونغ وغومولكا وتيتو يعتبرون من الأبطال، إنما تناولت الحملة الشيوعين السوريين لأنهم خرجوا على إجماع الأمة، وانحرفوا، كما أن الحملة من القضايا الداخلية البحتة في الجمهورية العربية المتحدة التي لا تقبل أي تدخل خارجي فيها"[22].

وجـاء رد عبـد الناصـر بـشكل مباشـر وواضـح، فقـال في خطـاب لـه في دمـشق في 16/ 3/ 1959 :

"إن دفاع السيد خروتشوف عن الشيوعيين في بلدنا أمر لا يمكـن أن يقبلـه الـشعب العربي، ونحن لا نتدخل في الشئون الداخلية للاتحاد السوفييتي، او نساعد فئة منه ضد فئة أخرى، وإن مساندة الشيوعيين في بلدنا والدفاع عنهم يعتبر تحدياً جدياً لإجماع الشعب في جمهوريتنا.

إن وعي شعبنا العربي بلـغ مـن القـوة بحيـث يـستطيع أن يعـرف أن حملتنـا علـى الشيوعيين العملاء تهدف إلى حماية وطننا من استعمار جديد.. كما نهدف إلى بنـاء بلـدنا على أساس وطني قومي متحرر من الاستعمار والتبعية.

وقد تقبلنا دائماً مساندة الاتحاد السوفييتي لجمهوريتنـا.. ولكننـا لا يمكـن أن نقبـل مساعدة فئة خارجة على إجماع الشعب العربي في كفاحه من أجل استقلاله، وبقائه خارج مناطق النفوذ، ورفضه للتبعية، وأن مساندة السيد خروتشوف للشيوعية في بلدنا هـو تحـد لإرادة الشعب العربي"[23].

وفي خطاب آخر له في دمشق أيضاً في 20/ 3/ 1959 يقول ناصر:

"بعد ان انتصرنا في هذه المعركة التي حاربناها ضد الاستعمار، وأعوان الاسـتعمار، نجد أنفسنا نجابه معركة اخرى..معركة التبعية.. معركـة الـشيوعية.. وإننـا نتـسلح بـنفس الأسلحة التي هزمنا بها الاستعمار وأعوان الاسـتعمار.. تـسلحنا بهـذه الأسـلحة لنهـزم الشيوعية.. ولنهزم العملاء، ولنهزم الأحزاب الشيوعية بوحدتنا التي مكنتنا من أن نقضي على الاستعمار..

إننا لا يمكن ان نقبل أبداً أن يدافع عن هذه الفئة رئيس وزراء دولة أجنبيـة.. هـي روسيا السوفييتية، ولا نقبل أبداً هذه الحماية، ولا نقبل هذا الانحياز، لأننا حاربنا لنقـضي على الحماية الأجنبية، وحاربنا لنقضي على الانحياز، فإذا قام خروتـشوف اليـوم ليـدافع عن فئة قليلة من أبناء بلدنا خرجوا عن إجماع وطننا، وقال إنه يدافع عن الشيوعية كمبدأ،

فإننا نقول له أننا لا نعتبر هذا دفاعاً عن الشيوعية كمبدأ، ولكن هـذا تـدخل في شئوننا، وإننا لا نتدخل في شئون الاتحاد السوفييتي..

إن خروتشوف – أيها الأخوة– حر في الاتحاد السوفييتي، يعمل ما يشاء، ويدافع عنه كما يشاء، ونحن أيضاً – أيها الأخوة– أحرار في بلدنا لا نقبل التبعية ولا الاستعمار... آثرنا أن تكون سياستنا سياسة مستقلة..

القومية العربية التي أعلنوا عليها اليوم الحرب العوان..حرب العملاء وحرب الاستعمار وحرب الشيوعية..ستهزم العملاء..ستهزم الاستعمار وستهزم الشيوعية، وستنتصر دائماً كما انتصرت في جميع المعارك [24].

وفي هذين الخطابين ما يوضح لنا موقف عبد الناصر الواضح الجلي تجاه النشاط الشيوعي في بلاده، ودفاع خرونشوف عن الشيوعيين المصريين والسوريين، فناصر لا يقدم ذرة من مجاملة للسوفييت وزعيمهم، رغم الحاجة الملحة التي تعانيها بلاده للإتحاد السوفييتي، الدولة العظمى الوحيدة التي تقف مع العرب في قضاياهم العادلة، ومعركتهم المصيرية.

وبعد عام، وفي خطاب آخر لناصر، وفي المناسبة ذاتها،عيد النصر، في 23 /12/ 1959، يهاجم الشوعيين بضراوة، فجاء في ذلك الخطاب الطويل:

"..لن نقبل بأي حال من الأحوال، أن يضللنا العملاء الشيوعيون، أو يخدعنا أعوان الاستعمار،...إن الشعب العربي لا يمكن أن يخدع أبداً لأنه من تجاربه الطويلة، كشف أعوان الاستعمار، وكشف الشيوعين العملاء..

وحينما ننظر إلى الشيوعيين العملاء، في جميع أرجاء الأمة العربية، نجد أن الشعب العربي قد نبذهم، لأنه لا يمكن ان ينقاد للعملاء، الشعب العربي نبذهم لأنه كشف شعاراتهم الزائفة، وكان لنا في العراق، أيها الأخوة، المثل الواضح..

أفكار فشل الاستعمار في تحقيقها، ويعاونه في هذا أعوان الاستعمار والشيوعيون العملاء الذي آلوا على أنفسهم أن يهاجموا القومية العربية، ويعملوا على ضربها، ويخرجوا علينا كل يوم بفكرة، ويخرجوا علينا كل يوم باقتراح..[25].

ويصرح زكريا محي الدين وزير الداخلية المصري لصحيفة أجنبية قائلاً:

"في سوريا تشكل الشيوعية خطراً، أما في مصر فهي لا تزيد عن كونها مشكلة، فهنا نعرف الشيوعيين كلهم[26].

وفي شهر أيلول 1959 يلقي خالد بكداش في بكين خطاباً عنيفاً هاجم فيه السلطات في الجمهورية العربية المتحدة لاضطهادها العناصر الشيوعية في سوريا ومصر، مما اضطر ناصر للاحتجاج لدى السفير الصيني في القاهرة لسماحها لخائن بهذا الهجوم، وهذا ما يسيء إلى العلاقات بين البلدين [27].

وتدخل العلاقات بين البلدين مرحلة من الفتور، ولكن الخطابات بين الزعيمين ظلت متبادلة، فكلاهما حريص على بقاء العلاقة بين البلدين مهما كانت الظروف، ولكن ناصر في نيسان 1959 يصدر أوامره باعتقال مئات آخرين من الشيوعيين [28].

ولكن ما ورد في خطابات ناصر لا يزال يعطي مؤشرات عل الوضع الحرد بين البلدين..

مثلاً في خطاب ناصر في دمشق في 20/ 3/ 1959، كرر الكلمات التالية:

الشيوعية: 18 مرةالعملاء: 10 مرات

أعوان الاستعمار: 8 مرات

هذا بجانب عبارات أخرى تؤدي المعاني ذاتها!

في حين عندما نقرأ هذا الحديث القصير نراه يعبر عن عدة خطب بكلمات قليلة، فقد ذكر ناصر لكيسيليف السفير السوفييتي في القاهرة :

"أنا لست شيوعياً، لكنني قومي، وتقدمي، أوعلى الأقل أظن نفسي تقدمياً، وأنا أعتبر نفسي اشتراكياً، لكنني أعتقد أن هناك في الشيوعية بعض الأشياء التي ولى زمانها، ولا أقول إن جميع الشيوعيين سيئون، ذلك أن بعضاً من أفضل أصدقائي من الشيوعيين، إن تيتو شيوعي وهو صديق حميم لي، وخروتشوف صديق حميم لي وهو شيوعي، وإذا كنت أهاجم الشيوعيين في العالم العربي فيجب أن لا يحمل ذلك محمل الانتقاد للإتحاد السوفييتي"[29].

وكذلك حديث لخروتشوف يجيب به صحفياً عن دعم روسيا لناصر، فيقول :

"إننا نؤيد جمال عبد الناصر، برغم أننا نعرف أنه ليس شيوعياً، وأنه يزج الشيوعيين في السجون في بلاده، لكن ذلك من الشئون الداخلية التي تخصه وتعنيه هو وشعبه، ونحن ندعمه لأنه زعيم وطني يمثل اماني شعبه"[30].

وهذان حديثان جديران بالأهمية والوقوف عندهما، لأنهما يعكسان الشعور الذي يتوقع أن يحمله الزعيمان لبعضهما، بدون قسوة ومغالاة لا تعرف إلا بين الأعداء..

ولكن التصريح الأقوى والأوضح لخروتشوف جاء في عناوين رئيسية لصحيفة الجمهورية كان في 10 تشرين ثان 1959، حين قال:

"لا صلة بيننا وبين الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية، الموقف في البلاد العربية غير صالح لقيام نظام شيوعي،

عواطفنا مع اللاجئين الفلسطينيين ولا نريد أن تكون لنا مصالح مع الصهيونية..

الاستعداد لتسليح الجيش والمرحلة الثانية من السد العالي وتنمية الاقتصاد"[31].

رسالتان مهمتان

بين الزعيمين ناصر وخروتشوف

وفي نيسان 1959، يحمل كيسيليف رسالة طويلة من خروتشوف لناصر، وهنا بعض فقراتها التي يبدأها بلهجة ودية، فيقول:

"..لأن سماء العلاقات بين بلدينا بدأت تظلم، وأن ذلك لم يكن بحال من الأحوال نتيجة مبادأة من جانبنا..

تذكرون – ياسيادة الرئيس– أنه عندما حدثت الثورة في العراق، بحثنا معك في موسكو في المسائل المتصلة بالأعمال التي يحتمل أن تصدر عن المعتدين ضد الشعوب العربية، وقلت لك وقتئذ إننا – من جهتنا– ستتخذ كل التدابير الممكنة إذا أقدم المعتدون على شن هجوم على الجمهورية العراقية.

لكنني في الوقت ذاته أعربت لك عن وجوب قيامنا ببذل كل جهد من أجل تسوية كل ما نشأ من المشكلات تسوية سلمية وبلا حرب، ولقد خشينا أن يؤدي تأييدنا غير المحدود لمشاعرك، إلى حثك على اتخاذ إجراء عسكري اعتبرناه غير مرغوب فيه، كما خشينا أن تفسر مثل ذلك التأييد بمثابة موافقة منا على إجراء عسكري.

بل ربما تذكرون جيداً– ياسيادة الرئيس– أنه عندما عرضتم علي اقتراحاً بتزويدكم من جانبنا بالقاذفات المتوسطة المدى، وبالصواريخ ذات المدى المتوسط، قلت لك ملاحظاً إن رقعة بلادكم من الصغر بحيث ستجدون من الصعب استخدام هذه الأسلحة.

ومن ثم سألتني عن ماهية الصواريخ ذات المدى المتوسط في رأيك، فأجبت بأنك تحتاج إلى صواريخ يتراوح مداها بين 50 و 70 كيلومتراً، وأبلغتك عندئذ أن صواريخنا المتوسطة المدى قد صممت لمسافة تتراوح بين 2000 و 4000 كيلومتر، وهي بالتالي لن تلائمك، وإذا ما نشأت حاجة إلى استخدام هذه الصواريخ فإن من الأفضل –بداهة– إطلاقها من أراضينا، ولذا فليست لك حاجة إلى مثل هذه الصواريخ، ولكن يمكنك أن تعتمد على تقديمنا العون لك بهذه الصواريخ من أراضينا إذا شن المعتدون الحرب عليك.

ولا أريد أن أخفي عليكم حقيقة أنه عندما لم نوافق على اقتراحك بأن نزودك بالصواريخ المتوسطة المدى، كان في ذهننا أنك قد تقدم– في حالة انفعال ناشئة إلى حد كبير عن الوضع السائد– على عمل غير مرغوب فيه يؤدي إلى حرب.

ويوضح هيكل:

كان كل ذلك رداً على قول عبد الناصر بأنه وقف وحده ضد التهديد بالعدوان عندما أنزلت القوات الأميركية والبريطانية في لبنان وعمان.

ويواصل خروتشوف:

إنك تعلم جيداً – وكذلك كل إنسان آخر– بأنه عندما أبلغناك أننا سنتخذ كل الخطوات اللازمة لتقديم العون المناسب لك، اتخذ الإجراء المناسب على حدودنا مع تركيا وإيران من أجل إعلان استعدادنا لأن نهب في أي وقت لمساعدة إخواننا العرب، وتذكر أن إجراء مماثلاً قد اتخذ من جانب بلغاريا، ولذلك فإن ما ذهبت إليه من أنكم كنتم وحدكم ضد المعتدين لا يتفق والحقيقة.

ولن أخفي عليك، إننا فوجئنا بشكل خاص بالبيان الذي أدليت به في خطابك يوم 22 آذار، فقد قلت أنك خلال العدوان الانجليزي –الفرنسي – الاسرائيلي على مصر في عام 1956، لم يكن هناك من تعتمدون عليه سوى الله وأنفسكم، وأنه حتى 6 نوفمبر (تشرين الثاني) 1956، وحتى نهاية القتال كنتم وحدكم، ولم تحصلوا حتى على تلميح بأدنى مساعدة من الاتحاد السوفييتي.

إنك هنا – ياسيادة الرئيس– سرت في طريق الانكار المطلق للحقائق الساطعة البديهية.

فمن المعروف عامة أن الاتحاد السوفييتي قد هب في حزم وإستمرار، منذ اليوم الأول لأزمة السويس، يدافع عن حقوق مصر المشروعة، وذلك بإيلاء مصر دعماً أدبياً واسع النطاق، وبعد الهجوم المسلح على مصر من قبل بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، اتخذت الحكومة السوفييتية من الخطوات ما لعب دوراً يتجاوز كثيراً الدور الأخير في إجبار المعتدين على مغادرة الأراضي المصرية.

وهل كانت هناك أية شكوك تخامر أي إنسان في أنه لو تجاهلت القوات التي شنت العدوان المسلح على مصر التحذير القطعي من الاتحاد السوفييتي ولم توقف الاعمال الحربية لكان الاتحاد السوفييتي استخدم وسائل أكثر فعالية لوقف المعتدين وأحباطهم؟.

ولا ينسى خروتشوف أن يهاجم ناصر بشأن علاقاته مع الدول العربية، فيواصل:

تذكرون أنكم في إحدى محادثاتنا – إثناء زيارتكم الأخيرة لموسكو- أعربتم عن الاستياء من حكومات الأقطار العربية المجاورة، وسألتني عما يجب عمله لتغيير الوضع الداخلي في تلك الأقطار التي تقف موقف العداء من الجمهورية العربية المتحدة، وعن المعونة التي يمكن الاتحاد السوفييتي أن يقدمها إليكم في هذا الصدد.

وكما تذكرون فقد أجبتكم بأنه يجب إظهار التسامح والامتناع عن التدخل في شئون الدول الأخرى، إنما يجب التأثير في تلك الأقطار عن طريق القدوة الصالحة، والمثل الطيب من جانب الجمهورية العربية المتحدة، وذلك برفع مستوى اقتصاد شعب جمهوريتكم، ومستوى ثقافته ورفاهيته، وإنشاء نظام من شأنه تمكين كل القوى الوطنية ضمن الجمهورية من إظهار مبادأتها، وأشرت عليكم بأن تسعوا إلى أن تقيموا في الجمهورية العربية المتحدة ذلك النوع من الكيان الاقتصادي، والنظام الحكومي، اللذين من شأنهما أن يستهويا الأقطار العربية الأخرى من أجل الفوز بالحظوة لدى الشعوب بهذا المدى الإيجابي.

وقد ابتسمتم بعدئذ، وقلتم إنني غير واقعي في استقرائي للوضع في الأقطار العربية، وأضفتم ان الأمر يتطلب تدبيراً أكثر حزماً.

وأجبتكم حينئذ قائلاً إن التدخل في شئون الدول العربية هو شيء خطر جداً، وإنه ليس من شأنه أن يؤدي إلى الوحدة، إنما من شأنه – على العكس- أن يؤدي إلى تفكك جهود الأقطار العربية.

ولكن يبدو انني أخفقت في إقناعكم، ويبدو أن كلاً منا تمسك حيال هذه النقطة بوجهات نظره.

قيل لنا – يا سيادة الرئيس– إنه تردد في الاجتماعات التي تعقد الآن في الجمهورية العربية المتحدة صيحات تقول: "لا روبلات ولا دولارات" وإن هذه لا تتردد بدون تشجيع من جانب السلطات، وأن بعض السياسيين يذهب إلى حد الإعراب العلني عن شكوكه في أن تقدم المساعدة السوفييتية بلا أنانية أو غرض، إنني لن أخوض في تفصيلات الاختلافات الأساسية بين المساعدة السوفييتية والمساعدة الأمريكية، لكنني أحب فقد أن أطرح هذا السؤال:

هل يمكن للروبلات السوفييتية أن تشين وتورط أحداً ما في الجمهورية العربية المتحدة؟

من المعروف جيداً أن الاتحاد السوفييتي لم يفرض أبداً، ولن يفرض مساعدته على أحد، إنما يقدمها إذا طلبت منه، وتعرف حق المعرفة – يا سيادة الرئيس– أن تلقي المساعدة من الاتحاد السوفييتي هو أمر اختياري محض، ويتوقف عليك بالطبع أن تتلقاها او ترفضها، وإذا كان من رأيك أن المساعدة التي وافقنا نحن على تقديمها– بطلب منك – إلى الجمهورية العربية المتحدة، هي عبء عليك، وإذا كنت تريد التخلص من الروبلات التي أعطيناها إياكم بموجب الاتفاقات الراهنة، فإنك في حل من أن ترفضها.

وفي وسعك أن تطمئن إلى أن ذلك لن يسوءنا بأي حال من الأحوال، وسنحقق رغبتك طوعاً، والحقيقة أن لدينا حقلاً واسعاً يمكن أن نوظف الأموال فيه، ويخطر في ذهني البرنامج الواسع للتشييد الاقتصادي في الاتحاد السوفييتي، إننا لا نرغب في أن نكون مندفعين بإعطائنا المساعدة لبلدان لا تحتاج إليها أو لأقطار تشهر بنا، بدلاً من أن تبدي عرفانها، وتؤلب الشعب ضد الاتحاد السوفييتي الذي يقدم مساعدته مجردة من الهوى.

ثم ألا يؤدي الوضع الحالي – عندما تنطلق في الجمهورية العربية المتحدة حملة ضد الاتحاد السوفييتي – وبالتالي ضد الشعب السوفيتي– إلى نشوء تعقيدات في وجه قيامنا بالتزاماتنا التي تعهدنا بها بموجب الاتفاق لبناء السد العالي؟

أرجو أن تدركوا أن هذا ليس بتهديد من جانبنا، إنما هو مجرد تعبير عن قلقنا حيال الحملة ضد الاتحاد السوفييتي التي تشن الآن الجمهورية العربية المتحدة، وأنه سيكون من العسير جداً علينا في هذه الظروف أن نفي بالتزاماتنا، وأن نفي بها بموجب الاتفاق الذي وقعناه معكم.

والحقيقة أنه على المواطنين السوفييت أن يبقوا في بلادكم، وأن يعملوا هناك، ويظهروا مبادأتهم الخلاقة حتى يمكن الوصول إلى الحل الفني الصحيح فيما يتعلق ببناء السد، وكل ذلكفي ظروف واحوال يجري فيها تاليب السكان المحليين عليهم.

بل الواقع أننا نتلقى الآن رسائل عدة من مواطنين سوفييت تعرب عن القلق على مصير أولئك الذين سيذهبون إلى بلادكم، وإن شعبنا ليتساءل متعجباً: كيف يمكن ايفاد المواطنين السوفييت إلى الجمهورية العربية المتحدة لتنفيذ إتفاقات المساعدة الاقتصادية القائمة إذا كانوا سيتعرضون لخطر الإيذاء الأدبي، وربما الجسدي أيضاً، وربما أدت الامور إذا ساءت للظروف الراهنة إلى قيام بعض المتعصبين بتصرفات لا يمكن القبول بها.

إننا نسألك أن تتفهم تفهماً صحيحاً أسباب قلقنا، وإذا كنت الآن لست في حاجة إلى مساعدتنا فارفضها، ولن نستدعي مستائين مواطنينا، إنما سنحافظ على علاقات عادية طبيعية كما نفعل مع كل الدول.

إن بلادكم قد تحتاج كذلك- وليس لمرة واحدة- إلى عون الاتحاد السوفييتي، وإلى تعاونه الودي الدافىء، وهنا أود أن أشير إلى مثل روسي معروف: لا تبصق في البئر، فقد تحتاج إلى شرب مائها[32].

رد عبد الناصر..

وكان رد ناصر بنفس الحدة ونفس الإصرار كما يقول هيكل الذي - مع الأسف - لم يورد الرد بكامله في كتابه 'ناصر والعالم' والذي كان أطول خطاب يكتبه ناصر إلى الزعيم السوفييتي خروتشوف، وقد عثرت على بقية الخطاب في كتابه 'سنوات الغليان'

ومع أن المصدرين لا يذكران تاريخ الرسالة، فمن المتن يتضح لنا أنها كتبت في أيار 1959، يقول ناصر:

"لا أستطيع أن أخفي عليك دهشتي من محتويات رسالتك، كانت من الشدة بحيث خيل إلي – عندما قرأت بعض فقراتها – أنني أقرأ مقالاً في واحدة من الصحف الغربية، حيث تنحرف الحقائق عن أصولها، وحيث تملأ الثغرات بين الأحداث بالخيالات، وحيث يلجأ الكتاب إلى المخيلة حينما تخذلهم الحقائق.

فعن الإنذار السوفييتي عام 1956، رد ناصر:

"إننا كنا وحدنا في الميدان، وكان جنودنا يحاربون وحدهم في أرض سيناء، وكان جيشنا وشعبنا يحاربان وحدهما في شوارع بورسعيد، ولم نكن نتوقع عوناً إلا من الله".

ويذكّر ناصر خروتشوف ان الرئيس السوري القوتلي كان في موسكو آنذاك، وقد كتب لناصر عن الموقف السوفييتي، فقال:

"1- إن الاتحاد السوفييتي ليس مستعداً لدخول حرب عالمية.

2- على هذا الأساس لا يسع الاتحاد السوفييتي أن يتدخل عسكرياً حتى بإرسال المتطوعين.

3- إن أقصى ما يمكن عمله للمساعدة هو إرسال بعض المعدات والفنيين.

أؤكد لك – يا سيادة الرئيس- أنني فهمت كلياً ذلك الكتاب، ولم يخطر في بالي أن أحملكم ما يزيد على ما قدرتم أنتم أنكم تطيقون.

وكل ما فعلته – واسمح لي أن أفشي هذا السر الآن – هو أنني سحبت هذا الكتاب من الملفات ووضعته في جيبي، لأنني لم أرغب في أن يطلع عليه أي إنسان قد تتأثر معنوياته بقراءته.

ولم يخرج ذلك الكتاب من جيبي إلا بعد ان انتهت المعركة، حيث أمرت بإعادته إلى الملفات باعتباره أحد وثائق الدولة.

وما زلت أعتقد أن هذا الخطاب وثيقة شرف عظيم لنا، ذلك أنها الدليل الأفضل على أننا حاربنا، وعلى أننا لم نكن وحدنا في ميدان المعركة وحسب، إنما كنا نعرف أيضاً أننا سنبقى وحدنا.

ولعلك تعلم - يا سيادة الرئيس - أن الانذار السوفييتي - الذي لا يستطيع أحد أن ينكر مفعوله - صدر من موسكو دون علمنا تماماً، وبعد مرور تسعة أيام كنا فيها وحدنا في ميدان المعركة.

كان هناك احتمال أن نفقد عزيمتنا، وكان ثمة احتمال أن نستسلم بعد يومين، أو ثلاثة أيام، أو بعد أسبوع، بل كان من الممكن أن نستسلم في صبيحة اليوم الذي صدر فيه إنذاركم.

فأي جدوى كان يمكن أن تكون لهذا الإنذار- يا سيادة الرئيس- لو كنا وصلنا إلى النهاية وسقطنا؟.

ويرد ناصر على ما ذكره خروتشوف عن طلب مصر الصواريخ:

" طلبت منك بعض المدفعية الصاروخية المتوسطة، وربما كانت الترجمة مشفوعة بالخلط بين كلمة"قذائف" وهي الشيء الذي طلبته، وكلمة "صواريخ" وهي الشيء الذي لم أطلبه، مسئولة عن هذا الخطأ، وإن يكن من العسير الاعتقاد بأن هذا هو التفسير في ضوء سلسلة الاختلافات بين الحقائق كما وقعت، وبين روايتك عنها.

ويرد على اتهام خروتشوف أن ناصر أراد التدخل في بلاد عربية، فقال:

" إنه لما يدهشني أن تكون قد تصورت أنني أريد عونك ضد أقطار عربية، كيف يمكن أن يكون ذلك وارداً بينما نحن نعتبر اي تهديد لأي قطر عربي- مهما كانت ظروفه- تهديداً لنا؟ "

ويضيف هيكل أن أهم نقطة ركز عليها عبد الناصر في رسالته، تأكيده أن الأحزاب المحلية الشيوعية في جميع أرجاء العالم تعمل بمساندة سوفييتية، ضد القومية

العربية، والوحدة العربية، وأنه –أي ناصر – كان لزاماً عليه أن يحارب هؤلاء الشيوعيين، ولو أثار ذلك استياء الروس، وهو أمر مؤسف جداً.

وأنهى ناصر رسالته بالمثل العربي: اليد الواحدة لا تصفق، وأضاف: نريد أن نشعر بأن يدنا الممدودة إليكم بالصداقة لن تترك معلقة في الفضاء "(33).

وفي كتابه "سنوات الغليان" يورد هيكل بقية الرسالة – التي مجموع صفحاتها 25صفحة – والتي يرد فيها ناصر على بعض مسائل الخلاف:

" ومن ناحية أخرى يا سيادة الرئيس، فقد كنت أتصور أن المرات التي أتيح لي فيها أن أحدثكم عن القومية العربية استطاعت أن تضع أمامكم صورة أجلى لحقيقة إيماننا بالقومية العربية.

ومن عجب أننا الآن نسمع من دوائر مختلفة هجوماً على القومية العربية كأساس، ومن الناحية العلمية – إذا جاز لي أن أنتهز فرصة هذا الخطاب لمناقشة علمية – فما هي عناصر القومية؟

في رأيي إنها باختصار: عقل مشترك، وضمير مشترك.

فأما عقل الأمة فهو اللغة.

وأما ضميرها فهو التاريخ.

وفي حالة القومية العربية فإنكم لتجدون أن شعوب المنطقة فضلاً عن اعتبارات شتى، مادية وروحية، تشترك في أكبر ما يمهد للقومية الواحدة، العقل الواحد، والضمير الواحد.

كذلك فإنني واثق أنك تذكر، وقد قلت لك، وكررت ما قلته في عديد من الخطب التي ألقيتها في مناسبات مختلفة، وهي أن القومية العربية في رأيي تضامن، وليست إطاراً دستورياً بحال من الأحوال، ولقد يجوز أن تتحول بإرادة الإجماع إلى إطار دستوري، ولكن التضامن هو الأساس الأول.

أما عن الخلاف في مسألة النشاط الشيوعي في الجمهورية العربية المتحدة، فيرد ناصر:

"ولعلك يا سيادة الرئيس تذكر أنني أشرت في حديثي معك إلى نشاط الأحزاب الشيوعية في الجمهورية العربية المتحدة، وهو نشاط كنا نعتبر أنه يخرج عن الخط الوطني في بعض الأحيان، بحيث لا يخدم إلا مصالح أعداء وطننا، وكنت أخشى أيضاً أن يفسر أي إجراء نتخذه ضد الأحزاب على أنه وجه إلى الاتحاد السوفييتي، لذلك رأيت رعاية لمشاعركم، واحتراماً لها، أن أثير الموضوع مبتدئاً معكم في موسكو، ولقد قلت لكم وقتها:

" إنني أرجو أن لا يفسر أي إجراء نتخذه ضد الأحزاب الشيوعية في بلادنا بأنه عمل ضد الاتحاد السوفييتي".

" ولقد قلت أن كثيرين منهم ينتمون في الواقع إلى أسر إقطاعية ورأسمالية، وأنه ليس يكفي أن يضع أي واحد منهم لافتة فوق رأسه بأنه شيوعي، ثم يصبح شيوعياً، وأضفت أن لدينا في الإقليم المصري مثلاً ثلاثة أحزاب شيوعية، أو هكذا تدعي، وكل منها في منشوراته يتهم الآخر بالمروق والانحراف، ويصل تبادل التهم بينهم إلى حد الخيانة، ولا نستطيع نحن أن نحدد من هو الشيوعي الحقيقي، ومن هو غير الحقيقي، ونكاد في خاتمة المطاف نصدق فيهم جميعاً ما يقولونه في بعضهم جميعاً.

وإني لأذكر أنك نظرت إلي في ذلك اليوم وهززت رأسك، ولم أجد ان أطيل في مناقشة هذا الموضوع معك، واعتبرت انني أخطرتك بحقيقة موقفي حتى لا تفاجأ يوماً حين نضطر إزاء نشاطهم المعادي لمصالح الشعب إلى إجراءات ضدهم، وحينئذ قد يتبادر إلى الأذهان أي تفسير لا ينطبق على الحقيقة، خصوصاً وأنه في ذلك الوقت سوف تحاول صحف الاستعمار ودوائره أن تضيف من الملابسات على تصرفنا ما قد يفسر في ظاهره على أنه فتور في العلاقات.

" ولقد أدهشني يا سيادة الرئيس أنه في مناقشتك في خطابك في 12 إبريل لما قلته في إحدى خطبي من أن الشيوعيين يتلقون التعليمات من الخارج، إنك عدت إلى مناقشتنا في

موسكو، وذكرت ما قلته عن انقسام الشيوعيين في الاقليم المصري إلى ثلاثة أحزاب، ثم عقبت على لك بقولك: "إنهم لو كانوا يتلقون التعليمات من الخارج لكان أول ما ينصحون به أن يوحدوا جبهتهم".

"... وفي هذا كان حديثي يتجه للمنظمات الشيوعية داخل الجمهورية العربية المتحدة، ولم أرض في ذلك الوقت حتى أن أشير إلى النشاط الشيوعي في العراق، وهو نشاط لم يكن يتجه مع الأسف لحرب الاستعمار، وإنما كان مع الأسف أيضاً يهادن الاستعمار ليتفرغ بطاقته كلها لضرب الجمهورية العربية المتحدة، بل وفكرة القومية العربية أساساً.

وهكذا فإن الموقف – يا سيادة الرئيس – أصبح يتلخص فيما يلي:

1- لقد وجدنا أنفسنا مرغمين على الدفاع عن بلادنا ضد نشاط المنظمات الشيوعية داخل حدود الجمهورية العربية المتحدة، وكان ذلك هدف حديثي في 23 ديسمبر.

2- ثم وجدنا أنفسنا مرغمين على الدفاع عن أنفسنا ضد مساندتك شخصياً لهذا الحزب، ولقد تجلى ذلك في خطابك في المؤتمر الشيوعي الواحد والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي، وإن كان واضحاً أن دفاعنا عن أنفسنا في هذه الحالة لم يتعد مقالاً واحداً نشره أحد الصحفيين.

3- ثم وجدنا أنفسنا مرغمين – بعد استفزازات طال صبرنا عليها – على الدفاع عن أنفسنا ضد هجوم الحزب الشيوعي العراقي علينا واتهامه لنا، ومحاولته تكدير العلاقات بيننا وبين الشعب العراقي.

4- ثم وجدنا أنفسنا مرغمين على الدفاع عن أنفسنا ضد مساندتك لهذا الحزب فيما يقوم به، ولقد تجلى ذلك في خطابك بتاريخ 16 مارس.

5- ثم وجدنا أنفسنا مرغمين على الدفاع عن أنفسنا في وجه الحرب العنيفة التي خرجت علينا بها الأحزاب الشيوعية، والمنظمات الشيوعية في العالم كله، وهي حرب ما زالت مستمرة حتى هذه اللحظات.

وهكذا ندور في حلقة مفرغة.

فالواضح أننا لا نستطيع السكوت بأي حال على هذا الذي يوجه ضد مبادئنا ومعتقداتنا، بل ضد سلامة وطننا.

.... ولقد كنا نهاجم نوري السعيد وهو مسلم، بل كنا نهاجم الأسرة المالكة في العراق وهي سليلة الإسلام، ولكننا كنا نهاجم أشخاص، ولا نقصد مهاجمة العقيدة التي يؤمنون بها، بل وكان الأمر في حالتنا معهم أكثر تعقيداً منه في حالتنا معك، فإن الدين الذي كانوا ينتمون إليه هو نفس الدين الذي نتشرف باعتناقنا له.

وكذلك ندور في حلقة مفرغة..

وإنني أؤكد لك صادق النية بنفس العزم على أنه لا شيء أحب إلي من أن نخرج من هذه الحلقة المفرغة إلى استقرار يسود العلاقات بيننا، وهي علاقات أكدت لكم وما زلت أنها من دواعي فخرنا واعتزازنا[34].

تعليق

نستطيع من قراءتنا لهذه الرسالة أن نخلص إلى ما يلي:

1- رغم حاجة مصر الماسة لدولة كبرى حليفة لها، إلا ان عبد الناصر لا يضحي في سبيل ذلك بكرامة البلاد وتاريخها الكفاحي، الذي بوأها مركزها القيادي بين البلاد العربية.

2- يصر ناصر على أن الإنذار السوفيتي للدول التي هاجمت مصر في حرب السويس قد صدر بدون علم مصر، وكان متأخراً جداً، وماذا كان سينفعها لو أنها استسلمت تحت ضغط هجوم كبير من عدة دول كبرى.

3- يفشي ناصر شهادة القوتلي على أن السوفييت لم يكن لـديهم النيـة في شـن حرب على أحد.

4- يشرح باختصارلخروتشوف، وبعقلية المفكر الحصيف، العوامل المتوفرة لقيام القومية العربية، وكأنه يقول أنها تغني العرب عن الانتماءات الحزبية.

5- يشرح له الاختلافات الكبيرة في الأحزاب الشيوعية في مـصر، فكـل منهـا يتهم الآخر بالخيانة، حتى أن مصر تجـد نفـسها مـضطرة لتـصديق كـل مـا يقولونه عن بعضهم البعض، وهذا خير رد وأجمله.

6- يعرض لأحوال العراق، وللحزب الشيوعي فيها، والذي لا يجـد في براجـه ونهجه ما يحارب الاسـتعمار ويعاديـه، بـل هـو متفـرغ لحـرب الجمهوريـة العربية المتحدة.

وهكذا يتضح للقارىء، أن الجزء الذي أردناه، هو تعليق ناصر على موقف بـلاده من الشيوعية، وعدائها للقومية العربية، والوحدة العربية، لذا كان لزاماً عليـه أن يحـارب هذه الأحزاب ولو أغضب عليه ذلك أصدقاءه السوفييت، وهو في أمس الحاجة إليهم.

ولا نكون مبالغين إذا قلنا أن الرئيسين قد استغرقهما خـلاف ثقـافي أكثـر ممـا هـو سياسي، فكل منهما خلص في النهاية – كما هو واضـح في فـصول هـذا الكتـاب – إلى احترام مواقف الآخر.

ولا يستطيع مؤرخ أن يزعم أن هذه الرسائل بين الزعيمين قـد أثـرت علـى عمـق العلاقات بين البلدين، فلم تكن سـوى سـحابة صـيف، وسـرعان مـا عـادت العلاقـات بينهما إلى مثل ما كانت عليه، بل وأفضل والدليل على ذلك عظـم مـا تلقتـه مـصر مـن مساعدات من السوفييت في السنوات اللاحقة، وفي هذا تحد للظروف التي أطلنا الحـديث عنها، وهي من صلب العلاقات بين البلدين..

يقول المؤرخ ناتنج:

"فبحلول عام 1961 كان النفوذ السوفييتي قد تغلغل إلى حد كبير، فلم يتضاعف فحسب ما قدمته روسيا من كل سلاح حديث تملكه مصر، بلغت قيمته حتى قبل حرب السويس 150 مليون جنيه، ثمناً لأسلحة من بينها:

خمسون قاذفة من طراز اليوشن

ومائة مقاتلة من طراز ميج

و300 دبابة

و500 مدفع

وعدد من السفن الحربية الصغيرة

بل كان بوسع الروس وحلفائهم في أوروبا الشرقية أن يزعموا أيضاً بأنهم يستولون على ثلث تجارة مصر الخارجية، وعلى أية حال، كان من مصلحة الروس والمصريين أن يخفوا عن الرأي العام بقدر المستطاع خلافاتهم"[35].

والخبر في جزئيه لصالح البلدين، ودليل على حكمة القيادة فيهما، ومع تحفظنا على تعبير ناتنج أن "النفوذ السوفييتي قد تغلغل" فالمعونة السوفييتية ظلت مستمرة، والتجارة تتسع، رغم الاختلاف العقائدي، لأن السلطتين إرتأتا أن ذلك لن يفسد الصداقة بينهما، والأجمل أن كلا البلدين حريص على إخفاء الخلافات بينهما لأن منتظري هذه الخلافات كثر!

ويروي لنا هيكل قصة أحد سفراء السوفييت واسمه تسايسيف، وكان يعمل مديراً لإدارة الشرق الأوسط في وزارة الخارجية السوفييتية، والذي التقى بعض الضباط المصريين الكبار في موسكو، وتحت تأثير الفودكا، ألقى محاضرة على ضيوفه قال فيها:

"إن عدم الانحياز خرافة، وعلى مصر أن تقرر اختيار معسكر دولي إذا كانت راغبة في أن تكتسب قوة حقيقية، وما لم تفعل ذلك، فليس في وسعها أن تبني مثل هذه القوة،

ثم لماذا تخافون من الشيوعية؟ إقبلوا بها وسنقويكم، ونـدافع عنكم، إن عدم الانحياز مثـل السير على حبل مشدود، ولن يصمد عدم الانحياز ويبقى طويلاً"..

ولما نقل هذا الحديث لناصر، علق أن قائله كان سكراناً، ولكنـه اسـتخدم حـديث تسايسيف في رسالتين مع خروتشوف[36].

وإذا ما تأملنا هذا الحديث، نجده خلاصة للفكر السوفييتي تجاه عدم الانحيـاز، فهـم يسخرون منه، ويريدون لمصر أن تكون في حلفهم – حلف وارسو– لأنه سـيكون مـصدر قوة لمصر، ومدافعاً حقيقياً عنها.

وإذا ما أردنا أن نضع النقاط على الحروف بالنسبة لسياسة ناصر تجاه الـشيوعية في بلاده، نقول أن موقف ناصر كان ضرورياً لخلق شخصية مستقلة متحررة لبلاده الخارجة من استعمار دام 70 عاماً، سبقه خضوع للعثمانيين دام 400 عام، لذا فقد كان صعباً على مصر أن تترك المجال واسعاً للشيوعيين أن يقيموا لهم وزناً وكياناً.

ولكن كان بإمكان ناصر وخروتشوف أن يعبر كل منهما عن موقفه تجاه مـا جـرى من خلافات بلهجة أقل قسوة مما روته المراجع من خطابات ورسائل وتـصريحات كـثيرة، وعبارات مكررة، كادت أن تودي بكل ما أرساه الزعيمان من أسـس وقواعـد لعلاقـات متينة كان لها أثر كبير في تاريخ المنطقة، ومسار الأحداث فيها.

وتدخل بلغاريا حلبة الصراع، وتثير قضية عضو مجلس قيادة الثورة العميد يوسف صديق، فتذيع إذاعتها أنه قد مات تحت التعذيب في السجن، وتظاهر الطلاب العرب في صوفيا احتجاجاً عل مقتله، فاضطر يوسف صديق إلى التوجـه إلى سـفارتهم في القـاهرة، ليعلن لهم خطياً أنه حي، وحي جـداً، ولكـن إذاعـة صـوفيا استمرت في حملتهـا ولكـن باستخدام أسماء أخرى[37].

ولكن ثبوت أن يوسف صديق كان على قيد الحياة لا يفيد الباحثين كـثيراً، إذا مـا علمنا أن الشيوعيين قد تعرضوا لأقسى صنوف المعاملة والتعذيب والاضطهاد في سجون الواحات والوادي الجيد وأبي زعبل، وقد فارق الحياة ثمانية مـنهم مـايين عـامي 1959–

1960، وحصل أن كان ناصر في زيارة ليوغسلافيا، فورد هناك خبر مقتل السياسي والأديب الشيوعي شهدي عطية تحت التعذيب، مما دفع بناصر إلى طرد اللواء اسماعيل راغب أحد ضباط الجيش، والتحقيق معه ومع عدد من ضباطه [38].

واستمرت مصر في مهاجمة الشيوعيين الذين يحاولون السيطرة على بعض الدول العربية، بينما توقف السوفييت عن مهاجمة مصر، ولكن بعض الدول التي تدور في الفلك السوفييتي استمرت في حملتها، وهذا أوجد خلفية خصبة، وحسابات يجب أن تسوى في الاجتماع القادم بين ناصر وخروتشوف اللذين أمضيا عامين لم يتقابلا فيهما.

ورغم كل ما ذكرنا، يرصد الاتحاد السوفييتي دعماً لمصر 900 مليون روبل في 28 آب 1960[39].

لقد كان ساسة البلدين على درجة من الوعي كبيرة، لذا أدركوا - بعد عام 1958 - أن التعاون الاقتصادي والسياسي يؤدي إلى ما هو أبعد من الاتفاق الأيديولوجي المباشر، فمصر تقاوم الاستعمار، لذا كان دعم السوفييت لها سياسياً واقتصادياً سيؤدي إلى تطورات ايجابية، فأصبح الاختلاف الأيديولوجي مسألة ثانوية بحتة، طالما أن التعاون الأساسي موجود راسخ من أجل تحقيق الأهداف المشتركة [40].

وفي كلمات قليلة يلخص لنا خالد محي الدين طبيعة العلاقة بين البلدين في تلك الآونة، فيقول:

"رغم وجود اتفاق على الاستمرار في علاقات وطيدة، إلا أنه منذ عام 1962 حتى عام 1967، كانت تثور بعض المشاكل بسبب الفارق بين ما تتوقعه مصر من الاتحاد السوفييتي، وبين ما يستطيع الاتحاد السوفييتي أن يقدمه وفقاً لظروفه، وأذكر أنه كانت هناك مشكلة مستمرة حول المسائل الخاصة بتأجيل دفع أقساط الديون أو تخفيضها أحياناً، على أساس أن يتحمل الاتحاد السوفييتي بشكل أو بآخر بعض أعباء التزاماتنا في المعركة ضد الاستعمار، ومن ناحية كانت مصر تطالب بالكثير، وكان الاتحاد السوفييتي يتصرف وفقاً لما يراه في إطار قدراته والتزاماته العديدة، في مناطق كثيرة من العالم" [41].

ناصر يلتقي خروتشوف في نيويورك..

وتشاء الأقدار أن يلتقي عبد الناصر وخروتشوف على أرض معادية آخر ما يهم أصحابها أن يتوافق الزعيمان على شيء، فكان ذلك في نيويورك في افتتاح الدورة الخامسة عشرة للجمعية العامة للأمم المتحدة في أيلول 1960، وانشغل خروتشوف بمؤتمراته الصحفية من على شرفة السفارة السوفييتية، ولما التقى الزعيمان في السفارة حذر خروتشوف ضيفه أن مثل هذا المكان مزروع بأجهزة التنصت، إلا أنهما التقيا في مكان ناء عن تلك الأجهزة في 2 تشرين أول مدة 3 ساعات، صرح فيها ناصر أنه "قد حظر الحزب الشيوعي في مصر، فإنه فعل ذلك لأن الشيوعيين أخطأوا في تحليل الطريقة التي يجب تطوير البلاد بها، كذلك ابلغه أنه لا يشترك في أي حرب صليبية ضد الشيوعية، وأنه ليس معادياً للشيوعية"[42].

ويضيف هيكل بأن هذا الاجتماع لم يكن كافياً لإعادة العلاقة الودية بين الزعيمين، وخير دليل على ذلك ما حصل لاحقاً..

ففي نيسان 1961، يزور أنور السادات الاتحاد السوفييتي على رأس وفد برلماني، ولما التقى بخروتشوف راح الأخير يوجه انتقاداته لناصر قائلاً:

"إذا كان شعبنا في ظل النظام الشيوعي يعيش حياة أفضل من تلك التي يحياها شعبكم، فكيف تجرأون على القول بأنكم ضد الشيوعية؟ إن الشيوعية أفكار لا تستطيعون حبسها في السجون..تقولون إنكم تريدون الاشتراكية لكنكم لا تفهمون الاشتراكية الحقيقية التي تقود للشيوعية، إنكم لا تزالون في بداية الطريق في هذه المرحلة الراهنة من التنمية التي تضطلعون بها، إني أنبهكم مخلصاً إلى أن الشيوعية مقدسة"[43].

أما في رواية هيكل للخبر، فقد قال خروتشوف:

"حسناً، لن ندفعكم دفعاً إلى الشيوعية، فنحن لا نؤمن بأنه يمكن سوق الناس بالعصا إلى الجنة، لقد تحررتم، وها أنتم سعداء بما تدعونه القومية، ولكن دعوني أقول لكم: إن القومية ليست قمة السعادة، إنني لا أريد أن أدفعكم قسراً إلى اعتناق الشيوعية،

لكنني أعتقد أن بعض أفراد هذا الوفد سيكون من شيوعيي المستقبل، ذلك أن الحياة ذاتها ستفرض الشيوعية..

فالواقع أن الشيوعية ليست سوى أفكار، والأفكار لا يمكن وأدها في السجن، يمكنكم أن تزجوا إنساناً في السجن، لكنه سيظل شيوعياً، لقد زج القيصر لينين في السجن، لكن لينين بنى أكبر دولة في التاريخ" (44).

وأوعز ناصر لهيكل بنشر كلمة خروتشوف كاملة، ورد السادات الأكثر احتراماً، بأن مصر ستجد طريقها نحو الاشتراكية بدون تدخل الدول الأجنبية، وردّ هيكل مبيناً الفرق بين الشيوعية والاشتراكية العربية في خلاصة متميزة قائلاً:

"إن الشيوعية تفرض دكتاتورية الطبقة الواحدة، في حين أن الاشتراكية العربية تعمل على تذويب الفوارق بين الطبقات، وأن الشيوعية جعلت الفرد أداة في يد الدولة، بينما تنظر الاشتراكية العربية إلى الفرد باعتباره أساس المجتمع، كذلك فإن الشيوعية لا تسمح بأي خروج عن الخط، بينما تتيح الاشتراكية العربية حرية الفكر والتحليل لأنها أساساً إنسانية ومرنة، وفي الوقت الذي سمحت فيه بالملكية الخاصة وحق الميراث، ضمنت ألا تستخدم هذه الحقوق في استغلال الشعب" (45).

وقد أثارت هذه الردود غضب حكام الكرملين، وأوعزوا لصحافتهم بالرد عليها، وهذا بدوره أدى إلى المزيد من الخلافات بين البلدين، تمثل ذلك في استنكار ناصر استئناف روسيا تجاربها النووية، ولما انفصلت سوريا عن مصر سارع السوفييت إلى الاعتراف بحكومة الانفصال (46).

وكان السوفييت قد ساندوا عبد الكريم قاسم الذي أنهى النظام الملكي في العراق بإنقلابه عليه في تموز 1958، والذي استخدم الحزب الشيوعي للتغلب على اتباع ناصر في العراق، فمنحه السوفييت مساعدات اقتصادية وعسكرية كبيرة، آملين ان يبقى العراق مستقلا عن حركة الوحدة التي يتزعمها عبد الناصر (47).

وتلعب الظروف العربية المحيطة دوراً إيجابياً بالنسبة لمصر، سلبياً بالنسبة للروس، فقد حصل انقلاب في العراق في 8 شباط 1963 ضد نظام عبد الكريم قاسم على يد عبد السلام عارف، فانهار الحزب الشيوعي العراقي، وتزامن ذلك مع انهيار الحزب الشيوعي السوري، لتتبدد أحلام خروتشوف بالسيطرة على البلدين[48]، وقد اشترك عبد السلام عارف في مؤتمر القمة العربي في القاهرة في كانون ثان 1964، كما عقد في أيار من العام نفسه اتفاقية الوحدة مع مصر [49].

وفي الآونة ذاتها، وفي صيف عام 1963، أعلن ناصر في الذكرى العاشرة للثورة إغلاق المعتقلات، وعودة ذوي الآراء السياسية المختلفة (أو المعارضة) إلى الحياة السياسية المصرية، وكان في مقدمة هؤلاء الشيوعيون، "ليرفع العقبة الأخيرة أمام تقويم إيجابي سوفييتي للنظام الناصري، ويفتح الطريق أيضاً أمام تحول عميق في العلاقات المصرية-السوفياتية"[50].

الفصل السابع

خروتشوف يزور مصر أيار 1964

وكان لمشروع السد العالي العظيم دور كبير في إعادة العلاقات الودية بين الزعيمين، فقد وجهت الدعوة لخروتشوف لحضور حفل تدشين المرحلة الأولى من السد العالي في 14 أيار 1964، ذلك الصرح الهائل الذي جسد العلاقات المتينة بين البلدين، إضافة إلى كونه إنجازاً عملاقاً من إنجازات ثورة يوليو المجيدة..

وجرى لخروتشوف استقبال كبير في الاسكندرية والقاهرة، حتى لاحظ مستقبلوه دموع العرفان والسرور تترقرق في عينيه، وأبدى إعجابه بالعاصمة التاريخية العريقة (1).

خطاب عبد الناصر في استقبال خروتشوف لدى وصوله الاسكندرية 9 أيار 1964

أيها الصديق العظيم نيكيتا سرجنيتس خروتشوف:

في هذه اللحظات التي نلتقي فيها للمرة الأولى على أرض الجمهورية العربية المتحدة، يسعدني أن أرحب بكم، وبالأصدقاء الذي جاءوا معكم، ومعي شعب بأسره يعرف معنى الكفاح، ومعنى الحرية، ومعنى الصداقة، ينظر إلى لقائه بكم، وينتظره ليحتفظ به، وذكرى على مدى العمر، بين أغلى ذكرياته.

لقد ظل اسمكم أسطورة تتردد على شفاه الملايين من أبناء الجمهورية العربية المتحدة، عرفوكم كمحارب شجاع، ناضل العمر من أجل رأيه ومبادئه، وعرفوكم كصديق شريف كان في المحنات أروع ما يكون الصديق إخلاصاً وتفانياً.

اليوم نرحب بكم أيها الصديق العظيم، وفي وجداننا تاريخ طويل من الذكريات، تتزاحم كلها في هذا اللقاء، لتتجسد في شخصكم رمزاً حياً لأنبل العلاقات، يمكن أن تقوم به الشعوب.

ولقد قامت بين شعبينا أنبل العلاقات، كانت بدايتها زمالة في طريق الكفاح من أجل حرية الإنسان وكرامته على أرضه، بالقضاء على الاستعمار والاستغلال، ويزداد هذا الارتباط وثوقاً بالعمل من أجل سلام البشرية وأمنها، وتضاعف الارتباط بالعمل من أجل رفاهية الانسان، والتعاون على حل مشاكل الحياة.

ولقد كان لكم أيها الصديق العظيم، وما يزال لكم الفضل الكبير، في دفع هذا التعاون إلى أقصى غاياته، بشخصيتكم تدفعون العجلة إلى الأمام، وكنتم بمواقفكم العالمية التي يحفظها التاريخ مآثر لكم، تدفعون على الثقة بكم، وبإخلاصكم في نواياكم.

ولإن كنت في غاية السعادة، وأنا أرحب بكم الآن باسم شعب الجمهورية العربية المتحدة، فإن سعادتي تضاعفت لأنكم ستشاركوننا في الاحتفال بانتهاء المرحلة الأولى من السد الغالي، فإني لا أرى في هذا المشروع مجرد سد يحفظ الماء وراءه، يوزعه بقسط وحساب، وإنما أرى فيه وهو يقف شامخاً في قلب القارة الإفريقية رمزاً لأروع ما يكون الإخلاص والوفاء في العلاقات بين الشعوب والأمم.

ولست أريد أن أسبق الحوادث، فأقول إن الملايين من أبناء الجمهورية العربية المتحدة يشعرون بنفس شعوري، وإنما أترك ذلك لتلمسوه بأنفسكم.

أيها الصديق العظيم..مرحباً بكم على أرض الجمهورية العربية المتحدة، وبين شعبها [2].

خطاب عبد الناصر في حفل العشاء

الذي أقامه تكريماً للرئيس نيكيتا خروتشوف بتاريخ 9 أيار 1964

الصديق العزيز نيكيتا خروتشوف..

أيها السيدات و السادة من ضيوفنا وأصدقائنا

بالكثير من الاعتزاز والسرور، أقف أمامكم الليلة لأرحب بمناضل عظيم من مناضلي الحرية والسلام، وصديق وفي كريم لشعب الجمهورية العربية المتحدة، وهو يزور وطننا لأول مرة، ويلتقي بشعبنا.

ولست أظن أيها الصديق أن بي حاجة إلى الإفاضة في معاني الترحيب بكم، والتعبير عن مشاعرنا نحوكم، ونحو بلدكم الكبير، إن الشعب في الجمهورية العربية المتحدة كما رأيتم اليوم بأنفسكم، وأحسستم، قد سبق كل كلام، وعبر تعبيراً صادقاً وصافياً عن الحقيقة في كمالها وجلالها.

إن الصداقة التي تربط بين شعوبنا لم تكن صداقة المصادفة، ولا صداقة الطريق السهل، إن القوى الاستعمارية أرادت دائماً أن تضع الحواجز على طريقنا والعراقيل، ثم أكدت التجارب، واحدة بعد واحدة، أن هناك مجالات واسعة ورائعة، تنتظر هذه الصداقة، خدمة لشعوبنا، وخدمة للإنسانية.

ولقد كانت مقدمة لصداقتنا الوطيدة الوثيقة هي رفض الشعوب العربية، بصلابة وإصرار، أن تسمح لأراضيها بأن تكون قواعد لتهديد الاتحاد السوفييتي وحكومته، وفي هذا السبيل فإن الشعب المصري وقف وقفة عنيدة إلى جانب مبادئه، التي ترفض قبول السيطرة الأجنبية، وتنادي بعدم الانحياز، وتؤمن بأن البشرية تستطيع أن تصرف جهودها وإمكانياتها فيما هو أجدى من التهديد بالدمار الذري، والوقوف بالعالم دائماً على حافة الهاوية.

بعد هذه المقدمة التي فتحت أبواب التعاون بيننا على مداها، نذكر اليوم بالتقدير مواقف حاسمة سوف تظل شعوبنا إلى الأبد تذكر دور الإتحاد السوفييتي فيها، ولا تنساه.

أولاً: الوقوف إلى جانب شعب مصر في تصميمه على كسر احتكار السلاح، وكانت القوى الاستعمارية قد أنشأت وسط الأرض العربية قاعدة عدوانية تقطع وحدتها، وتهدد أمنها، وتحولت هذه القاعدة العدوانية في إسرائيل إلى قلعة

مدججة بالسلاح، في حين كانت شعوب الأمة العربية لا تجد ما تدافع عن نفسها به.

ثانياً: الوقوف إلى جانب شعب مصر في تصديه للغزاة المستعمرين، الذين أرادوا اقتحام أجوائه وشواطئه، وينتزعون منه قناته التي بناها بدمه، وأراد استردادها بحقه.

ثالثاً: الوقوف إلى جانب شعب مصر في مقاومته للحصار الاقتصادي، وللحرب النفسية التي بلغت مداها في المنطقة، بتشديد ضغط حلف بغداد على سوريا سنة 1957.

رابعاً: الوقوف إلى جانب شعب مصر في جهده البطولي ببناء وطنه اقتصادياً، ومعاونته في إقامة صناعته، ثم معاونته في بناء السد العالي العظيم، الذي أصبح رمزاً للبناء، ورمزاً للحرية.

وفي نفس الوقت، وبنمو الصداقة بيننا، وزيادة تعميقها بالتجاوب، فإن التعاون بيننا استطاع أن يمد أثره إلى خارج محيط العلاقات المباشرة بيننا، ويتصل إيجابياً بالجهود الانساني كله من اجل التقدم والسلام.

لقد التقت جهودنا في ميادين مكافحة الاستعمار بكل أشكاله، وفي مجالات تأييد الحركات التحررية في آسيا وإفريقيا وامريكا اللاتينية، ومن أجل نزع السلاح، وتصفية القواعد العسكرية الأجنبية، وحظر استعمال الأسلحة النووية، ومكافحة التمييز العنصري، وتمكين التعايش السلمي بين الشعوب من أن يؤدي دوره في تحريك طاقات الخلق والإبداع لدى الانسان، وتوجيهها لخدمة الحياة، وليس من شك أن جهودنا المشتركة ترى من حولها الكثير من النتائج المشجعة التي تدعو إلى بذل مزيد من الجهود.

إن أعلام الحرية يزداد عددها كل يوم فوق أراضي الشعوب التي نفضت عن نفسها سيطرة المستعمرين، وإن المقاومة ضد الاستعمار الجديد تكشف أمام الشعوب

المستقلة يوماً بعد يوم أن استقلالها لا يمكن تدعيمه بغير الاستقلال الاقتصادي، وبغير جهود التطوير المتفانية.

ولقد تحقق بفضل مشاركتكم القيمة – أيها الصديق العزيز – نجاح مبدئي له قيمته في تهيئة جو أفضل للتفاهم السلمي العالمي، يحل بديلاً عن لغة التهديد، وأعني بهذا النجاح اتفاقية موسكو للحظر الجزئي على إجراء التجارب الذرية، وهي اتفاقية أسعدنا أن نوقعها معكم، تحدونا أكبر آمال السلام، كذلك ما تلاها من اتفاقيات تمكنت بغير شك من تخفيف حدة التوتر، وعززت إمكانيات التعايش السلمي.

الصديق العزيز الرئيس خروشوف، أيها السيدات والسادة من ضيوفنا وأصدقائنا..

إنك تصل إلى بلادنا في نقطة تحول ضخمة من تاريخنا، نقطة يبدأ شعبنا بعدها مرحلة انطلاقه العظيم التي وصل إليها، قادماً من مرحلة تحول عظيم، في مرحلة التحول.. تحول بلدنا من بلد مستقل، انتزع استقلاله بالحرب المسلحة، وأرغم الدول التي خرجت منتصرة من الحروب العالمية الكبرى على أن تتراجع بسلاحها وإرهابها الاقتصادي والفكري، وتدرك أن عصر الغزو قد انتهى إلى غير رجعة ، وأن الضغوط الاقتصادية والنفسية لم تعد تجدي في إذلال الشعوب.

في نفس هذه المرحلة، تحول مجتمعنا من حكم تحالف الاقطاع، ورأس المال، إلى مجتمع يبني بالاشتراكية تحالف قوى الشعب العاملة، تحقيقاً للديمقراطية السياسية، والديمقراطية الاجتماعية.

وفي نفس هذه المرحلة، رفع شعبنا عن كاهله بأصدق الجهود الثورية رواسب التخلف، وأطلق ملكاته وآماله، يحاول بالتخطيط العلمي أن يبني زراعة حديثة، وصناعة حديثة، وأن يضمن الصحة والعلم والثقافة والأمان للإنسان المصري الجديد.

إن مرحلة الانطلاق التي بلغها شعبنا بعد مرحلة التحول، وبعد ما يقرب من إثني عشرة سنة شابة نشيطة، وربما كان أكثر ما يرمز لها الآن هو خطة السنوات الخمس الثانية، التي يجري إعدادها بعد أن أوشك تنفيذ الخطة الخمسية الأولى أن يتم.

إن هذه الخطة توظف في الصناعة وحدها على سبيل المثال ألف مليون جنيه، وبها يتم التوسع الكبير في الصناعات الثقيلة.

كذلك، فإن التنمية تحمل في طياتها مشاكلها الخاصة والمعقدة، لكن الايمان كامل لدى هذا الشعب، لأنه ليس هناك طريق غير طريق التقدم إلى الأمام، وإلى الحياة، إن الطريق أمامنا صعب، ولكن شعبنا يثق في قدرته على اجتياز كل صعب فيه، وعلى التغلب على الأخطار المحيطة به.

إن الطريق أمامنا تحفه الأخطار، ونحن لا نخدع أنفسنا، ولكن نريد أن نهون الأمر عليها.

أولاً: إن شعبنا يدرك أنه لا يبني بالإشتراكية مجتمع الشعب المصري وحده، ولكنه يحاول أن يبني المجتمع النموذجي لشعوب الأمة العربية، وإذا كانت الوحدة العربية هي حقيقة وجود، فإن خير سبيل إلى الدعوة لها هو سبيل بناء المجتمع العربي، الطليعة والقاعدة.

ثانياً: إن شعبنا يدرك أن هناك قاعدة استعمارية وسط ارضه في إسرائيل، فرض الاستعمار وجودها تمزيقاً لوحدة الأرض العربية، وانقضاضها عليها بالتهديد إذا اقتضى الأمر.

وانه لمن سوء الحظ أن تقوم في هذه العصر دولة على العنصرية، وان يستخدم هدف تصحيح أخطاء النازية ضد اليهود بإقامة نازية صهيونية جديدة ضد الشعب الفلسطيني، وعدواناً عليه، ويحاول الاستعمار، بكل جهده أن يزيد إمكانيات العدوان في قاعدته، بتمثيل ذلك في تسهيل الهجرة منها وإليها، وتمويلها، وإغداق التبرعات عليها بغير حساب، وتدعيم مشروعاتها التوسعية، كما نرى في مشروع تحويل نهر الأردن.

وعلى شعبنا أن يعمل، وهذا الخطر إلى جانبه، عليه أن يبني، وأن يكون في كل وقت على استعداد لحمل السلاح.

ثالثاً: إن شعبنا يدرك أن مطامع الاستعمار على أرضنا بغير حدود، فلقد شاءت الظروف أن تختزن التربة العربية ثروة بغير حدود، وأن تقع أرض الأمة العربية على مفترق طرق العالم، وهذا يجعلنا هدفاً للنهب، وهدفاً لخطط السيطرة في نفس الوقت.

على أن أمتنا كلها تقاوم، ويكفي أن نلقي نظرة على الجهود الرائع الذي تقوم به الثورة اليمنية معززة بقوى الجمهورية العربية المتحدة، في مقاومة التسلط الاستعماري على الجنوب المحتل.

رابعاً: إن شعبنا يدرك أن قضية الحرية لا تتجزأ، وأن قضية الرخاء لا تتجزأ، كذلك فإن نضال شعوب آسيا وإفريقيا لا يجري في عزلة عن نضال الأمة العربية، وكذلك فإن مسئولية تطوير القارة الإفريقية بالذات بعد تحريرها يتطلب جهوداً ضخمة حتى لا يتسلل الاستعمار عائداً إليها، تحت ضغط التخلف، أو وراء واجهات مضللة كالواجهة الإسرائيلية، التي يحاول الاستعمار أن يستعملها بنشاط في إفريقيا.

أيها الصديق العزيز:

معك فتحنا هذه الصفحات من عملنا وأملنا، ولقد فتحنا معها قلوبنا للصداقة وللمحبة.

أيها الأصدقاء الأعزاء:

إني أدعوكم إلى الوقوف معي تحية لنكيتا سيجريفتش خروتشوف، وتقديراً لدوره العظيم في قيادة شعوب الاتحاد السوفييتي إلى حيث تقف الآن في طليعة موكب التقدم الانساني، كما تشهد بذلك هذه الانجازات الاقتصادية والعلمية، الرائعة والرائدة، وتحية لهذه الشعوب الصديقة والباسلة والشجاعة في معارك الحرب ومعارك السلام،

وتحية لهذه السيدة الكريمة نيتا بتروفينا، وتحية لهذه المجموعة الممتازة من أصدقائنا السوفييت.

تحية لهم جميعاً على هذه الأرض الخضراء، وتحت شمسها المحرقة، ومع شعبها صديق النضال والآمال المشتركة في الازدهار والسلام [3].

تعليق على الخطاب السابق

واضح ان عبد الناصر في خطابه هذا لا يبالغ في شيء، فكل ما قاله واقعي ملموس..

فطريق الصداقة بين السوفييت ومصر شائك وعر، وقد ذللته القيادة الحكيمة في البلدين، ففي هذه الصداقة خدمة للشعبين ولكل القوى المناضلة.

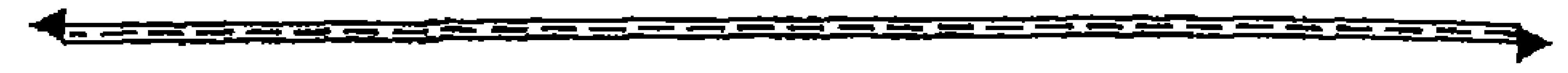
ورائع من الزعيم الراحل أن يذكر في بداية خطابه أن الشعب العربي يرفض أن تكون أراضيه قواعد تهديد للسوفييت، فكأنه يشعرنا بأن المصالح المتبادلة بين البلدين متكافئة، وأن مصر تبادل السوفيت الإخلاص والوفاء، قبل أن تشاركهم روح التعاون المشترك.

ويشكر ناصر ويؤكد على:

1- وقوف السوفييت مع مصر والعرب في حرب السويس - بدون ان يذكرها بالإسم- ثم إمدادها لهم بالسلاح على مدى السنوات اللاحقة لتلك الحرب.

2- الوقوف مع مصر في مقاومة الحصار الاقتصادي الاستعماري، والتعاون معها في بناء تطورها الصناعي الهائل، بالدعم المادي والتخطيط العلمي السليم.

3- الدعم الكبير الذي قدمه السوفييت بالمال والخبرة في بناء السد العالي، أعظم إنجاز لثورة يوليو المجيدة.



ويصف ما سبق بأنه نقطة تحول ضخمة في تاريخ مصر.

ويعطف ناصر على ذلك بالتقاء جهود البلدين الصديقين في تأييد الحركات التحررية، ونزع السلاح، وتصفية القواعد الاستعمارية، وحظر الأسلحة النووية، ومكافحة التمييز العنصري، وتشجيع التعايش السلمي، وتوجيه الطاقات الانسانية لما فيه خير البشرية.

ويشير ناصر إلى النهج الاشتراكي الذي اتبعته مصر، وطريقها العربي الوحدوي، وأن إسرائيل قد وجدت كقاعدة استعمارية للعمل على تمزيق هذه الأمة، وتبديد جهودها وطموحاتها، سعياً من القوى الاستعمارية في تحقيق مطامع النهب والسيطرة على الوطن العربي، وإيقاف التيار النضالي الآسيوي الإفريقي، لإبقاء شعوب القارتين فريسة الهزيمة والتخلف.

وينهي ناصر خطابه بالإشادة بضيفه الكبير، والتقدم السوفييتي الاقتصادي والعلمي الذي أنتج إنجازات كبيرة هائلة استفادت منه الدول الصديقة.

أما خطابه القصير في 10 أيار 1964 في حفل تكريم الشباب للرئيس خروشنوف، فلم يتعد عبارات الترحيب والثناء على خروشوف، ومن ذلك قوله:

"يا شباب مصر، أقدم لكم الآن نيكيتا خروشوف صديقاً لمصر، وصديقاً لأمتكم العربية، وصديقاً للسلام، ورسولاً يحمل رسالة الشباب في أمة كبيرة، أثبتت صداقتها لأمتكم الكبيرة، وأكدتها عبر التجارب"[(4)].

ولكن خطاب ناصر في اليوم التالي جاء مختلفاً تماماً، ففيه حث وتشجيع قويين على الصداقة التي يجب أن يمارسها المصريون مع السوفييت، فالثوار طريقهم واحد، وغاياتهم واحدة، ويجب ان يسعوا معاً لرفع مستوى بلادهم الاقتصادي والثقافي..

ففي خطابه في مجلس الأمة إثناء تقديمه خروشوف لأعضاء المجلس في 11 أيار 1964، يقول ناصر بعد عبارات المجاملة:

"إن الضيف القادم إليكم معي الآن هنا من قواد ثورة عظمى أحدثت تحولات هائلة، وغير محدودة، في قارات العالم بغير استثناء، وبالذات في اوروبا وآسيا، ولقد حررت مئات الملايين من البشر من رق الاستعمار، لتشق الطريق بهم إلى عصور الذرة، وعصور الفضاء وأبعادهما اللامتناهية، خدمة للإنسان، وتكريماً له.

وأنتم هنا طلائع ثورة أخرى عظيمة، حركت أمة بأسرها، لكي تقف على قدميها على المسافة الشاسعة ما بين المحيط والخليج، تقاتل وتناضل، وتصنع بنفسها قدرها، وتختار طريقها إلى الغد الذي تمنته لنفسها، وأرادته باختيارها الحر، لكي يقف الانسان العربي في هذا العصر مع الانسان المتحضر في كل مكان يبني الرخاء، ويبني السلام.

إن ثورتكم تلتقي مع الثورة السوفييتية، بل إن الثورات الأصيلة كلها تلتقي، مهما كان الخلاف بينها في التفاصيل، إن هناك نقطتين بارزتين في كل ثورة.

أولاً: إن الثورة في منطقها، مهما ذهب الفلاسفة في تحديد الدوافع والأسباب، هي ارتفاع شعب من الشعوب فوق الأثقال والأغلال التي تقيده، وتصميمه بالحزم والعنف على أن يقفز فوقهما إلى وضع يمكن جماهيره الحرة من أن تعمل بغير عوائق، وتجند طاقاتها الكاملة لبناء مجتمع جديد.

ثانياً: إن الثورة في هدفها، مهما تنوعت الاجتهادات، هي حياة أفضل بالنسبة للجماهير العاملة، وليست الشعارات هي الهدف، وإنما الهدف هو تطوير المستويات الاقتصادية والثقافية للشعوب، وتأمينها ضد كل ضغوط مهما كان مصدرها، خصوصاً في هذا العصر الذي يشهد ثورة في وسائل المواصلات، سقطت بسببها الحدود التقليدية بين البلاد المختلفة، وأصبحت الكرة الأرضية بأسرها ميداناً للتاثيرات المتضاربة.

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة..لست أريد أن أستغرق الوقت في هذا الاجتماع الذي خصصتموه للقاء خروتشوف.

أردت أن أقدم لكم ممثلاً لأمة صديقة لأمتكم، ورئيساً لحكومة صديقة لحكومتكم، قائداً لثورة صديقة لثورتكم الاشتراكية، إن صداقة الثوار أقوى الصداقات، وصداقة الثورات الأصيلة حتمية تاريخية، بحكم النضال، وبحكم الآمال، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته "[5].

وفي خطاب آخر في 12 أيار 1964 وخلال زيارة خروتشوف لمدينة الدواء، يقول ناصر عن هذا المشروع مشيداً بالدور السوفييتي في تأسيسه :

"إن تنفيذه كان ثمرة جهد إنساني عربي وسوفييتي مشترك، فهنا 1700 من المصريين والمصريات ما بين علماء وعمال، وهنا أيضاً 70 من السوفييت ما بين علماء وعمال، ولقد التقوا على هذه الأرض، والتقى عملهم، والتقت خبراتهم، لتصنع في النهاية قوة بناءة، وطاقة إنتاج تبدو أمام عيوننا شهادة عظيمة للتعاون أصدق ما يكون، وأنجح ما يكون.

إننا هنا نحيي هذه المعاني كلها، نحيي التعاون المصري والسوفييتي، ونحيي العلم في خدمة السلام، ونحيي إرادة العمل الخلاقة، ونحيي هؤلاء الرجال والنساء من العلماء والعمال العرب والسوفييت، إنهم أناس مبتدعون لعالم جديد، شرف بالإنسان، وشرف للإنسان، والسلام عليكم)[6].

خطاب 14 أيار 1964

أما خطابه الحماسي الذي ألقاه في موقع السد العالي إثناء الاحتفال بتحويل مجرى النيل الخالد وبحضور خروشوف في 14 أيار 1964، فقد أشاد فيه إشادة قوية بأبطال الثورات المتعاقبة في مصر ضد الاستبداد العثماني، وامتدح ثورة أحمد عرابي كأول ثورة ضد أسرة محمد علي، ومجّد ثوار يوليو 1952 الذين غيروا مجرى التاريخ، وحيا أبطال حرب السويس، ثم عرج على السوفييت شاكراً ممتناً، فقال:

"..عندما أصل إلى هذا الحد، لا بد من أن أشير بالتحية إلى موقف الاتحاد السوفييتي في مناصرة مصر وتأييدها، بالفعل والعمل، إن الاتحاد السوفييتي وقف مع مقاومتها ضد الغزو والعدوان، ولم يكتف بذلك، وإنما مد تأييده بعدها، إلى آمالنا وخططنا في بناء السد العالي، وقدم لنا القروض والخبرة الفنية اللازمة لمساعدتنا في بناء السد العالي بمرحلتيه.

إن الاتحاد السوفييتي وقع معنا اتفاقيتين لقرضين، قيمتهما معاً مائة مليون جنيه، ثلثهما للمرحلة الأولى تم تنفيذها اليوم، والثلثان للمرحلة التالية التي بدأ بعض أعمالها بالفعل مع أعمال المرحلة الأولى، ليتم السد كله بمرحلتيه سنة 1968، محققاً كل نتائجه الجديدة، ومن طاقة الكهرباء، ومن عملية التطوير الضخمة والعميقة التي تترتب عليها أبعادها الاقتصادية والاجتماعية.

ولم تكن المسألة مسألة اتفاقيات، ولكن تنفيذ الاتفاقيات كانت أهم من نصوصها أن سنوات طويلة من العمل المشترك قد أقامت صرحاً للصداقة العربية السوفييتية لا يقل عن صرح السد العالي قيمة ولا رمزاً، إن أخوّة العمال والمهندسين العرب والسوفييت ماثلة في كل تفاصيل هذا العمل الذي هو بغير جدال من أضخم الاعمال الإنسانية في عصرنا الحديث وأشهرها على الإطلاق، وأبعدها صيتاً في الدور الذي لعبه في تاريخ العالم الحديث.

لقد كان السد العالي هو محور معركة السويس العظيمة، التي كانت أبرز نقط التحول في المجال الدولي منذ الحرب العالمية الثانية، وبداية لانطلاق حركة التحرير الوطنية الهائلة في إفريقيا.

أيها الصديق العزيز خروشوف:

إني أوجه إليك هذه الفقرة من خطابي، وأريد أن تسمعها معك شعوب الاتحاد السوفييتي، بل يهمني أن تسمعها الدنيا كلها معكم من هنا.

إن شعب الجمهورية العربية المتحدة لن ينسى على الإطلاق، ومهما طال الزمن، الجهد الذي بذلته شخصياً في عملية بناء السد العالي، لقد توليت بنفسك أكثر من مرحلة

من مراحل الاتفاق على إقامته، وكانت حماستك له دائماً قوة لها أثرها بغير جدال فيما نراه من حدث الآن.

إن شعب الجمهورية العربية المتحدة لن ينسى على الإطلاق، ومهما طال الزمن التعاون الودي الذي قدمته حكومة الاتحاد السوفييتي في مراحل الاتفاق والتنفيذ.

إن شعب الجمهورية العربية لن ينسى على الاطلاق ومهما طال الزمن، العمل الخلاق الذي قام به المهندسون والعمال السوفييت في معاهد الدراسة والأبحاث في الاتحاد السوفييتي، وفي المصانع السوفييتية التي كلفت بتنفيذ الآلات اللازمة للبناء.

إن شعب الجمهورية العربية لن ينسى على الاطلاق ومهما طال الزمن، روح النضال والمثابرة والصبر التي أبداها المهندسون والعمال السوفييت الذين شاركونا هنا على الموقع مع إخوتهم من المصريين في عملية البناء.

إن هؤلاء الرجال أدوا عملاً باهراً في ظروف طبيعية تختلف عما ألفوا، كذلك فإن زوجاتهم وأطفالهم الذين صحبوهم إلى هنا في أسوان، وعاشوا معهم عملهم، وظروف هذا العمل هم شركاء للرجال العاملين بالحق في تقديرنا.

إنكم جميعاً أيها الصديق كنتم معنا في أعز احلامنا، وكنتم معنا في أكبر جهد صنعه نضالنا من أجل تطوير الحياة، إنكم بهذا الموقف أقمتم على أرض العرب، وعلى أرض إفريقيا جسراً للصداقة بين الشعوب والقارات، وأكدتم تضامن الثورات الأصيلة المكافحة كلها من أجل حياة أفضل لجماهير الشعوب (7).

تعليق

يواصل الزعيم الراحل إشادته بالدور العظيم للاتحاد السوفييتي في مساعدة مصر، والوقوف معها في مقاومتها للعدوان الصهيوني على الامة العربية..

فيذكر أولاً القروض الميسرة التي قدمها السوفييت لتنفيذ المرحلة الأولى من السد العالي، والذي كان محور حرب السويس، ونقطة تحول بارزة في تاريخ إفريقيا.

ويؤكد – بكل إخلاص ووفاء– بأن شعب مصر وحكومتها لن ينسوا فضائل السوفييت ومواقفهم النبيلة تجاه مصر والعرب.

ويعدد ناصر بعض أشكال هذا الدعم في مشروع السد، ومنها:

الإشراف المباشر على مراحل البناء

العمل االدؤوب في مراكز الأبحاث العلمية

تصنيع الآلات اللازمة في مصانع الاتحاد السوفييتي

مشاركة المهندسين والعمال السوفييت المباشرة في تشييد المشروع.

وجود أسر هؤلاء المهندسين والعمال في مصر في ظروف طبيعية صعبة (كارتفاع حرارة الجو مثلاً)..

حقاً.. لم يكن السد العالي مجرد مشروع اقتصادي ناجح فحسب، بل كان انتصاراً هائلاً في معركة مع الاستعمار والطبيعة والظروف الصعبة، وكما قال ناصر في خطابه السابق:

"ليست هناك بقعة من الأرض تصور المعركة العظيمة للإنسان العربي المعاصر، في أبعادها الشاملة، كهذا الموقع الذي نقف أمامه على سد أسوان العالي.

هنا تختلط المعارك السياسية والاجتماعية والقومية والعسكرية للشعب المصري.. وتمتزج كأنها كتل الأحجار الضخمة التي تسد مجرى النيل القديم، وتخترق مياهه في أكبر بحيرة صنعها الانسان لتكون مصدراً دائماً للرخاء"(8).

ولا شك أن مثل هذا الشكر والعرفان المباشرين من رئيس الدولة نفسه يحمل قيمة حضارية وتاريخية كبيرة، فهو يدل على النزاهة والاستقامة والنبل، ليترك أثراً عميقاً في نفوس المشكورين، ويحفزهم لتقديم المزيد من الدعم والمساندة، وهذا ما حدث بالفعل في السنوات اللاحقة..

خطاب عبد الناصر في 16 أيار 1964 السوفييت أصدقاء في وقت الشدة

وبحضور خروشوف أيضاً، يواصل ناصر إشادته بالاتحاد السوفييتي، مقارناً دوره مع مواقف الدول الأخرى في مواقفها تجاه مصر، ومما قاله في هذا الخطاب:

"النهارده لما تخلت عننا جميع الدول المتحضرة، والدول اللي وجدت الفرصة لتطور نفسها في العلم، تخلت عننا أمريكا، تخلت عننا انجلترا، النهاردة واحنا بنقفل مجرى النيل القديم، بنقول لنيكيتا خروشوف إن إحنا الشعب المصري، إحنا الشعب العربي لن ننسى أبداً المعونة اللي قدمتها شعوب الاتحاد السوفييتي لينا، لما كنا في وقت الضيق، وفي وقت الشدة، لما تخلت عنا جميع الدول اللي كانت تقدر تساعدنا، وطلبنا من الاتحاد السوفييتي إنه يساعدنا، إدانا قرض، عمل معانا اتفاقيتين ب 100 مليون جنيه، ونفذ العمل بشرف وأمانة، يحق لنيكيتا خروشوف أن يفخر بالمهندسين والفنيين السوفييت اللي جُم بشتغلوا معانا.

كانت صحف الاستعمار تقول أن السد مش حايتم في ميعاده، السد العالي تم في ميعاده، النهاردة 16 مايو، اليوم اللي اتقال من سنة 1960، ثم قفل مجرى النيل القديم، قبل 15 مايو تم تحويل مجرى النيل، الاتحاد السوفييتي مسعدناش بس عشان ناخد مية وعشان ناخد كهربا، لا.. ساعدنا عشان نشعر بعزتنا، ونشعر بكرامتنا، ونشعر أيضاً بإرادتنا، احنا قلنا في وقت ما ان احنا إذا دعا الأمر حانعمل السد بدرعتنا، بالمقاطف، لو طلعت البلد كلها تشتغل، الاتحاد السوفييتي بموافقته على مساعدتنا خلانا قدرنا نحقق المرحلة الأولى من السد العالي في هذه المدة اللي هي أربع سنين.

اللي بدي أقوله ان احنا القرض اللي خدناه من الاتحاد السوفييتي، أخذناه في سنة 1960 أول اتفاقية، لسة ما دفعناش منه أول قسط حاندفعه السنة دي، والشروط طبعاً كانت سهلة، القرض الأولاني اللي سحب، اللي كان من البنك الدولي، كنا حاندفع له 6٪، وكنا حانرده بالعملة الصعبة، هذا القرض على 12 سنة، نبتدي ندفعه السنة دي 2٪ فوائد، وبندفعه محصولات مصرية، ونحن نشكر الاتحاد السيوفييتي على هذه الروح...

.. وأخيراً..شكرا لشعوب الاتحاد السوفييتي، وللرئيس نيكيتا خروشوف على مساعدتهم النزيهة، الغير مشروطة، التي بنت ودعمت الصداقة العربية السوفييتية، وأكرر له مرة أخرى أننا لن ننسى أبداً، والشعب العربي شعب وفي، ولن ننسى هذه المعونة الشريفة النزيهة.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"(9).

واضح إذن مدى سهولة التعامل مع السوفييت كما يخبرنا عبد الناصر نفسه..

مدة القرض طويلة، وبفوائد لا تكاد تذكر..

أقساط القروض تدفع بمحصولات مصرية..

المساعدات السوفييتية أشعرت المصريين بالعزة والكرامة وامتلاك الإرادة، لأنها منحتهم القوة والمعنويات العالية، والأمل الكبير في مستقبل مشرق..

على الجانب الآخر تحلم دول الاستعمار الغربي بأن لا يتم بناء السد، لأنها تعلم الفوائد العظمى التي ستعود على مصر منه، مما سيعطي مصر القوة والمنعة، والقدرة على مواجهة المشاكل الاقتصادية، وهذا الاستعمار يعلم أن قوة مصر قوة للعرب جميعاً.

خروتشوف والوحدة العربية

ورغم النقاش الذي دار بين الزعيم الجزائري بن بيلا وعبد الناصر من جهة وخروتشوف من جهة أخرى حول الشيوعية والقومية، إلا أن الزعيم السوفييتي بدأ يتفهم الموقف العربي، "وتضمن البلاغ المشترك الصادر في نهاية الزيارة إشارة خاصة بالوحدة العربية، ومنذ ذلك الحين صارت البلاغات عن نتائج اجتماعات الدول العربية مع السوفييت تذكر الوحدة العربية"(10).

اقتراحات خروتشوف تجد آذاناً صاغية

ولما اصطحب ناصر ضيفه في جولة في المناطق الريفية، شاهد خروتشوف الفلاحين يحاولون استثمار الأرض متبعين الأساليب الفرعونية القديمة في الري، فسأل ناصر عن

مصير الأراضي بعد بناء السد، فرد ناصر أنها سوف تقسم على الفلاحين، فرد خروتشوف بأن الفلاح لا يستطيع أن يشتري مضخة لأرضه، وآلات لزرع البذور وحلج القطن، لذا نصح بما قامت به بلاده، وذلك بإنشاء المزارع الجماعية والتي يمكن شراء المعدات اللازمة لها، ولما رد ناصر بأن ذلك يتطلب الأخصائيين والمشرفين لهذا النظام، رد خروتشوف:

" أما بشأن الأخصائيين، فإنك تستطيع أن تختارهم من بين ضباط جيشك، وتبعث بهم إلينا، إلى الاتحاد السوفييتي لمدة سنة واحدة للتدريب في مزارعنا الحكومية بينما نكمل نحن العمل في سد أسوان "

وفي يوم آخر علق ناصر: " أتعلم أيها الأخ خروتشوف، لقد فكرت في حديثك، وأخبرت به عامر، وأرى أنه اقتراح مفيد جداً، وأرى الآن أن نطالبك بتنفيذه، وقد يكون فيه فائدة لكم أيضاً ".

فأجاب خروتشوف:

" اذا كنت ترى ما أقترحه يشكل خطة تقدمية يحسن بك اتباعها، فعندئذ تكون رحلتي إلى بلادكم قد حققت أكثر مما كنت أحلم به، وأرى أن على القيادة المصرية أن تجمع الفلاحين جمعاً ممن يحاولون استغلال مزارعهم الصغيرة بمعداتهم البدائية، في وحدات إدارية كبيرة، وبعبارة أخرى تحويلهم الى جماعات زراعية، وإنني أقدر تماماً مدى الصعوبة في هذا العمل، إذ أننا عانينا مثل هذه الصعوبة عندما تبنى الاتحاد السوفييتي النظام الجماعي ".

وبعد إرسال وفد مصري لاكتساب هذه الخبرة في موسكو، نفذت مصر مشروع المزارع الجماعية بنجاح، فكان ذلك نصراً كبيراً لخروتشوف [11].

" وغادر خروشوف مصر وهتافات الجماهير العربية تتصاعد من حوله، وتلفه لفاً، وبدا خروشوف سعيداً، وودعه عبد الناصر بتفاؤل، فقد شعر بأنه بات يستطيع الآن أن يقيم علاقة سليمة مع الاتحاد السوفييتي " [12].

تقييم العلاقة بين البلدين من خلال كلمات ناصر

لا شك أن زيارة خروتشوف لمصر قد تكللت بالنجاح، وبجهود الزعيمين، فقد عززت العلاقات بين البلدين، وثبتت دعائمها، وأرست قواعد التفاهم المشترك للمستقبل القادم الواعد، كل ذلك قاد إلى الإمدادات والمساعدات السوفييتية لمصر في زمن الزعماء السوفييت الذين خلفوا خروتشوف.

ففي خطابه في حفل أقيم لخروتشوف في 18 أيار 1964، يقول ناصر:

" لا بد لي أن أذكر كيف ساعدنا الاتحاد السوفييتي في عام 1955 على كسر احتكار السلاح، الأمر الذي ساعدنا على إقامة الجيش الوطني القوي...

...إننا هنا في ملتقى الطرق، لأننا هنا نواجه مؤامرات الاستعمار، ومؤامرات الطامعين في وضعنا داخل مناطق النفوذ، ولذلك لا بد لنا من أن نحتفظ بالجيش الوطني القوي..

الرئيس نيكيتا خروشوف قال أنهم عاونونا في التسليح، وقال أنهم مستعدون أن يعاونونا في التسليح، ونحن نشكر الرئيس خروشوف، ونرحب بهذا القول..

أشكر الشعب السوفييتي، والحكومة السوفييتية، والرئيس نيكيتا خروشنوف على استجابتهم لطلبنا في سنة 1955..

أعطونا السلاح في سنة 1955، ثبت استقلال هذا البلد، ودعم استقلال هذا البلد، مبقاش الغربيين بس اللي عندهم السلاح، ويتحكموا فينا بشروطهم زي ما كانوا بيتحكموا في سنة 1955"[13].

وكذلك في خطابه الوداعي للزعيم خروتشوف في 24 أيار 1964، يقول عبد الناصر:

أيها الصديق:

إنه سوف تبقى معك دائماً هذه الزمالة المبدعة بين العرب والسوفييت في كثير مما زرناه.. عند السد العالي، وفي المصانع، رأينا العمال والمهندسين العرب، جنباً إلى جنب في معركة الحياة مع العمال والمهندسين السوفييت، إن الاتحاد السوفييتي قدم إلينا بحكومته تسهيلات البناء، ثم جاء هؤلاء الرفاق بالخبرة، يضعونها بتجرد ومقدرة في خدمة العمل الوطني لشعب مصر، إن العمل المشترك بيننا، فوق فوائده الهائلة، قد أقام السد العالي، وفي كل مصنع شاركتم معنا في بنائه صرحاً للصداقة العربية السوفييتية، رابطة بين شعوبنا، ثم رمزاً لا تخطئه العين في التعاون المثمر بين الشعوب، يشير إلى الطريق الصحيح للعلاقات الدولية على الطريق إلى بناء عالم لا يفرض القسر، ولا الضغط، وإنما عالم تبنيه المشاركة في التقدم.. المركز الحقيقي للمشاركة في بناء السلام...

إن الصداقة العربية السوفييتية هي في حد ذاتها الآن هدف يُسعى إليه، وغاية تبذل من أجلها الجهود، وبصرف النظر عن السلاح، وعن العون السياسي أو الاقتصادي، نحن وإياهم بعد ذلك كله وقبله شركاء في بناء السلام المقبل، حيث لا استغلال ولا تخلف.

ومن حسن الحظ أن المحادثات التي جرت بيننا طوال هذه الأيام السعيدة التي قضيتموها على أرضنا، ومع شعبنا، حققت تماماً ما كنا نتطلع إليه، لقد سمعت منكم تجارب العمل الوطني في الاتحاد السوفييتي، ووضعنا أمامكم تجارب عملنا الوطني في مصر، وتحدثنا طويلاً بغير قيود، وبغير عقد.

ولقد استمعنا إلى أبعد حد بعرضكم لتطورات الأوضاع العالمية، هذا العرض الذي تتجلى فيه الخبرة العميقة، والإطلاع الواسع، والمسئوليات المتسعة التي يتحملها الاتحاد السوفييتي، ومن ناحية أخرى فلقد أسعدنا أن نقدم صورة كاملة لفكر الجمهورية العربية المتحدة، التي يشرفها أن تكون هذا العام بيتاً لمؤتمر رؤساء الدول الإفريقية في اجتماعهم الثاني بعد أديس أبابا، وبيتاً لمؤتمر رؤساء الدول غير المنحازة الثاني بعد

بلغراد، ثم تكون بعد ذلك بيتاً لمؤتمر رؤساء الدول الاسيوية الإفريقية في مؤتمرهم الثاني بعد باندونج.

وإذ أسجل بالتقدير والوفاء القرار الذي اتخذته الحكومة السوفييتية بتقديم قرض جديد إلى الجمهورية العربية المتحدة بما مقداره 253 مليون روبل، يضاف إليها 40 مليون روبل سبق الاتفاق عليها حينما كان أخي المشير عبد الحكيم عامر في موسكو أخيراً، ثم تضاف إليها 8 ملايين من الروبلات متبقية من اتفاقية التعاون المعقود في نوفمبر سنة 1957، فإني أقول فوق ذلك أن هذه المساهمة سوف يكون لها أثرها العظيم في تحقيق الخطة الخمسية الجديدة، خصوصاً في مجال الصناعة، ولسوف يزداد تقديرنا لهذه المناسبة حينما نعرف أن الخطة الجديدة تتجه أصلاً وأساساً إلى تدعيم الصناعات الثقيلة في مصر "[14].

ولا نجد – مع الأسف– كتاباً يضم خطب خروشوف، ولكن بعض المراجع اوردت بعض المقتطفات..

ففي يوم 10 أيار 1964، يعرب خروشوف أمام اجتماع حاشد للشباب في القاهرة عن إعجابه بالشعب المصري، فيصفه " بالشعب المصري المحب للحرية "، والذي " انتفض على الاستغلال الرأسمالي بنجاح، كما أضاف:

" إن أمام شبيبة بلادكم مجالاً واسعاً للنشاط العملي، فالإشتراكية هي الطريق الوحيد الذي يتيح التخلص من الحرمان والتخلف، وضمان حياة حرة وسعيدة لجميع الكادحين خلال فترة قصيرة، وأتمنى لكم أيها المواطنون الشباب في الجمهورية العربية المتحدة الذين يبدأون في السير على طريق البناء الاشتراكي، تحقيق نجاحات كبرى على هذا الطريق "[15].

ولا بد من التنويه هنا عن سياسة عبد الناصر في هذه الفترة الغنية بالأحداث، فقد دعم ناصر الجمهوريين اليمنيين ضد الثورة المضادة التي قامت ضد ثورتهم والتي أيدها الغرب، كما أصبحت مصر ركناً قوياً من أركان حركة عدم الانحياز، ومنظمة الوحدة الإفريقية، كما قام ناصر بطرد الرأسمال الأجنبي، أوتمصيره، وتم تأميم ممتلكات

البرجوازية، وأعلن عن نسبة ال 50٪ للعمال والفلاحين في هيئات الحكم، وأقر الميثاق الوطني، والذي كان مواد كثيرة فيه قريبة من الأيديولوجية السوفييتية، لذا لا نستغرب ما قالته صحيفة البرافدا السوفييتية يوم 11أيار 1964، بدون الإشارة لمصر، وإن كان ذلك يفهم ضمناً:

"إن القوى الثورية الجبارة لعصرنا – وهي النظام الاشتراكي العالمي مع جبروتها المتنامي، وحركة البروليتاريا في دول الرأسمال، والحركة التحررية الوطنية – تندمج في سيل واحد، وتلحق ضربات حاسمة بنظام الامبريالية والاستعمار"[16].

ونضيف إلى ما سبق مواقف ناصر المعادية للغرب الاستعماري، وتوجهاته ومطامعه، فقد كانت واضحة للشرق والغرب، ويواكبه فيها، ويشجعه عليها كل القوى الوطنية في الوطن العربي.

وكان عبد الناصر خلال هذه الزيارة قد منح ضيفه خروتشوف قلادة النيل، وهو أعلى وسام في مصر، فرد خروتشوف بمنح ناصر والمشير عبد الحكيم عامر لقب بطل الاتحاد السوفييتي، ووسام لينين، ولم يسبق لزعيم من غير الشيوعيين أن نال هذا التكريم من قبل سوى الزعيم الجزائري أحمد بن بيلا عام 1963[17].

ناصر يقيّم زيارة خروتشوف

ويغادر خروتشوف مصر عائداً إلى بلاده في 25 أيار 1964، ولا تخبرنا المصادر بتفاصيل الاتفاقيات التي توصل الزعيمان إليها، والتي يذكرها هيكل بالعنوان فقط، مثل: خطط التصنيع، برامج التسليح، استكمال السد العالي، فيذكر أن ناصر استعرض – في لقاء له معه يوم مغادرة خروشوف– الخطوط العريضة لها، ثم انتقل ناصر إلى ما بعدها قائلاً:

"إن أهم ما حققناه في اعتقادي هو وضع العلاقات بين الاتحاد السوفييتي ومصر على أسس جديدة، بعد الخلافات التي كانت بيننا بسبب الشيوعيين، ونتيجة لما جرى في سوريا..

من الواضح أن السنوات القادمة خطرة بالنسبة لنا ولغيرنا من الدول المتحررة، فالعالم يتغير بسرعة، وأحوالنا فيه معقدة، وبالتأكيد فإن صداقة بلد قوي متقدم مثل الاتحاد السوفييتي يمكن أن تكون عنصر طمأنينة لنا، كان ذلك في بالي طول الوقت إثناء زيارة خروشوف قبل أي مطلب آخر"[18].

ويستعرض ناصر ثلاث لقطات لفتت انتباهه اثناء لقاءاته مع خروشوف، وملخصها:

1- حديث خروشوف عن استحالة حدوث حرب عالمية ثالثة لأنها ستدمر كل شيء في الدولتين العظميين.

2- إمكانية تطوير أساليب الري والزراعة في مصر.

3- أن الصين غير جادة في مواجهة أمريكا عسكرياً.

ويواصل ناصر حديثه أمام خروتشوف :

"إننا في حاجة لدراسة أعمق عن تأثير استحالة الحرب، لأنها سوف تفرض ضمنياً تحقيق تعايش سلمي بين القوتين الأعظم، يمكن أن تكون له تأثيرات كبيرة على حركة التحرر الوطني، لأن استحالة الحرب مجرد مقدمة يدخل منها أطراف القمة الدولية إلى ما بعدها، وما بعدها تعاون بينهم تتوثق أواصره في كل يوم، ونحن كدول غير منحازة كنا نخشى قيام الحرب، ونقول إن الأقوياء سوف يفرضون علينا حربهم، إذا تحاربوا فسوف تصل إلينا إشعاعات القنابل وأخطار تساقط الغبار النووي، ونحن الآن أمام حالة مستجدة، فلا يجب أن نتركهم يفرضون علينا سلامهم، ربما جاء هذا السلام على الأقل في جزء منه على حسابنا، سلام الأقوياء، كذلك في معظم الاحيان"[19].

ذكر ناصر أن أمام مصر عدة خطوط عريضة لا بد أن تتحرك عليها، وهي تدل على رؤيته العميقة الشاملة لخريطة العالم السياسية، وبالذات الشرق الأوسط، راسماً ملامح العصر الجديد، ويهمنا منها هنا الخطين الأول والثاني اللذين قال عنهما:

– الخط الأول: رسمناه بزيارة خروشوف، أعدنا علاقاتنا بالاتحاد السوفييتي إلى وضعها الطبيعي، وعلى أساس سليم يعرف فيه كل منا موقف الآخر بالضبط، لا بد لنا من صديق قوي في هذا العالم الخطر والمتغير".

وكان الخط الثاني مزدحماً بالأفكار والمهام فقال عنه:

– الخط الثاني: إننا نحتاج إلى أكثر من صديق، ولو كان في مقدورنا أن نحصل على صداقة الولايات المتحدة لكان ذلك واجباً علينا، لكني أعلم أنه مطلب مستحيل، على الأقل، نحن مطالبون ب "تثبيت" موقف الولايات المتحدة معنا حتى لا يسوء بأكثر مما هو ضروري، بيننا إسرائيل بطبيعة الحال، وبيننا مشكلة تناقضنا مع أصحابهم العرب، (يقصد أصحاب الولايات المتحدة)وهم في نفس الوقت أصحاب البترول، وبيننا ضغوطهم علينا بسبب سعينا للحصول على الطاقة النووية، ومحاولاتنا لتطوير صناعة الصواريخ والطائرات، وهم ليسوا مقتنعين بأن مثل هذه المجالات ضرورية لنا في عصر التكنولوجيا، على الأقل من زاوية المعرفة، وإعداد الخبراء، والتجربة العملية".

أما بقية الخطوط فخلاصتها:

– الخط الثالث: أن قوى التقدم في حركة القومية الغربية سند رئيسي لمصر.

– الخط الرابع: ضرورة تثبيت علاقات مصر مع القوى التقليدية في الوطن العربي.

– الخط الخامس: إمكانية تحسن علاقات مصر مع أوروبا الغربية، ويضع فرنسا ديغول في مقدمة المرشحين لذلك بعد استقلال الجزائر.

– الخط السادس: ضرورة اتساع العلاقات مع الدول غير المنحازة.

– الخط السابع: وجود رصيد واسع في دول آسيا وإفريقيا وبعض دول أمريكا اللاتينية.

– الخط الثامن: المواجهة مع إسرائيل.

– الخط التاسع: الجبهة الداخلية وخطط التنمية[20].

وفي ذلك إشارة واضحة إلى وصول الرئيسين إلى تفاهم مشترك حول المسائل التي تهم البلدين، ولعل أهمها المساعدات السوفييتية لمصر.

وكانت الحملة الدعائية لزيارة خروتشوف لمصر ترافق نشاطاته فيها، بتحقيقات واسعة عن الزيارة، وتعليقات متوالية، ليكون ذلك كله استعادة لقوة فقدها خروتشوف في تلك الاونة، ولما كان استقبال الزعيم الصيني شو إن لاي في القاهرة فاتراً، كان ذلك دعماً للسوفييت وتأكيداً على أنهم يدعمون التقدم نحو الاشتراكية وليس الصين، وليكون التقارب المصري الصيني انتصاراً للسوفييت على الصين[21].

ولما غادر خروتشوف مصر عائداً إلى بلاده، أعلن أن مصر تسير في طريق بناء الاشتراكية، ناظراً بذلك إلى المساعدات التي قدمها السوفييت والتي زادت التجربة الاشتراكية عمقاً، ومن ذلك القروض المالية، والمساعدة في بناء مجمع الصلب، ومصانع أخرى، إضافة إلى تزويد مصر بالسلاح [22].

رسالة من خروتشوف

ويتلقى ناصر في 3 تشرين أول 1964 رسالة من خروتشوف تقع في 17 صفحة، ولم يتح له قراءتها إلا في 12 تشرين أول، وذلك لانشغاله بأعمال مؤتمر الدول غير المنحازة المنعقد في القاهرة من 5 إلى 10 تشرين أول، ولا نجد في المصادر سوى صفحتين من هذه الرسالة [23].

يقول خروشوف:

عزيزي الرئيس:

لقد رأيت أن أوجه إليكم هذه الرسالة لألفت انتباهكم إلى واحدة من المشاكل التي تعتبر من وجهة نظرنا ذات أهمية حيوية للهدف الذي نسعى إليه جميعاً وهو تدعيم السلام، والمشكلة التي أقصدها هي مشكلة النزاعات الإقليمية بين الدول، ووسائل تسويتها.

وفي البداية فإني أود أن أشرح لكم السبب الذي يدعو حكومة الاتحاد السوفييتي إلى إثارة هذه المسالة في هذه اللحظة بالذات، ولماذا نوليها اعتباراً وأهمية خاصة.

إنني أرجو أن تتفقوا معي في أن هدفنا الآن قد اختلف، ففي مرحلة من المراحل كان هدفنا الحفاظ على السلام، وفي هذه المرحلة فإن هدفنا ينبغي أن يكون الحفاظ على الحياة نفسها، وهو هدف يجب أن تدعمه جهود كل الشعوب والأمم، بصرف النظر عن اختلاف القوميات والأجناس والآراء السياسية، والعقائد الدينية.

والحقيقة أننا إذا استطعنا أن نقيم بدقة حقائق العصر النووي، فإنه لا مفر أمام جميع ساسة العالم الذين يحملون مقاليد المسئولية، وأقدار العالم ومستقبله في أيديهم، من أن يتجمعوا على هدف بذل قصارى الجهد في تحقيق خطوات ثورية تؤدي إلى استبعاد وقوع حرب جديدة تماماً، سواء على المستوى الإقليمي أو ما هو أوسع منه.

لقد حدثت تغييرات عظيمة على المسرح العالمي، وكلها تدعونا إلى تجربة وسائل أخرى في حل المشاكل الدولية، بما فيها النزاعات الإقليمية، فلم يعد هناك نزاع يمكن تسويته بالقوة للحصول على مزايا لطرف على حساب طرف آخر، ولهذا، فإن الحكومة السوفييتية تطرح عليكم أهمية التفكير في عقد اتفاق دولي (أو معاهدة) تؤكد فيه الدول نبذها استعمال القوة في حل النزاعات، وفي رأينا أن هذا الاتفاق (أو المعاهدة) ينبغي أن يحتوي على النقط الرئيسية التالية:

أولاً: تعهد من جانب كل الدول بعدم اللجوء إلى القوة لحل النزاعات.

ثانياً: اعتراف بحقيقة أن أراضي الدول لا يجب أن تكون – ولو بصورة مؤقتة– هدفاً لغزو أو هجوم أو احتلال عسكري، أو أي إجراء قسري مهما كانت دواعيه السياسية أو الاقتصادية او الاستراتيجية أو الحدودية، أو أية دواع ذات طبيعة أخرى.

ثالثاً: إعلان صريح بأن الخلافات بين الدول على النظم الاجتماعية، او رفض الاعتراف، او انقطاع العلاقات الدبلوماسية، لا يمكن أن تكون سبباً لانتهاك حرمة أي دولة أخرى.

رابعاً: تعهد قاطع بحل جميع النزاعات الإقليمية بالوسائل السلمية، مثل المفاوضات أو بوسائل التوفيق والتحكيم، أو بأية وسائل أخرى تختارها الأطراف المعنية طبقاً لميثاق الأمم المتحدة[24].

وقبل أن نورد تعليق عبد الناصر على الرسالة، فإن السبب الذي حدا بخروشوف إلى إرسالها في هذا الوقت يبدو غامضاً، وكأن القارىء يحس أن خروشوف ينهى ناصر – ومعه مصر – عن محاولة إثارة الحروب أو الخلافات مع إسرائيل، مما قد يورط السوفييت معهم في حروب هم – ومصر أيضاً – ليسوا مستعدين لها.

وقد استرعى انتباه ناصر قول خروشوف: "إن هدفنا في مرحلة سابقة كان حفظ السلام، وهدفنا في العصر النووي أصبح حفظ الحياة"، والتي كانت واضحة القصد والمضمون، لكن ما أثار تساؤله العبارات التالية عن النزاعات الاقليمية، والتي كان قد تناولها في مباحثاته مع خروشوف في أيار الماضي، فكان رد ناصر لا يخلو من حصافة، وقراءة للمستقبل:

"أنه يوافق على مخاطر استعمال القوة لحل النزاعات الاقليمية في ظل الموازين النووية المستجدة، لكنه مع ذلك يرى أن هناك ضرورة لا مفر منها اذا أريد تحقيق هذا الهدف، وهي ضرورة بذل جهد دولي مكثف لحل النزاعات، خصوصاً تلك المستعصية على الحل بين الاطراف مباشرة مثل الصراع العربي الاسرائيلي، فمثل هذه الصراعات لا يمكن أن تتجمد أو تتوقف مضاعفاتها بمجرد التوقيع على اتفاق (أو معاهدة) ينبذ استعمال القوة[25].

وهذا ما كان لاحقاً وحتى اليوم، فالصراع مع إسرائيل لم يتوقف، ولم يتجمد لا باتفاقيات ولا بمعاهدات.

ولا يفيدنا كثيراً رد خروشوف على رد ناصر عندما قال:

"أنه كان يتحدث عن النزاعات الإقليمية بطريقة عامة، ولم يكن يقصد الصراع العربي الإسرائيلي" ليرد ناصر:

"أنه لا يستطيع أن يتحدث عن النزاعات الإقليمية بطريقة مجردة، فهو عندما يسمع تعبير النزاعات الإقليمية فإن ذهنه ينصرف حتى بطريقة لا إرادية إلى الصراع العربي الإسرائيلي، وهو لا يزال مقتنعاً بأن العدل هو المقدمة التي لا بديل عنها لتحقيق السلام"[26].

مراجع

الباب الثالث

الفصل الأول

(1)فريدمان، السوفييت والشرق الأوسط، ص 18.

(2) م ن، ص 7.

(3) م ن، ص 7.

(4) م ن، ص 10.

(5) م ن، ص 10-11.

(6) م ن، ص 9-13.

(7) هيكل، الزلزال السوفييتي، ص 119-120.

(8)م ن، ص 122.

(9) والتر لاكور، الاتحاد السوفييتي والشرق الأوسط، ص 122.

(10) م ن ص 189.

(11) م ن، ص 189.

(12) م ن، ص 188.

(13) م ن، ص 188.

(14) م ن، ص 191.

(15) أحمد حمروش، مجتمع عبد الناصر، ص 64.

(16) م ن، ص 64.

(17) محمد عودة وآخران، قصة السوفييت مع مصر، ص 51-52.

(18) م ن، ص 52.

(19) أحمد حمروش، م س، ص 60-61.

(20) م ن، ص 60.

(21) م ن، 62.

(22) م ن، ص 63.

(23) م ن، ص 53.

(24) م ن، ص 118.

(25) م ن ن 118-119.

(26) ناصر، خطاباته، ج 2، ص 192.

(27) أحمد حمروش، م س، ص 65.

(28) م ن، ص 66.

(29) ناصر، خطاباته، ج 1، ص 190.

(30) م ن، ص 237.

(31) م ن، ص 289.

(32) م ن، ص 306.

(33) م ن، ص 374.

(34) محمد عودة وآخران، م سن ص 54.

(35) والتر لاكور، م س، 224.

(36) ناصر، خطاباته، ج 1، ص 297.

(37) فاسلييف، روسيا في الشرقين الأدنى والأوسط، ص 57,

(38) محمود رياض، مذكراته، ج 2، ص 179.

(39) م ن، ص 180.

(40) م ن، ص م ن، ص 180.

(41) اسكندر أحمدوف، الاتحاد السوفييتي والعالم العربي، ص74–75.

(42) والتر لاكور، م س، ص 268–269.

(43) م ن، ص 270.

(44) أحمد عطية، القاموس السياسي، ص 475–476.

(45) هيكل، ملفات السويس، ص 319–320.

(46) أحمد عطية، م س، ص 476.

(47) ناصر، خطاباته، ج 2، ص 121.

(48) م ن، ص 188.

(49) م ن، ص 189.

(50) م ن، ص 194.

(51) م ن، ص 218.

الفصل الثاني

(1) مختار مرزاق، حركة عدم الانحياز في العلاقات الدولية، ص 19

(2) م ن، ص 20–22.

(3) م ن، ص 24–25.

(4) د،محمد عزيز شكري، الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية، ص 44–45.

(5) م ن، ص 75.

(6)م ن، 73

(7) د. عبد العظيم رمضان، مصر في عهد السادات، ص 472.

(8) عبد الرحمن الشرقاوي، باندونج، ص 29.

(9) ناتنج، ناصر، ص 132.

(10) عبد الرحمن الشرقاوي، م س، ص 29.

(11) لاكور، م س، ص 244-245.

(12) د.محمد عزيز شكري، م س، ص 112-113.

(13) مختار مرزاق، م س، ص 131.

(14) هيكل، عبد الناصر والعالم، ص 77.

(15) عبد الرحمن الشرقاوي، م س، ص 37.

(16) د.محمد عزيز شكري، م س، ص 109.

(17) مختار مرزاق، م س، ص 46.

(18) لاكور، م س، ض 244.

(19) محمد عودة وآخران، م س، ص 146.

(20) م ن، ص 146.

(21) كولن باون وبيتر موني، الحرب الباردة، ص 218.

(22) ناصر، خطاباته، ج 2، ص 65.

(23) كولن باون، م س، ص 218.

(24) م ن، ص 219.

(25) جورج كتن، العلاقات الروسية العربية، ص 42.

(26) هيكل، م س، ص 78.

(27) أحمد حمروش، م س، ص 69.

(28) هيكل، م س، ص 78.

(29) هيكل، ملفات السويس، ص 352.

(30) م ن، ص 353.

(31) م ن، ص 353.

(32) م ن، ص 354.

الفصل الثالث

(1) أحمد حمروش، مجتمع عبد الناصر، ص 70.

(2) لاكور، ص 246.

(3) م ن، ص 246– 247.

(4) م ن، ص 247.

(5) فؤاد مطر ،بصراحة عن عبد الناصر، ص 84.

(6) هيكل، قصة السويس، ص 29.

(7) ناتنج، ناصر، ص 136.

(8) م ن، ص 84.

(9) م ن، ص 84.

(10) هيكل، سنوات الغليان، ص 177.

(11) م ن، ص 178.

(12) م ن، ص 178.

(13)هيكل، ملفات السويس، ص 361.

(14) أحمد حمروش، م س، ص 75–76.

(15) ناصر، خطاباته، ج 2، ص 196.

(16) أحمد حمروش، م س، ص 59.

(17) ناصر، خطاباته، ج 2، ص 209

(18) م ن، ص 214–215.

(19) أحمد حمروش، م س، ص 78.

(20) م ن، ص 78.

(21) لاكور، م س، ص 242.

(22) ناصر، م س، ص 207.

(23) أحمد حمروش، م س، ص 79.

(24) ناصر، م س، ص 203–204.

(25) عبد الله إمام، الناصرية، ص 450–451.

(26)د.عبد الرحيم مصطفى، الولايات المتحدة والمشرق العربي، ص 132.

(27) جورج كتن، م س، ص 43.

(28) أحمد حمروش، خريف عبد الناصر، ص 36.

(29) مردخاي بارأون، حرب سيناء، ص 22–23.

(30) م ن، ص 23.

(31) أحمد حمروش، م س، ص 37.

(32) م ن، ص 37.

(33) موشيه ديان، ديان يعترف، ص 113.

(34) مردخاي بارأون، م س، ص 27.

(35) موشيه ديان، م س، ص 113–114.

(36) أحمد حمروش، م س، ص 37.

(37) م ن، ص 37.

(38) د.فؤاد مرسي، العلاقات المصرية السوفييتية 1943-1956، ص 186-187.

(39) م ن، ص 188.

(40) م ن، ص 188.

(41) م ن، ص 188-189.

(42) م ن، ص 189.

(43) م ن، ص 189.

(44) م ن، ص 189-190.

(45) د.رءوف عباس، ثورة يوليو إيجابياتها وسلبياتها، ص 156-161.

(46) م ن، 161-166.

(47) د.لطيفة سالم، حرب السويس، ص 85.

(48) م ن، ص 86

(49) م ن، ص 86.

(50) م ن، ص 86.

(51) ناصر، م س، ص 254.

(52) م ن، ص 255-256.

(53) د.لطيفة سالم، م س، ص 87.

(54) م ن، ص 88.

(55) م ن، ص 89.

(56) لاكور، م س، ص 244.

(57) أحمد حمروش، مجتمع عبد الناصر، ص 74.

(58) م ن، ص 75.

(59) م ن، ص 77.

(60) أحمد عطية، م س، ص 1065.

(61) أحمد حمروش، م س، ص 75.

(62) مردخاي بارأون، م س، ص 33.

الفصل الرابع

(1)ناصر، م س، ص 375.

(2) م ن، ص 281-282.

(3) علاء جمعة وآخرون، ناصر رمز الحلم العربي، ص 211-212.

(4) أمين هويدي، حروب عبد الناصر، ص 75.

(5) أحمد العلمي، حرب السويس، ص 85.

(6) دونالديف، حرب السويس، ص 519.

(7) مجلة الهلال، عدد كانون أول 2006، ص 156.

(8) هيكل، قصة السويس، ص 232-235.

(9) م ن، ص 234.

(10) هيكل، سنوات الغليان، ص 59.

(11) م ن، ص 59.

(12) هيكل، قصة السويس، ص 253.

(13) أحمد العلمي، م س، ص 162.

(14) اسكندر أحمدوف، م س، ص 69.

(15) نواف نصار، حرب السويس، ص 301.

(16) أنتوني إيدن، مذكراته، ص 417.

(17) مردخاي بارأون، م س، 125.

(18) ناتنج، م س، ص 209.

(19)د.رؤوف عباس، حرب السويس بعد أربعين عاماً، ص 278

(20) مردخاي برأون، م س، ص 125.

(21) هيكل، قصة السويس، ص 259.

(22) م ن، ص 259.

(23) م ن، ص 260.

(24) م ن، ص 259.

(25) م ن، ص 257.

(26) صلاح نصر، ثورة يوليو بين المسير والمصير، ص 281.

(27) هيكل. ملفات السويس، ص 558.

(28) م ن، ص 559 - 560.

(29) هيكل، ناصر والعالم، ص 206.

(30) محمد عودة وآخران م س، ص 125.

(31) صلاح بسيوني، مصر وأزمة السويس،ص 221.

(32) عبد الحميد أبو بكر، قناة السويس والأيام التي هزت الدنيا، ص 242.

(33) علاء جمعة وآخرون، م س، ص 127.

(34) سعد الدين إبراهيم وآخرون، مصر والعروبة وثورة يوليو، ص 325.

(35) ناتنج، م س، ص 232.

(36) هيكل، سنوات الغليان، ص 199.

(37) م ن، ص 199.

(38) محمد عودة وآخران، ص 149.

(39) م ن، ص 150.

الفصل الخامس

(1)لاكور، م س، ص 287.

(2) م ن، 293.

(3) من، ص 294.

(4) م ن، ص 295.

(5) م ن، ص 288.

(6) م ن، ص 296–297.

(7) م ن، ص 297.

(8) م ن، ص 298.

(9) م ن، ص 288.

(10) محمد عودة وآخران، م س، ص 35.

(11) م ن، ص 35–36.

(12) م ن، 37.

(13) م ن، ص 44.

(14) م ن، ص 45.

(15) م ن، ص 87.

(16) م ن، ص 87–88.

(17) م ن، ص 88.

(18) م ن، ص 89.

(19) م ن، ص 91.

(20) ناصر، خطاباته، ج 2، ص 369– 370.

(21) جوجل.

(22) هيكل، سنوات الغليان، ص 223.

(23) م ن، ص 224.

(24) م ن، ص 225–227.

(25) م ن، ص 227.

(26) م ن، ص 228.

(27) أمين سعيد، العدوان، ص 342–343.

(28) هيكل، سنوات الغليان، ص 231–234.

(29) ناصر، م س، ص 622–629.

(30) جوجل.

(31) م ن.

الفصل السادس

(1) عصمت سيف الدولة وآخرون، عبد الناصر وما بعد، ص 249.

(2) م ن، ص 249.

(3) م ن، ص 350.

(4) م ن، ص 250.

(5) م ن، ص 250.

(6) لاكور، م س، ص 270.

(7) أحمد حمروش، مجتمع عبد الناصر، ص 178.

(8) لاكور، م س، ص 369.

(9) أحمد حمروش، م س، ص 179.

(10) لاكور، م س، ص 369.

(11) م ن، ص 324.

(12) م ن، ص 325.

(13) عصمت سيف الدولة وآخرون، م س، ص 251.

(14) لاكور، م س، ص 269.

(15) ناصر، خطاباته، ج 3، القسم الأول، ص 339.

(16) لاكور، م س، ص 368.

(17) أحمد حمروش، م س، ص 181.

(18) م ن، ص 181.

(19) م ن، ص 181.

(20) هيكل، عبد الناصر والعالم، ص 195-196.

(21) لاكور، م س، ص 370.

(22) م ن، ص 370.

(23) ناصر، م س، ص 493-494.

(24) م ن، ص 494-496.

(25) م ن، ص 883.

(26) أحمد حمروش، م س، ص 181.

(27) نانتج، م س، ص 325.

(28) أحمد حمروش، م س، ص 182.

(29) هيكل، م س، ص 198.

(30) م ن، ص 198.

(31) أحمد حمروش، م س، ص 183.

(32) هيكل، م س، ص 198–204.

(33) م ن، ص 204–207.

(34) هيكل، سنوات الغليان، ص 881– 890.

(35) ناتنج، م س، ص 324.

(36) هيكل، عبد الناصر والعالم، ص 196–197.

(37) م ن، ص 208.

(38) أحمد حمروش، م س، ص 184،

(39) م ن، ص 184.

(40) محمد عودة وآخزان، م س، ص 60–61.

(41) م ن، ص 61.

(42) هيكل، م س، ص 210.

(43) ناتنج، م س، ص 324.

(44) هيكل، م س، ص 210 –211.

(45) ناتنج، م س، ص 325 ,

(46) م ن، ص 325.

(47) فريدمان، السوفييت والشرق الأوسط، ص 20.

(48) هيكل، م س، ص 211.

(49) أحمد عطية، م س، ص 779.

(50) هيلين دانكوس، السياسة السوفييتية في الشرق الأوسط، م س، ص 110.

الفصل السابع

(1) هيكل، عبد الناصر والعالم، ص 215.

(2) ناصر، خطاباته (الطبعة المصرية)، القسم الرابع، ص 580.

(3) م ن، ص 580 –584.

(4) م ن، ص 585.

(5) م ن، ص 585- 586.

(6) م ن، ص 587.

(7) م ن، ص 588–592.

(8) م ن، ص 589.

(9) م ن، ص 589.

(10) هيكل، م س، ص 217.

(11) بسام العسلي، خروشوف، ص 291–294.

(12) هيكل، م س، ص 217.

(13) ناصر، م س، ص 594–595.

(14) م ن، ص 602–603.

(15) فاسلييف، م س، ص 87.

(16) م ن، ص 87.

(17) م ن، ص 86.

(18) هيكل، الانفجار، ص 63.

(19) م ن،ص 65.

(20) م ن، ص 66.

(21) هيلين دانكوس، م س، ص 111.

(22) عصمت سيف الدولة وآخرون، م س، ص 255.

(23) هيكل، م س، ص 68.

(24) م ن، ص 68-69.

(25) م ن، ص 70.

(26) م ن ص 70.

الباب الرابع

العلاقات بين البلدين

1964 -1967

الفصل الأول

تنحية خروشوف

وفي يوم الثلاثاء 13 تشرين أول 1964، فاجأ السفير اليوغسلافي عبد الناصر بزيارة بدون موعد حاملاً رسالة عاجلة من الرئيس اليوغسلافي تيتو، وكانت الفقرة الأولى من الرسالة تقول:

"لقد بلغني الآن – الساعة التاسعة في بلغراد- أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي اجتمعت بعد ظهر اليوم، واتخذت قراراً بإعفاء نيكيتا خروشوف من جميع مناصبه، إن الاتهام الذي وجه إليه من جانب اللجنة المركزية هو اتباع سياسات خاطئة"[1].

ولا تحمل رسالة تيتو أي تبرير لهذه الإقالة.

وفي صباح اليوم التالي 14 تشرين أول لم يذكر راديو موسكو خروشوف بكلمة واحدة، ولكن في يوم 15 تشرين أول تذيع وكالة تاس النبأ في أربعة سطور قائلة:

عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي يوم 13 أكتوبر، وقد قبلت اللجنة المركزية طلب نيكيتا خروشوف بإعفائه من واجباته كسكرتير أول للجنة المركزية، وكعضو في مجلس الرئاسة، وكرئيس لمجلس وزراء الاتحاد السوفييتي، وذلك بسبب تقدمه في السن، وضعف صحته"[2].

وهي أسباب لا يصدقها كل من عرف خروشوف، وعرف طبيعة السياسة السوفييتية، لذا فإن إذاعة الخبر بهذه الصيغة لا يخلو من استبساط للعقول!

وفي اليوم التالي أذاعت اللجنة المركزية انتخابها ليونيد بريجنيف سكرتيراً أول للحزب (أي زعيماً للحزب)، واختيار مجلس السوفييت الأعلى إليكسي كوسيجين رئيساً للوزراء.

ولكن اللجنة المركزية كانت أكثر دقة وشجاعة ووضوحاً في يوم 17 تشرين أول، فقد جاء بيانها عن إعفاء خروشوف لا غموض فيه، وقد ورد فيه:

"إن الحزب – باتحاده بتوجيه النشاط الإنشائي للجماهير نحو الهدف العظيم – يسترشد ببوصلة دقيقة هي نظرية ماركس ولينين القوية، فهي تحلل بعمق العمليات المتشابكة للحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية، وتعمل على إيجاد الحلول الصحيحة لها على هذا الأساس.

إن الحزب اللينيني عدو للذاتية، أي انفراد الإنسان بالعمل ثم التباهي بذلك، وعدو للانسياق مع التيار في عمليات البناء الشيوعي، وعدو للمشروعات التي توضع على عجل، وبدون دراسة، وعدو للنتائج غير الناضجة، والقرارات العاجلة، والتصرفات التي تتجاهل الحقائق، والتباهي والتفاخر، وشن الحملات الكلامية، وحب إصدار الأوامر، وعدم الرغبة في مراعاة الحقائق والإنجازات العلمية، وتجاهل التجارب العلمية، كل هذا يتعارض مع مبادىء الحزب.

إن بناء الشيوعية عملية حية وإنشائية، لا تحتمل أساليب من يجلسون على المقاعد المريحة، ولا تقبل إلا القيادة الجماعية، إن الزعامة الجماعية من أهم المبادىء، فهي سلاح جيد ثبتت صلاحيته، وتعد أعظم ما يملكه حزبنا من الناحية السياسية"[3].

وهكذا، لم يترك هذا البيان أي فضيلة لخروشوف، بل بالغ في تعداد ذنوبه ومثالبه إلى درجة كادت أن تشطب كل ميزة للرجل!

ولكن ما ورد في بيان الإعفاء لا يعني أنه حمل كل الأسباب التي تواردت لاحقاً لإسقاط خروشوف...

وكان عبد الناصر يريد أن يعرف أكثر مما نشر وأعلن عن إعفاء صديقه، فهو يرى أن التفاهم بينهما قد:

1- وضع العلاقات بين البلدين على أساس واضح يعترف بوجود أسباب للاختلاف (وقد ورد شرح ذلك في الفصول السابقة).

2- أن التفاهم الحاصل بين البلدين أوجد "توازناً مطلوباً في أزمنة متغيرة"[4]، وهذا تعبير حكيم منتقى يحتاج لشرح طويل..

وفي الوقت الذي كان فيه العالم يراقب ويترقب سياسات الحكام السوفييت الجدد، كان ناصر أشد الساسة قلقاً، فقد كان يخشى أن يزول التفاهم الذي توصل إليه – بعد جهد كبير – مع خروشوف، فقال معلقاً:

"أخشى أنه سوف يكون علينا أن نبدأ كل شيء من جديد"[5].

وباختصار شديد، وجدت مصر في خروتشوف، واندفاعه وحماسه لمصر، ومساعدة مصر، ما أوجد التوازن بينها وبين أعدائها، وبالتالي لم تعد بحاجة لسؤال الآخرين العون والمساعدة.

وتتواتر على القاهرة التفسيرات والتأويلات عن أسباب إعفاء خروتشوف وسقوطه، ومن ذلك:

1- أن نصيب مصر من المساعدات السوفييتية كان كبيراً بالمقارنة مع ما نالته الدول الاشتراكية، مع أن مصر ليست من الدول المنحازة، وتعارض الشيوعية.

2- أن خروتشوف قد أخطأ في منح عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وسام "بطل الاتحاد السوفييتي" بينما لمصر مواقفها من الشيوعية والشيوعيين[6].

ولكن ما لا يختلف عليه كثيرون أن خروتشوف قد ترك لخلفائه إرثاً ايجابياً في الشرق الأوسط، فقد أخذت الفكرة الاشتراكية تتقدم في بغداد والقاهرة ودمشق، مع استبعاد الشيوعيين من السلطة، واتجه حكام الدول الثلاث لسياسة التقارب مع موسكو، وطلب المزيد من مساعداتها[7].

وإذا ما أردنا أن نلخص إنجازات البلدين مصر والاتحاد السوفييتي بالتعاون بينهما في فترة حكم خروتشوف، نجد ما يلي:

1- زاد الحجم التجاري بين البلدين عام 1965 عشر مرات عما كان عليه عام 1953.

2- شغل الاتحاد السوفييتي منذ عام 1956-1957 المرتبة الأولى في تبادل مصر التجاري مع دول العالم.

3- كان الاتحاد السوفييتي المشتري الرئيس للقطن المصري.

4- وقع البلدان في 29 كانون ثان 1958 اتفاقية للتعاون الاقتصادي والفني نصت على تقديم السوفييت المعونة لبناء ما يزيد على 120 مشروعاً صناعياً وغير صناعي.

5- بالمساعدة السوفييتية لتوسيعه وتطويره أصبح مجمع الحديد والصلب في حلوان ينتج منذ السبعينيات 5،1 مليون طن من الصلب سنوياً.

6- كان يشيد بالمساعدة السوفييتية مصنع بناء الآلات في حلوان، ومصنع المواد العضوية المضادة للميكروبات والمستحضرات الطبية في أبي زعبل. ومصنعين لتكرير النفط، ودار لبناء السفن في الاسكندرية.

7- تم توقيع اتفاقية في 27 كانون أول 1958 يقدم بموجبها السوفييت مساعدات اقتصادية وفنية لبناء المرحلة الأولى من السد العالي، وفي آب 1960 يتم إنجاز المرحلة الثانية [8].

وفي 23 تشرين أول 1965 تسلم عبد الناصر رسالة من القيادة السوفييتية الجديدة تطمئنه بان السياسة السوفييتية إزاء مصر لم تشهد تغييراً، وأن هذه السياسة ستتواصل طبقاً لروح التعايش السلمي، وتلا ذلك تبادل وفدين رفيعي المقام [9].

مزايا عهد خروشوف:

كانت العلاقات السوفييتية العربية أفضل بكثير مما كانت عليه حين تولى خروشوف السلطة عام 1956، ومن علامات ذلك:

1- قدم السوفييت في عهده المساعدات العسكرية والإقتصادية لمصر وسوريا والجزائر والسودان وتونس والمغرب واليمن والعراق، وأقاموا علاقات دبلوماسية مع ليبيا والأردن.

2- فصل السوفييت في عهده بين علاقاتهم مع الدول العربية وبين علاقات تلك الدول مع الأحزاب الشيوعية فيها لدرجة أنها حظرت نشاط هذا الأحزاب فيها، وقد طلب السوفييت من الحزب الشيوعي المصري حل نفسه والانضمام للاتحاد الاشتراكي العربي.

3- هدد السوفييت في عهده عام 1957بشن حرب ضد تركيا إذا ما هاجمت تركيا سوريا، وكان لهذا الموقف دوره في حل الأزمة بين البلدين [10].

عامر يزور الاتحاد السوفييتي

وفي 6 تشرين ثان 1964،(أي بعد 23 يوماً من تنحية خروتشوف) وعلى متن طائرة سوفييتية جاءت لنقله والوفد المصاحب له الذي ضم المؤرخ محمد حسنين هيكل، يصل المشير عبد الحكيم عامر إلى موسكو ملبياً دعوة السوفييت لحضور احتفالاتهم بالعيد السابع والأربعين للثورة السوفييتية، وتكون الزيارة فرصة لاختبار القيادة السوفييتية الجديدة المكونة من الثلاثي الرئيس بريجنيف ورئيس الوزراء كوسيجن وبدجورني، ومعرفة موقفها من العلاقات مع مصر بعد تنحية الصديق خروشوف...

ويلتقي عامر ببريجنيف الذي أعطاه إشارة مبكرة على حسن النوايا، قائلاً له:

"إن الرفيق كوسيجين سوف يراك بعد الاحتفالات مباشرة، ونرجو أن يكون حديثه معك مفيداً، وأهم شيء حتى ذلك الوقت أن لا تصدقوا دعايات المستعمرين الذين يريدون أن يبذروا الشكوك بيننا"، ثم أضاف:

"إننا نقترح أن يتم لقاء بينك وبين الرفيق "أوستينوف" نائب رئيس الوزراء حتى تمهدوا مسائل البحث التي ستطرحونها مع الرفيق كوسيجين"[11].

ولما التقى عامر بأوستينوف لم يضع الكثير من الوقت، فتناول الموضوع الأهم مباشرة، فقال:

"الحقيقة أننا نتعامل معكم كأصدقاء، ولا نسمح لأنفسنا بالتدخل في شئونكم الداخلية، ولكن دعايات الغرب انتهزت فرصة تغيير القيادة، وشنت حملة من حرب الأعصاب تريد إقناعنا بأنكم على وشك تغيير سياستكم معنا، وقد تلقيت تأكيدات من لحظة وصولي إلى موسكو بأن هذا غير صحيح، ولكننا أردنا أن نتلقى التأكيدات من أعلى المستويات هنا، خصوصاً وأن الرئيس عبد الناصر سوف يلقي خطاباً هاماً في مجلس الأمة يوم 12 نوفمبر، وبالطبع سوف يتعرض في خطابه للعلاقات مع الاتحاد السوفيتي، وهو يحرص على أن يكون دقيقاً فيما يقوله للشعب، ولذلك كان ضرورياً أن نفتح الموضوع معكم، وإلا ما كنا فتحناه".

فرد أوستينوف:

"نرجوكم أن تعرفوا أن السياسة في الاتحاد السوفييتي ليست مبنية على أفراد، بل على الوثائق الحزبية، ونحن لدينا برنامجان: برنامج لبناء المجتمع السوفييتي، وبرنامج لإقامة الصداقات مع الدول الأخرى، ونحن لسنا مثل الاستعماريين نعمل لمصالح ذاتية، ولكننا نؤمن بالصداقة بين الشعوب، ونعتبرها أهم ضرورات السلام.

إن رئاسة اللجنة المركزية كلفتني أن أبلغك أننا نقدر تقديراً عالياً علاقتنا مع مصر، وأيضاً أننا نسعى نحو تقويتها، وسوف يقابلك أي مسئول تطلب أن تراه في القيادة لكي يكرر لك هذا التأكيد، وسوف أكون عملياً معك، فأطلب منك أن تطرح أية مشاكل تراها في علاقتنا، وسوف ترى أننا سوف نبادر إلى حلها على الفور.

وحسب معلوماتي، فإن الاتفاقات الاقتصادية تسير في طريقها، وأنتم عليكم أقساط متأخرة حجمها 39 مليون روبل، ونحن ندرس تأخير مواعيد سدادها بناء على طلبكم بسبب أعباء اليمن.

بالنسبة لاتفاقيات السلاح، فهمت أن لديك قائمة طلبات جديدة، يظهر أنها قائمة طويلة، وعندما سمعت عنها قلت: إن أصدقاءنا المصرين يريدون - كما يظهر- اختبار نوايانا من جديد[12].

وكانت قائمة عامر طويلة بالفعل..

كان لديه ست صفحات: واحدة للصواريخ، والثانية للقوات الجوية، والثالثة للقوات البرية، والرابعة للمدرعات، وأخرى للبحرية، وأخرى لمعدات الاتصال والمواصلات.

وعلق أوستينوف بأنها قائمة ثقيلة تحتاج إلى البحث الطويل من الساسة والعسكريين، ولكنه نفى أن يكون هناك أية خلافات سواء في المجالات العسكرية أو الاقتصادية.

فرد عامر بما معناه أن هناك مشكلة تواجهها مصر مع الاتحاد السوفييتي، وهي أن أسلحة الغرب معروفة لأنهم ينشرون عنها، ولوجود كتالوجات بها، أما السوفييت فلا يدلون بشيء عما لديهم، وأن مصر لا تطمع بالحصول على ما هو سري لدى السوفييت، فرد أستينوف بأن السوفييت يقدمون لمصر كل شيء، ووعد بأن تتاح لعامر مقابلة كوسيجين بهذا الخصوص[13].

ويطمئن كوسيجين ضيفه عامر بأن سياسة التعامل مع مصر خط استراتيجي لا يتغير بتغير الحكام، ولكنه حذره من الذين يصطادون في الماء العكر قاصدين إثارة الشكوك بين البلدين، ولم ينس كوسيجين أن يهاجم خروتشوف ودور أسرته في الحكم، واتباعها مظاهر المحسوبية والاستغلال، وأشار إلى سلوكياته غير الحضارية، ونزوعه إلى إهانة زملائه علناً في اجتماعات الحزب والحكومة.

ولما عاد عامر إلى مصر بعد يومين، أخبر ناصر بما سمع، فكان تعليق ناصر أقرب إلى فهم حقائق الأمور، فقال:

"إن هذا معناه ببساطة أن التجربة السوفييتية لم تكن على صواب قط في أي مرحلة من مراحلها، ومنذ بدأت الثورة.

ستالين حكم قرابة خمسة وعشرين سنة، ثم ظهر في تقرير خروشوف إلى المؤتمر العشرين أن حكم ستالين كان سلسلة من الجرائم المستمرة.

والقيادة الجماعية التي جاءت بعد وفاة ستالين برئاسة مالنكوف استمرت سنتين، ثم جرى الانقلاب عليها، وقيل أنها كانت قيادة عاجزة.

ثم جاء خروشوف من سنة 1955 إلى سنة 1964 - أي تسع سنوات - وها نحن نسمع أنها كانت فترة من الأخطاء المحزنة"[14].

بمعنى أن أحداً لم يكن راضياً عن سياسة أحد في القيادات السوفييتية المتعاقبة، لأنها لم تكن موحدة في توجهاتها وأساليبها في الحكم، وحتى في مفهومها للنظرية الشيوعية كانت القيادات مختلفة، والسياسات متباينة...

حتى قمحنا كان سوفييتياً..!

وعن ضروب الدعم السوفييتي لمصر ومصداقيته، كانت حكايا القمح..

في عام 1965 كان الاتحاد السوفييتي بحاجة ل 16 مليون طن من الحبوب، 9 ملايين منها من القمح، وكانت حاجة مصر ثلث استهلاكها منه، لذا لم يكن للسوفييت ما يستطيعون تقديمه، لا مساعدة ولا بيعاً، وكان الأميركيون يرقبون هذا العوز المصري،

ويحاولون استغلاله، وفي لقائه مع وزير الخارجية الأميركي أحس ناصر أن عامل القمح سيأخذ دوره في حلبة الصراع قريباً.

ويهتبل ناصر فرصة زيارة وزير الكهرباء السوفييتي نوفيكوف لمصر، لتفقد مشروع السد العالي، فطلب ناصر جزءاً من ذلك القمح الذي استورده السوفييت لشعبهم، فلم يتوان السوفييت عن إصدار اوامرهم لبواخرهم المحملة بالقمح والمتجهة لميناء أوديسا السوفييتي بأن تغير مسارها وتتجه بحمولتها من القمح لتفريغها في ميناء الاسكنرية[15].

ولا أظن عاقلاً يقول أنه قد بقي شيء لدى السوفييت ولم يقدموه لنا، سواء بطلبه منهم أو بدون ذلك..!

ناصر يزور الاتحاد السوفييتي آب 1965

ويلاحظ ازدياد وتيرة الاتصالات بين موسكو والقاهرة في الفترة التالية مباشرة لتنحية خروشوف، فبعد زيارة عامر لموسكو في تشرين ثان 1964، زارها عبد الناصر زيارة قصيرة من 27 آب–1 أيلول 1965، ملبياً الدعوة السوفييتية، ليجد لغة مشتركة مع القيادة السوفييتية الجديدة، وكان الطرفان يسعيان لإقامة علاقات شخصية بينهما[16].

وصارت مصر تحتل المركز الأول بعد الدول الاشتراكية في سلم العلاقات السوفييتية الخارجية، وحلت مصر مشكلة خلافها مع الحزب الشيوعي المصري بأن قام الحزب بحل نفسه، وانضم أعضاؤه للاتحاد الاشتراكي العربي[17].

ويتعمد السوفييت أن تكون النقاشات بين القيادتين اثناء رحلات الصيد والاستجمام، لتكون الفرصة كبيرة لتوثيق العلاقات بينهما[18].

ولعل هذا أسلوب مجرب اقترحه علماء النفس السوفييت على رؤسائهم، بدلاً من الجلوس على الطاولات، والاستغراق في مناقشات جدية قد يسودها القلق والتوتر فلا تكون النتائج كما هو مراد.

وبعد تعاقب القادة السوفييت في الهجوم على خروشوف، وانتقاد سياسته، يخبر هؤلاء القادة عبد الناصر أن الحكومة والحزب قد وافقا على ما طلبه عامر من أسلحة في

زيارته الأخيرة لموسكو، كما أخبر ناصر بتنازل الحكومة السوفيتية عن مبلغ 500 مليون روبل من ديون مصر للاتحاد السوفييتي [19]، وإذا علمنا ان الروبل كان يعادل الدولار في ذلك الوقت، أدركنا حجم هذه المساعدة السوفييتية.

السوفييت يطلبون الانضمام للمؤتمر الآسيوي الافريقي

وفي عام 1965، بدأت الدول الآسيوية الإفريقية التحضير لمؤتمرها الثاني، فتقدم الاتحاد السوفييتي بطلب الاشتراك في المؤتمر على اعتبار أن جزءاً كبيراً من أراضيه يقع في قارة آسيا، وكانت مصر وعدد من الدول الآسيوية الإفريقية ترفض عضوية الاتحاد السوفييتي، لأنها ترى من الخير لهذه الحركة أن تكون في منأى عن القوتين العظميين، ولأن الاتحاد السوفييتي دولة أوروبية متقدمة، وقطب كبير في حركة الصراع الدولي، ومشاركته في المؤتمر تفقد المؤتمر استقلاليته عن الكتل، وقد تزج به في أتون الصراع بين الدولتين العظميين [20].

زيارة الكسي كوسيجين إلى مصر أيار 1966

وفي أيار 1966 زار رئيس الوزراء السوفييتي كوسيجين مصر على رأس وفد رسمي، واطلع على الإنجازات المصرية الهائلة التي ساهم فيها السوفييت، ومنها السد العالي ومجمع حلوان الصناعي ومديرية التحرير [21].

وفي 10 أيار 1966، وفي الحفل التكريمي الذي أقيم لكوسيجين ألقى عبد الناصر كلمة ترحيبية، يهمنا منها هنا ما يتعلق بالعلاقات بين البلدين، وقد جاء فيها:

" الصديق العزيز الرئيس الكسي كوسيجين:

لقد أسعد شعب لجمهورية العربية المتحدة كل السعادة، أن يستقبلك اليوم ضيفاً كريماً في بلاده، وصديقاً مخلصاً لنضاله، وممثلاً لشعوب عظيمة يقدرها حق قدرها،

ويعجب كل الإعجاب بعملها ومنجزاتها، وصلابتها وانتصارها المستمر لكفاح الحرية والسلام.

وإن شعبنا ليلاحظ باهتمام خاص ذلك الحرص على أن تكون اول زيارة رسمية لك خارج دول الكتلة الشرقية، إلى الجمهورية العربية المتحدة، كما أن هذه أول وقفة لك إطلاقاً على الأرض الإفريقية.

ومنذ زيارتي الأخيرة للإتحاد السوفييتي، والتي كان لي فيها فرصة لقائكم وزملائكم من قادة الإتحاد السوفييتي، والتي وجهت فيها الدعوة إليكم لزيارة بلادنا، فإن شعبنا كان ينتظر هذه المناسبة لكي يحييكم، ويحيي فيكم الشعوب السوفييتية، وعلاقات الصداقة التي تصل بينه وبينها.

وفي الحقيقة أيها الصديق، فإن الصداقة العربية السوفييتية مرت بطريق طويل وفسيح، قبل أن تبلغ ما بلغته الآن، وحين نلتفت إلى الماضي، فإننا نرى أعلامنا بارزة على الطريق، تشكل نقط الارتكاز التي عبرت عليها علاقاتنا الوثيقة، واستندت لها.

ورفض الشعب المصري العنيد بادىء الأمر أن يقبل بفتح أرضه لتكون قاعدة لحصار الاتحاد السوفييتي، وتهديده، وقف الشعب صامداً ضد مخططات الأحلاف التي تريد فرض سيطرتها عليه، والخاصة في صراعاتها الطامعة منع تأييد الشعب السوفييتي وحكومته لنا في كسر احتكار السلاح، والمساندة الأدبية والعملية لنضالنا في ذروته الرائعة بمعركة السويس، والتعاون الاقتصادي في التصنيع، وفي بناء السد العالي، والجهود المشتركة في العمل من أجل السلام، وفي مساندة حركة التحرير الوطني.

هذه كلها وغيرها أعلام بارزة وصلت بالصداقة السوفييتية إلى موضع الثقة الكاملة التي يجعل منها نموذجاً ممتازاً في علاقات دولية جديدة، تقوم على الفهم المشترك، والاحترام المتبادل (22).

وفي كلمة ترحيبية أخرى لناصر أمام السد العالي في أسوان وبصحبة كوسيجين في 12 أيار 1966، يقول:

" الصديق الرئيس إليكسي كوسيجين:

أيها الأصدقاء الضيوف

أيها الرجال من بناة سد أسوان العالي:

إنها لفرصة عظيمة، ذات دلالة قيمة، أن يتاح لنا الترحيب بصديقنا العزيز الرئيس إليكسي كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي، والوفد المرافق له..هنا في أسوان، بلد السد العالي، بلد الكفاح الإنشائي الضخم، بلد بناء الحياة الجديدة، بلد قبول التحدي والرد عليه، بلد تحقيق النصر بأشرف وأعظم أدوات النصر: العمل الإنساني".

ويشيد ناصر بأقوى إنجاز للعلاقة السوفييتية المصرية، السد العالي، المشروع الرمز، الخالد على كر السنين، والذي جاء نتيجة للجهود المشتركة بين البلدين الصديقين، فيقول:

" ومما يجعل لموقفنا اليوم عمقاً خاصاً، أن أسوان وسدها العالي هما في نفس الوقت المشهد الحي والمثير لصورة التعاون الخلاق، العربي السوفييتي، الرمز الدائم الذي سيبقى لأزمان طويلة في قلب العالم العربي، وفي قلب إفريقيا، شاهداً ودليلاً على مدى ما يمكن أن تحققه الجهود المشتركة، والنوايا الصادقة، والآمال الشريفة للشعوب المؤمنة بالحرية والسلام"

وينهي كلمته بإزجاء التحية للسوفييت الذين شارك عمالهم ومهندسوهم وخبراؤهم في تشييد السد العالي:

"نحيي بالذات شعوب الاتحاد السوفييتي وقيادتها، هذه الشعوب التي أحدثت بثورتها نقطة فاصلة في التطور العالمي كله.

نحيي التقدم السوفييتي، ونحيي الرجال الذين حققوه بكفاءتهم المقتدرة، والذين أتيح لنا هنا في أسوان أن نتعامل مع الكثيرين منهم.

نحيي المهندسين والعمال السوفييت والعرب، الذين استطاع إخاؤهم في العمل، وخبراتهم المشتركة تحقيق معجزة أسوان الخالدة.

أيها الصديق: مرحباً بك في هذا الميدان الفسيح والرحب من ميادين الصداقة العربية السوفييتية [23].

وفي خطابه في الاسكندرية في حفل أقيم على شرف كوسيجين في 13 أيار 1966، يؤكد ناصر على مواقف السوفييت الداعمة لمصر، ومحاولة الاستعمار منع هذه العلاقة القوية التي ليست في مصلحته، يقول ناصر:

"الصديق العزيز الرئيس إليكسي كوسيجين:

باسم شعب الجمهورية العربية المتحدة أرحب بك في الاسكندرية، إن شعب الجمهورية العربية المتحدة ليحافظ ويعتز بالصداقة العربية السوفييتية، ففي وقت التحكم الاستعماري في مصر، منع الاستعمار كل علاقة بيننا وبين الاتحاد السوفييتي، فلما قامت الثورة الوطنية، وتخلصت من الاستعمار، ومددنا يدنا إلى الاتحاد السوفييتي، وجدنا اليد الصديقة المخلصة للإتحاد السوفييتي.

وأنا أقول: إن العلاقة بين بلدينا علاقة مبنية على الصداقة، والاحترام المتبادل.

وفي كل الأزمات التي قابلتنا، كان موقف الاتحاد السوفييتي يدعو إلى الإعجاب، الأمر الذي لن ينساه أبداً شعب الجمهورية العربية المتحدة، وإننا سنعمل دائماً على تدعيم وتقوية هذه الصداقة بين الشعبين.

وفي المأدبة التي أقيمت لكوسيجين في بورسعيد في 15 أيار 1966، يؤكد ناصر على موقف السوفييت من العدوان الاستعماري على مصر عام 1956، فيقول:

"إن شعب الجمهورية العربية المتحدة، وشعب بورسعيد بالذات، لن ينسى أبداً موقف شعوب الاتحاد السوفييتي في تأييده ضد الاستعمار في سنة 1956، الأمر الذي شجعنا وقوى جميع القوى التقدمية على ان تتصدى للاستعمار، وتطارده في كل مكان.

واليوم نجابه مرة أخرى في منطقتنا العربية تحالف قوى الاستعمار والرجعية ضد استقلال الأمة العربية وتحررها، ولكن الأمة العربية كما أسقطت الاستعمار وارجعية في سنة 56، ستسقط الاستعمار والرجعية في المعركة الحالية، ولو لجأت إلى الكفاح المسلح.

الصديق العزيز إليكسي كوسيجين: إننا ننتهز هذه المناسبة على أرض بورسعيد الخالدة، لنؤكد تقديرنا لشعوب الجمهوريات السوفييتية التي ساندتنا في جميع الأوقات، وسنعمل على تقوية أواصر الصداقة بين الشعب العربي وشعوب الاتحاد السوفييتية.

أرجو أن تقفوا معي تحية للرئيس الصديق إليكسي كوسيجن والسيدة عقيلته والأخ بريجنيف والرئيس بدجورني، والسيد شيليبين الذي زار هذه المدينة منذ عامين، وجميع قادة الاتحاد السوفييتي الأصدقاء والشعب السوفييتي العظيم"[24].

وفي خطابه أمام مجلس الأمة استقبالاً لكوسيجين في 17 أيار 1966، يؤكد ناصر على الصداقة المصرية السوفييتية، وأن ظروف الاختلاف والخلاف لا تفسد الصداقة بين البلدين، فيقول:

" ولست أظنني أيها الأخوة، بحاجة إلى الحديث عن الصداقة العربية السوفيتية، فإن التاريخ المشرف لهذه العلاقات خلال الإثنتي عشرة سنة الماضية يتحدث عن نفسه وهو ماثل أمامنا الآن، كنموذج حي لعلاقات دولية جديدة، لقد جمعتنا مواقف دولية في معركة الإنسانية المقدسة ضد الاستعمار والاستغلال، وربطت بيننا مصالح متبادلة، وبالعمل والاتصال المستمر، فلقد قامت صداقة قوية ومخلصة..

ولست أدعي أن أفكارنا ومواقفنا كانت متطابقة دائماً في كل الظروف، ولكني أدعي بأننا في كل الظروف التقينا دائماً في إطار احترام كل طرف للآخر، وتقديره لخبرته، وتفتحه لتفهم وجهات نظره، ومن ذلك كله، فإننا استطعنا أن نقيم أمثل القواعد، بتعاون مستمر وقادر على خدمة الأهداف العظيمة للتحرر والسلام "[25].

ويضيف ناصر في الخطاب الوداعي لكوسيجين في 17 أيار 1966:

"..إن الصداقة العربية السوفيتية تحتل مكاناً بارزاً ومرموقاً، تستمد قوتها من تجربة واقعية أعطت العلاقات بيننا قاعدة وطيدة من الثقة المتبادلة عمقت الفهم المشترك بيننا، وأعطت قوة دافعة لكل جهود في المستقبل، كما في الماضي، من أجل الأهداف العظيمة التي تؤمن بها شعوبنا "[26].

العلاقات تمضي قدماً رغم تغير القيادة السوفييتية

ولا نكاد نرى فرقاً يذكر في العلاقات بين البلدين بعد إعفاء خروتشوف، فسياسة السوفييت لم تتغير تجاه مصر، وهذا ما يثبت لنا أن سياستهم وتوجهاتهم حزبية جماعية لا تتأثر برحيل زعيم، او بمجيء آخر، كما يثبت أن هذه السياسة مبنية على أسس علمية من أسباب العلاقات الدولية وطبيعتها، وركائزها التاريخية والجغرافية، وما صاحب المنصب إلا منفذ لهذه السياسة، ومعزز لها.

ففي اللقاء الذي جرى بين ناصر وإلكسي كوسيجين في الرحلة البحرية من الاسكندرية إلى بور سعيد، يصرح ناصر لضيفه بكل وضوح "أن الأزمة التي نشأت بعد تغيير القيادة السوفييتية في الخريف الماضي كان سببها بوضوح أن خروتشوف كان الرجل الوحيد الذي عرفناه، وتحدثنا في كل شيء معه"

ولعل ناصر هنا يقصد جو الألفة والانفتاح الذي كان يضفيه خروتشوف على لقاءاته مع عبد الناصر، وابتعاده عن الرسميات بشكل كبير.

ثم يضيف ناصر:

"إن مستوى العلاقات بين البلدين يستحق درجة أكثر من العمق والإتساع، وإن هذا لن يتأتى إلا إذا استطاعت مستويات مختلفة في العمل السياسي والتنفيذي أن تلتقي بالمستويات المقابلة لها على الناحية الأخرى، حتى تتسع دائرة الحوار، وتتعدد جسور الاتصال"[27].

وناصر هنا يقصد القيادة السوفييتية أكثر مما يقصد المصرية، فهو يريد أن تتنحى القيادة العليا أحياناً عن مقاعدها، لتترك مجالاً للخبراء في شتى نواحي العلاقات الدولية لبحث القضايا التي تهم البلدين، وهذا – على ما يبدو– ما كان ناصر يتوق إليه، وربما طالب به مساعدوه..

وبعد عودته الى بلاده، يرسل كوسيجين في 31 أيار 1966 رسالة ودية لناصر، ويهمنا منها المسائل التي تتعلق بالعلاقات بين البلدين، فبعد قوله بأنه قدم للجنة المركزية تقريراً عن زيارته لمصر، وأنه والحزب واللجنة المركزية مرتاحون تماماً للزيارة، قال:

".. أن جو المحادثات يكشف بوضوح عن عرض مشرق لصداقتنا وأخوتنا التي تزداد قوة، وعن وحدتنا التي هي من وحي هدفنا المشترك، ومثلنا لمحاربة القوى الاستعمارية والامبريالية من أجل الحرية والاستقلال والتقدم الجماعي.

كذلك نُظر في الموضوع الذي ذكرتموه بخصوص الرغبة في تأجيل أقساط قرض تسليح الجمهورية العربية المتحدة، وقد قررت رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، والحكومة السوفييتية - استناداً إلى الرغبة التي أبديتموها - الموافقة على تأجيل أقساط التسليح لسنوات 1967-1970 إلى سنوات 1971- 1974، والتي تبلغ قيمتها 4،154 مليون روبل، بما في ذلك الأرباح المستحقة عليها.

وبالنسبة إلى تأجيل هذه الأقساط، وتمشياً مع متطلبات اقتصادنا القومي، والاعتبارات التي أعربتم عنها، قد يكون من المستحسن أن تعيد منظمات التجارة الخارجية لكل من البلدين النظر في موضوع زيادة حجم توريد المنتجات السوفييتية المصدرة إلى الجمهورية العربية المتحدة خلال سنوات 1967-1970، والتي يهم الجمهورية العربية المتحدة الحصول عليها، حتى يمكن موازنة صادرات الجمهورية العربية المتحدة خلال هذه السنين، والتي ينص عليها الاتفاق التجاري بين البلدين.

وقد درست رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، والحكومة السوفييتية، بكل انتباه، الاعتبارات والاقتراحات التي ذكرتموها وذكرها رفاقكم، وكذلك بعض المسائل الأخرى التي كانت موضوع تبادل الآراء فيما بيننا إثناء إقامتي في الجمهورية العربية المتحدة، وبهذا الخصوص قد اتخذنا الإجراءات العملية التي تحقق وتضع موضع التنفيذ ما اتفقنا عليه، وبخصوص المسائل التي تتطلب دراسة خاصة ودقيقة، أو تتطلب

موافقات سيجرى بشأنها اتصال بين ممثلينا وما يقابلهم من منظمات في الجمهورية العربية المتحدة" [28].

رسالة السفير المصري في موسكو إلى سكرتاريا عبد الناصر، 3 حزيران 1966.

" الأخ العزيز سامي:

أهديك تحياتي وأشواقي، وأرجو أن تكون والعائلة في أتم الصحة.

أولاً: أرسل لك رفق هذا الخطاب رسالة إلى سيادة الرئيس من "كوسيجين" رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي، وقد قمت بترجمتها شخصياً ترجمة حرفية، وهي لا تخرج عن موضوع البرقية التي أرسلتها لكم، عدا موضوع المواد الدهنية النباتية والحيوانية، وقد كلمني فيه "كوسيجين" إثناء المقابلة، وذكر بأن تبادل هذه المواد مع منسوجات وملابس جاهزة، رجالي وحريمي، وقمصان وخردوات الخ...، سيزيد من قوة العمالة عندنا، ويحل بعض مشاكلنا.

ثانياً: أن النتيجة الطيبة التي حصلنا عليها بعد زيارة "كوسيجين" يرجع الفضل فيها أولاً وأخيراً إلى سيادة الرئيس، ودوره العظيم كزعيم حركة التحرير في العالم العربي، وأبرز قادتها في العالم الآسيوي الأفريقي، ولولاه – كما ذكر السوفييت– لما بقيت سوريا والجزائر واليمن والعراق دولاً متحررة مستقلة، ولانهارت تحت ضغط الاستعمار وسيطرته.

ثالثاً: إن شرح سيادة الرئيس للمشاكل، ووضعه للأمور في إطارها الحقيقي، وتوضيح مشكلة اليمن والنزاع المصري السعودي، في إطار الاستراتيجية البريطانية والغربية في شبه الجزيرة العربية ، وإن المشكلة أساساً هي حركة تحرير عامة تشمل الجزيرة بأكملها من ناحية، واستراتيجية غربية تسعى إلى استمرار سيطرتها واستنزافها لموارد العرب وثرواتهم، كان هذا الشرح العظيم عاملاً مباشراً في موافقة القادة السوفييت على مطالبنا كاملة.

رابعاً: قابلت "سيميونوف" بعد مقابلتي لكوسيجين، ورجاني ألا ننشر شيئاً عن تأجيل أقساط التسليح في صحافتنا أو إذاعتنا، حتى لا نحرج الاتحاد السوفييتي بمطالبة دول أخرى بنفس الميزات التي حصلنا عليها، ولكنه ذكر بانه من الممكن حصولنا على تسهيلات اقتصادية خلال الخمس سنوات القادمة، تتيح لنا المزيد من التطور، وتدعيم اقتصادنا.

خامساً: أرجو دراسة مطالبنا من الاتحاد السوفييتي، الصناعية منها، والتي تتعلق بالمواد الخام والوسيطة، دراسة دقيقة وافية، مع الإسراع في إرسال وفد لإعادة النظر في تعديل الاتفاق التجاري بما يتمشى مع تأجيل أقساط التسليح خلال سنوات 67، 68، 69، 70.

سادساً: شكرت كوسيجين على خطابه الرقيق لسيادة الرئيس، وعلى مساعدات الاتحاد السوفييتي، ولكني أرجو لو أن سيادة الرئيس يرد على خطاب "كوسيجين" ويسلمه للسفير السوفييتي في القاهرة في وقت قريب، فهم ينتظرون رد الفعل لهذا الخطاب.

سابعاً: بالنسبة لزيارة "بريجنيف"، فأعتقد أنها ستتم في "فبراير" كما حدد سيادة الرئيس، وقد أورد "كوسيجين" موافقتهم على هذا التاريخ، وطلب تحديد الموعد في المستقبل، هو احتياط لجميع الاحتمالات الدولية وغيرها.

ثامناً: لا يزال "شبيلين" من أهم المتحمسين لتأييدنا، وقد كسبنا "كوسيجين" لصفنا، وأنا واثق أننا سنكسب "بريجنيف" وكل من سيزورنا.

تاسعاً: أشعر بأننا سنحصل على قمح من الاتحاد السوفييتي إذا جاء محصولهم هذا العام طيباً، وهم يلمحون إلى ذلك بقولهم لي "بأنني أصبحت مثلهم أهتم اهتماماً بالغاً بالمطر والأحوال الجوية في جميع انحاء الاتحاد السوفييتي، وتأثير ذلك على الزراعة!! هذا علاوة على الحديث الذي دار معهم في القاهرة.

عاشراً: لا يزال الاهتمام بسوريا على أشده، ولم يقل نتيجة خروج بكداش من سوريا، بل يقول البعض بأنها خطة مرسومة لكي يخفف الغرب الضغط على الحكومة السورية الحالية.

عموماً، المشاعر والحماس في صفنا، ولم تكن علاقة الاتحاد السوفييتي معنا أحسن مما هي عليه الآن.

أعود فأكرر أن هذا بفضل سيادة الرئيس، وأعماله وتاريخه وكياسته في معاملة كوسيجين وحرمه، واعتراف السوفييت بدوره التاريخي في حركة التحرير في الدول العربية وآسيا وإفريقيا.

وأخيراً أدعو لكم بدوام النجاح والرفعة، وإلى اللقاء

والسلام عليكم ورحمة الله"

مراد غالب

سفير ج.ع.م – موسكو(29)

تعليق

تغلب على رسالة السفير المصري في موسكو روح التفاؤل والسرور، ولا تخلو من واقعية غلبت على العلاقات بين البلدين طوال عهد عبد الناصر..

فالسفير الحريص على أداء عمله بشكل متقن، لا يعتمد على المترجمين في ترجمة رسالة كوسيجين بالذات، ولعلها الأولى منه لناصر، فترجمها بنفسه، ولا ينسى الجزئيات التي لا تهم طلاب المناصب والفوائد، فهي تهم وطنه، فيتحدث عن الدهون والمنسوجات والملابس بدون حرج، ولا ينسى أحوال الطقس ومواعيد المطر التي صار خبيراً فيها، انتظاراً لمواسم القمح الذي تنتظره بلاده، ولا ينسى أن يشيد بدور ناصر في إرساء دعائم تلك العلاقة التاريخية مع السوفييت.

ويشير مراد غالب في رسالته إلى دور عبد الناصر المعروف لدى كل المؤرخين والمثقفين في تحرير بعض البلدان العربية من الاستعمار، وذلك بإمدادها بالسلاح والرجال حتى نالت استقلالها، رغم حاجة مصر الملحة وقتذاك لتلك الإمدادات، ويؤكد مراد غالب هذا الدور بشرح ناصر له للسوفييت طلباً للعون والمساعدة، فنجح في ذلك.

ويؤكد السفير المصري على مكانة مصر عند السوفييت، بحيث أنهم يعاملونها معاملة مختلفة عن الدول الصديقة الأخرى، فيطلب السوفييت التكتم على ما تناله منهم مصر لكي لا يطالب الآخرون بمعاملة مماثلة!!.

واضح أن هناك خطة مرسومة للدعم السوفييتي لمصر، فكاتب الرسالة يذكر أقساط وسنوات دفع تصل إلى الخمس سنوات.

أما زيارة بريجنيف فيحدد موعدها ناصر، والسوفييت يوافقون على التاريخ الذي ذكره، وهذا دليل على تعامل الند للند بين البلدين..

وينهي الرسالة بعبارات الطمأنة، بأن العلاقات مع السوفييت لم تكن يوماً كما هي عليه الآن من القوة والألق، ويعيد الفضل لعبد لناصر.

وورد في رد عبد الناصر على رسالة كوسيجين في 3 تموز 1966:

"...إننا عندما كنا ندرس متطلبات هذه المرحلة التي تمر بها الجمهورية العربية المتحدة، كنا نقدر تمام التقدير الظروف والأعباء التي يتحملها الاتحاد السوفييتي، ولكننا كنا نقدر في نفس الوقت أبعاد المعركة التي فرضها علينا مخطط الاستعمار والرجعية، والأعباء التي ألقتها هذه المعركة على كاهل شعبنا، والمسئوليات الضخمة التي نتحملها قبل شعوب المنطقة التي آمنت بالمبادىء التي رفعناها، وحاربنا من أجلها".

وفي الرسالة يرحب ناصر بزيارة الرئيس بريجنيف إلى مصر، ويعبر عن تطلعه لزيارة الاتحاد السوفييتي في المستقبل القريب [30].

والرسالتان تعبران عن أجواء المودة والصداقة التي تسود العلاقات بين مصر والاتحاد السوفييتي، وكأنهما تطمئنان ساسة الدولتين بأن غياب خروتشوف لن يؤثر على مجرى العلاقات بينهما، وأن المبادىء الراسخة تغلب على سياسة القادة فيهما.

حجم السلاح المصري قبل حرب حزيران

كان لدى مصر عشية حرب حزيران 1967 من الأسلحة ما يلي:

370 دبابة 650 مدفع

225 طائرة مقاتلة 88 طائرة نقل وهليوكبتر

96 قطعة سلاح بحري

وكانت كل هذه الأسلحة سوفييتية..

أما إسرائيل فكان لديها:

815 دبابة 250 مدفع ذاتي

230 طائرة مقاتلة 75 طائرة نقل وهليوكبتر

23 قطعة سلاح بحري [31]

الفصل الثاني

السوفييت وحرب 1967

كانت حرب 1967 حدثاً مفصلياً في العلاقات بين السوفييت ومصر، وقد دل على ذلك النهايات التي آلت إليها الحرب..

فلم يكن صعباً على السوفييت معرفة ما كان يجري على ساح المعارك، ومتابعة الأعمال القتالية بين الطرفين، ولتكون النتيجة المأساوية التي لم يتوقعها أشد المتشائمين!

موقف السوفييت قبيل الحرب

ولعل إغلاق مضيق العقبة في 24 أيار 1967 قد جعل المنطقة على صفيح ساخن، فلم يكن صعباً على السوفييت متابعة النوايا الإسرائيلية، والنشاط الإسرائيلي على الجبهة، وبعيداً عن الجبهة..

فحذرت الحكومة السوفييتية "الذين ينوون القيام بعدوان جبان في الشرق الأوسط، مؤكدة أنها لن تتسامح أبداً مع هذا العمل"[1]، وأضافت:

"إن الاتحاد السوفييتي ساعد عشرات السنوات شعوب البلدان العربية في خوض نضالهم الوطني التحرري العادل ضد الاستعمار، ورفع مستوى اقتصادياتهم، وينبغي ألا يخامر أياً كان، أدنى شك، وخصوصاً الذي يغامر في شن حرب في الشرق الأوسط، أنه سيصطدم، ليس بالقوة المشتركة للبلدان العربية فحسب، وإنما أيضاً برد حاسم من الاتحاد السوفييتي، وكل الدول المحبة للسلام..

إن الحكومة السوفييتية تتابع عن كثب تطورات الأحداث في الشرق الأوسط، وهي تعتبر أن الحفاظ على السلام والأمن في هذه المنطقة المحاذية لحدود الاتحاد السوفييتي، يتجاوب والمصالح الحيوية للشعوب في الاتحاد السوفييتي، إن الحكومة السوفييتية، مع

الأخذ في الاعتبار للوضع الملموس، ستبذل ما في الماضي، لمنع انتهاك السلام والأمن في الشرق الأوسط، وصون الحقوق الشرعية للشعوب"[2].

وهذا موقف لا يختلف إثنان في وضوحه وجلائه...

فالسوفييت – الذين يذكرون الآخرين بالدعم السوفييتي الهائل للعرب – يؤكدون أن أي هجوم عليهم سيجد رداً حاسماً من السوفييت كما هو من العرب...

وإضافة إلى وقوف السوفييت مع العرب في الأمم المتحدة ضد مشاريع اجتماعات لدول الغرب، أو طلبات لعقد مجلس الأمن، نجدهم يبلغون المصريين في اجتماعات في موسكو مع وفد نيابي مصري يرأسه السادات في 12 أيار، أن الحرب وشيكة، وأن إسرائيل تقوم بحشد جيوشها على الحدود[3].

ويرى الكاتب وولتر لاكير "أن معظم الزعماء السوفييت لم يرغبوا أبداً في حدوث حرب بين إسرائيل والبلدان العربية، وكان هناك اندهاش صادق وارتباك عندما ازدادت حدة النزاع، وأغلق عبد الناصر مضائق تيران، ومن المشكوك فيه أن عبد الناصر كان قد أبلغ الاتحاد السوفييتي بهذه الخطوة مسبقاً"[4].

على الجانب الآخر، لم يكن لدى الأميركان أي مانع في أن تهاجم إسرائيل جيرانها العرب، وكأنها تعلم، كل العلم، بمدى استعداد كل طرف للحرب، كذلك كان من مصلحتها أن تلحق حليفتها الهزيمة بالعرب، فتكون ضربة موجعة للسوفييت، ومواقعهم وهيبتهم[5].

فقد ورد في رسالة من مستشار الأمن القومي الأميركي والت روستو للرئيس الأميركي جونسون بتاريخ 3حزيران 1967، رداً على طلب الرئيس الأميركي تقييماً لضربة إسرائيل المنتظرة لمصر، كتب روستو أن لهذه الضربة خمسة أهداف، وهي:

"1- إحراج الاتحاد السوفييتي إذا ما قامت إسرائيل بدونعون أمريكي ظاهر بتوجيه ضربة شديدة لمصر.

2- تدمير جزء كبير من الأسلحة السوفييتية التي تلقتها من الاتحاد السوفييتي عبر سنوات طويلة.

3- اختبار أنظمة السلاح السوفييتية من خلال معركة فعلية في الشرق الأوسط.

4- إسقاط هيبة ناصر، وربما إسقاط نظامه.

5- تمكين الاسرائيليين من الاستيلاء على أراض يستطيعون أن يضغطوا بها، في مقابل تسوية شاملة للصراع العربي الإسرائيلي"[6].

ونستطيع أن نقول أن إسرائيل قد حققت الهدف الخامس، ولم تحقق الأهداف الأربعة الأخرى، فقد تمكن ناصر وحكومته، وبالعون السوفييتي الهائل، من تعويض كل الخسائر، بل وعادت مصر أقوى بكثير مما كانت عليه قبل الحرب، وهذا ما شهد به كبار القادة السوفييت والمصريين والعرب، وما أثبتت صحته ساحات القتال في السنوات التالية.

خداع أميركي منظم ومدروس..

ولا يستطيع باحث أن يزعم أن الجدية التي تعامل بها السوفييت مع حلفائهم في حرب 1967 تعادل الجدية التي تعاملت بها الولايات المتحدة مع إسرائيل، وبالذات الدور الذي لعبه الرئيس الأميركي جونسون نفسه، والسطور التالية توضح ما ذهبت إليه..

ففي 23 أيار 1967، يرسل الرئيس جونسون رسالة إلى عبد الناصر يقترح فيها عليه "إرسال نائبه "همفري" لزيارة المنطقة، ودعا كافة الأطراف إلى الالتزام باحترام اتفاقية الهدنة، وأن (ج.ع.م) يمكن أن تعتمد على الولايات المتحدة الأمريكية في معارضتها لقيام عدوان في المنطقة"، ويتابع جونسون مقللاً من مشكلة إغلاق مضيق العقبة قائلاً: "أما بالنسبة لمشكلة خليج العقبة فيمكن عرضها على محكمة العدل الدولية"[7].

ويتعدى الخداع الأميركي مصر ليطال السوفييت، فيرسل جونسون رسالة إلى كوسيجين "يقترح فيها التعاون بين البلدين لمواجهة مشكلة الصراع العربي الإسرائيلي، ويطلب من الاتحاد السوفييتي مساعدته في عدم قيام مصر ببدء عمليات عسكرية ضد إسرائيل"[8]، لأن هذه العمليات – إن تمت– سوف تعيق الخطة الإسرائيلية للهجوم على مصر، والتي يعلم بها جونسون كل العلم..

ويسارع الاتحاد السوفييتي إلى الاستجابة لطلب جونسون، "فطلب سفيرا الدولتين الأعظم مقابلة عبد الناصر – في وقت واحد تقريباً – وطلبا منه عدم البدء في أية عمليات عسكرية ضد إسرائيل، وقد وعدهما الرئيس عبد الناصر بذلك"[9].

وفي يوم 2 حزيران 1967، يجتمع ناصر بعبد الحكيم عامر، ويطلب منه تغيير خطط الهجوم المصرية، والالتزام بالدفاع، والعمل على تلافي الضربة الجوية الإسرائيلية ,"وقد قامت المخابرات المركزية الأمريكية بتأهيل جونسون لهذه اللعبة الخداعية، فأكدت له أن مصر ليس لديها خطط للهجوم على إسرائيل، وان الأخيرة يمكنها بسهولة كسب المعركة على العرب"[10].

وبذلك يكون كل طرف قد أدى دوره بكل دقة وعناية..

الأميركيون يخادعون الجميع لخدمة إسرائيل..

والسوفييت ينخدعون بما يقوله الأميركيون..

ومصر تضع ثقتها في السوفييت فتصدق ما يشيرون به..

وإسرائيل تستفيد من خدمات الجميع، المقصودة وغير المقصودة، فقامت بضربتها الجوية بكل ارتياح، وحققت ما لم تحلم به من نجاح..

ولما بدأت الحرب، أصدر السوفييت البيان التالي في 5 حزيران 1967، وقد جاء فيه:

بيان الحكومة السوفييتية 5 حزيران 1967

"هذا اليوم، الخامس من حزيران 1967، بدأت إسرائيل العمليات الحربية ضد الجمهورية العربية المتحدة، فاقترفت العدوان بالتالي، وتخوض القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة المعارك ضد القوات الإسرائيلية التي اقتحمت أراضي هذه الدولة.

ووقفت الجمهورية العربية السورية إلى جانب الجمهورية العربية المتحدة، وهي تقدم لها مساعدة مسلحة في صد العدوان، وأعلنت الأردن عن أنها تعتبر نفسها في حالة حرب ضد إسرائيل، وأنها ستقدم الدعم العسكري للجمهورية العربية المتحدة، كما أعلن العراق والجزائر والدول العربية الأخرى عن دعمها للجمهورية العربية المتحدة بالقوات المسلحة والموارد.

وهكذا اندلع الصدام الحربي في الشرق الأوسط بسبب مغامرة حكام بلد واحد هو إسرائيل، التي شجعتها الأعمال الخفية والسافرة من قبل أوساط امبريالية معينة.

وقد دفع البلاد إلى هذه الأعمال الخطرة زعماء يعلنون دوماً أنهم يخوضون النضال من أجل وجود إسرائيل كدولة، ولكن ما يمكنه أكثر من أي شيء آخر أن ينسف أسس تطور الدولة الإسرائيلية ووجودها نفسه، هو طريق الطيش والمغامرة في السياسة، ذلك الطريق الذي اختارته اليوم الأوساط القيادية في إسرائيل.

إن حكومة إسرائيل بشنها العدوان على الدول العربية المجاورة قد خرقت ميثاق الأمم المتحدة، وأبسط أصول القانون الدولي.

ولا يمكن لحكومة إسرائيل أن تقول بأنها لم تكن تتصور ما أقدمت عليه، ولا يمكنها أن تقول بأن موقف الدول المحبة للسلام لم يكن واضحاً لها في حالة شنها الحرب العدوانية.

وكانت حكومة إسرائيل تعلم بأنه يمكن تحاشي الحرب، وإلى ذلك بالذات دعاها الاتحاد السوفييتي والدول الأخرى المحبة للسلام، ولكنها اختارت الحرب، ومما لا شك فيه أن المغامرة التي قامت بها إسرائيل ستنقلب ضدها هي قبل كل شيء.

إن الاتحاد السوفييتي، الوفي لسياسة تقديم المساعدة للشعوب ضحية العدوان، والمساعدة للدول المتحررة من النير الاستعماري، يعلن عن دعمه الحازم لحكومات وشعوب الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والعراق والجزائر والأردن والدول العربية الأخرى، ويعبر عن ثقته بانتصار نضالها العادل في سبيل استقلالها وحقوقها في السيادة.

إن حكومة الاتحاد السوفييتي إذ تشجب عدوان إسرائيل، تطالب الحكومة الإسرائيلية بأن توقف فوراً، وبدون شرط، العمليات الحربية ضد الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والأردن، والبلدان العربية الأخرى، وأن تسحب قواتها إلى ما وراء خط الهدنة باعتبار ذلك أول إجراء مستعجل لتصفية النزاع الحربي.

وتعرب حكومة الاتحاد السوفييتي عن أملها بأن تبذل حكومات الدول الأخرى، بما فيها الدول الكبرى من جهتها، قصارى الجهود لإطفاء لهيب الحرب في الشرق الأوسط، وإحلال السلام.

ويجب على هيئة الأمم المتحدة أن تؤدي واجبها المباشر، ألا وهو شجب أعمال إسرائيل، واتخاذ الإجراءات العاجلة الضرورية لإحلال السلام في الشرق الأوسط.

وتحتفظ الحكومة السوفييتية بحق تنفيذ كل التدابير اللازمة التي يتطلبها الموقف[11].

يريد السوفييت بهذا البيان الذي غلبت عليه السهولة والحذر في صياغة العبارات، أن يعلنوا موقفهم من الأحداث التي لم يكن قد عُرف من نتائجها وآثارها شيء حتى تلك الساعة، فهو موقف مبكر ولكنه غير متسرع، وإن كنا لا نتوقع غير هذا الموقف من السوفييت قبل وبعد الحرب.

ويمكن تلخيص الموقف السوفييتي في هذا البيان في:

1- أن إسرائيل هي السبب في اندلاع الحرب، وهي الطرف البادئ فيه.

2- أن الاتحاد السوفييتي يعلن وقوفه ودعمه للدول العربية ضحية هذا العدوان.

3- مطالبة إسرائيل بوقف عدوانها.

4- دعوة هيئة الأمم المتحدة، والدول الأخرى لبذل جهودها في لإيقاف الحرب.

ولما أمست نتائج الحرب معروفة، باحتلال إسرائيل سيناء والجولان والضفة الغربية، يصدر الاتحاد السوفييتي بياناً آخر في 7 حزيران 1967، ورد فيه:

بيان الحكومة السوفييتية إلى حكومة إسرائيل 7 حزيران 1967

"تتوارد من مصادر مختلفة أنباء تقول أن الجانب الإسرائيلي لا ينفذ قرار مجلس الأمن لدى الأمم المتحدة بصدد وقف إطلاق النار وجميع العمليات الحربية فوراً، وتدوس إسرائيل بفظاظة، وبصورة تظاهرية على هذا القرار، فتتابع الحرب ضد الدول العربية.

إن موقف حكومة إسرائيل هذا يؤكد مرة أخرى الجوهر العدواني لسياستكم، التي لا تراعي أبسط أصول العلاقات الدولية، والتي تبدي صراحة عدم احترام لمبادىء وأهداف ميثاق الأمم المتحدة.

وقد حذرت الحكومة السوفييتية حكومة إسرائيل، بكامل الوضوح، من تنفيذ سياسة العدوان والمغامرات، إلا أن الزعماء الإسرائيليين لم يعيروا صوت العقل أذناً صاغية.

وإذا لم تنفذ الحكومة الإسرائيلية الآن فوراً المطلب المشترك للدول بشأن وقف إطلاق النار دون تأخير، وهو المطلب المتجسد في قرار مجلس الأمن، فإن الاتحاد السوفييتي سيعيد النظر في موقفه من إسرائيل، ويتخذ قراراً بشأن العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل، التي وضعت نفسها بأعمالها في مجابهة جميع الدول المحبة للسلام.

وبديهي أن الحكومة السوفييتية ستدرس وستحقق الإجراءات اللازمة الأخرى التي تستوجبها سياسة إسرائيل العدوانية"[12].

شتان بين هذا البيان وبين البيان الذي أصدره السوفييت عشية حرب السويس...

فهذا البيان تمت صياغته بأسلوب هادىء لا يخيف أحداً، فلا تهديد باستعمال القوة ضد إسرائيل، ولا تلويح باستعمال الصواريخ، رغم أن عدوان حزيران 1967كان أقوى وأخطر من عدوان 1956، وكانت نتائجه أكبر وأعمق..

وهذا البيان يتكىء على قرار وقف إطلاق النار الذي أصدره مجلس الأمن، ولا نجد فيه تهديداً سوى اللجوء إلى إعادة النظر في مستقبل العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل.!

فكم كانت درجة القلق في نفوس القادة الإسرائيليين لدى قراءتهم هذا البيان؟

وفي مساء 7 حزيران، وصلت لمصر أيضاً رسالة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي تحمل المضمون نفسه، وهو طلب موافقة مصر على وقف العمليات العسكرية، واعتبار ذلك عاملاً إيجابياً لمصر، ولما أخبر وزير الخارجية المصري محمود رياض عبد الناصر بشأن هذه الرسالة كلفه ناصر بالرد عليها[13].

فجاء في رد محمود رياض :

1- لقد حشدنا قواتنا في سيناء بناء على المعلومات التي أرسلها إلينا الاتحاد السوفييتي عن نية إسرائيل بالهجوم على سوريا.

2- إن السفير السوفييتي في القاهرة قد أيقظ جمال عبد الناصر لكي يبلغه بأن الاتحاد السوفييتي يطلب من مصر عدم القيام بهجوم على إسرائيل، وهو نفس ما أبلغتنا به الولايات المتحدة رسمياً.

وهكذا حصل الاتحاد السوفييتي، وكذلك الولايات المتحدة، من مصر على تعهد رسمي بأنها لن تبادر بالهجوم.

3- عندما بادرت إسرائيل بالهجوم ضدنا، وقفت الولايات المتحدة إلى جانبها بوضوح في مجلس الأمن، ورفضت الاعتراف بوجود عدوان إسرائيلي، كما أنها رفضت،

وما زالت ترفض، الإشارة إلى ضرورة انسحاب إسرائيل، والآن، فإن موقف الاتحاد السوفييتي لا يكاد يختلف كثيراً عن موقف الولايات المتحدة، حيث أنه يطلب منا قبول وقف إطلاق النار دون الإشارة إلى ضرورة انسحاب القوات المعتدية لمواقع 4 يونيو (حزيران).

4- ليس مفهوماً لنا كيف يمكن وقف العمليات العسكرية بينما قوات العدو تهاجمنا باستمرار براً وجواً.

5- إن هذا الطلب الذي يبلغنا به الاتحاد السوفييتي معناه أننا نعلن التسليم للعدوان الاسرائيلي.

6- إزاء هذا الموقف، فإننا عازمون على مواصلة القتال إلى أن ينسحب العدو من أرضنا.

7- إننا نتوقع أن يقدم لنا الاتحاد السوفييتي معونة جادة وسريعة حتى نتمكن من الدفاع عن أنفسنا ضد العدوان الاسرائيلي"[14].

وحديث محمود رياض هذا يغنينا عن أي حديث إعلامي عن مجريات الأحداث وقتذاك، فلو كان حديثاً لوسائل الإعلام لتم تفسيره بوسائل كثيرة تجعل القارىء في حيرة وقلق، من يصدق؟ وماذا يصدق؟.

وكنت أتمنى لو أورد لنا محمود رياض نص رسالة السوفييت لمصر في 7 حزيران، والتي يطلبون فيها من مصر الموافقة على وقف العمليات العسكرية، لأن طلب ذلك من مصر مستغرب، فهي لم تكن في موقف المدافع عن أرضه أمام هجوم كاسح فحسب، بل كانت في موقف عسكري صعب يعرفه السوفييت..

فالسوفييت الذين أخبروا المصريين بنوايا هجوم إسرائيل على سوريا، هم الذين يطلبون منهم عدم البداية بالهجوم.

على الجانب الآخر نرى الولايات المتحدة:

تقف إلى جانب إسرائيل في مجلس الأمن..

لاتعترف بوجود هجوم إسرائيلي على العرب..

وترفض أية إشارة إلى ضرورة انسحاب إسرائيل..

ورغم كل ما سبق، نرى السوفييت يطلبون من مصر التي تعرضت للهجوم أن تقبل وقف إطلاق النار، بينما القوات الإسرائيلية تهاجم مصر براً وجواً، لتأتي الطلبات السوفييتية كلها غير مفهومة على الإطلاق، بل هي لغز من الألغاز!..

وعود سوفييتية غامضة..

.. والمصادر التي تخبرنا بوعود السوفييت بالوقوف مع العرب إذا ما حصل عدوان عليهم..كثيرة، ولكن هذا "الوقوف" خرج إلى معان متعددة، وإن لم يقدم السوفييت شرحاً له، فإن الواقع عرض، وبكل شفافية، معنى هذا الوقوف..

فعلاوة على الرسائل المتبادلة بين مصر والسوفييت التي تحمل الوعود بالدعم والوقوف إلى جانبهم إذا ما بدأت إسرائيل بالعدوان، يصدر الكرملين في 23 أيار 1967 بياناً رسمياً ورد فيه:

"أي عدوان في الشرق الأوسط سوف تتم مواجهته ليس فقط بواسطة القوة الموحدة للبلاد العربية، ولكن أيضاً بواسطة المعارضة القوية من جانب الاتحاد السوفييتي"[15].

فهل التعبير "المعارضة القوية" يعنى التدخل العسكري لحماية الدول العربية، وصد العدوان الإسرائيلي عنها؟

ألا يمكن أن تكون المعارضة القوية في الأمم المتحدة ضد أي مشروع أو قرار يدين العرب، أو يدعم إسرائيل؟

ألا يمكن أن تكون المعارضة القوية بإصدار بيانات الاستنكار والشجب ضد العدوان الإسرائيلي؟.

أوَ ليس إمداد العرب بالسلاح والمؤونة خلال الحرب أو بعدها شكل من أشكال المعارضة أيضاً؟

إذن فنحن أمام وعود وعهود غير واضحة، وسوف نقرأ غيرها في الصفحات القادمة..

ففي أيار 1967 زار موسكو وزير الحربية المصري شمس بدران، والتقى بالمارشال جريشكو الذي قال لبدران وهو يودعه في المطار:

"إننا سوف نكون إلى جانبكم على الدوام"، ونقل إليه رسالة من رئيس الوزراء كوسيجين إلى عبد الناصر بهذا المعنى، ولقد فسر بدران هذه الكلمات من جانبه على أنها وعد بالتأييد العسكري السوفييتي في حالة مبادرة إسرائيل بشن الحرب"(16).

إذن فبدران يفسر كما يريد...

ولكن عبد الناصر أعلن ظنون بدران وترجيحاته في كلمة له في 29 أيار قائلاً:

"وحينما قابلت شمس بدران بالأمس بعد عودته من موسكو، أبلغني رسالة من السيد كوسيجين يقول فيها أن الاتحاد السوفييتي يقف معنا في هذه المعركة. ولن يسمح لأي دولة بأن تتدخل"(17).

وقد أذيع حديث ناصر هذا وتم نشره..

وإذا كان بدران وناصر قد أخطآ في فهم الرسالة السوفييتية، فقد كان على السوفييت تصحيح الظنون، وردها إلى ما هو صحيح من مقاصدهم ومعانيهم، إلا أن هذا لم يحدث..!!

وكأن السوفييت قد سرتهم تفاسير الساسة المصريين وفتاويهم، ولو حصل وجادلهم هؤلاء الساسة فيما صرحوا به، وما ناقضه من سلوكهم وأفعالهم، لرد السوفييت بأن هذا ذنب الجهة التي أساءت فهمهم، وكان عليها مراجعتهم قبل أي شرح أو تحليل..!

ولكن الأغرب من كل ما سبق أن السفير السوفييتي في القاهرة، يعمد يوم 27 أيار إلى إيقاظ عبد الناصر من نومه، ليخبره " برسالة عاجلة من القادة السوفييت يطلبون منه فيها ألا تكون مصر هي البادئة بإطلاق النيران"، كما أبلغ السفير السوفييتي المصريين بأن جونسون قد اتصل بالسوفييت ليخبرهم بأن مصر ستهاجم إسرائيل فجر ذلك اليوم!(18).

ويعقب محمود رياض بخبرة السياسي المحترف:

" وهكذا، نرى دور الاتحاد السوفييتي هنا لم يكن أكثر من نقل رسالة جونسون بأسلوب مهذب، بينما كان المفروض أن يكون له دور مختلف تماماً، خاصة وأن السوفييت يعلمون بالتفوق العسكري الإسرائيلي"، وكان عليهم قبل نقل رسالة جونسون لناصر" أن يحصلوا في مقابل ذلك على تعهد واضح ومحدد من الولايات المتحدة بأن إسرائيل لن تقوم هي الأخرى بالعدوان، وتضمن تنفيذ ذلك كدولة عظمى"(19)..

وفي 6 حزيران 1967 اتخذ مجلس الأمن قراراً بوقف إطلاق النار بين جميع الأطراف، إلا أن القوات الإسرائيلية واصلت هجومها...

وفي 7 حزيران طالب المندوب السوفييتي بعقد اجتماع لمجلس الأمن، وعرض الوفد السوفييتي تحديد موعد لوقف اطلاق النار في الساعة 8 من مساء 7 حزيران لذلك، وتم اتخاذ قرار بذلك بالإجماع، ووافقت الأردن عليه، ووافقت مصر أيضاً شريطة أن يستجيب الطرف الآخر له، ولكن إسرائيل لم تستجب للقرار..

وفي 8 حزيران أصدر السوفييت بياناً حذروا فيه إسرائيل "بأن الاتحاد السوفييتي سوف يعيد النظر في موقفه من إسرائيل، ويتخذ قراراً يتعلق بالمحافظة على العلاقات الدبلوماسية معها لاحقاً في حالة عدم تنفيذها فوراً لمطلب وقف إطلاق النار بلا تسويف، والذي ورد في قرار مجلس الأمن"(20).

وفي 9 حزيران، يبلغ سكرتير الأمم المتحدة أوتان مجلس الأمن بأن مصر والأردن وسوريا قد وافقت على وقف إطلاق النار، إلا أن إسرائيل كانت قد بدأت عملياتها ضد سوريا، فواصلت هجومها عليها براً وجوّاً [21].

وفي 10 حزيران، دعا المندوب السوفييتي في اجتماع لمجلس الأمن لاتخاذ "إجراءات عاجلة وحازمة من أجل إيقاف المعتدي وإدانته بكل صرامة القانون الدولي"، وعارض ممثل الولايات المتحدة مشروع الإدانة، ولكنه دعا الطرفين المتنازعين لوقف إطلاق النار[22].

وفي 10 حزيران أيضاً يوجه رئيس الوزراء السوفييتي كوسيجين رسالة إلى الرئيس الأميركي جونسون، جاء فيها:

"...حلت الآن لحظة حرجة للغاية، تحملنا، إذا لم تتوقف العمليات الحربية في الساعات القريبة القادمة، على اتخاذ قرارات مستقلة، ونحن مستعدون لذلك، بيد أن هذه الأعمال يمكن أن تجعلنا نتصادم، الأمر الذي سيؤدي إلى كارثة وخيمة، ويبدو أن هناك قوى في العالم تنتفع من ذلك.

نحن نقترح عليكم أن تطالبوا إسرائيل بأن توقف العمليات الحربية في الساعات القادمة، بدون قيد أو شرط، ومن جهتنا فإننا سنفعل الشيء ذاته، ونقترح تحذير إسرائيل من أنه ستتخذ الإجراءات اللازمة، بما فيها الحربية في حالة عدم تنفيذها ذلك.."[23].

عندما وجه كوسيجين هذه الرسالة لجونسون في اليوم السادس لنشوب المعارك، كانت إسرائيل قد فرغت من تنفيذ خطتها، المرسومة، وغير المرسومة، فالذي أحرزته كان فوق الحلم، وبأقل الخسائر، لذا لم يكن هناك من خطر يهددها بعد انتصارها على دول المواجهة الثلاث، واستيلائها على مرتفعات الجولان والضفة الغربية وصحراء سيناء، لذا لا نظن أن مؤرخاً يستطيع إقناعنا أن هذه الرسالة كان لها أثر على مسار الأحداث، فبعد 45 عاماً على تلك الحرب، لم يذكر المؤرخون حتى اليوم أن إسرائيل كان لديها نوايا

وخطط لاحتلال أراض أخرى غير التي احتلتها في حرب حزيران، وقد حال دون ذلك تهديد سوفييتي أو صمود عربي!!

أما من حيث اقتراح السوفييت على الأميركيين الطلب من إسرائيل التوقف عن عملياتها الحربية في اليوم السادس من القتال، فهو اقتراح لا داعي له إلا مجاملة العرب، لأن ما تريده إسرائيل كان قد تم إنجازه، ولم يلو أحد ذراعها لإيقاف أعمالها الحربية، لذا لم تكلف الأميركيين عناء التوسل، ولم تكلف السوفييت مشقة التهديد والوعيد، أو أي "إجراءات لازمة" تضمنتها الرسالة السوفييتية!.

وفي العاشر من حزيران 1967، قطع الاتحاد السوفييتي علاقاته الدبلوماسية مع إسرائيل، وكذلك فعلت معظم دول أوروبا الشرقية [24].

تحليل سوفييتي لنقاط الضعف المصرية في حرب 67

وفي 31 تموز 1967، يقدم خبيران سوفييتيان في صحيفة البرافدا السوفييتية تحليلاً يعكس الاتجاهات التي ظهرت في الصحف السوفييتية حول الحرب، وقد ورد فيه:

".. الجيش المصري ترك كل شيء في سيناء، والهجوم المفاجىء لا يفسر كل شيء..

القوات المسلحة في الجمهورية العربية لديها أسلحة مهمة، وعتاد عسكري متطور، لماذا إذن الهزيمة؟

في البدء، لأن بعض الجنرالات وكبار الضباط الذين لم يقبلوا في داخلهم الثورة، لم يكونوا مهيئين لإتمام واجباتهم، لقد كانوا معارضين للخط الجوهري للسياسة الحكومية التي تميل إلى إنجاز إصلاحات اجتماعية عميقة في البلاد، ولكونهم أقوياء بسبب مواقعهم الرسمي، عارض كثير منهم أي تربية سياسية للجنود والرتباء، الأمر الذي أضعف – من دون شك – القدرة القتالية للجيش.

كان سلاح الجو الأكثر امتيازاً بين القوات المصرية، وهو استقطب تقليدياً الأوساط الميسورة، وفي 1961، عندما تحدث الرئيس عبد الناصر عن إصلاحات اجتماعية، عارض

ذلك سلاح الجو، وهدد بأنه لن يسمح بجلوس تجار الفجل في مجلس الشعب إلى جانب رجال سياسة لهم قيمتهم.

ثمة مشاعر مشابهة موجودة في القوات الأخرى، وخلال الثورة اتخذت إجراءات لتجديد جهاز الضباط، لكن هذه الحركة لم تصل إلى القيادة، وكان من الصعب أن تتصور الجنرالات وكبار الضباط الذين تأثرت ملكياتهم العائلية بالإصلاحات، يدعمون هذه الإصلاحات والسياسة الداخلية لعبد الناصر، ذلك أنهم كانوا يعارضون فكر بناء الاشتراكية في الجمهورية العربية المتحدة، وفكرة التغيير بواسطة العمال، لقد استخدم هؤلاء امتيازاتهم لتحسين وضعهم.. واهتموا بشؤونهم الخاصة أكثر من تدريب الجنود والرتباء[25].

ولا يخلو هذا التقرير من حقائق لا ينكرها الدارسون والمؤرخون..

فلم يكن سهلاً على ثورة يوليو أن تنهي أوضاعاً سادت لمئات السنين في مصر..أوضاع الطبقية والبرجوازية والامتيازات، وقد تأثر بهذا الجيش وضباطه، فلم تكن المعركة القادمة الشغل الشاغل لتلك الطبقة من كبار الضباط، بحيث يكون الاستعداد والترقب لها هو المسيطر على نفوسهم وسلوكهم وحياتهم اليومية، وقد أدركت مخابرات العدو ذلك تماماً، هذا العدو الذي اعترف أنه قد استعد لحرب 67 منذ هزيمته في 1956....

ويجيء اعتقال عبد الحكيم عامر مؤيداً للتقرير السوفييتي، ليس لأن ناصر كان يريد البحث عن شماعة يعلق عليها الهزيمة، بل لشعور القادة الكبار جميعاً بأن عامر كان سبباً رئيسياً لها.

مراجع

الباب الرابع

الفصل الأول

(1) هيكل، الانفجار، ص 71.

(2) م ن، ص 72.

(3) م ن، ص 72-73.

(4) م ن، ص 74.

(5) هيكل، عبد الناصر والعالم، ص 217.

(6) هيكل، الانفجار ، ص 78.

(7) هيلين دانكوس، السياسة السوفييتية في الشرق الأوسط، ص 113.

(8) فاسلييف، روسيا في الشرقين الأدنى والأوسط، ص 91-92.

(9) م ن، ص 100.

(10) فريدمان، السوفييت والشرق الأوسط، ص 20-24.

(11) هيكل، م س، ص 79.

(12) م ن، ص 80.

(13) م ن، ص 81.

(14) م ن، ص 83-84.

(15) م ن، 180-181.

(16) فاسلييف، م س، ص 100.

(17) هيلين دانكوس، م س، ص 113.

(18) م ن، ص 93.

(19) هيكل، م س، ص 93–94.

(20) م ن، ص 161.

(21) هيلين دانكوس، م س، ص 113–114.

(22) ناصر، خطاباته (الطبعة المصرية)، ج 5، ص 567.

(23) م ن، ص 572–574.

(24) م ن، ص 575.

(25) م ن، ص 579.

(26) م ن، ص 583.

(27) هيكل، م س، ص 96.

(28) م ن، ص 941–942.

(29) م ن، ص 946–947.

(30) م ن، ص 943.

الفصل الثاني

(1) هيلين دانكوس، م س، ص 121.

(2) م ن، ص 121–122.

(3) م ن، ص 122.

(4) فاسلييف، م س، ص 106.

(5) م ن، ص 105.

(6) هيكل، الانفجار، ص 673–674.

(7) الفريق أول محمد فوزي، حرب الثلاث سنوات، ص 141.

(8) م ن، ص 141.

(9) م ن، ص 141.

(10) م ن، ص 142.

(11) اسكندر أحمدوف، الاتحاد السوفييتي والعالم العربي، ص 89-91.

(12) م ن، ص 95-96.

(13) محمود رياض، مذكراته، ج 1، ص 71.

(14) م ن، 71 - 72.

(15) م ن، ص 79.

(16) م ن، ص 78-80.

(17) م ن، ص 80.

(18) م ن، ص 80.

(19) م ن، ص 80 -81.

(20) فاسلييف، م س، ص 107- 108.

(21) م ن، ص 108.

(22) م ن، ص 108.

(23) أسكندر أحمدوف، م س، ص 96.

(24) فاسلييف، م س، ص 108-109.

(25) هيلين دانكوس، م س، ص 126-127.

الباب الخامس

من حرب حزيران

حتى وفاة عبد الناصر

الفصل الأول

صيف جديد

ويكتمل صيف 1967 بظروف مختلفة على مصر...

فما كادت الحرب تضع أوزارها حتى كان الشلال السوفييتي من المساعدات العسكرية والاقتصادية والفنية يبدأ جريانه الغزير على الساحة المصرية، وبشكل يترك المرء غير مصدق أن البلاد خارجة من هزيمة لم تتلق مثلها من قبل...

الإجراءات السوفييتية ضد إسرائيل..

قامت وسائل الإعلام السوفييتية بحملة منظمة ضد الكيان الصهيوني، ومن فصول هذه الحملة:

1- اتهام الإسرائيليين بالوحشية "وأنهم يقتلون أسرى الحرب والفلاحين العزل، وهم يعدمون الرجال والنساء والأطفال جهاراً، حتى المراسلين الغربيين يقارنون هذه الجرائم مع جرائم النازية"، واستعملت صحيفة البرافدا مصطلح "إبادة الجنس".

2- وُصفت الصهيونية الدولية بأنها عصابة من الجانجستير (gangster أي قطاع الطرق)، وأنهم أدوات في أيدي أصحاب مصارف وول ستريت.

3- أن الصهيونية العالمية ليست حركة سياسية، بل هي مؤامرة إجرامية ضد الشعوب المحبة للسلام، وأنها دعوة عنصرية غايتها السيطرة على العالم.

4- وصفت وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه ديان بموشيه بن أدولف (أي أدولف هتلر).

5- أن العدوان الإسرائيلي لم يحقق غايته بالقضاء على الأنظمة العربية التقدمية[1].

ويقترح عبد الناصر زيارة للزعيم الجزائري بومدين إلى موسكو، وزيارة الملك حسين إلى واشنطن.

ويصل بومدين إلى موسكو في 11 حزيران 1967، وبعد مباحثات مهمة، يوضح السوفييت لبومدين "أنهم قاموا بدورهم في مساندة مصر بأسلحة كافية لم تستخدم، وأن تدخلهم المباشر في هذا الوقت يعرض العالم لخطر حرب عالمية ثالثة، وأنهم لن يترددوا في مساعدة مصر لإعادة بناء قواتها المسلحة"[2].

وهذا تصريح واضح جلي..

ألم يقل كوسيجين لجونسون في رسالته له في 10 حزيران عما يمكن ان تفعله المساعدة العملية لمصر:

"بيد أن هذه الأعمال يمكن أن تجعلنا نتصادم، الأمر الذي سيؤدي إلى كارثة وخيمة"[3]

إذن.. فالسياسة السوفييتية في مصر هي في فيتنام، وفي كوبا، تقديم المساعدات بكل أنواعها، وإيفاد الخبراء، ولكن إيفاد الجيوش قد يؤدي إلى حرب عالمية، وهم محقون في ذلك، وقد زاد السوفييت على ما سبق بإرسالهم الطيارين السوفييت للقتال على الجبهة المصرية – كما سيأتي – وقد لقي عدد منهم حتفه في ساح المعارك...

وكان عبد الناصر في 9 حزيران قد أعلن استقالته من منصبه كرئيس للجمهورية، فكان رد السوفيت سريعاً...

ففي اليوم الذي وصل فيه بومدين إلى موسكو (11 حزيران)، تسلم ناصر رسالة من القادة السوفييت بريجنيف وكوسيجن وبدجورني، يقولون فيها:

"أيها الصديق..

إننا ندرك خطر الموقف الذي نشأ في بلادك نتيجة العدوان الإسرائيلي، ومؤامرات القوى الامبريالية، وإننا نريد في هذه اللحظة، هذه اللحظة العسيرة، هذه اللحظة المسئولة، أن نعرب عن اعتقادنا الجازم بأنه يجب عليك ألا تترك بلادك، أو قيادتك..

الصديق العزيز عبد الناصر:

إنك تتمتع بسمعة كبيرة في العالم العربي، إن شعوب العالم تحبك، وتثق فيك، وتسندك، وإن أصدقاءك في جميع أنحاء العالم يعتمدون عليك، ويعتقدون أن استمرارك في موقعك هو وحده الذي يمكنك من العمل والنضال لاستعادة ما فقد، وحماية الانتصارات الكبرى للثورة العربية، وقيادتها إلى النصر النهائي.

إن العالم العربي، والقوى التقدمية في العالم، لن تفهم، ولن تقبل تخليك عن موقعك الآن، ولقد عقدنا اجتماعاً في موسكو أمس لزعماء الأحزاب والحكومات الشيوعية من جميع الدول الأوروبية الاشتراكية، ونحن في سبيل إصدار إعلان نقدم إليك فيه كل التأييد، كما قررنا بذل جهود مشتركة لحل جميع المشاكل التي تواجهك، اقتصادية أو عسكرية، ونحن على استعداد لمناقشة كل شيء معك.

مع عميق احترامنا

بريجنيف- كوسيجن- بودجورني[4]

واضح من الرسالة – على قصرها- مدى ثقة القادة السوفييت بناصر، ومعرفتهم به، وإدراكهم مزاياه وقدراته، وكأنهم يعرفون أن باقي القائمة من السادة الذين حوله لا يمكنهم مجاراته، أو القيام بالمهام القيادية بدلاً عنه، وفي هذه الظروف الصعبة التي لم تعشها مصر من قبل..

ثقتهم فيه بقدرته على النهوض بالبلاد مرة أخرى من أغوار الهزيمة..

قدرته على التعامل معهم ومع غيرهم من دول العالم وزعمائها وساستها..

وقد أثبتت الأيام صحة ما ذهبتُ إليه، وما ذهب إليه السوفييت.

إعادة بناء القوات المسلحة دعم سوفييتي بلا حدود..

ويبدأ شلال الدعم السوفييتي بعد يومين من الهزيمة، وكان دعماً بلا حدود، يشهد بذلك العسكريون والمدنيون من ساسة مصر وقادتها..

فعن الفرقة المدرعة – مثلاً – يقول محمد فوزي أن عدد دباباتها كان قبل الحرب 200 دبابة، دمر منها 12، وبقي للعدو 188 دبابة [5].

ويؤكد ما سبق ما ترويه محاضر اجتماعات عبد الناصر بعد الحرب مباشرة، ففي زيارة الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف، والجزائري هواري بومدين للإتحاد السوفييتي بعد الحرب مباشرة، وبتكليف من عبد الناصر، يقول الزعيم السوفييتي بريجينيف لهما بكل وضوح وذلك في جلسة المباحثات الأولى في 17/ 7/ 1967:

"..يوم حاربنا هتلر، واحتللنا برلين كانت لدينا قوات عسكرية تبلغ 16 مليون مقاتل، ولكن في حربكم مع إسرائيل لم يكن لديكم أي تفوق عددي، فكيف تتصرون؟

إننا متألمون جداً لأننا طرحنا سمعتنا مع سمعتكم، ولأننا وجدنا أحدث طائراتنا وأحدث صواريخنا في مراكز بحوث الولايات المتحدة الأميركية، كما أرسلت أحدث دباباتنا إلى ألمانيا الغربية، في الوقت نفسه نتألم عندما نسمع أن ضباط إسرائيل يقولون عن دباباتنا وطائراتنا التي تركتموها أنها من أفضل أنواع الأسلحة" [6].

وهذا مؤلم حقاً..

فما الذي استفاده السوفييت من إرسال الأسلحة التي زودونا بها إلى مراكز البحث في أميركا وألمانيا؟ ألا يدفع هذا إلى إيقاف الدعم عن المسئول عن ذلك؟

ومع ذلك يتسلم ناصر خطاباً من القادة السوفييت يعلنون فيه استعدادهم لتعويض مصر – مجاناً – كل الأسلحة التي فقدتها في حرب حزيران، وبذلك بدأت مصر إعادة بناء قواتها من جديد[7].

يقول وزير الحربية أمين هويدي آنذاك:

"كانت مئات الطائرات قد بدأت في الوصول على فترات متعاقبة من الاتحاد السوفييتي...أحياناً تأتي في قوافل جوية في سباق مع الزمن في الأيام الأولى بعد النكسة، وأحياناً أخرى في قوافل بحرية بعد ذلك... وبجهد محموم بدء في مضاعفة عدد الطيارين لمواجهة الزيادة في عدد الطائرات، فالبعض يُدربون في الاتحاد السوفييتي، والبعض الآخر يدربون هنا في القاهرة"[8].

ويؤكد أنور السادات ما سبق بقوله في مجلس الأمة:

"أن الاتحاد السوفييتي قد أقام جسراً جوياً سريعاً لتعويض القوات المسلحة المصرية فور الهزيمة، بحيث كانت تهبط طائرة سوفييتية كل دقيقتين"[9].

أما قائد القوات المسلحة الفريق أول محمد فوزي فيخبرنا أن بداية الدعم السوفييتي الهائل كانت اعتباراً من يوم 9/ 6/ 1967، أي بعد يومين من الهزيمة..

وكانت البداية تزويد مصر ب 31 طائرة ميج 21، و93 طائرة ميج 17، وكان نقل الأسلحة يتم بطائرات النقل الأنتينوف الضخمة، أو بالنقل البحري، فبلغ عدد الرحلات الجوية 544 رحلة، و 15 باخرة نقل بحري، حملت لمصر 48 ألف طن أسلحة ومعدات عسكرية، ولم يطالب الاتحاد السوفييتي بثمن هذه المعدات والأسلحة[10].

وقد قدر الفريق محمد فوزي ثمن الدفعة الأولى من السلاح السوفييتي المقدم لمصر بعد حرب 67 ب 100 مليون جنيه، وقد اعتبرت تعويضاً لما فقدته مصر، لذا كانت مجانية [11].

ولتوضيح موقف الاتحاد السوفييتي من حرب حزيران 1967 أورد فقرات من خطاب لكوسيجين:

من خطاب رئيس الوزراء السوفييتي كوسيجين في الدورة الخاصة الطارئة لهيئة الأمم المتحدة 19 حزيران 1967

"... ومما له دلالته أنه بعد بدء العمليات الحربية، في الوقت الذي أدان الاتحاد السوفييتي المعتدين الإسرائيليين بحزم منذ الساعات الأولى للنزاع المسلح، وطالب بالإدانة الشاملة لأعمالهم الغادرة، وبوقف إطلاق النار فوراً، وسحب القوات إلى ما وراء خط الهدنة، بذلت نفس تلك القوى التي لا يمكن نعتها إلا بأعوان العدوان، قصارى جهدها لكي تتهيأ لإسرائيل إمكانية كسب الوقت وغزو أراض جديدة، وتطبيق خططها، وبالنتيجة أصبح مجلس الأمن عاجزاً عن اتخاذ القرار الذي يمليه الموقف الطارىء، ولذلك بالذات، تقع مسئولية الوضع الخطر في الشرق الأوسط ليس على إسرائيل وحدها، بل وعلى أولئك الذين يقفون من ورائها في هذه الأحداث.

وفي الوقت الحاضر، تعلن الأوساط العدوانية المتطرفة في تل أبيب أن استيلاءها على الأراضي العربية يتيح لها، كما تزعم بوقاحة، إمكانية إبداء مطالب جديدة إزاء البلدان والشعوب العربية، وتشن في إسرائيل دعاية منفلتة من عقالها ضد العرب، وقد تلقفتها صحافة بعض البلدان الغربية، كما يجري تبجيل قوة السلاح، وتتعالى تهديدات جديدة ضد البلدان المجاورة، ويعلن أن إسرائيل لن تعبأ بأية قرارات، بما في ذلك قرارات الدورة الحالية للجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة، إذا لم تكن هذه القرارات ترضي مطالبها.

لقد ركب المعتدي رأسه، وتطرح الخطط المعدة منذ زمان بعيد، لإعادة رسم خارطة الشرق الأوسط، ويعلن الزعماء الإسرائيليون أن إسرائيل لن تغادر منطقة غزة، ولن تترك الضفة الغربية لنهر الأردن، وهم يعلنون أن إسرائيل تنوي الاحتفاظ بسيطرتها على القدس كلها، ويؤكدون بأن القوات الإسرائيلية ستظل في الأماكن التي تحتلها حالياً في حالة عدم خضوع الأقطار العربية لمطالب إسرائيل.

فما هو موقف حكومتي الولايات المتحدة وبريطانيا إزاء مطامع إسرائيل هذه؟

إنهما في الواقع تلتزمان هنا أيضاً بمواقف معاونة المعتدي، فكيف يستطيع المعتدي أن يفسر على نحو آخر موقفها في مجلس الأمن ، ذلك الموقف الذي حال دون القبول باقتراح سحب القوات الإسرائيلية فوراً إلى ما وراء خط الهدنة؟ إن الكلمات بشأن تأييد الاستقلال السياسي لبلدان الشرق الأوسط وحرمة اراضيها، تلك الكلمات التي لا يبخل بها المندوبون الأميركان، لا يمكن أن يكون لها معنى إلا في حالة ما إذا رفض الذين يتلفظون بها رفضاً لا لبس فيه مطامع المعتدي الإقليمية، وإذا طالبوا بسحب قواته فوراً...

إن الحكومة السوفييتية، استرشاداً منها بالمبادىء السامية لميثاق هيئة الأمم المتحدة، وبالرغبة في إزالة آثار العدوان، وإحقاق الحق بأسرع ما يمكن، تطرح على بساط الجمعية العامة مشروع القرار التالي:

"إن الجمعية العامة، إذ تؤكد أن إسرائيل قد خرقت بصورة فظة ميثاق هيئة الأمم المتحدة، ومبادىء القانون الدولي المعترف بها من قبل الجميع، فقامت بعدوان مبيت ومعد له مسبقاً على الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والأردن، واحتلت أجزاء من أراضيها، وسببت لها خسارة مادية كبيرة.

وتشير إلى أن إسرائيل، خلافاً لقرارت مجلس الأمن الصادرة في 6 حزيران و7 حزيران و9 حزيران 1967 بصدد وقف جميع العمليات الحربية، ووقف إطلاق النار فوراً، واصلت عملياتها الحربية الهجومية ضد الدول المذكورة، ووسعت نطاق احتلالها للأراضي.

وتشير كذلك إلى أن إسرائيل، بالرغم من توقف العمليات الحربية في الوقت الحاضر، تواصل احتلال أراضي الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والأردن بدون أن توقف العدوان، بالتالي، ومتحدية هيئة الأمم المتحدة، وجميع الدول المحبة للسلام.

وترى عدم جواز ولا شرعية طرح إسرائيل مطامعها بأراضي الدول العربية، الأمر الذي يعيق إحلال السلام في المنطقة.

إن الجمعية العامة :

1- تشجب بحزم عمليات إسرائيل العدوانية، واحتلال إسرائيل المستمر لجزء من أراضي الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والأردن، الامر الذي يعتبر عملاً عدوانياً لا شك فيه.

2- تطالب بأن تسحب إسرائيل فوراً وبدون أية شروط، جميع قواتها من أراضي الدول المذكورة إلى المواقع فيما وراء خطوط الهدنة الفاصلة بين الطرفين، والتي نصت عليها الاتفاقيات العامة بصدد الهدنة، وبأن تحترم نظام المناطق المجردة من السلاح بالشكل المنصوص عليه في اتفاقيات الهدنة هذه.

3- تطالب كذلك بأن تعوض إسرائيل كلياً، وبأسرع وقت، كامل الخسارة التي ألحقها عدوانها بالجمهورية العربية المتحدة وسوريا والأردن ومواطنيها، وأن تعيد جميع الأموال والقيم المادية الأخرى المغتصبة.

4- تتوجه بنداء إلى مجلس الأمن لكي يتخذ من جانبه الإجراءات الفعالة الفورية لإزالة جميع آثار العدوان الذي قامت به إسرائيل"

وتعبر حكومة الاتحاد السوفييتي عن أملها بأن الجمعية العامة ستتخذ قراراً فعالاً يؤمن ثبات سيادة الدول العربية، وحرمة أراضيها، وإحلال وتوطيد السلام والأمن في الشرق الأوسط"[12].

وتبدأ الاتصالات الجادة مع السوفييت بمجرد وقف إطلاق النار، ففي 10 حزيران، يطلب السفير السوفييتي في القاهرة مقابلة وزير الخارجية المصري محمود رياض، وأبلغه بنتائج اجتماع الدول الاشتراكية في موسكو، وتوقيعها بياناً مشتركاً قررت فيه قطع العلاقات مع إسرائيل، وتقديم العون السريع للدول العربية لإزالة آثار العدوان

الاسرائيلي، وفي ذلك الاجتماع أثار رياض احتمال حاجة مصر للخبراء السوفييت إضافة إلى طلبه للسلاح للإسراع في إعادة بناء الجيش المصري.

في اجتماع لرياض مع سفراء الدول الاشتركية، قدمت ألمانيا الشرقية 50 طائرة ميغ 17 وعدداً كبيراً من الدبابات والمدفعية[13].

وفي يوم 16 حزيران 1967، وصل وفد عسكري سوفييتي كبير إلى القاهرة بقيادة الجنرال لاشنكوف لبحث المساعدات السوفييتية لمصر، واستقبال المعدات والأسلحة السوفييتية وتوزيعها على الوحدات المصرية، وكان هذا الوفد بداية لأعداد كبيرة من الضباط والخبراء السوفييت الذين بدأ المصريون يطلقون عليهم اسم "خبراء"[14].

ووجهت الدعوة لناصر لزيارة موسكو، فاعتذر ناصر، وفضل زيارة مسئول سوفييتي إلى القاهرة.

بدجورني يزور القاهرة 21 **حزيران**1967

وفي 21 حزيران، وصل مصر الرئيس السوفييتي بدجورني، ومعه مارشال الاتحاد السوفييتي زخاروف رئيس هيئة أركان حرب السوفييتية، لتبدأ لقاءات قمة مع كبار المسئولين المصريين أمثال محمد فوزي وزكريا محي الدين ومحمود رياض وعلي صبري وغيرهم، وفي اليوم التالي كانت أولى جلسات المباحثات الرسمية.

ويبرر رياض أهمية هذه المباحثات قائلاً:

"ترجع إلى أنها بداية مرحلة جديدة في العلاقات المصرية السوفييتية، أدت فيما بعد إلى تواجد سوفييتي قوي، ليس في مصر وحدها، بل في أماكن أخرى عديدة في العالم العربي، وأدت بالتالي إلى تغيير جذري في سياسة مصر بالنسبة لعدم الانحياز، وكان التواجد السوفييتي يزداد كلما ازداد الدعم الأميركي للاحتلال العسكري الاسرائيلي للأراضي العربية"[15].

وذكر بدجورني أنه حرص على لقائه مع ناصر قبل أن تبدأ مباحثات كوسيجين مع الرئيس الأميركي جونسون، والتي يُتوقع أن يطلب فيها جونسون تنازلات عربية لصالح إسرائيل[16].

وجاء في أقوال بدجورني:

1- أنه أبلغ موسكو بضرورة إدخال سفن سوفييتية إلى البحر الأبيض المتوسط ليتوازن ذلك مع تواجد السفن الأميركية فيه.

2- أن وزارة الحربية السوفييتية تدرس الآن احتياجات مصر.

وجاء في أقوال ناصر أن أميركا تتواطأ مع إسرائيل لأنها ترى في مصر دولة منحازة للكتلة الشرقية، وأنه يفضل تعاوناً عسكرياً مع السوفييت، وإن كان ذلك يسبب مزيداً من العداء الأميركي، وأن أميركا ترفض عودة إسرائيل إلى حدود 4 حزيران، وتصر على سياستها العدوانية ضد مصر، لذا فإن مصر راغبة في تعميق التعاون المصري السوفييتي.

كما قال:

"إننا إذا كنا نطلب منكم أن تكونوا معنا في وقت الحرب، فيجب أن نكون معكم في وقت الحرب ووقت السلم، وأمامنا الآن أيام صعبة يتعذر أن نتغلب عليها وحدنا، ولا يوجد أمامنا سوى طريقين: إما الاستسلام للولايات المتحدة فتساعدنا كما تساعد بعض الدول الآسيوية بشرط أن نخضع للاستعمار العالمي، والطريق الآخر هو أن نناضل ونقاتل من أجل حريتنا، ولأن النضال يستهدف هذه المرة تحرير أراضينا بقوة السلاح، فإنه يتحتم علينا أن نتفق مع الاتحاد السوفييتي، ونحن على استعداد لتقديم تسهيلات لسفن أسطولكم من بورسعيد إلى السلوم، وبالطبع، فإننا سوف نستمع إلى أشخاص هنا، في مصر، يقولون لنا: أنتم أخرجتم الانجليز من الباب وأدخلتم السوفييت من النافذة، ولكن كل هذا الكلام يهون ويمكن تحمله في سبيل تحرير أرضنا، وإذا اقترن ذلك بتدعيم عسكري فعال وجاد من جانبكم لنا، وبتعاون كامل بيننا، فإن هذا سيكون له أثر طيب جداً في داخل مصر وفي العالم العربي.

أما بالنسبة للدفاع الجوي في هذه المرحلة، التي نبدأ فيها في إعادة بناء قواتنا المسلحة، فإنني أفضل أن يكون في إطار دفاع مشترك، أي مصري / سوفييتي، وبذلك يشترك ضباطنا وجنودنا في الدفاع الجوي مما يكسبهم الخبرة العالية من كوادركم المشتركة معنا، موضوع آخر، وهو أن إسرائيل الآن في سيناء، ونحن نجهز خط دفاعنا على الضفة الغربية لقناة السويس، بعد ذلك إذا لم تخرج إسرائيل من سيناء بالطرق السلمية، فلا بد أن نقاتلهم لإخراجهم منها بالقوة كما احتلوها بالقوة، إن عملية إخراج القوات الإسرائيلية من سيناء هي مسئوليتنا وليست مسئوليتكم، وهو أمر يجب أن يكون واضحاً تماماً، أما الدفاع الجوي عن أراضي الجمهورية فهذا ما نطلب مشاركتكم فيه".

كما أضاف ناصر :

"هناك احتمال آخر يجب أن ندرسه معاً، وهو أن إسرائيل قد تحاول أن تعبر قناة السويس، والتوغل في العمق المصري، إن مواجهة مثل هذا الاحتمال تدخل في نطاق مسئوليات والتزامات الدفاع المشترك بيننا وبينكم، وإني أعتقد أن إسرائيل في مثل هذه الحالة سوف تكون مدفوعة لشن هذا الهجوم من الولايات المتحدة، خصوصاً بعد أن يتأكد الأميركيون من موضوع الارتباط بيننا وبينكم، وبعد أن تدخل سفن الأسطول السوفييتي المياه المصرية، والموانىء المصرية، عند ذلك سيختل توازنهم، بالطبع عندنا في داخل مصر من سيعارض الاتفاق معكم، كذلك سوف نتعرض للهجوم الإعلامي من الغرب، إنه وضع طبيعي، ولكنه أمر غير جدير بالاهتمام"(17).

وفي الجلسة الثانية في 23 جزيران 1967صرح ناصر بأن مصر قد تسلمت بعد المعركة مباشرة 25 طائرة ميج 21، و 93 طائرة ميج 17، وذكر الوفد السوفييتي بأن الوفد العسكري المصري قد أخبره باتفاقه مع السوفييت على الحصول على 40 طائرة ميج 21 جديدة.

وجاء في ردود المارشال زخاروف:

"سوف تصلكم خلال يومين ثلاثة وأربعون طائرة ميج 21 مع عمال التركيب والتجهيز، بالإضافة إلى ست طائرات تدريب، كما توجد 38 طائرة سوخوي، وعموماً سيصبح لديكم في وقت قريب جداً عدد من الطائرات المقاتلة أكثر مما كان لديكم قبل العدوان، أما بالنسبة للمدرعات فسوف تصلكم 100 دبابة، ونحن على استعداد لإرسال المزيد من المدرعات كلما توفرت أطقم الدبابات عندكم"

ولما رد ناصر بأن مصر بحاجة لخبراء في التنظيم والإدارة، رد بدجورني بأن موسكو قد قررت إرسال 1200 خبير من مستوى القيادة العامة إلى كافة المستويات [18].

كما اتفق الطرفان على ما يلي:

1- إزالة آثار العدوان الإسرائيلي.

2- إعطاء القوات المسلحة المصرية الأولوية في برامج الدعم الحديث والسريع.

3- أن تكون الأسبقية في الدعم للدفاع الجوي، وللقوات الجوية، وذلك بالإمداد بالأسلحة وإعداد الطيارين.

وطلب عبد الناصر:

1- زيادة قطع الأسطول السوفييتي في شرق البحر الأبيض المتوسط، ليتوازن ذلك مع الأسطول السادس الأميركي المتواجد فيه، والذي تعده إسرائيل عمقاً استراتيجياً لقواتها.

2- كما طلب طائرات قاذفة بعيدة المدى لتكون صنواً لطائرات الميراج والمستير الإسرائيلية التي كانت تصل إلى عمق الأراضي المصرية [19].

ويؤكد ما سلف وزير الحربية الأسبق أمين هويدي حين يقول:

".. وتم تعويض كافة خسائرنا التي حدثت في يونيو 1967، من الاتحاد السوفييتي من رادارات إلى مدفعية إلى صواريخ، كما تم استكمال النقص في بعض أنواع المدافع من أسواق السلاح العالمية، وأخذت أسلحة من نوع جديد لم تستخدمه قواتنا من قبل تصل من الاتحاد السوفييتي، فعلاوة على الصواريخ سام 2 وسام 3 التي كانت مستخدمة قبل النكسة، وصلت صواريخ سام 6 وسام 7، مما كان سبباً في تدعيم القوة القتالية"[20].

وأكده عبد الناصر بتصريحه في 16 أيار 1970:

"فيه حاجات ما كناش نعرفها ادوهالنا، والحقيقة بدون معونة السوفييت كنا حنكون كلية تحت رحمة إسرائيل، لأن طبعاً كان من السهل عليهم ان يعبروا إلى الضفة الغربية من القناة ويتقدموا للقاهرة، اما الآن فهذا أمر مستحيل عليهم"[21].

وكان عبد الناصر قد طلب من السوفييت تولي مهمة الدفاع الجوي، فرد بدجورني بأن ذلك يتطلب اجراءات دستورية ومعاهدة، فاقترح ناصر عقد اتفاقية دفاع مشترك بين الدولتين، ولكن الرد السوفييتي كان سلبياً، وذلك "لحساباتهم الخاصة فيما يتعلق بقضية الوفاق العالمي، والتعايش السلمي التي كانوا يناضلون من أجل تحقيقها مع الولايات المتحدة، ضماناً لاستقرار السلام العالمي من جهة، ولطبيعة العلاقات بين الدول الاشتراكية ودول منطقة التحرر الوطني التي لم تكن تسمح حتى هذا الوقت بقيام هذا النوع من الاتفاقيات"[22].

ويقيم الفريق صلاح الدين الحديدي التجربة المصرية مع السوفييت في سطور قليلة، فيقول:

"إن الاتحاد السوفييتي قام بلا شك بتقديم أكبر عون لنا منذ بدء علاقتنا به، وشمل هذا العون كافة النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية، ولا أستطيع أن أتخيل كم يكون موقفنا صعباً لو لم تكن هذه العلاقة موجودة ووثيقة، ولا سيما بعد تدمير معظم أسلحتنا وقواتنا الجوية في يونيو 1967"[23].

" وعلينا هنا أن نكون واقعيين في التعامل مع هذه المسألة التي تخص السوفييت وحدهم..

فالباحث يقر بأن السوفييت لا يريدون حصول نزاع مسلح بينهم وبين الولايات المتحدة، لسبب بسيط، وهو أنهم كانوا الدولة الأكثر خسارة ومعاناة من جراء الحرب العالمية الثانية، فزادت ضحايا هذه الحرب على جبهتهم عن 22 مليوناً، وكان هناك مجاعات ودمار وخراب لم يحصل للدول الأخرى المشاركة في الحرب، لذا هم – منعاً لتكرار ذلك – يتعاملون مع الدولة الأكبر والأخطر بمنتهى الحذر، ومن يدري، فلربما تحالف معها دول أخرى في أي نزاع محتمل.

ويعلم السوفييت أنهم كدولة شرقية، لا تكف عن إمداد الشعوب المتحررة ومساعدتها، أمسوا هدفاً للغرب ومطامعه، وتحالفاته وخططه، لذا فإن التزام الحذر مطلوب في كل خطوة يخطوها قادتهم وزعماؤهم.

وهذا يقودنا لرأي للوزير المصري الأسبق أمين هويدي، حين يقول:

" قول البعض بأنه لم يكن للاتحاد السوفييتي هدف خاص من وقوفه إلى جانبنا فيه سذاجة، فقد كان يهدف – وهو يخوض صراع الحياة والموت مع الكتلة الغربية- إلى التواجد في المنطقة بأي ثمن، لأهميتها من الناحية الاستراتيجية، ثم العمل على تثبيت هذا التواجد وتعميقه ما وسعه ذلك في المراحل التالية، وكان هذا سبب حرصه على التسهيلات التي أعطيت له في الموانىء والمطارات المصرية [24]".

تعليق

يعلم ناصر، كل العلم، خطورة المرحلة القادمة، ومدى ارتباط إسرائيل بأميركا، ومدى الدعم الذي تقدمه لها، لذا لا بد لمصر من دولة عظمى تعينها على الأيام الحالكة القادمة، والسوفييت جاهزون، فلماذا لا نستعين بهم إلى آخر مدى يمكن أن يقدموه؟.

والطريقين اللذين يطرحهما عبد الناصر معروف اختياره بينهما، فهو الطريق الثاني، إذ لا يعقل أن يختار اميركا وهي التي تدعم دولة العدو، فكيف ستقف مع مصر في صراعها مع إسرائيل، لذا تختار مصر درب النضال الذي فرضه العدو ومن يقف وراءه، وهو الذي يتطلب الاتفاق مع السوفييت، ويقر ناصر أن هذا الاختيار يتطلب تقديم تسهيلات لهم ربما لم تكن مسموحة من قبل، أو لم يتم بحثها، فالمرحلة تتطلب ذلك، وشتان بين وجود تسهيلات لدولة صديقة غايتها الدفاع عنا، والقتال معنا، ودولة مستعمرة غايتها السيطرة على البلاد، واستنزاف خيراتها.

ويكون ناصر على درجة عالية من الحكمة والكياسة في طرحه ما تريده بلاده، فهو لا يطلب من السوفييت إرسال جيش بري للقتال مع مصر، كون مهمة التحرير لن تكون سوفييتية، ولكنه يطلب المشاركة في الدفاع الجوي، لإدراكه تفوق الطيارين السوفييت، وعلو كعبهم في القتال الجوي، وفي الوقت ذاته يبرر مطلبه باكتساب الطيارين المصريين الخبرة من رفاقهم السوفييت، وقد أثبتت الأيام مدى صحة ما ذهب إليه الزعيم الراحل، وباعتراف طياري العدو.

وفي جلسة فرعية للمارشال زخاروف مع الفريق أول محمد فوزي وكبار الضباط المصريين تم ما يلي:

1- قدم لزخاروف كشف كبير من الأسلحة والمعدات الحديثة التي تحتاجها مصر، والتي وعد بعرضها على القيادة السياسية في بلاده.

2- وعد زخاروف بالبقاء في مصر حتى ينتهي مع المستشارين السوفييت من مساعدة مصر في بناء خط الدفاع الأول غرب القناة، والاطمئنان على فاعليته.

3- الإطمئنان على.إنشاء القوات المسلحة المصرية الجديدة وتكوينها، وضرورة إعطاء المستشارين السوفييت الثقة، وتحديد سبل التعامل معهم.

4- في جلسة أخرى تمت مناقشة الوضع الاقتصادي المصري، وتحديد سبل التعاون مع السوفييت والدول الاشتراكية الأخرى في هذا المجال[25].

الفصل الثاني

حرب الاستنزاف

والدعم السوفييتي الهائل

هواري بومدين وعبد الرحمن عارف يزوران موسكو تموز 1967..

وبتكليف من عبد الناصر، وبوجود عدد من الحكام العرب في القاهرة، يقوم الزعيم الجزائري هواري بومدين والزعيم العراقي عبد الرحمن عارف في تموز 1967 بزيارة الاتحاد السوفييتي لإجراء مباحثات مع القادة السوفييت، فعقدا جلستين معهم، ثم عادا لإبلاغ القاهرة بنتائج المباحثات، وكان أهم ما صرح به القادة السوفييت:

1- أن إسرائيل رغم أن تعدادها 2،5مليون نسمة، إلا أنها تملك جيشاً مدرباً تعداده 350 ألف جندي مدرب تدريباً حسناً.

2- أن السوفييت قد زودوا مصر بكميات كبيرة من الأسلحة بداية من يوم 8 حزيران، في 544 رحلة جوية حملت 48 ألف طن من الأسلحة والمعدات.

3- جاء في أقوال بريجنيف – كما أسلفنا- " إننا متألمون لأننا ربطنا سمعتنا بسمعتكم، ولأننا وجدنا أحدث طائراتنا وأحدث صواريخنا في مراكز بحوث الولايات المتحدة الأمريكية، كما أرسلت أحدث دباباتنا إلى ألمانيا الغربية، في الوقت نفسه نتألم أكثر عندما نسمع أن ضباط إسرائيل يقولون عن دباباتنا وطائراتنا التي تركتموها أنها من أفضل انواع الأسلحة [1].

4- تشجيع السوفييت وحضهم على ضرورة التحالف العربي الكامل.

5- أن السوفييت يميلون إلى قبول مصر بالحل السلمي لكسب الوقت، لأن أي عمل عسكري ضد إسرائيل يحتاج إلى سنتين أو ثلاث سنوات من الإعداد والتدريب [2].

متى بدأت حرب الاستنزاف

وهناك خلاف واضح بين المؤرخين في تحديد تاريخ بداية حرب الاستنزاف..

فالمؤرخ أحمد حمروش يحدد بدايتها في 23 تموز 1969، ولا يذكر سبباً لهذا التحديد[3].

ويحدد المشير محمد عبد الغني الجمسي بدايتها في 8 آذار 1969، وانتهاءها بمبادرة روجرز في آب 1970 [4]، ويعلل هذا التحديد قائلاً:

"افتتحت مرحلة الاستنزاف يوم 8 مارس 1969 بقصف مركز من المدفعية المصرية ضد تحصينات ومواقع العدو التي أقامها الجنرال حاييم بارليف رئيس الاركان الاسرائيلي على الضفة الشرقية للقناة"[5].

وفي كتابه "حروب عبد الناصر" يعتبر المؤرخ وزير الحربية آنذاك أمين هويدي الفترة بعد حرب 1967، ولمدة 3 سنوات، حرب استنزاف [6].

وأرجح رأي المؤرخ أمين هويدي للأسباب التالية:

1- قامت سياسة عبد الناصر بعد حرب 1967 على أن الحرب ما زالت مستمرة، وان غاية مصر استرداد ما سلب منها، وتحقيق ذلك يقتضي العمل السياسي والعسكري، فاشتهرت عبارته: ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة.

2- وكان ذلك يقتضي ان لا يشعر العدو بالهدوء والاستقرار في مواقعه الجديدة، لذا لا بد من مناوشته وضربه دائماً.

3- استؤنفت العمليات العسكرية على القناة بعد حرب 67 مباشرة، ومن ذلك معركة راس العش، وإغراق المدمرة إيلات، وضرب الحفار كنيتنج في ساحل العاج [7].

وما يهمنا مما سبق أن مصر عبد الناصر قد باشرت بعد حرب 67 مباشرة تعويض خسائرها في تلك الحرب، واستعدادها الحقيقي للحرب القادمة، فلم تجلس لتلعق

جراحها، وتبكي على شهدائها وأسراها، ولم تنتظر وفداً ولا لجنة ولا مؤتمراً، ولا فكرت في توقيع اتفاقية مع العدو، ولا في استدعاء وساطات طلباً للعفو والغفران!!

أما في الفترة اللاحقة، وابتداء من عام 1968، فقد كانت مصر توقع مع السوفييت كل عام ثلاث اتفاقيات لاستيراد السلاح، بقروض ذات ميزات وشروط مريحة جداً..

فقد كانت فترة السماح عشر سنوات.

والأقساط توزع على 40 عاماً، بفائدة لا تزيد عن 2،5 ٪ ، وبأسعار منخفضة جداً، فبينما كن ثمن طائرة الميج 21 ثلاثة أرباع المليون جنيه مصري، كان ثمن طائرة الميراج حين استوردتها ليبيا من فرنسا 3 مليون دولار، وكان ثمن طائرة الفانتوم الأميركية 6-8 مليون دولار [8]، فتأمل..

ومن تلك المساعدات الهائلة من السلاح والخبرات:

1- إمداد مصر بأربعين طائرة ميج أخرى، و 1200 مستشار.

2- في لقاء القمة الثاني بين الزعيمين في موسكو في 29/ 6/ 1967، حصلت مصر على معدات وأسلحة بقيمة 200 مليون جنيه.

وكان عبد الناصر قد صرح في اجتماع المجلس الوزراء في 7 نيسان 1968 أن السوفييت قد وافقوا على استخدام الخبراء الطيارين السوفييت الموجودين في مصر، وعددهم 56، وأن مصر تضغط على السوفييت لزيادة هذا العدد، وقد ووفق على مطلبه.

وعن الإمدادات السوفييتية عام 1967، يخبرنا المؤرخ أمين هويدي بما وصل من سلاح إلى مصر عام 1967 ناقلاً عن مذكراته الشخصية:

في 9/ 9/ 1967:

وصلت مراكب سوفييتية وعليها 30 دبابة تي 34، 16 مدفع مضاد للطائرات 14،5 بوصة، 10 حمالة أفراد مدرعة برمائية للإقتحام.

في 12/ 9/ 1967:

وصلت مراكب سوفييتية وعليها 130 عربة مدرعة زميل، و95 عربة 4×4، 9 لوري، 12 عربة فنطاس للمياه، 8 عربة فنطاس وقود، 8 عربة ورشة، 12 عربة ميكروباس، 19 عربة ركوب.

في 18/ 9/ 1967:

وصلت مراكب سوفييتية عليها 35 دبابة تي 55، 50 مدفع مضاد للطائرات 14،5 بوصة، 10 عربة ورشة للدبابات، 100 مقطورة مطبخ، أحجام ذخائر، 12 حمالة أفراد برمائية للإقتحام، 8 جهاز لاسلكي، 4380 صاروخ.

في 20/ 9/ 1967:

وصلت باخرة سوفييتية عليها 34 دبابة تي 34، 2 قاذف صاروخي مضاد للطائرات، قطع غيار مختلفة.

في 27 / 9/ 1967:

وصلت باخرة عليها 57 دبابة تي 34، 35 دبابة تي 55، 1،090 طن ذخيرة، 6عربة ركوب، 6 مقطورة للرادار.

في30/ 9/ 1967:

وصلت باخرة عليها 50 مدفع 100 ملم، 300 قاذف، 5 دقاقة، أجهزة إشارة، قطع غيار.

في 1/ 10/ 1967:

وصلت باخرة عليها 36 هاوتزر152، 27دبابة تي 4، 34 بلدوزر، 20 حمالة برمائية، أجهزة لاسلكي، ذخيرة.

في 2/ 10/ 1967:

وصلت باخرة عليها 30 دبابة تي 55، 50 مدفع 100ملم، 50 هاوتزر 122، 24 هاون 160، 81 هاون 120، 150 هاون 82، 40 مدفع 85 ملم، 10700 بندقية، 2 حفار ودقاق، 7 عربة ورشة، 16 محطة لاسلكي، 10000 طلقة هاون 120 ملم "[9].

وفي جلسة أخرى لمجلس الوزراء في 5 أيار 1968 أعلن ناصر عن موافقة السوفييت على زيادة عدد الطيارين السوفييت العاملين مع القوات المصرية إلى 120 طياراً، وأنهم تحت القيادة المصرية، وأن هذا العدد سيتيح لمصر التفرغ لتدريب العدد المطلوب من الطيارين المصريين[10].

وليس غريباً أن يحاول الأميركيون تعكير العلاقات بين مصر والسوفييت وهم يرونها تتحسن وتتطور مع الأيام..

فقد أخذوا يشيعون في الدوائر الدبلوماسية أنهم توصلوا لحل مع السوفييت حول قضية الشرق الأوسط، ولما وصلت التقارير بذلك إلى محمود رياض وزير الخارجية المصري، استشار عبد الناصر الذي أثار الموضوع في مجلس الوزراء، ولما تم إعلام السوفييت بذلك، صرحوا ان غاية الأميركيين الوقيعة بين مصر والسوفييت، ومحاولة لإغلاق بوابة السلاح السوفييتية، وبناء القوات المسلحة، واسترجاع الأرض بالقوة [11].

1969 أضخم الإمدادات السوفييتية لمصر

ويضيف الفريق أول محمد فوزي بأن ما حصلت عليه مصر من السوفييت من الإمدادات العسكرية عام 1969، يعادل ما حصلت عليه منهم في 12 عاماً (1955-1967)[12].

ورغم هذه الإشادة، فإن محمد فوزي في كتابه "حرب الثلاث سنوات" لا يقدم لنا شيئاً عن قوائم الأسلحة التي قدمت لمصر في هذا العام، مع أنه قدم ذلك عن باقي

السنوات وبالذات عام 1970، ورغم قيمة المعلومات التي يقدمها الكتاب وغزارتها، إلا أنه يعوزه احياناً التسلسل التاريخي، وفيه تكرار كثير.

وفي لقاء القمة الثالث في موسكو في كانون أو ل 1969، وناب أنور السادات عن عبد الناصر فيه، وحضره محمود رياض ومحمد فوزي، أتفق على إرسال 60 طياراً سوفييتياً كخبراء، ومجموعة كبيرة من صواريخ سام 3 ومعها أطقمها، لتدريب الجنود المصريين عليها[13].

ونظراً لغارات طائرات الفانتوم الاسرائيلية المتواصلة على مصر مستخدمة أجهزة الكترونية أميركية حديثة تشوش على أجهزة الدفاع الجوي المصري، حتى وصلت غاراتها إلى ضواحي القاهرة في المعادي وحلوان وأبو زعبل والخانكة، لتلقي بآلاف الأطنان من القنابل، نظراً لذلك، يضطر ناصر للسفر إلى الاتحاد السوفييتي في رحلة طلب ان تكون سرية، ليطلب فيها إمداد مصر بأجهزة تقابل ما لدى إسرائيل من تقنيات عدوانية [14].

"وفي 13 كانون ثان 1970 تعلن جولدا مائير صراحة أنها لا ترى فرصة للسلام ما دام عبد الناصر في الحكم، وبالتالي فإن سقوط عبد الناصر والنظام كله، الذي يمثله، يجب أن يسبق أي حديث عن السلام"[15].

وفي 18 كانون ثان كتبت صحيفة النيويورك تايمز الأميركية أن إسرائيل تريد من غاراتها تلك إيصال الحرب إلى الشعب المصري، أي دفعه إلى الثورة، وتقويض القيادة المصرية[16].

عبد الناصر يزور موسكو 22- 1970/1/25

وبعد تواصل الغارات الاسرائيلية على مصر، وقصفها مصنع مدني في أبو زعبل، وقتلها 70 عاملاً وجرحها 100، ثم قيامها بغارة على مدرسة أطفال في بحر البقر وقتلها 46 طفلاً وجرحها 40، وأهداف مدنية عديدة واستعمالها قنابل النابالم في قتل المدنيين[17]،

يقوم عبد الناصر بزيارته قبل الأخيرة - وكانت سرية- وعلى متن طائرة سوفييتية إلى الاتحاد السوفييتي في 22كانون ثان 1970، ويصحبه الفريق أول محمد فوزي ومحمد حسنين هيكل والسفير السوفييتي في القاهرة سيرجي فينوجرادوف، والجنرال السوفييتي كاتشكين، وفي موسكو انضم للوفد السفير المصري مراد غالب، وبدأت المباحثات في اليوم الأول لوصول الوفد إلى موسكو، ولم يحتج ناصر لوقت طويل لطلب ما يريد..[18].

فصرح ناصر في الاجتماع بأن إسرائيل تنال ما تريد من الولايات المتحدة، في حين تتعرض مصر لخطر إسقاط النظام الحاكم فيها، لذا يرى لزاماً عليه - أي ناصر- أن يقدم استقالته، ويترك المجال لرئيس جديد يتولى المهمة من بعده، ويكون مقرباً من أميركا لينقذ البلاد مما قد تتعرض له من عدوان[19].

وبناء على هذا التهديد، دعي المكتب السياسي السوفييتي، واللجنة المركزية، وحضر 12 مارشالاً سوفييتياً من بقاع مختلفة في الاتحاد السوفييتي، ليتخذ السوفييت قراراً تاريخياً بالموافقة على ما طلبه عبد الناصر بالكامل، منوهاً إلى أنها المرة الأولى التي يخرج جندي سوفييتي من الاتحاد إلى دولة صديقة منذ الحرب العالمية الثانية، وقرأ بريجينيف قرار مجلس السوفييت الأعلى وكانت خلاصته:

1- إمداد مصر بفرقة كاملة من صواريخ سام 3 بأفرادها ومعداتها وأجهزتها وحملتها وأسلحتها المعاونة من فرق الدفاع الجوي للاتحاد السوفييتي، على أن تصل إلى موانىء مصر في خلال شهر واحد، وأن تعمل تحت القيادة المصرية لأغراض الدفاع الجوي عن العمق المصري.

2- إمداد مصر بقوة 3 لواء جوي كامل من 95 طائرة ميج 21 معدلة بالمحرك الجديد ي 511 بالقادة والطيارين والموجهين والفنيين السوفييت، وأجهزتها وراداراتها للإنذار والتوجيه والمعدات الفنية والعربات، وأن توضع تحت القيادة المصرية للمساهمة في الدفاع الجوي عن العمق المصري، على أن تصل خلال شهر، بالإضافة إلى 50 طائرة سوخوي 9، وعدد 10 طائرات ميج 21 تدريب، وعدد

50 موتور طائرة ميج 21 معدلة من نوع 511 ي لتركيبه في طائرات ميج 21 الموجودة في مصر.

3- إمداد مصر ب 4 جهاز رادار ب 15 لرفع كفاءة الإنذار الجوي في شبكة الدفاع الجوي المصري.

4- تقوم مصر بتجهيز الدفاعات والتحصينات والمرافق الإنشائية لهذه المعدات بحيث تكون جاهزة في الأماكن التي تخططها القيادة العسكرية المصرية قبل وصول المعدات السوفييتية إلى مصر.

5- يعتبر تواجد الجنود السوفييت مؤقتاً لحين استكمال تدريب اللواءات المصرية من قوات الدفاع الجوي، والقوات الجوية في مراكز تدريب الاتحاد السوفييتي والجمهورية العربية المتحدة في وقت واحد، وعندئذ يعود الأفراد السوفييت إلى وطنهم، وكرر الرئيس بريجينيف على واجبات لواءات الدفاع الجوي والقوات الجوية في عمق مصر...

وعاد الرئيس عبد الناصر والوفد المرافق له مسرورين بالدعم السياسي والعسكري الجديد، والذي لم يسبق للإتحاد السوفييتي أن قدم مثله لدولة صديقة منذ الحرب العالمية الثانية [20].

وقد وصل هذا الدعم الهائل والتاريخي إلى ميناء الاسكندرية في 25 شباط 1970 تحت حماية الأسطول السوفييتي [21].

وفي خطابه في 23 يوليو 1970، ذكر ناصر هذه الزيارة، فقال:

"..وجدت من قادة الاتحاد السوفييتي في هذه الأيام كل اهتمام، اهتمام بسلامة الشعب المصري في مدنه وفي قراه، واهتمام بألا يتعرض الشعب المصري لغارات العدو، واهتمام بأن تكون مصر قادرة على الدفاع عن أرضها بكل وسيلة من الوسائل، وبعد هذا صدر قرار من قيادة الاتحاد السوفييتي سيساعدنا بكل ثقله في الدفاع عن وطننا ضد

غارات العمق، وضد التهديد الذي يتعرض له المدنيون، وضد التهديد الذي تتعرض له الأهداف الاقتصادية.

وأبلغوني في زيارتي في يناير أن كل هذا الدعم المطلوب لنا سيصل في مدة لا تزيد عن 30 يوم.. وقد أوفى الاتحاد السوفييتي بوعده، وبهذا فإننا نذكرهم أيضاً بالشكر والعرفان، لأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تعطي إسرائيل كل ما تريد من أسلحة الدمار، ومن الأسلحة المطلوبة للحرب الألكترونية، ونحن نرى الآن أن الغارات من إبريل الماضي، الغارات التي كانوا بيتبجحوا بها الاسرائيليون، وبقولوا كل يوم أن قواتهم الجوية تضرب في العمق وستضرب.. قد توقفت"[22].

وهذا حديث يناقض أحاديث السادات عن التزام السوفييت بمساعدة مصر، فهو إشادة وعرفان بما قدموه لمصر من أسلحة ومعونات.

ويضيف الفريق أول محمد فوزي:

"وكنت قد نسقت مع المارشال جريشكو وزير الدفاع الترتيبات اللازمة للآتي:

أ- تدريب 3 لواءات كاملة من الدفاع الجوي (صواريخ سام3) ورفع مستوى لواءات كاملة من القوات الجوية(ميج 21) بقوة لواء دفاع جوي وسرب قوات جوية بالدور لمدة ثلاثة أشهر في الاتحاد السوفييتي.

ب- في نفس الوقت يتم تدريب مثل هذا العدد في مصر.

كما وعدت أمام جلسة مباحثات القمة بعد إصدار القرار استعدادي لتجهيز مواقع الصواريخ سام 3 وعددها 32 موقعاً، وأجهزتها الفنية والرادارية في خلال فترة زمنية أقصاها 40 يوماً"

ويواصل محمد فوزي تقييمه لرحلة عبد الناصر تلك إلى الاتحاد السوفييتي، فيقول:

"وكانت هذه الرحلة وما حققته من أهداف نقطة تحول كبيرة بالنسبة لجميع الأطراف، فكان خروج الجنود السوفييت لأول مرة بعد الحرب العالمية الثانية، لتشارك وتتعاون مع قوات مسلحة لدولة صديقة حدثاً تاريخياً هاماً بالنسبة للاتحاد السوفييتي،

كما أصبح هذا التواجد في حد ذاته ردعاً عسكرياً وسياسياً لكل من إسرائيل والولايات المتحدة الامريكية، ودعماً جديداً لعلاقات التعاون والصداقة بين مصر والاتحاد السوفييتي، وللوجود السوفيتي في المنطقة العربية بشكل عام[23].

تفوق مصري – سوفييتي

وقد كان لهذه الصفقة الأثر الكبير على مسار الأحداث فيما بعد، فقد ذكر محمد فوزي أنه بعد مشاركة الطيارين السوفييت في القتال على الجبهة المصرية، التقط الطيارون الإسرائيليون في 18 نيسان 1970 الحديث بين الطيارين باللغة الروسية، فأحجموا عن الاشتباك معهم، وانسحبوا من المعركة[24].

ويؤكد فوزي أن الطيران الإسرائيلي قد توقف عن العبور في العمق المصري بعد 18 نيسان 1970 لعلمه بمشاركة طائرات الميج 21 بطيارين سوفييت يقاتلون على الجبهة المصرية [25].

كما قيم تلك الزيارة المشير محمد عبد الغني الجمسي قائلاً:

"ولعلنا نتفق على أن زيارة عبد الناصر للاتحاد السوفييتي خلال المدة من 22-25 يناير 1970، وما صدر فيها من قرارات، تعتبر نقطة تحول حاسمة في مسار الصراع المسلح بين مصر وإسرائيل بعد ذلك، فقد جاء الدعم العسكري السوفييتي في وقت كانت مصر تواجه موقفاً عسكرياً حرجاً أمام الحرب الجوية الاسرائيلية، كما أن هذا الدعم جاء بوحدات سوفييتية لأول مرة للمساهمة في إقامة نظام قادر على الوقوف في وجه القوات الجوية الاسرائيلية التي تمثل أقوى عناصر الحسم والردع ضد العرب.

ولم يكن التوصل إلى مثل هذا الاتفاق أمراً سهلاً بالنسبة لقبول مصر أوضاعاً لم تكن قائمة من قبل، كما أنه لم يكن سهلاً بالنسبة لقبول الاتحاد السوفييتي الإقدام على هذه الخطوة المحسوبة في أبعادها ونتائجها"[26].

إذاً ما الذي بقي لدى السوفييت ولم يقدموه للقوات المصرية؟

وهنا لا بد من ذكر ما قاله فوزي عن أثر التقنيات الحديثة التي زود بها السوفييت مصر، فيقول:

".. وبتواجد 3 لواءات ميج 21 معدلة، كاملة المعدات، وطيارين ومساعدين وموجهين وفنيين سوفييت في قواعدنا الجوية في العمق اعتباراً من أواخر مارس (آذار) 1970، أسند إليها واجب الدفاع عن العمق المصري تحت قيادة وسيطرة قائد القوات الجوية وقائد الدفاع الجوي، استكمل بذلك حجم القوات الجوية المقرر في خطة بناء وتنظيم القوات المسلحة، في الزمن الذي حدده الرئيس عبد الناصر، وبوصول وحدات وأجهزة الحرب الإلكترونية من الاتحاد السوفييتي في يوليو 1970، أضيف أسلوب الاستطلاع والتشويش والتداخل الألكتروني إلى شبكة السيطرة والتوجيه للمقاتلات القاذفة، فزادت المعلومات في تخطيط طلعات القذف الجوي لتشكيلاتنا الجوية، كما منع العدو من التشويش والتداخل على أجهزة الاتصال والتوجيه، وأصبحت شاشات الرادارات على الأرض وفي الجو تعمل بوضوح، وزال التفوق الإسرائيلي في الحرب الألكترونية التي استخدمها منذ يونيو 1967 ضد قواتنا الجوية، وقوات الدفاع الجوي"[27].

وأعلن وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه ديان أن "إسرائيل لن تهجم على أعماق مصر لأنها لا تريد أن تحارب السوفييت"[28]... وكان صادقاً.

والجدير بالذكر أن تعداد الجيش المصري في نهاية عام 1970 كان ثلاثة أرباع المليون، وكان يتوقع له أن يصل المليون في الربع الأول من عام 1971[29].

ورقة عمل لناصر قبل زيارته لموسكو

وتقدم لجنة من ضباط الجيش والمخابرات ووزارة الخارجية ورقة عمل سميت "مذكرة للتفكير بصوت مسموع" لتكون مادة خلفية قبل سفر الزعيم الراحل لموسكو، هذه

المذكرة تعد تقييماً للأحوال المحيطة بالشرق الأوسط آنذاك، وهي تدل أيضاً على مدى حب ناصر للتشاور مع مستشاريه قبل أي خطوة يخطوها، وقد ورد فيها ما خلاصته:

الموقف العسكري:

ويوجز المؤرخ محمد حسنين هيكل الموقف العسكري في ذلك الوقت في:

1- تركيز إسرائيل على سيطرتها على قناة السويس بقواتها الجوية تعويضاً عن عدم قدرتها على شن الغارات في العمق بسبب الوجود السوفييتي.

2- "إن إقامة قواعد صواريخ سام 3 الروسية، واستكمال غطاء الصواريخ لقواتنا المسلحة، يعني أن الموقف العسكري يتغير نوعياً في صالحنا، فهي تضع القوات الاسرائيلية في سيناء في موقف صعب لأنها تتيح لنا عبور القنال".

3- هل من الممكن حصول صدام إسرائيلي- سوفييتي في الجو؟ هل يؤدي ذلك إلى صدام أميركي – سوفييتي؟ ولعل هذا يجعل السوفييت يتأخرون في استكمال الغطاء الجوي على الجبهة، بينما المصريون حريصون عل استكماله.

4- أهم ما يجب أن يطرح في زيارة ناصر لموسكو هو كيفية التنسيق بين مصالح مصر وحسابات السوفييت[30].

العلاقات المصرية- السوفييتية- الأميركية:

ويوضح لنا هيكل في السطور التالية مواقف الدول الثلاث مصر والاتحاد السوفييتي وأميركا في الشرق الأوسط، فكانت:

1- لقد أصبح الوجود السوفييتي في ج.ع.م، وتوقع تزايده، وبالتالي تزايد النفوذ السوفييتي في الشرق الأوسط، مصدر قلق جديد للغرب، وهو يواجه الأميركيين بموقف يفرض عليهم أن يبادروا بإجراء حوار معنا.

2- إن ازدياد الوجود السوفييتي يتيح لنا موقفاً للمساومة في صالحنا في مواجهة الولايات المتحدة، مما قد يؤدي إلى أن تمارس الولايات المتحدة بعض الضغوط على إسرائيل بهدف تأمين تسوية قبل أن يصل الوجود السوفييتي الى أبعاد لا يمكن الرجوع عنها.

3- في هذه الحالة يكون تأثير المساعدات السوفييتية مجرد وسيلة لممارسة ضغط على الولايات المتحدة.

4- ماذا يمكن أن يكون عليه الموقف عندئذ إذا حدث أن توصلنا إلى تسوية؟ سوف تظهر الولايات المتحدة بمظهر القوة التي حققت التسوية بممارسة ضغط على إسرائيل، وسوف تكون قد فعلت ذلك بدون أن تنفق دولاراً واحداً، في حين أن القوة العظمى الأخرى التي بدأت العملية كلها، والتي أنفقت في ذلك الكثير من أموالها، بل دماء أبنائها، سوف تترك على الهامش.

5- هذا الاعتبار يفسر الخط المتصلب الذي يتخذه الاتحاد السوفييتي في المباحثات الرباعية في نيويورك.

6- وهو يفسر أيضاً العداء الذي يبديه الاتحاد السوفييتي لفكرة المحادثات المباشرة بين مصر والأمريكيين.

7- يهدف الاتحاد السوفييتي إلى أن يكون هو نفسه الأداة التي تحقق التسوية، حيث أنه الطرف الذي دفه ثمناً لها، والسوفييت لم يستقر لهم رأي على ما إذا كان من الفضل أن يقوموا هو بالتعامل مع الميركيين أو أن يتركوا المباحثات لنا.

8- ومن ثم كان التناقض بين المصالح السوفييتية والمصرية، ولا بد من البحث عن توازن حقيقي بين الاثنين[31].

هذه المذكرة التي أوردت مجملها، تدل على المدى والثقل الذي وصل إليه الوجود السوفييتي، سواء عسكرياً على الجبهة، أو سياسياً في نفوذه، وحرصه على الوجود والمشاركة في الحلول والطروحات القادمة أو المحتملة.

فإسرائيل تعلم جيداً مدى القوة السوفييتية الموجودة على القناة، لذا هي لا تريد المغامرة في الاصطدام بالطيران أو الصواريخ السوفييتية، فأصبحت تحركاتها على الجبهة المصرية حذرة محدودة، ويتخوف كاتبو المذكرة من حدوث اصطدام أميركي سوفييتي.

ومن ناحية العلاقات، فالسوفييت يرون – وهم محقون في ذلك – ان ما قدموه لمصر والعرب قد شكل ضغطاً كبيراً على إسرائيل وأميركا، يؤهلهم للمشاركة في أية تسوية قادمة، لذا يعقدون عليه الأهمية في مباحثات نيويورك القادمة، ويجعلهم في ريبة من انفراد امريكا بالاتصال المباشر بمصر، لأن في هذا ضياع لما قدموه من مال وجهد ورجال.

زيارة ناصر الأخيرة للإتحاد السوفييتي 29 /1970/6

ويسافر عبد الناصر إلى الاتحاد السوفييتي في 29 حزيران 1970، ورافقه علي صبري ووزير الخارجية محمود رياض والفريق محمد فوزي، وأجرى الوفد مباحثات بدأت منذ 30 حزيران مع بريجينيف وكوسيجين وبدجورني وغروميكو والمارشال غريشكو وآخرين[(32)].

وما يهمنا من المواضيع التي بحثت في هذه الزيارة مطالب مصر، وما لي منها:

1- فقد طلب ناصر تزويد الدفاع الجوي المصري بشبكة أجهزة الكترونية، فوصلت وحدات كاملة من هذه الشبكات والأنظمة وأجهزتها بأطقم سوفييتية، وتمركزت حول القاهرة، وشرع السوفييت في تدريب المهندسين المصريين عليها حتى أتقنوها، وتم نقلها إلى الجبهة، وسرعان ما شعر العدو بها لتشويشها على مواصلاته اللاسلكية وراداراته، كما زود السوفييت

مصر بشبكة أخرى وضعت في القاهرة مكان التي نقلت إلى الجبهة، ليكون دخول هذه التقنيات الحديثة للمرة الأولى على أجهزة القوات المصرية.

2- طلب تزويد مصر بصواريخ سام 6 بأطقمها السوفييتية وأجهزتها الرادارية والألكترونية للدفاع عن أسوان.

3- اتفق في هذا اللقاء على أن يزور علي صبري الاتحاد السوفييتي كل شهرين لمتابعة طلبات مصر وتوريدها إليها [33].

وكان بريجينيف قد وعد بتقديم جميع الأسلحة التي وردت في قائمة محمد فوزي، وأن ثلاثة أرباعها سيصل قبل نهاية 1970، وكان كلفة هذه الصفقة 400 مليون دولار، ولكن بريجنيف صرح بتخفيض قدره 50٪ [34].

ناصر يشكر السوفييت

وقد عبر الزعيم الراحل عن شكره للسوفييت في الكلمة التي ألقاها في مأدبة العشاء التي أقامها السوفييت بالكرملين تكريماً لناصر، فجاء فيها:

".. وهذا أيها الأخوة تعبير نعتز به عن معنى هذه الصداقة التي رسمت نموذجاً خلاقاً للعلاقات الإيجابية بين الشعوب والدول، وما تستطيع هذه الصداقة الخلاقة الإيجابية تحقيقه في مجال التأثير المشترك على سير الحوادث، وتطور التاريخ.

الصداقة العربية - السوفييتية، لم تعد بالنسبة لشعوبنا عملية مرحلية، وإنما أصبحت عاملاً باقياً يستمد قوته من نضال يلتقي على أهداف الحرية والسلام، ويعمقه الإخلاص المتبادل الذي يصنعه الفهم العميق للقضايا التي تهم الجانبين.

وينبغي لي أيها الأخوة أن أحيي هذا الصدد الدور الكبير الذي قامت به قيادة الاتحاد السوفييتي وشعوبه في تنمية هذه الصداقة، وفي دفع تقدمها.

ولقد تجلى ذلك اكثر ما يتجلى في وقفتكم الحازمة تأكيداً لكفاحنا في ظرف من أخطر وأدق الظروف التي واجهت النضال المعاصر لأمتنا العربية" [35].

كما يقول في عيد الثورة الثامن عشر في 23 تموز 1970:

".. وعبر لنا قادة الاتحاد السوفييتي عن استعدادهم للدعم العسكري حتى نستطيع أن نبني الجيش الدفاعي، ثم نبني الجيش الهجومي الذي يساعدنا في تحرير أراضينا المغتصبة..

وحينما أتكلم عن الاتحاد السوفييتي أقول أيضاً أن الاتحاد السوفييتي ساعدنا اقتصادياً، فحينما كان هناك نقص في بعض المواد الخام، ولم يكن عندنا من العملة الصعبة ما يمكننا من أن نشتري المواد الخام من الأسواق الحرة التي تتعامل بالنقد الحر، طلبنا من الاتحاد السوفيتي أن يعطينا هذه المواد الخام الثمينة وفق اتفاقيات الدفع، فاستجاب إلينا الاتحاد السوفييتي"[36].

ردود ناصرية على السوفييت الفوائد متبادلة

ومن استعراضنا الطويل لشخصية عبد الناصر، سواء مع أعدائه أو أصدقائه، لا نستغرب ما صرح به في لقاء له مع الزعماء السوفييت (بريجنيف، كوسيجين، بودجورني) حين قال:

"إن الاتحاد السوفييتي قد حقق لنفسه فوائد ضخمة من مواقفنا، إن خلافنا الأول مع الولايات المتحدة كان بسبب الأحلاف العسكرية، ونحن رفضناها حرصاً على استقلال سياستنا، ولو كنا قبلناها لأدى ذلك إلى تطويقكم، ومحاصرتكم بين حلف جنوب شرق آسيا، وحلف بغداد، وحلف الأطلنطي، إن سياستنا المستقلة فتحت لكم أبواب البحر الأبيض والبحر الأحمر إلى المحيط الهندي، وكنتم قبل ذلك محبوسين في البحر الأسود، أنتم بسياستنا المستقلة استطعتم الوصول إلى إفريقيا"[37].

(ولا يذكر المصدر تاريخ هذا الحديث، ولعله كان في لقاء ناصر بالمسئولين السوفييت الثلاثة في زيارته لموسكو في 29/ 6/ 1970).

ولكن هذا التصريح القصير يدل على معرفة ناصر التامة بمشاكل السوفييت الجغرافية، وإدراكه خطورتها، فمصر فتحت للسوفييت بوابات الشواطىء الدافئة، وأبواب إفريقيا على مصراعيها،، مما أمكن لهم التواصل مع دول هذه المنطقة التي تلعب دوراً خطيراً وأساسياً في حركة التاريخ الحديث، ثم ليصلوا بذلك إلى مناطق نفوذ منافسيهم من الدول العظمى.

برجينيف يقرأ المستقبل بكل دقة وعلمية

ولعله من أجمل ما قرأت من تصريحات الساسة السوفييت عن مشاكل الشرق الأوسط ما قاله بريجينيف لناصر، وبشيء من الانفعال في هذا اللقاء:

"نحن أصدقاؤكم، بل وأخوة لكم، واشتركنا سوياً في أعمال ضخمة في المجالات العسكرية والاقتصادية والسياسية، والآن تحاول الولايات المتحدة أن تأخذ زمام المبادرة، وتدعي أنها تتقدم بمشروع كامل للتسوية، وكأنهم أصحاب فضل في حل المشكلة، ولكن لا يجوز أن نسمح بإعطاء الصورة بأننا قد قبلنا مشروعاً من جانب المعتدي، إننا نقدم لكم أسلحة للدفاع عن أنفسكم، بينما تقدم الولايات المتحدة لإسرائيل كل الأسلحة اللازمة للاعتداء عليكم، وهو يريدون بمبادرتهم أخذ كل جهد بذلناه من أجل تحقيق السلام العادل، ومعاونتكم في ذلك، ونحن متأكدون من التعاون والتفاهم الكامل معكم، ولذلك يمكننا أن نفكر سوياً في الطريقة التي لا تعطي للعدو ثمار ما قمنا به، ولا يجوز أن نقف موقف المدافع عن نفسه، وكأننا نحن المعتدون، والدبلوماسيون المصريون والسوفييت يمكنهم أن يجدوا أساليب وطرقاً لطرح الأمريكيين على ظهورهم كما في المصارعة، خاصة وأننا نحظى بتأييد كامل من فرنسا"(38).

ولقد تحقق ما شرحه بريجينيف لناصر، وبصورة دقيقة..

حققه السادات بكل حماسة، فأخذت أميركا زمام المبادرة، وتم طرد الذين كانوا يزودون مصر بالسلاح والعتاد، والخبرة والمشورة، والدعم الصادق القوي، وقبل كل ذلك...القمح!

وكل هذا مشروح بالتفصيل في الفصول القادمة من هذا الكتاب.

حائط الصواريخ

ولا تحدد لنا المصادر تاريخ بداية بناء حائط الصواريخ الذي أقامته مصر على الجبهة ضد الطائرات الاسرائيلية، ولكنها تذكر أن الطائرات الإسرائيلية قد فوجئت به يوم 30 حزيران 1970، وأن بناءه قد استغرق 39 يوماً، إذن فقد كان الشروع في إنشائه في أواخر نيسان..

وقد كانت الطائرات تهاجم ما يبنى منه، ليستأنف العمل ثانية بعد انتهاء كل غارة، مما استدعى استمرار العمل فيه نهاراً وليلاً، وتطلب تنفيذه الكثير من التضحيات..

وقد وصل حجم الأعمال الهندسية التي نفذت لصالح الدفاع الجوي بين القاهرة ومنطقة القناة وباقي أنحاء الجمهورية 6،1 مليون متر مكعب من الخرسانة المسلحة، و4،1 مليون متر مكعب من الخرسانة العادية، 5،12 مليون متر مكعب من أعمال الأتربة، ومئات الكيلومترات من الطرق الاسفلتية، والطرق المثبتة بمواد تثبيت، وبلغ حجم الانفاق في الأيام الأولى من العمل حوالي مليون جنيه في اليوم، وكانت هناك خطة عمل مواقع الصواريخ خلال أربعين يوماً، وصمم العاملون على إتمامها، وكان لهم ذلك في 39 يوماً، إنه الانسان المصري بأصالته[39].

وحققت صواريخ سام السوفييتية ما لم تحلم به مصر من تفوق في المجال الجوي..

فقد أخذت الطائرات الإسرائيلية تتساقط كأوراق الشجر على الجبهة المصرية..

ففي 30 حزيران أسقطت الصواريخ المصرية 8 طائرات، وتم أسر 5 طيارين اسرائيليين.

وفي 2/ 7 دمرت الصواريخ طائرتين.

وفي 3/ 7 دمرت الصواريخ 3 طائرات.

وفي 7/6 دمرت الصواريخ طائرتين، وجميع الطائرات التي أسقطت في الأيام الثلاثة كانت من نوع فانتوم [40].

وبناء على ما سبق، صار 30 حزيران من كل عام يوماً مجيداً لقوات الدفاع الجوي المصرية لتعتبره عيداً تحتفل به إلى اليوم،، ففيه فوجئت إسرائيل بالصواريخ سام المصرية تسقط طائراتها تباعاً، ليضاف إلى ما سبق خسارة إسرائيل ما بين 30 تموز و 8 آب 16 طائرة [41].

وقد ساهم هذا التفوق المصري في رفع معنويات الجيش المصري، والذي بات يرى أن عبور القناة بات وشيكاً.

لذا لا نستغرب أن يقوم الطيران الإسرائيلي في شهري حزيران وتموز 1970 ب 500 غارة على مواقع الصواريخ المصرية [42].

وعلقت جولدا مائير على فعالية حائط الصواريخ قائلة:

"كتائب الصواريخ المصرية كعش الغراب كلما دمرنا إحداها نبتت بدلها أخرى"

واعترف وزير الخارجية الاسرائيلي أبا إيبان قائلاً: لقد بدأ الطيران الاسرائيلي يتآكل [43].

ويؤكد ما سبق القائد الاسرائيلي حاييم بارليف مصرحاً به لمجلة تايم الأميركية، حين يقول:

"على المرء ألا يقع في تصور أن صواريخ سام دفاعية، إنها أقيمت لإعطاء مصر قوة هجومية، إن مجرد إقامة هذه الصواريخ سيخلق في مصر شعوراً بالحرية لفعل ما تريد [44].

ويقول المؤرخ محمد حسنين هيكل:

"عملية بناء حائط الصواريخ كانت أعظم معارك عبد الناصر على الاطلاق في تلك المرحلة، على رغم ألمه الشديد من الخسائر التي أحدثتها العملية [45].

مبادرة روجرز فرصة لالتقاط الأنفاس!

وبناء على ما سبق من خسائر فادحة تكبدها الطيران الإسرائيلي، وتصميم المصريين على ترتيب أوضاعهم الدفاعية على القناة، قبل ناصر مبادرة روجرز وزير الخارجية الأميركي، والتي كانت تنص على وقف اطلاق النار مدة 90 يوماً، وقد قبلها من أجل:

1- استكمال بناء قواعد الصواريخ سام على الشاطىء الغربي للقناة، وقد كان ذلك متعذراً بسبب الغارات الإسرائيلية العنيفة ليلاً ونهاراً على منطقة القناة، والتي أحدثت خسائر فادحة في الأفراد والمهندسين القائمين على عملية بناء هذه القواعد.

2- أطقم الصواريخ كانت بحاجة للتدريب مدة ثلاثة أشهر في مراكز التدريب في مصر والاتحاد السوفييتي[46].

وقد أخذ وقف اطلاق النار حيز التنفيذ في 8 آب 1970، وأبلغ ناصر الفريق محمد فوزي بأن يبدأ الاستعداد للعملية القادمة "جرانيت"، والتي تتضمن عبور القناة[47].

وقد اعترض السوفييت في البداية على موافقة ناصر على مشروع روجرز قائلين:

" لماذا توافقون على مشروع أمريكي، بينما سبق أن قدمنا لكم مشروع سلام ولم توافقوا عليه؟....إن هذا معناه أن العالم كله سيقول أن أمريكا هي التي تعمل من أجل السلام، وبالتالي نعطي لأمريكا بهذه الموافقة مكانة دولية كبيرة"[48].

ولم يجد ناصر صعوبة كبيرة في إقناع السوفييت بجدوى المشروع، لأن رفضه سيعطي الأميركيين الفرصة لتزويد إسرائيل بالمزيد من الأسلحة، لذا سيكون في الموافقة تضييق الخناق على أميركا وإسرائيل معاً، وبعد ساعات من النقاش وافق السوفييت[49].

وقد أدى إلى فشل المبادرة عدة عوامل، منها:

1- عدم رغبة اسرائيل في الانسحاب الشامل على الجبهات الثلاث حسب ما تنص عليه المعاهدة.

2- استمرار إسرائيل في إقامة التحصينات على خط بارليف، مما دل على أنها لا تنوي الانسحاب من سيناء.

3- استمرار أميركا في إمدادها بالسلاح، ومن ذلك 18 طائرة فانتوم.

4- وجود اتجاه في أميركا يتزعمه كيسنجر، بأن مصلحة أميركا هي مساندة إسرائيل باعتبارها حليفتها في المنطقة، لذا فعلى أميركا مساندتها وإمدادها بالسلاح بغض النظر عن سياستها العدوانية تجاه العرب [50].

مقارنة بين القوات الجوية لدى مصر وإسرائيل في آب 1970

الطائرات	مصر	إسرائيل	ملاحظات
مقاتلات قاذفة	740 منها 300	500	منها [illegible]00
	ميج 21 معدل		سكاي هوك
قاذفات ثقيلة	45		صفر
هليوكبتر	124		73 [51]

وقد كان لهذا الكم الهائل من السلاح والخبرات دوره الفاعل في حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر.

ويعلق هيكل على إمداد الاتحاد السوفييتي العرب بالسلاح فكان مصدرهم الوحيد، حتى يكاد يلخص تجربتنا مع السوفييت بكاملها، فيقول:

"لقد كان السلاح السوفييتي هو السلاح الوحيد الذي وجده العرب في أيديهم لمقاومة التوسع الإسرائيلي، ولمحاولة رد هذا التوسع بالقوة إلى مرحلة التقلص والانكماش.

كان السلاح السوفييتي هو السلاح الوحيد الذي وجدناه في أيدينا سنة 1956..

وهو السلاح الوحيد الذي وجدناه في أيدينا سنة 1967..

والسلاح الوحيد الذي وجدناه في أيدينا سنة 1969..

والسلاح الوحيد الذي وجدناه في أيدينا سنة 1973....

إن السلاح السوفييتي – حتى هذه اللحظة– هو السلاح الوحيد في جيوش مصر وسوريا والعراق والجزائر واليمن الديمقراطية والسودان والصومال، ثم هو كل السلاح الذي تمسك به المقاومة الفلسطينية، وأخيراً فهو اليوم جزء هام من سلاح ليبيا والكويت، وغيرهما من الدول العربية"(52).

الخبراء السوفييت أخبار وأحوال...

وبلغ عدد المستشارين السوفييت في مصر 16 ألف مستشار، و 3 آلاف خبير(53).

ولكن ما يستحق الذكر هنا عن الكرم السوفييتي ما يرويه وزير الحربية محمد فوزي حين يقول:

"لم تتحمل وزارة الحربية في مصر أي تكاليف مادية للمستشارين السوفييت سوى تكاليف المأكل والمسكن، والأفرول والطاقية الكاكي، أما ماهياتهم أو تكاليف سفرهم فبقيت على وزارة الدفاع السوفييتية"(54).

وكان ضباطهم وجنودهم يرتدون الزي الكاكي بدون أي رتب أو علامات مميزة..

ولما طلب ناصر من بريجينيف أن يسمح لجنوده وخبرائه بزيارة المعالم السياحية والأثرية المصرية، رد بريجينيف:

إننا نعلـم تمامـاً شـعور المـصريين بالنسبة للأجانـب منـذ الاسـتعمار الانجليـزي لبلادكم، ونحن لسنا مستعمرين [55].

...وكأن هذه البرامج السياحية للضيوف السوفييت تـرف زائـد يظهـرهم بمظهـر المستعمرين..

وما علينا إلا أن نحترم رأي بريجنيف.

وتحملت المالية المصرية تكاليف المأكل والمسكن للمستـشارين الـسوفييت، ولكـن تكاليف سفرهم ورواتبهم بقيـت علـى وزارة الـدفاع الـسوفييتية [56]، وقـد قتـل مـنهم عشرون مستشاراً خلال حرب الثلاث سنوات [57].

أما على الجانب الآخر، فيضيف فوزي أن الاتحاد السوفييتي كـان يتحمـل نفقـات تدريب أطقم الصواريخ وإيوائهم من الضباط والجنود المصريين الذين تم إيفادهم للإتحاد السوفييتي، وكان تعداد المبعوثين 3 ألوية، وكل لواء 1800 فرد، وكان هناك بعثات أخرى لغايات أخرى غير الصواريخ، كالطيارين والفنيين والمترجـمين، والفـرق التعليميـة الفنية [59].

سلوك الخبراء السوفييت

ويصف الفريق صـلاح الـدين الحديـدي سـلوك الخـبراء الـسوفييت وانـضباطهم وأخلاقهم، وقال أن هذه السياسة لم تكن أسلوباً فردياً، بل سياسة اتبعها الجميع، فجاء في شهادته تلك، والتي لم يتعرض لها – مع الأسف– من كتبوا عن تلك الفـترة الخـصبة مـن تاريخ مصر:

1- كـان لا يعنـيهم سـوى إجـادة عملـهم، وإضـفاء روح الجديـة علـى إنجـازاتهم العسكرية.

2- لم يحاولوا الحصول على سلطات أو نفوذ تنفر القيادة منهم.

3- يلبون أية مهمة يكلفون بها، ويشرحون مخلصين ما يطلب منهم.

4- كانوا على جانب كبير من اللياقة في التعامل.

5- كانت علاقتهم مع القادة المصريين مبنية على التعاون الكامل للاستفادة من خبراتهم وتجاربهم.

6- لعبوا دوراً كبيراً في النهوض بتدريب القوات المسلحة، وعاونوا هيئة التدريب معاونة فعالة في رسم وتفهم الأسلوب الصحيح لما يجب أن تكون عليه تدريب القوات.

7- لم يتدخلوا في الخطط الحربية، أو تخطيط الاستراتيجية في مسارح العمليات.

8- لم يتسببوا في أي مشكلة سياسية أو شخصية من أي نوع.

9- "كانوا على جانب كبير من الفائدة، فقد عملوا على توسيع آفاق القادة والضباط إلى ما هو أعمق من الموضوعات التكتيكية التي تنتهي بقتال الفرقة المشاة أو المدرعة في مراحل الحرب المختلفة، وهو المستوى الذي كنا نقف عنده منذ عملت البعثة العسكرية البريطانية، وبدأنا في تفهم العمليات التعبوية والاستراتيجية التي يشترك فيها جيش ميداني أو أكثر، والمدعم بعناصر من القوات البحرية والجوية وعناصر من الدفاع الجوي، كما وضع الخبراء أساساً سليماً وقوياً لتدريب كبار القادة"(59).

وهذه شهادة من ضابط كبير برتبة فريق، وهي تعطينا فكرة طيبة عن هؤلاء الخبراء، وعن مدى الاستفادة منهم.

آثار حرب الاستنزاف باعتراف القادة الاسرائيليين

وتعترف إسرائيل بأن حرب الاستنزاف كانت أول الحروب التي تهزم فيها..

فها هو إسحاق رابين سفير إسرائيل في واشنطن إثناء حرب الاستنزاف، ورئيس وزرائها لاحقاً يقول مؤكداً دور الصواريخ السوفييتية في إلحاق الخسائر الكبيرة في الجيش الاسرائيلي:

"إبان عودتي من إسرائيل إلى واشنطن في مساء 30 يونيو، وجدت أن كل اهتماماتنا قد دفع بها جانباً في تطور درامي على الجبهة العسكرية، فخلال الليلة السابقة تم تحريك نظام الصواريخ السوفييتي- المصري نحو خط جديد حوالي 30 كيلومتراً غرب القناة، وتم وضع عدد من بطاريات الصواريخ التي يقودها مصريون إلى مواقع أقرب من ذلك إلى القناة، بالرغم من أن بطاريات الصواريخ التي يعمل عليها سوفييت لم تعبر ذلك الخط، وإن هجومنا على شبكة الصواريخ كانغير ناجح، وإثناء ذلك تم إسقاط العديد من طائرات الفانتوم، ولقد كان هذا موقفاً جديداً، ومحفوفاً بالمخاطر إلى درجة كبيرة"[60].

ولا ننس هنا أن هذا التصريح يدل على مدى قوة الاستخباراتالاسرائيلية، وشدة اهتمامها، ودقة معلوماتها.

أما أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل في ذلك الوقت، فقد قال: "إن قصف المدفعية المصرية مع الغارات الجوية عبر قناة السويس كان يسبب لنا خسائر قاسيه في القتلى، مما يؤدي إلى إضعاف قواتنا"[61].

وعلق أبا إيبان على وقف إطلاق النار بسبب مبادرة روجرز بقوله:

"إن وقف إطلاق النيران قد تم استقباله في إسرائيل بشعور من الرضاء..

وحينما أعلنت مسز مائير في التلفزيون عن وقف إطلاق النيران، فإن رد الفعل الشعبي كاد يتساوى مع لو كنا قد توصلنا إلى تسوية سلمية، فنشرات الأخبار لن تبدأ بالصوت الحزين لمذيع الراديو وهو يخبرنا بأسماء الشباب الإسرائيلي الذي سقط في المعركة، إن خسائرنا في الأفراد القتلى، وفي المعدات الثمينة قد جعلت حرب الاستنزاف غالية التكاليف بالنسبة لنا"[62].

وصرح العميد ماتي بيليد المسئول عن شعبة الامداد في الجيش الاسرائيلي:

"إن الجيش الاسرائيلي فشل من الناحية العسكرية في حرب الاستنزاف، وهذه أول معركة يهزم فيها في ساحة القتال منذ قيام الدولة، لدرجة أننا في إسرائيل أمسكنا بأول قشة ألقيت لنا وهي وقف القتال"[63].

هو طعم الهزيمة إذن تتذوقه إسرائيل لأول مرة، وتعترف به بدون مواربة..

لذا لا نستغرب أن الطيران الإسرائيلي كان يلقي على مصر في أواخر عام 1969 ألف طن من القنابل يومياً لكي يجبرها على وقف حرب الاستنزاف[64].

وبعد شهر من بداية هذه الحرب، تقول صحيفة الجويش أبزرفر البريطانية في يوم 23 آب 1969:

"تؤكد العمليات الجوية التي بدأت في يوليو 1969 أن مصر تخوض غمار حرب استنزاف ضد السلاح الجوي الاسرائيلي، وأن استمرار الصدام الجوي، مع استمرار الغارات الجوية الاسرائيلية على الجبهة المصرية، وتصدي وسائل الدفاع الجوي المصري لها، إنما يعني أنه من الممكن القضاء على التفوق الجوي الإسرائيلي في المدى الطويل، بفرض أن إسرائيل لن تستطيع تعويض خسائرها"[65].

ولكن فرض عدم استطاعة إسرائيل تعويض خسائرها غير وارد، ولكن لنسأل..

ما الذي كانت ستئول إليه أحوال القوات المصرية لو لم يكن متاحاً لمصر ذلك الدعم السوفييتي الكبير..؟ هذا الدعم الذي قال عنه وزير الخارجية المصري محمود رياض:

"أقمنا ما اعتبره المحللون العسكريون أكثر شبكات الدفاع الجوي تطوراً في العالم"[66].

تعاون إقتصادي سوفييتي

ولم يكن التعاون السوفييتي مع مصر محصوراً في الجانب العسكري، بل تخطاه إلى الجوانب الإقتصادية، فقدم السوفييت خبراتهم الواسعة في عهد الستينيات الصناعي الزاهر الذي بلغت فيه الإنجازات الناصرية ذروتها، مثل:

مشروعات إنشاء السد العالي	كهربة الريف
مصانع الحديد والصلب	والألمنيومالصناعات الوسيطة

الإنتاج الحربي من معدات وآلات وتجهيزات [67]

ترسانة السفن في الاسكندرية	مصنع السلاسل في حلوان
مصنع الإلكترونيات في بنها	مفاعل نووي لاستخدام الذرة في الأغراض السلمية
مصانع الاسمنت	

وبلغ عدد الكادر الفني المصري الذي دربه السوفييت 85 ألفاً [68].

وهذا إلى جانب المساعدات الهائلة للدول العربية، وهي خارج موضوع هذا البحث.

ولا نخالف هيكل حين يقول عن علاقة عبد الناصر بالسوفييت:

"لقد فوجيء الاتحاد السوفييتي بظاهرة جمال عبد الناصر التاريخية: زعامة وطنية قادرة على أن تمثل وتبرز إرادة قومية، مستقلة وتقدمية، وسجلها في معاداة الاستعمار قاطع، واتجاهها إلى التنمية الشاملة واضح، ثم أن هذا كله يحدث في منطقة حيوية بالغة الأهمية كالشرق الأوسط، خصوصاً بموقعه القريب وراء ظهر الاتحاد السوفييتي" [69].

كم كلفنا السلاح السوفييتي؟

تتعدد الروايات، وتختلف الشهادات في تحديد قيمة ما دفعته مصر للسوفييت ثمناً للسلاح الذي تسلمته منهم عبر أكثر من عشرين عاماً من الدعم المتواصل، وإن كان أكثرها يقول أن هذه الأسلحة كانت مجانية...

فكما أسلفنا، في 10 حزيران 67 تسلم ناصر خطاباً من القادة السوفييت يعلنون فيه استعدادهم لتعويض مصر – مجاناً – كل الأسلحة التي فقدتها في حرب حزيران، وبذلك بدأت مصر إعادة بناء قواتها من جديد [70].

ويقول عبد الناصر:

" إحنا ما بندفعش السلاح اللي إحنا بناخده، ولكن جميع الأسلحة اللي بنستوردها من الاتحاد السوفييتي بناء على اتفاقات، والدفع فيها مؤجل، حتى بالنسبة للدفع اللي كان مقرر علينا للاتحاد السوفييتي طلبنا منهم تأجيله "(71).

ويؤيد ما سبق مدير المخابرات ووزير الحربية المصري الأسبق أمين هويدي الذي يفيدنا أن مصر لم تدفع ثمن السلاح السوفييتي طوال فترة حكم ناصر، وأن خسائر حرب 56 و 67 تم تعويضها مجاناً، وأن الأقساط التي كانت تذكر في إعداد الصفقات كانت توجه للناحية الاقتصادية (72).

مثلاً الدفعة التي تسلمتها مصر في 9 حزيران 1967، وكانت:

31 طائرة ميج 93 طائرة ميج 17

حمولة 544 رحلة جوية , وحمولة 15 باخرة حملت لمصر 48 ألف طن من المعدات والأسلحة.

كما يصرح الفريق أول محمد فوزي أن الاتحاد السوفييتي لم يطالب بثمن ما ضمته من معدات وأسلحة (73).

ويصرح في موضع آخر: ما فقدته مصر في حرب حزيران تم تعويضه من السوفييت الذين لم يطالبوا بثمنه (74).

كما يصرح تصريحاً أكثر صراحة حين يقول:

" السلاح الذي فقدته مصر في حربي 56 و 67 عوضها السوفييت مجاناً (75).

ولكن فوزي يريح الباحثين والمؤرخين حين يقول ان الديون التي تجمعت على مصر للسوفييت كانت قيمتها حتى أوائل 1971 أربعة مليارات ونصف المليار جنيه مصري، ورغم أن مصر قد قامت بجدولة هذه الديون أكثر من مرتين فإنها لم تدفع قيمتها حتى ذلك الوقت.

ويضيف:

"وتناقل المصريون اصطلاحاً صدر عني "على النوتة" تدليلاً على عدم دفع أي قيمة مادية لأي صفقة تسليح تمت مع الاتحاد السوفييتي (76)".

ويصرح محمد فوزي أيضاً بأن اتفاقيات السلاح بعد عام 1968 كانت مريحة، فقد كان هناك فترة سماح مدتها 10 سنوات، وأقساط أي قرض توزع على 40 عاماً، وبينما كان ثمن طائرة الميراج المباعة من فرنسا لليبيا 3 مليون دولار، والفانتوم الأميركية 6-- 8 مليون دولار، كان ثمن الميج 21 السوفييتية ثلاثة أرباع المليون جنيه مصري (77).

والحديثين السابقين ليس بينهما تناقض، كون فوزي يقول أن الأسلحة كانت مجانية، ثم يعود ويذكر أثمانها، فهو يقصد – على الأرجح– ما كان يذكره السوفييت المصريين عن أسعار أصناف أسلحتهم بمقارنتها بأسعار أسلحة الغرب، ولتسجيلها على النوتة، ولكن كل الأدلة تثبت أن المصريين كانوا يقرون بهذه الأسعار وهم يعرفون أنهم لن يدفعوا شيئاً من أثمانها..

تقييم ناصر لتجربة مصر مع السوفييت..

ولدى سؤال المؤرخ محمد حسنين هيكل عن تقييم عبد الناصر للاتحاد السوفييتي بعد تطور العلاقات معه، يجيب هيكل:

"رغم أن الاتحاد السوفييتي قد يكون متعباً في أسلوب التعامل، لكن عبد الناصر كان يعتقد أن الاتحاد السوفييتي سيعطي في النهاية ما هو لازم لتحقيق أهدافنا، وهذه حقيقة كان يؤمن بها عبد الناصر كإحدى المسلمات، كان يعرف أن الاتحاد السوفييتي سيعطيه سلاحاً لكي يحارب، لكنه يعتقد أن هناك إجراءات معينة، وعوائق معينة لا بد أن يجتازها.

اولاً: مثلاً..الاتحاد السوفييتي يهمه جداً الرأي العام العالمي، ولا بد أن يكون الرأي العام العالمي مهيأ لشيء معين قبل أن يتصرف الاتحاد السوفييتي.

ثانياً: يهتم الاتحاد السوفييتي بألا يكون دوره موضوع فهم خاطىء على الأقل من جانب الشعوب المعنية بالأمر، فليس دوره هو مجرد أن يأتي للمساعدة، ولكن يجب أن يكون مفهوماً لماذا يجيء، وأن يكون مطلوباً بإلحاح لكي يجيء، ولذلك يهتم بأن يكون الرأي العام في المنطقة وفي بلادك مهيأ، حتى يكون دوره مفهوماً.

ثالثاً: أن يعطى الاتحاد السوفييتي الوسائل التي يمكن أن تساعد على نجدتك إذا كان ذلك ضرورياً، مثل تسهيلات لسفنه في البحر الأبيض، وما إلى ذلك..

والمسألة الأخرى، أن السوفييت لهم أسلوبهم وعقليتهم الخاصة بهم، وهم يحللون الأمور كثيراً، ولديهم أجهزة متعددة تقوم بعمليات التحليل إلى حد أنه قد يبدو على السطح أنها أجهزة بيروقراطية ومعقدة.

وثمة مسألة أخرى تستشعرها عند الحديث إلى القادة السوفييت، فهم يثقون في تيار التاريخ بصفة عامة ونهائية، ويضعونه في اعتبارهم قبل أي اعتبار آخر تكتيكي، ولعل هذا الأمر كان يسبب بعض الضيق لدى عبد الناصر والقادة العرب أحياناً، فقد كان عبد الناصر متضايقاً بعد 1967، وكذلك بومدين، وقبل ذلك بن بيللا، وغيرهم، فالاتحاد السوفييتي يضع ثلاثة اعتبارات تحكم نظرته للأمور، وهي: موقفك، وموقفه، والنظرة التاريخية ومداها، وأحياناً تلتقي هذه الاعتبارات مع وجهة نظر القادة الآخرين، أو يحدث تناقض "[78].

لا علم أحمر..!

وكان الحكومات العربية، وبالذات مصر، تحاول خفض التواجد الأميركي في البحر الأبيض المتوسط، ولم يكن هناك من سبيل لذلك سوى تواجد بحري سوفييتي فيه، لذا عندما طالب بدجورني بمركز قيادة في الاسكندرية للسفن السوفييتية، لم يكن رد ناصر الرفض، ولكن عندما طلب بدجورني أن يكون ورش إصلاح، ومساكن لحرس سوفييتي،

ويرفع عليها العلم السوفييتي، رد ناصر بأن هذا يمثل تواجداً استعمارياً، وقال: لا قاعدة ولا علم احمر [79].

تعليق

التاريخ أستاذ الأساتذة

واضح أن الحس التاريخي لا يفارق المؤرخ الكبير هيكل وهو يراقب ويرصد أحداث ذلك الزمن الحافل، ويحلل سلوك القادة وكبار الشخصيات – صانعي التاريخ- الذين تعامل معهم ناصر وسواه من قادة العرب، بل وتعامل معهم هيكل نفسه، وهذا الحس يفيدنا كباحثين في التاريخ..

وأراه درجة متقدمة من الوعي أن يثق الزعيم والسياسي في تيار التاريخ كمقياس ومعيار يحدد به توجهاته، وتوجهات بلده أو حزبه، فليس من السهل على أمة أو شعب أو زعيم إهمال التاريخ وتفاصيله قبل الإقدام على أي سلوك، أو اتخاذ أي موقف، وإلا فعلينا أن نسأل: هل أهملت الأمم الأخرى التي نتعامل معها التاريخ في تحديد توجهاتها ومواقفها تجاهنا؟.

أوَلا يلجأ ساسة الغرب حين يريدون اتخاذ موقف ما إلى العلماء، كل في تخصصه، لاستشارتهم قبل اتخاذ قرار اعتباطي يضر بمصالح الدولة؟ وكم يسرنا أن عبد الناصر نفسه كان يسلك هذا السلوك الحضاري، ومن ذلك استشارته للمؤرخ مصطفى الحفناوي قبل اتخاذه قرار تأميم قناة السويس.

إذن.. فالسوفييت نهجوا هذا النهج عن قناعات تعلموها من التاريخ، وليس لنا أن نرفض ذلك بأي حال من الأحوال، ولكن علينا معرفته ودرسه..

ولا ننس أن الاتحاد السوفييتي كان أكثر الدول تضرراً من الحرب العالمية الثانية، لذا فقادته وشعبه لا يريدون – على ما يبدو- تكرار تلك التجربة المريرة التي كلفتهم 22 مليون قتيل غير الدمار الذي حاق بالبلاد، والذي لا يحصره إحصاء أو تقدير...

أما النقطة الأولى، وهي اهتمام السوفييت بالرأي العام العالمي قبل أن يقوموا بأية خطوة تجاه مساعدة الآخرين، فلا أظنها تلعب دوراً كبيرًا في تحديد السوفييت مواقفهم، وإلا فماذا كان موقف الرأي العام من تدخلهم في أفغانستان، فهل كلن هذا الرأي العام موافقاً على ذلك التدخل؟ وهل كان الرأي العام متفقاً مع المساعدات الضخمة التي قدمها السوفييت للعرب، ولا زالوا يقدمونها حتى اليوم.

أما الفهم الخاطيء لدوره من جانب الشعوب المعنية بالأمر، فهو لا يريد أن يكون عرضة للنقد، وربما الثورة ضده، وهنا يأتي دور الإعلام في تلك الدولة لتنوير الشعب بالأسباب المسوغة لمساعدته أو قدومه.

وتبقى مسألة التسهيلات، وهي لا تخلو من حساسية في دول تعرضت للاستعمار وكوارثه، لذا ليس سهلاً عليها استبدال استعمار باستعمار، وهنا يأتي أيضاً دور الإعلام، ودور الساسة بتوضيح دور التسهيلات في قيام السوفييت بدورهم في المساعدة الكاملة، والتي لا يمكن أن تتم، وبالصورة المطلوبة بدون هذه التسهيلات..[80].

مراجع

الباب الخامس

الفصل الأول

(1) فاسلييف، روسيا في الشرقين الأدنى والأوسط، ص 111.

(2) أحمد حمروش، خريف عبد الناصر، ص 233.

(3) اسكندر أحمدوف، الاتحاد السوفييتي والعالم العربي، ص 96.

(4) أحمد حمروش، م س، ص 233-234.

(5) محمد فوزي، حرب الثلاث سنوات، ص 161.

(6) عبد المجيد فريد، من محاضر اجتماعات عبد الناصر، ص 56.

(7) أحمد حمروش، م س، ص 182.

(8) م ن، ص 182.

(9) م ن، ص 182.

(10) محمد فوزي، م س، ص 194.

(11) م ن، ص 148.

(12) اسكندر أحمدوف، م س، ص 95- 98.

(13) محمود رياض، مذكراته، ج 1، ص 93.

(14) محمد فوزي، م س، ص 194.

(15) محمود رياض، م س، ص 94-95.

(16) م ن، ص 95- 96.

(17) م ن، ص 96- 97.

(18) م ن، ص 102.

(19) محمد فوزي، م س، ص 94-95.

(20) أحمد حمروش، م س، ص 185.

(21) م ن، ص 185.

(22) م ن، ص 186.

(23) الفريق صلاح الدين الحديدي، شاهد على حرب 1967، ص 217.

(24) أمين هويدي، الفرص الضائعة، ص 275.

(25) محمد فوزي، م س، ص 195-196.

الفصل الثاني

(1)محمود رياض، م س، ص 113.

(2) م ن، ص 123.

(3) أحمد حمروش، خريف عبد الناصر، ص 249.

(4) محمد عبد الغني الجمسي، حرب أكتوبر، ص163.

(5) م ن، ص 164.

(6) أمين هويدي، حروب عبد الناصر، ص 160.

(7) علاء جمعة وآخرون، ناصر رمز الحلم العربي، ص 109-110.

(8) محمد فوزي، م س، ص 236.

(9) أمين هويدي، الفرص الضائعة، ص 278-279.

(10) عبد المجيد فريد، م س، ص 152-153.

(11) محمود رياض، م س، ص 205.

(12) محمد فوزي، م س، ص 348–349.

(13) م ن، ص 350.

(14) محمود رياض، م س، ص 232.

(15) م ن، ص، 233.

(16) م ن،ص 233.

(17) م ن، ص 215.

(18) أحمد حمروش، م س، ص 277.

(19) م ن، 279.

(20) محمد فوزي، م س، 352.

(21) م ن، ص 320.

(22) ناصر، وثائق عبد الناصر،ص69–70.

(23) محمد فوزي، م س، ص 319.

(24) م ن، ص 319.

(25) م ن، ص 304.

(26) محمد عبد الغني الجمسي، م س، 180–181.

(27) محمد فوزي، م س، ص 305.

(28) أحمد حمروش، م س، ص 280.

(29) محمود رياض، م س، ص 261.

(30) هيكل، حكاية العرب والسوفييت، ص 146.

(31) م ن، ص 146 –147.

(32) محمود رياض، م س، ص 260.

(33) محمد فوزي، م س، ص 323- 324.

(34) محمود رياض، م س، ص 266.

(35) ناصر، وثائق عبد الناصر، ص 475.

(36) م ن، ص 482.

(37) علاء جمعة وآخرون، م س، ص 156.

(38) محمود رياض، م س، ص 268 -269.

(39) محمد عبد الغني الجمسي، م س، ص 181-182.

(40) محمد فوزي، م س، ص 323.

(41) أحمد حمروش، م س، ص 281.

(42) محمد فوزي، مس، ص 323.

(43)أحمد حمروش، م س، 281.

(44) م ن، ص 281.

(45) فؤاد مطر، بصراحة عن عبد الناصر، ص 209.

(46)عبد المجيد فريد، م س، ص 216.

(47) أحمد حمروش، م س، ص 359.

(48) عبد المجيد فريد، م س، ص 230.

(49) م ن، ص 230.

(50) محمود رياض، م ن، ص 281- 284.

(51) محمد فوزي، م س، ص 307.

(52) هيكل، لمصر لا لعبد الناصر، ص 175.

(53) أحمد حمروش، م س، ص 267.

(54) محمد فوزي، م س، ص 357.

(55) م ن، ص 360.

(56) م ن، ص 357.

(57) م ن، ص 358.

(58) م ن، ص 360.

(59) الفريق صلاح الدين الحديدي، م س، ص 68-69.

(60) محمود رياض، م س، ص 287.

(61) م ن، ص 287.

(62) م ن، ص 287.

(63) م ن، ص 286.

(64) م ن، ص 214–215.

(65) أحمد حمروش، م س، ص 271.

(66) محمود رياض، م س، ص 289.

(67) محمد فوزي، م س، ص 360 –361.

(68) جورج كتن، العلاقات الروسية العربية، ص 54.

(69) هيكل، لمصر لا لعبد الناصر، ص 177.

(70) أحمد حمروش، م س، ص 182.

(71) م ن، ص 188.

(72) م ن، ص 188.

(73) محمد فوزي، م س، ص 194.

(74) م ن، ص 235.

(75) م ن، ص 262.

(76) م ن، ص 262–263.

(77) م ن، ص 236.

(78) محمد عودة وآخران، قصة السوفييت مع مصر، ص 151–152.

(79) هيكل، الطريق إلى رمضان، ص 50–51.

(80) محمد عودة وآخران، م س، ص 151–163.

الباب السادس

العلاقات السوفييتية المصرية

في عهد السادات

الفصل الأول

قبل حرب أكتوبر

كيف نضغط على حليفتنا إسرائيل لصالح مصر وبها 15 ألف مقاتل سوفييتي"

(كيسنجر، الفرص الضائعة لأمين هويدي، ص 245)

برقية تعزية القادة السوفييت بوفاة عبد الناصر

وفي اليوم التالي لوفاة عبد الناصر، يرسل القادة السوفييت هذه البرقية إلى رئيس الجمهورية بالنيابة أنور السادات:

"تلقت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، وهيئة رئاسة السوفييت الأعلى، ومجلس الوزراء، وشعوب الاتحاد السوفييتي بشعور من الأسى العميق نبأ وفاة رجل الدولة البارز، والزعيم المعترف به لحركة التحرر الوطني، والصديق الصدوق للاتحاد السوفييتي، رئيس الجمهورية العربية المتحدة، ورئيس وزرائها، ورئيس الاتحاد الاشتراكي العربي في الجمهورية العربية المتحدة جمال عبد الناصر، الذي اختطفته المنون في 28 أيلول (سبتمبر) 1970 وهو في الثالثة والخمسين من العمر.

تحت قيادة جمال عبد الناصر قامت في 23 تموز (يوليو) 1952 الثورة المناهضة للامبريالية والاقطاعية في مصر، والتي شقت أمام شعب بلادكم الطريق إلى التطور الوطني المستقل نحو الحرية والتقدم.

ويرتبط باسم جمال عبد الناصر إجراء التحويلات الاجتماعية والاقتصادية الجذرية في الجمهورية العربية المتحدة، لصالح جماهير الكادحين الواسعة من أبناء الشعب المصري، ويرتبط اسمه ارتباطاً وثيقاً بالنضال الباسل لشعب مصر ضد العدوان الامبريالي الثلاثي في عام 1956، وبنضال الشعوب العربية في سبيل إزالة آثار العدوان

الاسرائيلي عام 1967، وشغلت الجمهورية العربية المتحدة مواقع طليعية في حركة التحرر الوطني للشعوب العربية، وفي ذلك أيضاً فضل عظيم للرئيس الراحل جمال عبد الناصر.

لقد بذل الرئيس جمال عبد الناصر جهوداً كثيرة لإقامة الصداقة المخلصة، والتعاون المثمر بين الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفييتي، إن الاتحاد السوفييتي يقدر ذلك رفيع التقدير.

وفي هذه الأيام العصيبة على الشعب المصري، يود اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، وهيئة رئاسة السوفييت الأعلى، والحكومة السوفييتية، أن تؤكد بجزم نهج الاتحاد السوفييتي نحو تطوير العلاقات الشاملة مع الجمهورية العربية المتحدة، والذود عن مصالح الشعوب العربية في نضالها العادل ضد الامبريالية، وتعزيز استقلال هذه الشعوب، وقدرتها الاقتصادية والدفاعية، إن هذا النهج ينطلق من وحدة أهداف نضال شعوب الاتحاد السوفييتي والشعوب العربية ضد قوى الامبريالية والعدوان، وقد جرب الزمن وهو يستجيب للمصالح الجذرية لشعبي بلدينا، وسوف يقدم الاتحاد السوفييتي في المستقبل أيضاً الدعم لحركة التحرر الوطني للشعوب العربية.

إن العلاقات السوفييتية المصرية الودية التي علق الرئيس الراحل جمال عبد الناصر أهمية من الدرجة الأولى على تطويرها، إنما تساعد على تعبئة قوى الشعوب العربية للنضال في سبيل تحرير الأراضي العربية المحتلة من قبل إسرائيل، وفي سبيل إحلال سلام وطيد وعادل في الشرق الأوسط، إن النهج الذي يستهدف التسوية السياسية في الشرق الأوسط، ذلك النهج الذي أيده الرئيس الراحل عبد الناصر عن اقتناع راسخ، سيحظى كالسابق بتأييدنا إلى أقصى حد.

كان الرئيس الراحل جمال عبد الناصر مناضلاً مجرباً ثابتاً ضد الامبريالية، ولذلك فإن أفضل تخليد لذكراه هو رص صفوف الدول العربية في نضالها ضد الامبريالية، وتعزيز وحدتها.

وفي ساعة الأسى واللوعة هذه، حيث اختطفت يد المنون الرئيس عبد الناصر، تعرب باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، وهيئة رئاسة السوفييت الأعلى في الاتحاد السوفييتي، والحكومة السوفييتية، والشعب السوفييتي، عن المواساة العميقة للحكومة، مجلس الة، والاتحاد الاشتراكي العربي، وشعب الجمهورية العربية المتحدة، ونعاهده على رسوخ مشاعرنا، مشاعر الصداقة والتضامن الكفاحي.

موسكو، الكريملين، 29 أيلول (سبتمبر) 1970 [1]

تعهدات سوفييتية بعد وفاة ناصر

حضر جنازة عبد الناصر رئيس الوزراء السوفييتي الكسي كوسيجين والوفد المرافق الذي ضم المارشال زخاروف رئيس أركان الحرب السوفييتي، وقد اجتمع كوسيجين بالرئيس السادات أكثر من مرة، وصرح بأكثر من تصريح، راسماً السياسة السوفييتية بعد رحيل ناصر، ويبدأ هذه التصريحات بما ينذر بفراغ كبير تركه الزعيم الراحل، وخشية السوفييت من الأوضاع القادمة بعده، فيقول:

"إن هناك نغمة بدأت تتردد في بعض عواصم العالم بأن وفاة عبد الناصر سوف تترك فراغاً كبيراً في مصر والعالم العربي، ولذلك فمن الضروري أن يشعر الجميع بخطأ هذا التصور، وذلك عن طريق الوحدة الداخلية التي يجب أن تكون واضحة للجميع، وبكل الوسائل".

ويؤكد على ضرورة أن يتبع القادة الجدد سياسة عبد الناصر، منذراً بنوايا العدو الإسرائيلي طمعاً في المنطقة التي خلت من ناصر، لذا فالأمور أمست أسهل لتنفيذ خطط إسرائيل، فيقول:

"وإنه من الضروري أن يعلم العالم كله أن القيادات الجديدة في مصر تسير على نفس الطريق الذي رسمه جمال عبد الناصر، فإسرائيل الآن سوف تصبح أكثر تربصاً بعد وفاة جمال عبد الناصر، والموقف في المنطقة خطير..

وبنظرة من كوسيجين للتجارب السابقة، يحذر من خلق الفرصة للقتال بين الأخوة العرب، نظراً لغياب ناصر الذي كان يحول دون ذلك، ولا ينسى أن ينذر بطبيعة القيادة الجديدة وكأنه يقرأ في كتاب، فيضيف:

"إن الأميركان قد نجحوا للأسف في قتل العرب بأيد عربية، كما يجري الآن في جنوب شرقي آسيا، وإن الولايات المتحدة سوف تستمر في محاولة تحريض بعض الدول العربية ضد بعضها البعض، وسوف تنتهز فرصة حدوث فراغ قيادي في مصر للقيام بذلك، بل إنها من الآن تردد أن القيادة الجديدة في مصر ضعيفة، وأنها لن تكون قادرة على تحقيق ما كان جمال عبد الناصر يعمل لتحقيقه".

ويؤكد كوسيجين على التزام السوفييت بعهودهم ومواثيقهم مع مصر، فيقول أن الاتحاد السوفييتي كانت تربطه بمصر علاقات وثيقة في ظل قيادة جمال عبد الناصر، برغم كل الخلافات والمصاعب التي كانت تنشأ أحياناً، وإن الاتحاد السوفييتي سيلتزم بكل الاتفاقيات التي تم عقدها بين البلدين في المجالات العسكرية والاقتصادية وغيرها..

ويضيف: "إن المارشال زخاروف قد بحث الجوانب العسكرية مع الفريق محمد فوزي، وإن الاتحاد السوفييتي يفعل كل ما في استطاعته لتعزيز القوات المسلحة المصرية، وإن كانت هناك مبالغة احياناً في قوائم مشتريات السلاح المقدمة للجانب السوفييتي".

ولا ينسى القضية الشائكة التي بذل الكثير من الطرفين للإتفاق عليها، وإتمامها، ألا وهي استخدام مصر للخبراء السوفييت، والتي تسبب للسوفييت – على ما يبدو- الكثير من الإحراج..

"كنا طلبنا من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر العمل على إنهاء مهمة العدد الأكبر من الخبراء السوفييت، خصوصاً في مجال صواريخ الدفاع الجوي، وإحلال الأطقم المصرية محلها، ولكن الرئيس الراحل طلب تأجيل ذلك لستة أشهر اخرى إلى أن ينتهي تماماً برنامج تدريب الخبراء المصريين، والآن فإننا نرى أن على الجانب المصري أن يبذل

كل جهد ممكن لكي يحل المصريون محل السوفييت الموجودين في مصر قبل بدء المعركة، وهذه – على أية حال – كانت هي نفس وجهة نظر الرئيس جمال عبد الناصر"

وينبه كوسيجين إلى أن " اليقظة السياسية والعسكرية في هذه الظروف الدقيقة هي أمر حاسم، فقد لاحظ مثلاً وجود حالة استرخاء بين حراس الكباري إثناء مروره في الشوارع، وأن الولايات المتحدة يمكن أن تدفع إسرائيل إلى شن الحرب على مصر في أية لحظة، ولذلك فإن المسئوليات كبيرة على القيادات الجديدة في مصر، لأن هناك محاولة لاستفزاز مصر، واستئناف إطلاق النيران بهدف عرقلة الجهود العسكرية والسياسية المصرية "...

ويضيف: إن إسرائيل تزعم أنكم خالفتم وقف إطلاق النار، وأننا ساعدناكم في ذلك، بينما الواضح تماماً هو العكس، وإسرائيل هي التي ارتكبت مخالفات في سيناء لترتيبات وقف إطلاق النار، ولدينا الأدلة على ذلك بالصور التي حصلت عليها أقمارنا الصناعية، وسوف نمدكم بنسخ من تلك الصور على وجه السرعة [2].

وما نستطيع الوصول إليه من حديث كوسيجين ما يلي:

1- من نافلة القول أن نقول أن السوفييت قد قرأوا المستقبل بشكل دقيق واضح، بدليل أن ما توقعوه قد حصل تماماً، ليدل ذلك أنهم يقرأون المستقبل بالرجوع إلى الماضي والحاضر، مضافاً إليهما العلمية في التفكير والدرس، والرسم والتخطيط، وهذا ما يفتقر إليه العرب..!

2- رغبة السوفييت الأكيدة بأن تستمر سياسة ناصر في مصر، لإيمانهم العميق بقيادته الحكيمة الواعية، لذا هم ينبهون على هذه الرغبة، مؤكدين أن إسرائيل ستكون أكثر شجاعة وطمعاً بعد وفاته.

3- تأكيدهم على ضرورة الحذر من سياسة أميركا في تفريق العرب، وتحريضهم على بعضهم البعض.

4- تأكيدهم على التزامهم بالاتفاقيات التي تم عقدها مع مصر في عهد عبد الناصر.

5- لذا هم سيواصلون دعم مصر وبالذات بإمدادها بالسلاح.

6- في حديث كوسيجين تأكيد على أن سحب الخبراء وارد، وقد تم بحثه في عهد ناصر، لذا هو ليس من ابتكار السادات.

7- تأكيده على ضرورة أخذ الحيطة والحذر من أي عدوان إسرائيلي قادم، طمعاً في إسرائيل في المنطقة بعد غياب عبد الناصر، وقد ورد ذلك في تصريحات كبار قادتهم.

رد السادات..وورد في رد أنور السادات:

"إن مصر لن تفرط في حقوقها الوطنية، وواجبها القومي، وإننا نريد السلام وحقن الدماء، ولكننا لن نقبل بالتسليم في أي شبر من أراضينا، أو في القضية الفلسطينية، أما بالنسبة للوحدة الداخلية، فهي قائمة طالما نحن مستمرون في التمسك بالأسس والسياسة التي وضعها الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، وهو الأمر الذي كان محل إجماع في الاجتماعات المشتركة بين اللجنة التنفيذية العليا ومجلس الوزراء، وهما أعلى هيئتين سياسيتين في مصر، وإن الشعب نفسه لن يقبل بغير ذلك، وبالنسبة للعلاقات مع الاتحاد السوفييتي، فإننا نراها علاقات استراتيجية، وللدعم السوفييتي في المجالين العسكري والاقتصادي باعتباره حجر الزاوية في استعداداتنا من أجل المعركة"[3].

خلاصة مواقف الغرب من وفاة ناصر..

ولا يستطيع باحث أو مؤرخ أن يقدم لنا أي دليل على أسف غربي على وفاة الزعيم الراحل عبد الناصر، بل إن ما ترويه المصادر والمراجع هو أخبار مشاعر الارتياح

والسرور لغيابه عن الساحة العربية، كونه كان حجر عثرة في طريق الحلول الاستسلامية، والتي لا تخدم سوى دولة العدو الصهيوني.

ويصوغ لنا وزير خارجيته محمود رياض خلاصة ما وراء مشاعر السعادة هذه قائلاً:

"أن ناصر لم يكن رئيس دولة، أو زعيم شعب فحسب، بل كان إلى جانب هذا يمثل تياراً سياسياً، ويقود حركة وطنية اجتاحت المنطقة كلها، وأدت إلى سقوط قلاع الاستعمار واحدة إثر أخرى، واستقطب الجماهير العربية وشعوب العالم الثالث في كل مكان، فلما تألبت عليه القوى المعادية للحرية واستقلال الشعوب تريد إسقاطه، صمد أمامها شامخاً، وأشد إصراراً، وأقوى إيماناً.

وبعد محنة 1967 لم يكن يشك حتى لحظة موته في قدرته على تصحيحها، فبذل جهداً إعجازياً في إعادة تسليح قوات مصر المسلحة من الصفر، وقاد حرب الاستنزاف، ورفض الحلول المنفردة، وواصل الاعداد ليوم استرداد الحق والأرض"[4].

ومما روي من هذه المواقف:

1- قول حاييم بارليف لطلاب الكلية الحربية في إسرائيل "بأن المستقبل قد أصبح مشرقاً أمام إسرائيل بموت جمال عبد الناصر".

2- عارض كيسنجر محاولات التحرك الدبلوماسي الأميركي لأن "الشرق الأوسط ليس مهيأ لمبادرة أمريكية شاملة، طالما استمر عدم تفاهمهم مع السوفييت، وعدوانية عبد الناصر، وقوة الفدائيين".

3- في تموز 1969 أوفدت الحكومة الأميركية إلى موسكو وكيل وزارة خارجيتها جوزيف سيسكو "بهدف إقناع السوفييت بممارسة الضغط على عبد الناصر من أجل تقديم المزيد من التنازلات التي تطلبها إسرائيل، ولكن السوفييت قالوا له بوضوح وصراحة أنهم لا يستطيعون الضغط على عبد الناصر، أو التأثير عليه على الاطلاق".

4- كان الساسة الأميركيون يرون أن على عبد الناصر إذا ما أراد أن يكون "صديقاً للولايات المتحدة أن يتخلى عن إيمانه بالقوميه العربية ودعوته لها، حتى لا يعادي الولايات المتحدة في كل القضايا الدولية تقريباً"، هذه القومية التي كانوا يرونها معادية لمصالحهم في المنطقة.

5- ينسى الساسة الأميركيون أن السوفييت قد دخلوا عام 1959 في خلاف مع ناصر بسبب هذه القومية العربية، لإيمانهم بأن وحدة الطبقة العاملة كمفهوم ماركسي هي المفهوم الذي يجب انتشاره في المنطقة، وقد تغاضى السوفييت عن هذا الخلاف بعد رؤيتهم عدم تخلي ناصر عنه، لكن الأميركيين ظلوا يرونه سبباً للخلاف الأكيد الجذري مع الزعيم الراحل[5].

6- ونضيف إلى ما سبق، ذلك الجسر من العلاقات المتينة المتجددة الذي أسسه ناصر بين مصر والاتحاد السوفييتي، فحصلت مصر على كميات ضخمة من الأسلحة، إضافة إلى الخبرات الكبيرة التي قدمها السوفييت لمصر من مجالات التدريب والتعليم، وبناء السد العالي، وتأسيس المصانع، بل وإيفاد الطيارين السوفييت للقتال إلى جانب المصريين، وهذا جعل من مصر دولة قوية تقف أمام محاولات العدو الاسرائيلي، ومثل هذه الأعمال والإنجازات لا تروق لدولة العدو، ولا لحلفائهم الأميركيين.

وبناء على ما سبق، فإن أي بديل لناصر بعد وفاته يجب إغراؤه، وتهجينه وترويضه، ليوافق الخطط والأطماع الإسرائيلية الأميركية، وقد أدى السادات هذا الدور بصورة لم يحلم بها أعداء مصر والأمة العربية.

تيتو يثير موضوع القلق الأميركي..

وفي زيارته لمصر في تشرين أول 1971، يلتقي الرئيس اليوغسلافي تيتو بالرئيس السادات ، فيقول له تيتو:

"عندما تباحثت مع نيكسون اثناء زيارته ليوغسلافيا اخيراً، كان الموضوع الأساسي الذي أثاره بالنسبة للشرق الأوسط هو قلقه الشديد من الوجود السوفييتي في مصر، والمنطقة عموماً، واتجاه هذا الوجود إلى النمو بسرعة خصوصاً في مصر، ولقد قلت له:

لماذا تفضل الولايات المتحدة أن تلعب على ورقة واحدة هي إسرائيل؟ ولماذا لا تضغطون على إسرائيل لتنفيذ قرارات الأمم المتحدة بالانسحاب من كافة الأراضي العربية؟ وقد رد نيكسون بأنهم لا يستطيعون الضغط على إسرائيل...

وهنا قلت له: إذن في هذه الحالة توقعوا مزيداً من الوجود السوفييتي في مصر وفي المنطقة، فإن الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية هو الذي جعل جمال عبد الناصر يستعين بالسوفييت، فإذا كنتم تشكون الآن من وجودهم، فالمفتاح في معالجة هذا الموقف هو (جلاء الاحتلال الإسرائيلي)"[6].

كما أضاف تيتو أن بريجينيف قد أخبره أن السوفييت لم يكونوا راغبين بإرسال وحدات مقاتلة إلى مصر، ولكن السبب في إرسالها الضغط الذي مارسه عبد الناصر عليهم بسبب الغارات الإسرائيلية المتكررة ضد المصانع وقناطر المياه والمدنيين في العمق المصري.

كما أضاف بريجينيف:

"إن الامريكيين يجعلون من وجودنا في مصر قضية كبرى، والحقيقة هي أننا مستعدون لسحب وحداتنا وخبرائنا من مصر في اللحظة التي يتحقق فيها انسحاب إسرائيل"[7].

وحديث تيتو هذا لا يجانب الحقيقة والواقع قيد أنملة..

وحديث بريجينيف لا يقل عن حديث تيتو وضوحاً وواقعية.

فالقلق الأميركي نابع من القلق الإسرائيلي، فإسرائيل تريد السيطرة على المنطقة بدون متاعب، ومصدر المتاعب مصر عبد الناصر، وناصر نجح بتفوق في استقطاب العملاق السوفييتي إلى المنطقة، العملاق الذي لم يبخل علينا بشيء، ولم يحسن خلفاء عبد

الناصر – وأولهم بجدارة السادات– التعامل معه فحسب، بل أخرجوه من المنطقة بتفوق أيضاً، فحرمنا من نصيرنا الوحيد!!

إذن..فإخراج السوفييت مطلب صهيوني قبل أن يكون مطلباً أميركياً إسرائيلياً، فطالما هناك خصم قوي يواجه إسرائيل فليس سهلاً على أميركا وإسرائيل تمرير الحلول، وكلاهما يعرف تماماً التغيير الكبير الذي أحدثته المساعدات السوفييتية الهائلة – غير المشروطة– والوجود السوفييتي على ميزان القوى في المنطقة، لذا، فإنهاء هذا التواجد يجب أن يكون المطلب الأول قبل طرح أية حلول.

السادات يبدأ تقديم آيات الولاء..

وواضح أن السادات قد وجد في حديث تيتو ما يسره، فعلق عليه:

"إن الولايات المتحدة قلقة فعلاً من الوجود السوفييتي في المنطقة، وخصوصاً في مصر، وقد سمعت ذلك مباشرة من وليم روجرز (وزير الخارجية الأميركي) بما يعني أنهم يريدون أولاً إخراج السوفييت من مصر ومن المنطقة كلها قبل أي تسوية شاملة.

وأضاف السادات:

"إنني ذكرت لروجرز أننا نعطي للسوفييت تسهيلات في الموانىء المصرية، ولكن لا توجد لهم قواعد عندنا، وأنه توجد لدينا وحدات عسكرية سوفييتية لتشغيل صواريخ سام 3 للدفاع الجوي عن العمق المصري، كما أنني ذكرت لروجرز أنه إذا تم الحل السلمي، فسوف تنسحب تلك الوحدات السوفييتية من مصر[8].

بل وكان السوفييت أكثر واقعية..

ففي أواخر أكتوبر 1971 تقدم بريجنيف بعرض للحكومة الاميركية للتسوية الشاملة من مرحلتين:

المرحلة الأولى: يتم فتح قناة السويس وانسحاب إسرائيل إلى خط يتفق عليه.

المرحلة الثانية: عودة إسرائيل إلى خط 4 حزيران 1967 مقابل إنهاء حالة الحرب، كما أكد السوفييت استعدادهم لسحب خبرائهم العسكريين إن تم تنفيذ ذلك.

ولم يلق العرض قبول حكومة نيكسون، فقد كانت الانتخابات الأميركية على الأبواب، وكان نيكسون طامعاً في الأصوات اليهودية، لذا ليس من مصلحته ممارسة أي ضغط عليها، وكان الرد الأميركي تزويد إسرائيل في 2 شباط 1972 ب 42 طائرة فانتوم، و 82 طائرة سكاي هوك [9].

وبالطبع..لم يكن نيكسون أول رئيس أميركي يتقرب لليهود الأميركيين بتقديم المساعدات لإسرائيل، فالتاريخ الأميركي حافل بهذا التقارب والتزلف لإسرائيل ومن يقف وراءها في أميركا..!

بل ونجد نيكسون في تقرير قدمه للكونجرس في 9 شباط 1972يهاجم الاتحاد السوفييتي، ويتهمه بأنه يستغل الصراع العربي الاسرائيلي للحفاظ على تواجده العسكري في مصر وزيادته، وأنه يحصل على تسهيلات بحرية وجوية في مصر بسبب اعتماد مصر على إمداداته العسكرية، وهذا يخل بميزان القوى بين مصر وإسرائيل، ولم يتحدث نيسكون عن أي انسحاب إسرائيلي، ولا عن العرض السوفييتي، كل هذا يوضح حرص أميركا على سحب السوفييت وحداتهم من مصر ليكون هناك تسوية ترضى عنها إسرائيل، وتتم تحت ضغوطها بدون أي رادع يخيفها [10].

ولكن السادات قدم آيات الطاعة لأعداء الأمة قبل الحل السلمي – الذي كان يرتقب – بوقت كافٍ، لكي يقنع الأميركيين والإسرائيليين أنه الرئيس الحلم بالنسبة لهم، فكان أول القرابين على مذبح هذه الطاعة الخبراء السوفييت ووحداتهم العسكرية، فتم طردهم مقابل لا شيء سوى سرور الأعداء وغبطتهم.

مساعي أميركا لاستقطاب السادات تكلل بالنجاح...

ويقود كيسنجر – كاهن السياسة الأميركية– عملية استقطاب السادات إلى الجانب الأميركي، وقد حقق نجاحاً كبيراً لم يحلم به لا هو ولا رؤساؤه، وقد سايرته مؤسسات الإعلام الأميركية في ذلك..

" فقد شعر الأمريكيون بحب السادات للدعاية، فظلوا يدقون له الطبول، ويصفونه بأنه رجل الاستراتيجية، ويظهرون صوره في وسائل الإعلام المختلفة، ومما جعله يفاخر في إحدى المرات أن مجلتي التايم والنيوزويك الأمريكيتين أظهرتا صورته على الغلاف عشر مرات، في حين لم تظهر صورة عبد الناصر سوى أربع مرات "[11].

وللقصة مدلول آخر، فالسادات يجعل من عبد الناصر نموذجه الأعظم في كل ما يحصل له، فهو يقارن نفسه به في كل ما يفعل أو ينجز، ناسياً أن الصفات الشخصية التي تحلى بها سلفه لم تتوفر له أو لمن جاء بعده، ولا لمعاصريه من الساسة، لذا فقد كلفته هذه المقارنة الكثير من التعب واللهاث.

ومذكرات الساسة الأميركيين – والتي ظهرت لاحقاً – أمثال كارتر وكيسنجر وفانس وكوانت وبرلجسكي وغيرهم، تثبت أن السادات كان على علاقة بالأميركيين منذ بداية 1971 عن طريق المخابرات الأمريكية، بل لقد ذكر كيسنجر بالتحديد أن مبادرة 4 فبراير 1971 التي أعلنها السادات كانت بتشجيع أمريكي إسرائيلي[12].

ويضيف وزير الخارجية المصري آنذاك محمود رياض:

" والواقع أن متابعة أحداث مايو وما تلاها من أحداث جسام انتهت باتفاقيات كامب ديفيد، تشير بوضوح إلى أن السادات كان قد قرر اتباع سياسة جديدة تماماً تخالف تلك السياسة التي استقر عليها الرأي بعد هزيمة 1967، واتجه نحو الولايات المتحدة، والحل المنفرد، واستبعاد روسيا، ومحاولة تجنب معركة التحرير[13].

السادات يشيد بالسوفييت

في خطاب له في 4 شباط 1971، يشيد السادات بعلاقة بلاده مع الاتحاد السوفييتي قائلاً:

"إنني أؤكد لكم أنني أرى مستقبلنا مرتبطاً بمستقبل الاتحاد السوفييتي..

وأنا على استعداد الآن، وهنا، أن أوقع ما يريد الاتحاد السوفييتي مني أن أوقعه لأثبت ما أقول..

إنني أعرف أن عدوي الحقيقي هو الولايات المتحدة والامبريالية الغربية، هذا هو ما قلته للسفير السوفييتي فينوجرادوف يوم الجمعة الماضي، وإذا كنت على استعداد لتوقيع أي شيء مع الاتحاد السوفييتي فليس هذا لمجرد أن يظنوا أنني أفتقد القوة على رد الضربة التي يوجهونها إلي"[14].

ويضيف:

"لهذا، فإنني سوف أقوم باستعراض كامل لموقفي..

أولاً: أكرر أن الوجود السوفييتي في المنطقة هو في صالح بلدي..

ثانياً: لا بد أن تقوم علاقاتنا المتبادلة، الآن، وفي المستقبل، على أساس واضح ومحدد تماماً، لا بد ان تقفوا في صفي لمساعدتي على مقاومة الضغط الذي أواجهه.

ثالثاً: إنني على استعداد – مثلما كان الرئيس عبد الناصر على استعداد – لأن أواجه أي شيء في بلدي وفي المنطقة العربية.

رابعاً: ليس لدي أية مطالب محددة، سوى أنه ينبغي علينا أن نبني علاقة الآن وللمستقبل، فإذا كان الأميركيون يستطيعون إنجاز خطوة أولى طبقاً لمشروعاتهم، فسوف يكون هناك رد فعل ضد الاتحاد السوفييتي وضدي، لأنها سوف تعطي إنطباعاً بأن الأميركيين هم الذين نجحوا بعد أن فشل

الاتحاد السوفييتي، وسوف يبدو الأمر كما لو كانوا يمسكون بمفتاح الموقف"[15].

وفي خطاب له في 10 حزيران 1971، يشيد السادات بالصداقة التي تربط مصر بالسوفييت، فيقول:

"إن صداقتنا مع الاتحاد السوفييتي ليست مؤقتة، إنها ليست مرحلية، وإنما دائمة، لقد وقفنا وسنقف دوماً جنب بعضنا البعض في إطار الجبهة الثورية العالمية المناهضة للإمبريالية..

إن الاتحاد السوفييتي لا يتردد في وضع كل خبراته تحت تصرف الدول المستقلة، الفتية المناضلة، في سبيل تنمية اقتصادياتها، والدفاع عن استقلالها، دون أن يطرح شروطاً ما، إنه واقع نعيشه، وليس كلاماً نسمعه"[16].

وهذا حديث لا يجانب الحقيقة والواقع..

ويعزز السادات حديثه السابق أمام مجلس الشعب في 20 تشرين ثان 1971، فيشيد بالعون الصادق الذي يقدمه السوفييت، ويذكر أن أهداف الولايات المتحدة في المنطقة هي:

1- إخراج الاتحاد السوفييتي من المنطقة.

2- عزل مصر عن الأمة العربية.

3- ضرب التجربة الاشتراكية في مصر[17].

ولا يقول المؤرخ الحصيف غير ما قاله السادات..

تصفية مجموعة علي صبري

وفي 22 نيسان 1971، يستدعي السادات السفير السوفييتي ليخبره بقراره بتنحية علي صبري، واصفاً قراره ذاك بأنه مسألة داخلية محضة، وليس موجهاً ضد السوفييت ولا ضد وجودهم في مصر[18].

وقد جاء في أقواله للسفير:

"أنا حريص على العلاقات معكم، ولكني أرجو أن تبلغ القيادة السوفييتية أنني قررت تصفية علي صبري من القيادة السياسية، وقد أخبرتك بهذا الأمر مع أنه من صميم شئوننا الداخلية التي لا أقبل فيها تدخلاً من أحد، ولكنني أخشى عندما أصفيه أن تتحدث صحف الغرب عن تصفية رجل موسكو الأول في مصر، وأن يسبب هذا لكم شيئاً من الحساسية، وأرجو أن تعلموا أنه لا يوجد لموسكو رجل في مصر، فأنتم تتعاملون مع الحكومة لا مع أفراد.. وأنا أصفي علي صبري لأني أقبل الخلاف في الرأي، ولكن لا أقبل الصراع على الإطلاق"[19].

يقول السادات هذا كله مع أنه في الصفحة نفسها من كتابه "البحث عن الذات" يقول أن ترحيبه بزيارة روجرز كان صدمة للاتحاد السوفييتي وعملائه وخاصة من كان منهم في مراكز القوى..

كما يقول: "قررت تصفية علي صبري عميد العملاء السوفييت في مصر"[20].

ولم يذكر للسفير أية نوايا أخرى بتنحية آخرين..

وكانت أولى القرابين مجموعة علي صبري..

فنظراً للخلافات الكبيرة بين السادات وبين اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي المصري، وقبل قدوم وزير الخارجية الأميركي روجرز إلى المنطقة بثلاثة أيام، أعلن السادات في 2 أيار 1971 عزل نائب الرئيس علي صبري عن جميع مناصبه[21].

وفي 13 أيار أقال وزير الداخلية شعراوي جمعة[22].

ولما اتهم السادات عدداً من وزرائه بالخيانة وتدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم، سارع هؤلاء إلى تقديم استقالاتهم، وهم وزير الدفاع الفريق محمد فوزي ومحمد فائق وسعد زايد وسامي شرف وحلمي السعيد[23].

ويصف هيكل القائمة بشكل آخر، ويصفهم بأنهم كانوا يشغلون مواقع قيادية في اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي، وفي البرلمان، وفي المخابرات، وعلى الأخص:

علي صبري نائب الرئيس.

شعرواي جمعة وزير الداخلية وأمين عام الاتحاد الاشتراكي.

ضياء الدين داود عضو اللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكي.

لبيب شقير رئيس مجلس الشعب.

سامي شرف وزير شئون الرئاسة.

دكتور محمد فائق وزير الاعلام[24].

ويقول هيكل أن الصراع بين هؤلاء والسادات لم يكن بسبب العلاقات مع السوفييت، أو الاتحاد مع ليبيا، بل كان صراعاً من أجل السلطة بين رئيس جديد يحاول أن يؤكد نفسه، ومجموعة من زملائه السابقين، مصرين على أن تظل السيطرة على الأمور في أيديهم، ومستعدين أن يذهبوا إلى حد التطرف ليحققوا هدفهم [25].

وفي 14 أيار 1971 قام السادات بحملة اعتقالات واسعة لعدد من قادة الاتحاد الاشتراكي، وأسقط العضوية عن رئيس مجلس الأمة الدكتور لبيب شقير ووكيله و15 عضواً بدون تحقيق أو مساءلة سوى ادعاء السادات بأن هؤلاء يتهمونه بأنه باع البلد للأميركان، ولما كلف الدكتور محمود فوزي بتشكيل وزارة جديدة، سارع وزير الخارجية محمود رياض بالإعتذار عن المشاركة فيها، ولكن السادات أقنعه بالبقاء لحاجته لخبرته، إلا أن رياض لم يكن ضمن الوزارة الجديدة التي شكلها عزيز صدقي في كانون ثان 1972[26].

ولم يصرح السوفييت بأي تصريح يثبت أن لهم رجالهم في مصر..

ولما زار أنور السادات الاتحاد السوفييتي في تشرين أول 1971 قال له بريجينيف أن التغييرات التي أجراها في بلاده مسألة داخلية، ونفى وجود علاقة بين السوفييت وبين أي شخص في مصر[27].

المعاهدة المصرية – السوفييتية القاهرة 29 أيار 1971

ويقوم بدجورني في 25 أيار 1971بزيارة مفاجئة إلى القاهرة، يرافقه وزير الخارجية جروميكو ووزير الدفاع بافلوفسكي ومسئول الأحزاب الأجنبية بوناماريوف، وقد كان مثيراً للدهشة الكبيرة أن يتم في هذه الزيارة توقيع معاهدة الصداقة والتعاون بين موسكو والقاهرة كون العلاقات بينهما مستمرة في التدهور، كما أن نصوصها لا ترد إلا فيما توقعه موسكو مع الدول الاشتراكية.

ومن بنود هذه المعاهدة:

1- استمرار التعاون مدة 15 عاماً.

2- يشمل التعاون المجالات الاقتصادية والعسكرية والتقنية والعلمية والثقافية.

3- الحفاظ على المكتسبات الاجتماعية والاقتصادية للشعوب المعنية وتطويرها.

4- رغبة مصر في بناء مجتمع اشتراكي.

5- تنسيق نشاطات الدولتين اذا استجدت ظروف تعتبر مهددة للسلام.

6- تطوير التعاون العسكري، والتزام موسكو بزيادة مساعدتها لمصر.

7- عدم دخول مصر في أي حلف أو عمل يهدد الاتحاد السوفييتي [28].

ويرى بعض الكتاب أن سبب المعاهدة أن السوفييت قد نقموا على هذا التذبذب للنظام المصري، لذا كانت نصوصها تعطي طابعاً مفروضاً، خاصة بعد أن بدأت القاهرة تبدي رغبة واضحة في الابتعاد عن موسكو، لذا كانت المعاهدة بمثابة إنذار للقاهرة [29].

وقد أصبحت معاهدة مصر مع السوفييت نموذجاً لدول أخرى، فوقع مثلها كل من: الهند 1971، العراق 1972، الصومال 1974، الجولا 1976، موزمبيق 1977، أثيوبيا 1978، فيتنام 1978، أفغانستان 1979، اليمن الجنوبي 1977، سوريا 1980، الكونجو 1981، اليمن الشمالي 1984[30]، وهذا له مؤشر آخر وهو الثقل السياسي الكبير الذي تحتله مصر عالمياً.

السادات يزور الاتحاد السوفييتي 12 تشرين أول 1971

وكان غرضه من هذه الزيارة تسوية الخلافات بين البلدين، فصرح للسوفييت:

1- أن الصراع على السلطة في مصر قد انتهى.

2- سعي بلاده من أجل التوصل لحل سلمي.

3- توقف الاتصالات مع أميركا (كما زعم) كون دورها كساعي بريد قد انتهى.

4- تأكيده على تقوية علاقات الصداقة والتعاون بين البلدين لمواجهة المخطط الأميركي.

ولما تحدث وزير الدفاع المارشال جريشكو قارن بين قوة سوريا ومصر مجتمعتين، وقوة إسرائيل، فأشار إلى تفوق عربي بنسبة 1: 2 في عدد القوات والأسلحة، خاصة بالنسبة للدبابات والمدفعية وصواريخ الدفاع الجوي، أما عن الطائرات فذكر أن تفوق مصر وسوريا هو 1: 2 أيضاً [31].

وبعد إشارته لوجود 9500 خبير عسكري سوفييتي في مصر، تحدث بريجينيف عن المساعدات التي سيزود بها السوفييت مصر، والتي سيكون لها أثر حاسم بالنسبة لما يجري، فكانت:

1- طائرات قاذفة بعيدة المدى من نوع تي يو.

2- 100 طائرة ميج 21 وسوخوي، إضافة إلى سرب ميج 23 يسلم العام القادم.

3- كتيبة مدفعية 180 ملم يصل مداها 42 كم، إضافة إلى مدافع هاون 240 ملم.

4- المزيد من وسائل العبور مثل ثلاثة كباري جديدة، وأجهزة لفتح الثغرات.

وقد كانت كلفة هذه الصفقة 288 مليون دولار[32].

وفي الجزء الثالث من مذكراته يضيف محمود رياض إلى ما سبق 200 دبابة 62، ووعد سوفييتي بتصنيع الطائرة الميج تصنيعاً كاملاً في مصر قبل نهاية عام 1979 [33].

وقد وصل المارشال جريشكو إلى القاهرة في 10 أيار 1972، حاملاً عقود الأسلحة التي تم الاتفاق عليها بين البلدين، متضمنة:

200 دبابة 62 16 طائرة سوخوي

8 كتائب صواريخ سام 3

وقد انتشى السادات بهذه الصفقة، فمنح النياشين والأوسمة لجريشكو ورفاقه[34].

الدور الأساسي لكيسنجر

وفي الوقت الذي كان فيه كيسنجر يستقطب السادات ويحتويه بالوعود والأحلام، كانت أميركا تغدق المساعدات على إسرائيل، فبلغت مساعداتها للقوات الاسرائيلية خلال عامي 72–73 إلى ما يزيد على ثلاثين بالمئة من قواتها عام 1971، وكان معظم الدعم لسلاح الطيران، فكان خير إعداد للمعركة القادمة [35].

ويزيد محمود رياض شخصية هنري كيسنجر كشفاً ووضوحاً، فيقول:

"وإذا كان كيسنجر قد حقق نجاحاً في منطقة الشرق الأوسط لصالح إسرائيل، فلم يكن ذلك لصالح السلام في المنطقة، وهو أمر لم يتوقف عنده لحظة ليمعن النظر فيه، وإنما كان تفكيره ينصب على خدمة أهداف إسرائيل، باعتباره يهودياً لم يعمل في خدمتها كأقرانه اليهود الألمان الذين توجهوا إلى فلسطين على إثر اضطهاد هتلر لهم، بل اتجه مع عائلته في الثلاثينيات إلى أميركا حيث الرفاهية، فأراد أن يعوض غياب دوره في خدمة إسرائيل عند نشأتها، بأن يخدمها في سياستها التوسعية بعد أن أصبح مستشاراً للأمن القومي في البيت الأبيض عندما تولى نيكسون الرئاسة عام 1969، ثم وزيراً للخرجية عام 1973.

وقد تسابق مع اللوبي الصهيوني في تقديم الخدمات لإسرائيل، إلا أن أساليب كيسنجر وجهوده لم يكن يقدر لها النجاح ما لم تجد شخصية مصرية على استعداد للتجاوب معه، وقد تمثلت هذه الشخصية في أنور السادات الذي يختلف كلية عن عبد الناصر.

فقد كان عبد الناصر يعد لمعركة التحرير، وكان يؤمن ببديهية من بديهيات التاريخ، وهي أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة.

ولم ينجح جونسون الرئيس الأمريكي في خداع عبد الناصر بقبول الحلول الجزئية التي كان يحاول إغراءنا بها، وتابعه في هذا الشأن نيكسون عندما تولى رئاسة الجمهورية.

أما السادات، فقد أقنع نفسه أنه يستطيع التفاهم مع الولايات المتحدة لتحقيق الحل السلمي، وتفادي ما كان يخشى منه، وهو الحرب[36].

وهنا نستطيع أن نقول - بدون مبالغة- أن ما قدمه كيسنجر لإسرائيل، من موقعه الخطير، يساوي، أو يتجاوز، ما كان قدمه لها أسلافه ممن خدموا في المناصب الأميركية، أو خارج الولايات المتحدة.

وتجند الولايات المتحدة مختلف أجهزتها لدراسة شخصية السادات. فترسل إليه موظفيها من كل صنف، والرجل يبالغ في استقبالهم والاحتفاء بهم، ليدرك الجميع أن الرجل لا يريد الحرب، وأنه لا يخبر أحداً بما يجريه من مباحثات، وهذا مناقض تماماً لشخصية سلفه ناصر، الذي كان يخبر الزعماء العرب والاتحاد السوفييتي بمباحثاته واتصالاته، قاصدًا التخفيف من الضغوط التي تتعرض لها مصر، ولكي يلمس الاتحاد السوفييتي مدى الانحياز الأمريكي لإسرائيل ودعمها لاحتلالها الأراضي العربية، مما يدفعه إلى الاستجابة لطلبات مصر من الأسلحة[37].

فأين هذه الحكمة والعقلانية، والفهم للسياسة عند ناصر، من حب الذات، والأنانية، والبحث عن الأضواء والشهرة عند خلفه السادات!

وقبل زيارة نيكسون للاتحاد السوفييتي، وبدعوة من السوفييت، يسافر السادات إلى موسكو في 27 نيسان 1972، ولما اقترح عليه بريجنيف عدم القيام بأية عمليات عسكرية تيسيراً لمهمة نيكسون، وافق السادات، وطالب بالمزيد من الأسلحة[38].

ولزيادة قوته التفاوضية قبل التوجه إلى موسكو، قام كيسنجر وبلاده بالأعمال التالية:

1- قام بزيارة بكين في شباط مدركاً أن التقارب الصيني الأمريكي يزعج السوفييت.

2- واصل الطيران الأميركي قصف فيتنام.

3- أغلقت أميركا ميناء هايفونج أمام البواخر السوفييتية[39].

ولما وصل نيكسون الاتحاد السوفييتي في 22 أيار 1972، أصدر الطرفان بياناً يقول بالاسترخاء العسكري في الشرق الأوسط، وقد عد السادات هذا "صدمة عنيفة" لمصر، فقد كان يعتقد أن مصر تقع خلف إسرائيل بعشرين خطوة، وهذا غير صحيح حتى عند أشد المتشائمين المصريين، فهو يريد أن يخلق عذراً لما قرره لاحقاً..

أما البيان الذي أصدره الطرفان، فقد نص على:

"1- أن يكون الاتفاق شاملاً، مع إمكانية تنفيذه على خطوات.

2- انسحاب القوات الاسرائيلية من الأراضي العربية التي احتلتها في 1967.

3- أي تعديل في الحدود يجب أن يتم بموافقة الأطراف.

4- يمكن أن تتضمن ترتيبات الأمن وجود مناطق منزوعة السلاح، وتواجد قوات الأمم المتحدة في شرم الشيخ، مع وجود ضمانات دولية تشارك فيها الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي

5- إنهاء حالة الحرب.

6- حرية الملاحة في الممرات الدولية.

7- الاعتراف باستقلال كافة دول المنطقة بما فيها إسرائيل.

8- مشكلة اللاجئين"[40].

وقد وصف رياض هذا البيان بأنه ترديد لما قيل في قرار مجلس الأمن، وأنه لايحمل جديداً..

وأرسل السوفييت في 6 حزيران رسالة للسادات حملها إليه سفيرهم في القاهرة، وخلاصتها أن موقف أميركا لم يتغير[41].

طرد الخبراء السوفييت

وأوفد السادات وزير الحربية الفريق محمد صادق إلى موسكو في 8 حزيران من أجل الاتفاق على مواعيد تسليم الأسلحة، فقد كان السوفييت يعانون من البيروقراطية في معاملاتهم، مما يسبب التأخير في التسليم، ولكن السوفييت لم يتوقعوا أن يؤدي ذلك إلى القطيعة بين البلدين.

ولما تأخر وصول الأسلحة، استدعى السادات السفيرَ السوفييتي في 8 تموز 72، وأبلغه بقراره بإنهاء عمل الخبراء السوفييت، وما يتبقى من الوحدات العسكرية سيعمل تحت القيادة المصرية، وفي حالة رفض هذا الطلب فعليها المغادرة قبل 17 تموز 1972[42].

وقبل الشروع في موضوع إخراج الخبراء السوفييت، نورد ما ذكره مدير المخابرات المصرية الأسبق أمين هويدي وهو أن السادات كان لديه نوايا بإخراجهم من مصر في الشهور الأولى لتوليه الحكم، ففي مطلع عام 1971 استدعى دونالد برجس رئيس قسم رعاية المصالح الأميركية في القاهرة "وكلفه بنقل رسالة إلى الرئيس نيكسون بأنه إذا تمكن من تنفيذ مبادرته – فك الاشتباك وإعادة فتح القناة للملاحة – فإنه سيطرد السوفييت من مصر"[43]، فهذا الخبر ينبؤنا أن السادات كانت لديه كراهية للوجود السوفييتي في مصر قبل أن يتولى الحكم.

إخراج السوفييت كان هدفاً أميركياً..

في لقائه ببريجنيف في موسكو في آذار 1971، يدلي السادات بما يشبه الاعترافات، فيقول:

"لقد شرع الأميركيون يتصلون بنا..

إنهم يقولون لنا أن الاتحاد السوفييتي لا يستطيع مساعدتنا، وأن الولايات المتحدة فقط قادرة على هذا، ولذلك فعلينا أن نثق بهم، ونتبع نصحهم، ثم إنهم يثيرون دائماً مسألة الوجود السوفييتي في مصر، إنهم لايقولون هذا لنا مباشرة، لكنها متضمنة في الرسائل التي أرسلها نيكسون إلي، وفي خطابه إلى الكونجرس أن الشيء الذي يتكلم عنه بصفة دائمة هو الوجود السوفييتي في الشرق الأوسط"[44].

اعترافات السادات

ولا ينقص السادات الأسباب ليقوم بطرد الخبراء السوفييت، وإن كنا لا نراها مقنعة خاصة وأن البديل عنهم لم يتوفر!

ومن الأسباب الكثيرة التي حشدها في كتابه "البحث عن الذات":

1- يرى السادات أن زيارة نيكسون لم تفد مصر سوى ما دعاه السوفييت "الاسترخاء العسكري"، وأن هذا الاسترخاء هوالتسليم من جانب مصر لإسرائيل.

2- رأى في التحليل العسكري – الذي قدمه السوفييت له في رسالة عقب زيارة نيكسون – أن لا تقدم قد حصل بالنسبة لقضية الشرق الأوسط في أميركا، وهذا ما تنبأ به كما يقول..

3- أن التحليل السوفييتي لم يذكر شيئاً على الاطلاق عن إرسال الأسلحة المطلوبة إلى مصر، والتي تم الاتفاق عليها في نيسان 1972.

4- أن هذا التحليل – والذي وقع في صفحتين ونصف– لم يتعرض إلا بالقليل للمعركة القادمة، أو الأسلحة "إلا في خمسة سطور أخيرة تقول ببساطة إننا لا نستطيع أن نبدأ معركة، وأن لهم خبرة في هذا الموضوع، وكيف أنهم بذلوا مجهوداً خارقاً في إقناع نيكسون بتنفيذ قرار 242 لمجلس الأمن"[45].

ويبلغ السادات السفير السوفييتي برفضه الرسالة السوفييتية، ورفضه لأسلوب القادة السوفييت في التعامل مع مصر، وطلب من السفير أن يبلغ رؤساءه في موسكو بما يلي:

"1- إنني أرفض هذه الرسالة التي أبلغتها لي من القادة السوفييت شكلاً وموضوعاً، ولا أقبلها، وأرفض هذا الأسلوب في التعامل.

2- إنني أقرر الاستغناء عن جميع الخبراء العسكريين السوفييت(وهم حوالي15،000) وأن يعودوا إلى الاتحاد السوفييتي في فترة أسبوع من اليوم، وسأعلم وزير الحربية غداً بهذا الأمر.

3- هناك معدات سوفييتية وهي أربع طائرات ميج 25، وهناك محطة للحرب الإلكترونية، ويعمل عليها طاقم سوفييتي، فإما أن تبيعوها لنا أو تسحبوها إلى الاتحاد السوفييتي.

4- كل هذا لا بد أن يتم في بحر أسبوع"[46]

أي في 15 تموز 1972.

وفي يوم 16 تموز كانت قرارات السادات قد نفذت جميعها.

ويضيف السادات سبباً آخر لما سبق، فيقول:

"كان هناك سبب آخر مهم، وهو أني قد بنيت استراتيجيتي على أساس أن لا أبدأ المعركة وعلى أرض مصر خبراء سوفييت"[47].

السادات يحث الأسد على طرد السوفييت من سوريا

ولما أصدر السادات قراره بطرد السوفييت من مصر، كان الرئيس السوري حافظ الأسد في موسكو، وكان السوفييت يحاولون إقناعه بتوقيع معاهدة معهم، ولكن رده كان أن الصداقة ليست بحاجة إلى معاهدة، وقد لمس وقع قرار السادات على القادة السوفييت بأنه كان كالصاعقة، ليطلب منه بريجنيف مساعدتهم ضد قرار السادات، فتوجه الأسد إلى القاهرة من أجل ذلك الغرض، ولكن بدلاً من أن يصغي السادات للأسد، أخذ يحثه

على طرد الخبراء السوفييت من سوريا، وكان عددهم 2500-300 خبير، إلا أن الأسد رفض هذا الاقتراح [48].

تقييم محمود رياض للخسارة المصرية برحيل السوفييت.

ويقدم لنا وزير الخارجية المصري الأسبق محمود رياض خلاصة رائعة، تدل على خبرة سياسية واسعة عميقة، عن تأثير ترحيل الخبراء السوفييت على مصر، فيقول في مذكراته مؤكداً ما أوردته في الصفحتين السابقتين:

"كان إخراج السوفييت من مصر هدفاً أمريكياً أعلنه كيسنجر عام 1970..

ورّدده روجرز في مباحثاته في القاهرة في مايو 1971، وأعلنه نيكسون في فبراير 1972 [49].

إذن فقد كان خلو مصر من الخبراء السوفييت، والوجود السوفييتي حلماً اميركياً صهيونياً لم يستطع كبار الساسة الأميركان كتمه حتى أمام السادات والمسئولين المصريين.

ومن نافلة القول أن نقول أن الأميركان يعرفون أن لا صديق لمصر كالسوفييت، قوة وإقبالاً على مساعدتها..

وأن مصر – والعرب– لم يجدوا دولة تقف معهم كما وقف السوفييت، وفي كل الظروف، ولم يبخلوا، لا في السلم ولا في الحرب، علينا بشيء، ونحن الذين أسأنا التقدير..!

لذا بات إخراجهم قضية حتمية اتفق عليها الأميركيون والإسرائيليون..

ويضيف رياض:

"وكانت خسارة مصر أكبر من خسارة الاتحاد السوفييتي السياسية.

فقد فقدت مصر صداقة الدولة الكبرى التي:

"تمدها بالسلاح منذ عام 1955.

والتي قدمت لها معونات اقتصادية لبناء السد العالي وإقامة الصناعة.

ووقفت بجانبها على إثر الهزيمة العسكرية عام 1967.

ونجحت في إعادة تسليح الجيش المصري في أقصر مدة ممكنة، مما أعطى مصر القدرة على دخول المعركة لتحرير الأرض [50].

ويضيف رياض عن الآثار السيئة جداً لرحيل السوفييت:

" وقد أدى خروج الوحدات السوفييتية إلى إضعاف قوة مصر العسكرية، وخاصة الوحدات التي كانت تشترك في الدفاع الجوي.

وكان هناك ما يقرب من مائة طيار سوفييتي يعملون على طائرات الميج..

هذا علاوة على وجود معدات إلكترونية متقدمة اعتبرها السوفييت سرية للغاية رفضوا تركها لمصر..

وكان هناك طائرات ميج 25يقودها طيارون سوفييت، وكانت أفضل من الطائرات الموجودة لدى إسرائيل في ذلك الوقت، وكانت تقوم بعمليات استطلاعية فوق المواقع الإسرائيلية، وقد عادت كل تلك الوحدات العسكرية، والتي يزيد أفرادها عن ستة آلاف، علاوة على أكثر من ألفين من الخبراء، وهو الأمر الذي أدى إلى إحداث فجوة خطيرة في دفاعنا الجوي، وبالتالي في قدرتنا العسكرية [51].

ولم يكن هناك من تعويض يقدمه الأميركيون– ولا غيرهم– للسادات مقابل هذه الخدمة الهائلة التي قدمها لهم ولإسرائيل..، فهو لم يشترط شيئاً، ولم يفكر في مساومة أحد قبل قراره المفجع..

وبطبيعة الحال، كانت خسارة السوفييت محدودة بجانب خسارة المصريين، فقد اضطروا لإرسال الوحدات العسكرية لمصر تحت ضغط عبد الناصر، لذا جاء قرار السادات يعفيهم من المسئولية العسكرية والسياسية التي فرضتها الأحداث، فنفذوا ما طلبه السادات منهم، ورحّلوا الخبراء وأسرهم في زمن قياسي تم قبل الموعد الذي حدده السادات [52].

ويضيف محمود رياض:

"ولذلك، كان استياء السوفييت ينحصر في الشكل الذي خرجوا به من مصر، فهم لم يفرضوا أنفسهم علينا، ولكننا ألححنا عليهم في إرسال الوحدات العسكرية الروسية للدفاع عن العمق، مما أدى إلى توقف الغارات الإسرائيلية على المدن المصرية، والأهداف الإقتصادية.

وكان يدخل في تقديرنا أن مجرد تواجد السوفييت العسكري في مصر سوف يشكل ضغطاً على إسرائيل والولايات المتحدة، للقبول بالحل السلمي.

ولم يغضب الاتحاد السوفييتي من مصر، ولم يقطعوا علاقاتهم معها، أو يتخذوا أي إجراء عنيف ضدها، بل واصل الاتحاد السوفييتي دعم مصر عسكرياً.

وسافر المشير أحمد إسماعيل في مارس 1973 إلى موسكو، ووقع على اتفاقية عسكرية حصل بموجبها على أسلحة جديدة لم يسبق لمصر الحصول عليها، تتضمن سرباً من الطائرات الميج 23، ولواء صواريخ ت 17 آر، وصواريخ سام 6 التي يمكنها التحرك مع القوات المتقدمة، هذا بالإضافة إلى عربات نقل مدرعة من طراز حديث للغاية، وأسلحة مضادة للدبابات.

إلا أن الأمر الذي استقر في أذهان الجميع بعد قرار السادات بخروج الخبراء السوفييت، أنه استبعد تماماً الإقدام على حرب شاملة لتحرير الأراضي العربية التي تحتلها إسرائيل"[53].

إذن فقد تعامل السوفييت مع موضوع طرد خبرائهم بكل رزانة وعقلانية، وسياسة وحكمة، فهم لم يردوا بطرد الرعايا المصريين، أو الطلاب والعسكرين المبعوثين إلى الاتحاد السوفييتي، أو قطع المساعدات العسكرية والاقتصادية، بل هم يواصلون دعم مصر، ويسافر أحمد إسماعيل إلى موسكو لطلب المزيد من الأسلحة، وكأن شيئاً لن يحدث، والسوفييت لا يقولون له: لا..

أما عن قول رياض: "ولم يغضب الاتحاد السوفييتي من مصر، ولم يقطعوا علاقاتهم معها"، فلا يمكن أن يكون ساسة السوفييت لم يغضبوا من هذا السلوك الفظ ، وإلا فإن مساعداتهم لمصر وباقي دول المنطقة لا داعي لها، ولكن لنقل أن السوفييت قد كظموا غيظهم، وتظاهروا بعدم الاكتراث تربصاً لما قد يأتي به المستقبل.

ولست مع ذهاب بعض المؤرخين إلى أن الاتحاد السوفييتي قد ظن أن أزمة تموز تلك ستنتهي كسابقاتها من الأزمات مع مصر، لأن مصر لن تجد بديلاً بقدرة السوفييت على إمدادها بالسلاح، وأن أميركا لن تمدها بالسلاح الذي تدمر به إسرائيل، وأن تفجير السادات للأزمة كان بغية الحصول على تنازلات سوفييتية جديدة ومنها الحصول على طائرات ميج 23 (54).

لست مع ذلك لأنه:

1- كان بإمكان السوفييت التريث قليلاً لحل الأزمة كغيرها من الأزمات، وبداية المفاوضات لحلها.

2- عدم ترحيل خبرائه في فترة قياسية أقصر مما طلبه السادات.

3- ممارسة الضغط على مصر بالتهديد بقطع السلاح وأية معونة أخرى.

إلا أنهم قد استيقنوا – هذه المرة- أن السادات قد قصد إنهاء الوجود السوفييتي وفقاً لسياسة انتهجها وهي ربط مصر بالسياسة الأميركية، وهذا يحتاج إلى رضا أميركي ضريبته الأولى طرد السوفييت، وكل هذا أثبته الأيام اللاحقة.

أما موقف الولايات المتحدة، فقد كان في منتهى الدهاء، فلم تتخذ أي قرار تجاهه، ولم تصرح بشيء، ويقول محمود رياض أن كيسنجر علق على ذلك قائلاً:

"إن السياسة لا تعرف الأخلاقيات، وليس من مهمة الولايات المتحدة أن تتطوع بدفع ثمن شيء تم تقديمه إليها مجاناً، ولم يشترط عليها أحد دفعه (55).

وهذا يناقض حديث رياض السابق عما قاله عن مواقف كيسنجر ونيكسون وروجرز من الوجود السوفييتي في مصر، والذي أوردته في الصفحات السابقة، فسكوتهم

لا يعني أن هذا الانسحاب أو عدمه سيان عندهم جميعاً، بل هو سكوت تمثيلي بحت، فقد كان خروج السوفييت من مصر غاية الأماني بالنسبة للأميركيين، ولا يمكن أن يصدق الباحث أي تصريح لهم يناقض ذلك..

ويقول محمود رياض في موضع آخر:

"لقد كان إخراج الخبراء السوفييت من مصر هدفاً أميركياً أعلنه كيسنجر عام 1970، وأشار إليه روجرز في مباحثاته بالقاهرة في مايو 1971، ولذلك فإن خروج السوفييت من مصر على هذا النحو يمثل هزيمة سياسية للاتحاد السوفييتي، بقدر ما يمثل مكسباً ضخماً للولايات المتحدة، وكان من الطبيعي أن نتوقع تباطؤاً في المساعدات السوفييتية لمصر نتيجة لهذا القرار، وعدم تقديم تسهيلات مادية في السداد كما كان في الماضي"[56].

كما يلخص أسباب إصدار السادات قراره ذاك في:

1- إسراف السوفييت في ترددهم.

2- إسراف الأميركيين في وعودهم للسادات.

3- استمرار السوفييت في ترددهم وخشيتهم من استخدام مصر القوة العسكرية لاسترداد الأرض[57].

وفي الوقت الذي يقول فيه السادات أن السوفييت والغرب وإسرائيل قد وصلوا في النهاية – من طرد الخبراء السوفييت – إلى فهم خاطىء وهو أن مصر لن تدخل المعركة، وأنه قد سعد بذلك[58]، فلا يمكن أن يكون هدف قراره ذاك التمويه والخداع، بل هي توجهات أميركية لا غير، وقد أقنعه بها كيسنجر.

دور مستشاري السادات في اتخاذ القرار

ولا تخبرنا المصادر بأي دور لعبه أي سياسي مصري في اتخاذ القرار، والوحيد الذي تناول ذلك هو محمد حسنين هيكل، فهو يقول:

"اتخذ الرئيس السادات قرار طرد الخبراء الروس وحده، وسواء اتفق زملاؤه عليه، أو اختلفوا، فلم يكن هناك ما يمكنهم أن يفعلوه..

وحين قرأ الدكتور محمود فوزي نائب الرئيس المذكرة التي وضع السادات مسودتها لتقديمها إلى السفير الروسي، اقترح نقل بند واحد فيها يدعو إلى عقد مباحثات فورية في إطار المعاهدة السوفييتية – المصرية، من الفقرة الأخيرة في المذكرة إلى الفقرة الأولى، لكن السادات رأى أن هذا خطأ، حيث لم يكن هناك شيء مطروح للتفاوض، فقد كان القرار قد اتخذ..

كان من غير الجدي سواء للروس أو لزملائه أن يناقشوه، ولهذا أصبح الهم الأول لأناس مثل الدكتور عزيز صدقي رئيس الوزراء، والدكتور مراد غالب الذي كان سفيراً لمصر في موسكو، قبل أن يصبح وزيراً للخارجية: أن تحتويا الغبار المتناثر من انفجار القنبلة في حدود الإمكان"[59].

وهذا حديث واضح لا يحتاج إلى شرح..

فقرار السادات كان فردياً ديكتاتورياً، حتى أبسط الأمور بخصوصه، وهو نقل فقرة من نهاية المذكرة إلى بدايتها تخفيفاً لآثار القرار، رفضه السادات!

السادات يبقي على المعاهدة والتسهيلات

وحفاظاً على علاقاته مع القوتين العظميين، يبقي السادات على معاهدة مصر مع السوفييت، والتسهيلات التي منحت لهم بموجبها، إلى جانب إبقائه على الصلات بين البلدين، ومن ذلك:

1- أبقى على المعاهدة الموقعة بين الدولتين عام 1971، والتسهيلات البحرية الممنوحة للسوفييت بموجبها، فوصلت ميناء بور سعيد ثلاث ناقلات جنود لتتمركز فيه.

2- يرسل رئيس وزرائه الدكتور عزيز صدقي إلى موسكو لإصدار قرار مشترك بأن قرار الطرد جاء بالاتفاق بين موسكو والقاهرة، وعاد صدقي بوعود كبيرة بإمداد مصر بصفقة سلاح بعضها لم يسبق لمصر الحصول عليها.

3- استمر في تبادل الرسائل مع بريجنيف، وتبادل الوفود بين الدولتين.

4- وصول وفد عسكري سوفييتي في شباط 1973 لدراسة احتياجات مصر من الأسلحة، ثم أعقب ذلك زيارة وزير الحربية أحمد إسماعيل إلى موسكو ووقع اتفاقية للحصول على أسلحة ومعدات وصل جزء منها قبل حرب أكتوبر(60)

الفصل الثاني

رسالتان بين بريجنيف والسادات

وفي 13 تموز 1972، يرسل الزعيم السوفييتي بريجينيف هذه الرسالة إلى الرئيس السادات، وقد جاء فيها:

عزيزي الرئيس:

"لقد ظللنا نتبادل الآراء على امتداد فترة طويلة حول الشئون التي تمس العلاقات المصرية السوفييتية على أساس الصداقة المتبادلة، وفي خلال الأسابيع القليلة الماضية تلقينا من رئيس الوزراء الدكتور عزيز صدقي بعض الأفكار حول التطورات الأخيرة في العلاقات المصرية السوفييتية، ونحن أيضاً نود أن نشرح وجهة نظرنا، خصوصاً في ضوء الأحداث التي لها علاقة بسحب الخبراء السوفييتت من مصر.

وعلينا أن نؤكد في المقام الأول أن صداقتنا مع مصر، والدول العربية التقدمية الأخرى، تقوم على أساس من مبادىء وضعها الحزب، وهذا شيء كنا نعلنه دائماً، فهو ليس هدفاً قصير الأمد، بل عنصراً جوهرياً من عناصر سياستنا الدولية، إن الاتحاد السوفييتي لا يتبع سياسة قوة عظمى، سواء في الشرق الأوسط أو في أي مكان آخر، كما تؤكد بعض الدوائر في مصر، ان مثل هذه السياسة تخص القوى الامبريالية، وهي غريبة تماماً عن طبيعتنا، إن طبيعتنا كدولة اشتراكية أن ننمي موقفاً ودوراً بشكل خاص تجاه الأمة العربية، وقد تعاونت دول اشتراكية أخرى في تنمية هذا الموقف.

وقد كانت الدول الامبريالية هي التي حاولت في السنين الأخيرة أن تضع العراقيل في طريق الدول الحديثة النمو في إفريقيا وآسيا، إنهم هم الذين حاولوا باستمرار أن يتحكموا في هذه البلاد، وأن يقمعوها، وأن يستغلوها، وهذا أمر كان للأمة العربية تجربة مباشرة فيه.

إن سياساتنا مختلفة تماماً، وهدف سياساتنا هو أنه يجب أن تضمن البلدان الإفرقية الآسيوية من خلال تقوية صداقتها مع الاتحاد السوفييتي، ان استقلالها يتدعم على طريق تقدمي مطرد، كان هذا هو الموقف طوال زعامة جمال عبد الناصر، الابن العظيم للشعب المصري، بعد أن تحررت الثورة المصرية من القيود المفروضة على مصر من جانب الاستعماريين، ومضت قدماً بثبات نحو تدعيم علاقاتها مع الاتحاد السوفييتي".

وبعد أن أشار إلى مجالات المساعدات السوفييتية لمصر، واصل بريجينيف:

"على الرغم من ذلك، يا سيادة الرئيس، فإننا لن نكون صادقين مع أنفسنا لو تظاهرنا بأن شيئاً لم يحدث بحيث يؤثر على العلاقات بين بلدينا، إن الأسئلة التي أثارها قراركم بطلب سحب العاملين السوفييت ما تزال تنتظر إجابة، وهذه الأسئلة ليست مجرد امر متعلق بسحب الضباط والرجال السوفييت من الأراضي العربية، وقد كانوا هناك على أساس مؤقت، حسب طلب جمال عبد الناصر، وهو طلب أكدتموه أنتم في مناسبات عديدة، بل إن الأمر هو أن ما يثيره قراركم من أصداء قد شجع أعداءنا الذين يجهلون بطبيعة الحقيقة للعلاقات العربية السوفييتية، إننا نعتقد ان ذلك يضعف صداقتنا ويضر بالعلاقات بيننا، وهي لا تتطابق مع المصالح الحقيقية لمصر، إننا لا يمكننا أن نبدي عدم اكتراث بالسياسة التي تبنتها الحكومة المصرية التي هي من الناحية الموضوعية والذاتية ضد مصالح شعبنا.. وهي سياسة تسفر عنها مؤامرات العناصر اليمينية التي تتحالف بشكل مباشر أو غير مباشر مع الامبريالية لوقف تقدم مصر على الطريق التقدمي، وإرجاعها عن هذا الطريق، أين تذهب مصر؟ وإلى أين تدفع من جانب قوى داخل حدودها وخارجها؟ وماذا تكون عليه العلاقات بيننا في المستقبل؟ هذه هي الأسئلة التي تسبب قلقاً لأصدقائكم، وتعطي تشجيعاً لأعدائكم، إننا نتطلع إلى تلقي إجابة على هذه الأسئلة، ونأمل أن تأتي بكل الصراحة".

"لقد طلبتم لقاء على مستوى عال، ونحن نتفق معكم على أن مثل هذا اللقاء ضروري، وهو يتلاءم مع المعاهدة السوفييتية نصاً وروحاً، ونحن متفقون معكم على أن

مثل هذا اللقاء من الممكن أن يحدث إما في القاهرة أو في موسكو، هذا أمر من الممكن تسويته، لكن هناك أولاً العديد من النقاط التي ينبغي أن تكون موضوعاً للمناقشة" (1).

مع الأسف لم أعثر على بقية هذه الرسالة فيما بين يدي من مراجع، فلربما كان التعليق عليها مختلفاً، فالمؤرخ هيكل يقول أن بعض فقرات الرسالة قد دفعت السادات ليرد رداً غاضباً، وهذه الفقرات لم ترد في كتاب هيكل.

تعليق

يحاول الزعيم السوفييتي بريجينيف تغليب الهدوء على أسلوب رسالته، ولكن الغضب يلوح في ثنايا فقراتها من سوء سلوك السادات...

فهو يقول أن موقف بلاده من مصر والدول العربية تحكمه مبادىء اشتراكية، بدليل أن دولاً اشتراكية أخرى تشارك بلاده موقفها من مصر وباقي الدول العربية، وهو موقف يعاكس تماماً موقف الدول الاستعمارية التي يحفل تاريخها مع العرب بالاستغلال والقمع.

ويرى بريجينيف أن وجود الخبراء السوفييت في مصر كان مؤقتاً بالاتفاق مع ناصر، وأكده السادات، ولكنه يرى أن خروجهم بهذا الاسلوب شجع أعداء الطرفين، وأضر بالعلاقات بينهما، وبالمصالح المصرية السوفييتية التي باتت في حكم المجهول!.

لذا يرى بريجينيف أن من مصلحة البلدين أن يكون هناك لقاء بينهما على مستوى عال، لعل البلدين يصلان إلى حل للأزمة.

و يعلق هيكل على الأجزاء التي لم يوردها من الرسالة قائلاً:

"يوضح خطاب بريجينيف أن سلوك الاتحاد السوفييتي كان سلوكاً لا غبار عليه، وان اهتمامه بالعرب والعالم الثالث كله كان اهتماماً لا يرمي إلى مصلحة ذاتية، وأن سياساته كانت خالية من حسابات القوة العظمى، وأن الخطأ الذي حدث بالتالي كان لا بد أن يكون خطأ الامبرياليين، و"مؤامرات العناصر اليمينية" في مصر" (2).

بطبيعة الحال، تظل للسوفييت مصالحهم مع كل دولة يقيمون علاقات معها، ولا يمكن أن تكون علاقات السوفييت بالعرب خالية من حسابات القوى العظمى كما قال بريجينيف، ولكنه كان مجاملاً حين وصف القرار الساداتي بطرد الخبراء السوفييت بأن وراءه قوى يمينية امبريالية، وحتى اليوم لم يثبت تورط أي شخصية مصرية أخرى في ذلك القرار، إلا إذا كان بريجينيف يقصد – بتلك النعوت– السادات لا غير!

رد السادات

" صديقي العزيز الرئيس بريجينيف

الأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي..

إنني أكتب إليك بكل ثقتي بك، وبروح تلك المشاعر الودودة التي شعرت بها خلال لقاءاتنا، إذ أنني أود أن نتوصل إلى مخرج من تلك الدائرة المغلقة التي يبدو أن علاقاتنا قد وقعت في شركها الآن، إنها ستظل مصدر سوء فهم، وسوف إذا لم نفعل شيئاً لكي نوضح الأمور، ولهذا السبب فإنني أقترح أن اكتب بكل صراحة حتى اعطيكم معلومات كاملة عن وجهة نظري في كل الموضوعات.

1- إننا واعون على الدوام بالدور الذي لعبه الاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية، لقد قاوم الشعب السوفييتي المحتلين النازيين، وقاتلهم ببطولة، وبذل كل تضحية لضمان تحرير أراضيه، والحفاظ على كرامته الوطنية، ولهذا، فليس هناك ما يدهش في أن يكون الشعب المصري بدوره مستعداً لبذل التضحيات الضرورية لاستعادة أراضيه، هذه هي نقطة الانطلاق الحقيقية.

2- ولكي نحمي صداقتنا، أعتقد أنه من المرغوب أن أبدأ هذا الخطاب من النقطة التي انتهينا إليها في اجتماعنا الأخير في إبريل 1972، ومن الضروري أن نفهم كأصدقاء، ما حدث منذ ذلك الوقت حتى يستمر الحوار بيننا.

3- أعتقد أنكم تتفقون معي يا صديقي العزيز، أنني كنت دائماً مهتماً بالصداقة التي تجمعنا، وهذا يفسر الزيارات الأربع التي قمت بها إلى موسكو على امتداد الستين الماضيتين في مارس وأكتوبر 1971، وفي فبراير وإبريل من هذا العام.

وكان موضوع النقاش الرئيسي في كل هذه المناسبات هو العدوان الاسرائيلي، وما ينبغي علينا أن نفعله بشأنه، واسمحوا لي بأن أذكركم بالنقاط التي تتعلق بهذه المشكلة التي حاولت أن أحدد خطوطها لكم في اجتماعاتنا، لقد شرحت لكم أننا كنا مدفوعين بمبدأين أساسيين:

أولاً: أننا كنا نرغب في ألا تخوض معركتنا سوى قواتنا ذاتها ثانياً: أننا لم نكن نرغب أن تكون معركتنا مناسبة لمواجهة بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة.

ونحن نعلم جيداً أن هذا يعني كارثة للعالم أجمع، وقد أصررت دائماً على أن شخصاً مجنوناً فقط هو من يسعى إلى ذلك.

4- وقد اتفقنا في اجتماعاتنا، وخصوصاً خلال اجتماعنا في فبراير الماضي، أن إسرائيل والولايات المتحدة سوف لا تقومان بأي عمل لحل المشكلة، سواء بوسائل سلمية أو غيرها، ما لم تشعر إسرائيل بأن قواتنا العسكرية في وضع يسمح بتحدي التفوق الذي تتمتع به إسرائيل في الوقت الحالي، عندئذ فقط سوف تشعر إسرائيل والولايات المتحدة أن في صالحهما ان يصلا إلى حل، وقد أكدت لكم في مباحثاتنا على الدوام ضرورة وجود ذراع رادع يجعل العدو يتردد قبل أن يغير على أراضينا في العمق، لكن من الواضح أننا لا زلنا دون هذا الذراع الرادع، وأننا بدونه غير قادرين على القيام بأية مبادرة عسكرية، وبالتالي، فليس هناك ما يدعو إسرائيل لكي تغير موقفها من التسوية.

5- كانت هذه الاعتبارات التي دعتني إلى إرسال الخطاب الذي بعثت به إلى المارشال جريشكو، وفي مايو 1972، قبل أيام من اجتماعكم بنيكسون في موسكو، لقد بذلت ما في وسعي لكي أجعل زيارة المارشال زيارة ناجحة، ووافقت على إصدار البيان الذي أحضره معه من موسكو، ويفيد بأن الطيارين المصريين طاروا بطائرات تطير بثلاثة أمثال سرعة الصوت، وأن هذه المقاتلات (أكس -500 التي عرفت فيما بعد باسم ميج-23) كانت مستعملة في مصر، لم يكن أي من هذا صحيح، لكنني وافقت على إصدار البيان لكي أضمن نجاح الزيارة، لقد كنت أعرف أن زيارة المارشال مرتبطة بزيارة نيكسون للقاهرة، وكنت أود، كصديق، لو أنكم استطعتم إجراء المحادثات مع نيكسون، ولم يكن من الصعب علينا أن نتنبأ بنتيجة الاجتماع بنيكسون فيما يتعلق بمشكلتنا، وحددت 31 أكتوبر 1972 تاريخاً لما يجب إنجازه في هذه الفترة، على الرغم من أن هذا لم يكن يسمح بوقت لاستكمال جهودنا في أعقاب الانتخابات الأميركية، وقلت للمارشال جريتشكو أننا كنا بحاجة إلى كل ساعة، وكل دقيقة، من تلك الفترة حتى يمكننا أن ننجز على أساس راسخ، ما هو ضروري للمرحلة الجديدة.

6- عندما سلمني سفيركم الرسالة التي تتضمن نتيجة اجتماعكم بنيكسون بعد عقد الاجتماع بعشرة أيام، لم تكن المعلومات التي تحتويها جديدة أو مفاجئة، وفي نفس اليوم أرسلت إليكم رسالة من سبع نقاط ، أوجزت فيها رسالتي إلى المارشال جريتشكو، والحدث على أن لا نضيع وقتاً أطول في تلك الرسالة، طلبت على وجه الخصوص حلاً لمشكلة القيادة والسيطرة، حيث أنني كنت أعتبره أمراً يصعب تصوره أن تتواجد وحدات سوفياتية في الأراضي المصرية، ليست تحت القيادة المصرية.

7- بعد مرور شهر آخر، وبعد مذكرات من رئيس الوزراء ووزير الخارجية، تسلمت أخيراً رسالتكم المؤرخة في 8 يوليو، هذا على الرغم من أنني كنت قد أبلغتكم قبل ذلك، أنني أعتبر كل يوم، وكل ساعة، بل كل دقيقة أمراً حيوياً، ووجدت

هذا الرسالة مخيبة للآمال، إذ أنها تجاهلت كلية النقاط التي ارسلتها إليكم من خلال المارشال جريتشكو، وفي رسالتي إليكم بتاريخ 6 يونيو، وقد أكدت انطباعي أن الموقف الذي عانينا منه على امتداد السنوات الخمس منذ عدوان إسرائيل، والذي يغفل احتياجات معركتنا لا زال مستمراً، لقد حاولت لمدة عام ونصف عام أن أنبه إلى هذا الموقف، لكن جهودي كانت بلا جدوى. وكنت بالتالي مضطراً إلى رفض رسالتكم، وكان من الضروري لي أن أسعى إلى إيجاد فترة ربما نحاول فيها أنا وصديقي أن نوضح مواقفنا، وأريد يا صديقي أن أعطيك انطباعات عن هذه الفترة لأنني أعتقد أن صداقتنا تعطيك الحق في أن تعرف أسباب قراري.

إن الموقف في هذه اللحظة مجمد، وليس هناك سبيل أمامنا. إن الأميركيين يزعمون انهم – نتيجة لمحادثات نيكسون في واشنطن – هم وحدهم يملكون مفاتيح الحل. وفي غياب أي ردع تتصرف إسرائيل بعدم مسئولية متزايد، لكن البيان الذي صدر في نهاية محادثات موسكو، تكلم عن فترة استرخاء، يعقب حل المشكلة، وخطابكم المؤرخ في 8 يوليو يتجاهل تماماً اتفاقنا الأسبق على الاجراءات المطلوبة لكي تجعلنا قادرين على تحرك عسكري عقب الانتخابات الأميركية، إذا كان ذلك ضرورياً، إن أميركا تقوم الآن بتزويد إسرائيل بقوة جوية جديدة كلية، والموقف الذي يعكسه خطابكم الأخير يوضح أنه قد فرض علينا حظر جزئي على الأسلحة لمدة خمس سنوات، وأن هذا يشمل الذراع الرادع الذي كتبت عنه، والذي تجاهلتموه تماماً، هذه هي الاعتبارات التي أدت إلى قراري بإنهاء مهمة الخبراء التي كان من المفروض أن تحدد نهاية مرحلة، وبداية مرحلة أخرى.

8- اسمح لي يا صديقي أن أعطيك بعض الأمثلة على ما يحدث بقواتنا ولشعبنا، والقوات المسلحة هي في نهاية الأمر أبناء الشعب، وهذه أمور لا بد أن خبراءكم أطلعوكم عليها قبل أن يخرجوا عن سيطرتنا:

أ – البحرية: لقد ظل قائد البحرية يطلب لمدة خمس سنوات جهازاً لكشف الغواصات، حيث أن الجهاز الموجود في خدمته ذو مدى يبلغ كيلومتر ونصف فقط، وقد قيل له أن الاتحاد السوفييتي ليس لديه شيء يوفر متطلباته، لكن كل الضباط في بحريتنا يدركون أن سفنكم مجهزة بجهاز يستطيع أن يكتشف الغواصات في حدود الأفق، والغرب أيضاً لديه هذا الجهاز، ولذلك، فليس في الأمر سر، إننا لسنا بلداً متخلفاً، فنحن نحسن القراءة، ونعلم الأسلحة التي تمتلكونها، والتي يمتلكها الغرب، لكن لسوء الحظ أن بحريتكم تعمل جنباً إلى جنب مع بحريتنا، إن لدى الغرب أجهزة تفوق في كفاءتها أي جهاز نمتلكه عشرين مرة، هل يمكنكم أن تتخيلوا التعليقات التي تصدر عن ضباطنا البحريين؟.

ب – القوات الجوية: إن كل طياري القوات الجوية(وهو يتخرجون من كلياتكم) يعرفون أن لديكم طائرات متقدمة، مثل ميج 500، وكانت لدينا حتى وقت قريب.. لكن كل شيء عندكم سري، ولا يسمح لأحد بالاقتراب منه.

(وتلا ذلك مقارنات فنية بين طائرات الفانتوم وأحدث طائرات الميج المتاحة، ليست في صالح الأخيرة).

ج– الجيش: إن ضباطنا يعرفون أن لديكم مدافع أقوى بكثير مما لدى الأميركيين، لكن كما هي العادة، يظل كل شيء سراً، وينكر خبراؤكم أن لها وجوداً، هل يمكنكم أن تتخيلوا التعليقات التي يقولها ضباط المدفعية عندنا عن هذا كله، إن كل ضابط من سلاح المشاة، وكل صف ضابط وجندي، يعرف أن أكثر أجزاء أية عملية خطورة هي فتح ثغرة في صفوف العدو، ففي هذه المرحلة تعني كل دقيقة روحاً بشرية، ومع ذلك، لا يزال ينقصنا أشياء كثيرة لهذه العملية، إنكم تنكرون أن لديكم تجهيزات متطورة، هل هذا ما يعنيه التعاون يا صديقي؟

إننا بحاجة إلى أشياء كثيرة جداً، على الرغم من أننا نتظاهر بعكس هذا، أمام شعبنا وأمام العالم، ونقول أننا قد تسلمنا منكم ما نحتاجه، لكن ما أريد أن أناقشه معكم، ليس طلباتنا المحددة، بقدر ما هو الموقف المسئول عن تأخير تسليمها.

إنكم تعاملوننا كما لو كنا أمة متخلفة لا تعرف شيئاً عن أي شيء، ورغم ذلك، فقد نال ضباطنا في مدارسكم نفس التدريب الذي ناله ضباطكم.. ونحن نلاحق ما يجري في العالم شرقاً وغرباً، ولا يمكن أن تكون هناك سرية حيث أن الأسلحة موصوفة في كتب تنشر في كل مكان في العالم، لكننا عندما نستفسر عن هذه الأمور من الخبراء السوفييت انفسهم، فإنهم إما أن يلزموا الصمت، أو ينكرون وجود مثل هذه الأسلحة لدى الاتحاد السوفييتي، لكننا نعلم تماماً أنكم تملكون كل شيء نحتاجه.

(٦- إنني أقدر يا صديقي العزيز أننا نواجه فترة حرجة للغاية في علاقاتنا، وأشد جوانبها خطورة هو احتمال أن نترك إرثاً من المرارة ضد الاتحاد السوفييتي. إن لكم الحق بعد قراري بشأن الخبراء أن تتخذوا أية إجراءات ترونها ضرورية لحماية مصالحكم، لكنني لا أعتقد أن من مصلحتكم الحقيقية أن تضاعفوا مشاعر المرارة بين صفوف شعبنا.

إن قراركم بسحب الطائرات الأربع من طراز ميج – 500 بعد البيان الذي صدر اثناء زيارة المارشال جريتشكو.. والبيان الذي أقر بأن الطيارين المصريين قد طاروا بهذه الطائرات، يؤدي في رأيي إلى مضاعفة مشاعر السخط في صفوف قواتنا المسلحة وشعبنا، والقرار الأخير الذي لا يقل عنه تعاسة، هو قراركم بسحب أجهزة تعطيل الرادارات على أساس أنها سرية، ولهذا لا يمكن أن يقوم رجالنا بتشغيلها.. وكل هذا يؤدي إلى شيء واحد فقط – هو فرض شروط الاتحاد السوفييتي علينا.

لقد كسرنا احتكار السلاح في 1955، وعلينا أن نواجه عدواً مجهزاً بأحدث الأسلحة..ماذا تفترضون أن يفهم المواطن العادي في مصر من هذا؟ إنني أترك لكم الإجابة، لكنني أخون صداقتنا إذا لم أقرر كل الحقائق لكم بكل صراحة.

10-هناك نقطة أخيرة أحب أن أوضحها، لقد أبلغتكم في عدة مناسبات أنني قد حددت 31 اكتوبر، على أنه تاريخ لتسوية العلاقات بيننا، وآمل بكل ما يجمعنا من صداقة أن تدركوا أنني في تمسكي بهذا التاريخ ليس لدي أية نية في محاولة ابتزازكم، أو تقديم إنذار إليكم، مثلما أوحى البعض بهذا، إن هذا أمر لا نود أن نفعله على الاطلاق، لقد حددنا هذا التاريخ لاعتبارين في تفكيرنا، أحدهما عسكري والآخر سياسي..

فمن الناحية السياسية سوف نواجه بعد الانتخابات الأميركية موقفاً نتوقع فيه ضغطاً أميركيا – إسرائيلياً موحداً لفرض حل في صالح إسرائيل، ما لم نكن قد أنجزنا الأساس الصلب الذي اتفقنا عليه، وإلا فإننا سوف نواجه الجولة المألوفة من قرارات مجلس الأمن، ومهمات يارينج والطلبات الاسرائيلية التي تتزايد باستمرار، وهكذا.

ومن الزاوية العسكرية، عليكم فقط أن تسألوا رجالكم عن المدى الذي يحتمل أن يصل إليه الإعداد الاسرائيلي في نوفمبر او ديسمبر، ففي ذلك الوقت، سوف تكون إسرائيل قد تسلمت واستوعبت كل الأسلحة الثقيلة الخاصة بقواتها الجوية، وسوف تكون الاضافة الكبيرة إلى مخزونها من طائرات الفانتوم والهوك قد جعلت الفجوة بيننا وبينهم أوسع مما كانت عليه الآن، لهذا ينبغي يا صديقي أن تقدروا أن هذا التاريخ له في الحقيقة دلالة خاصة بالنسبة لنا، وسوف نكون جميعاً في مصر في النهاية ممتنين لمساعدتكم، وعندما أعلنت إنهاء مهمة الخبراء كنت حريصاً أن أذكر الشعب المصري والعربي بالدور الذي أداه الاتحاد السوفييتي في مساعدتنا.. لكن يظل من واجبي أن أبلغكم بكل صدق ان الشيء الوحيد الذي كنا نتطلع إليه من خلال التعاون بيننا هو فرصة تحرير أراضينا..إننا نود أن تكون علاقاتنا معكم طيبة، لكن هذا سوف يحدده مدى استعداد أصدقائنا في الاتحاد السوفييتي في حل مشكلتنا الأولى والأخيرة، وأعني بها تحرير أراضينا[3].

وإضافة إلى ما سبق، ورد في آخر نص الرسالة في كتاب "البحث عن الذات" للسادات قوله:

إننا نرقب دعم التعاون بيننا إلى أقصى مدى..

وهذا المدى سيحدده المدى الذي يذهب إليه أصدقاؤنا في الاتحاد السوفييتي في مدنا بما يساعدنا على حل مشكلتنا الأولى، وهي تحرير الأرض.

إن مشكلة تحرير الأرض هي كل شيء في حياتنا وسلوكنا، وعلاقاتنا وتصرفاتنا، وإن أخوف ما أخافه أن لا يقدر البعض هذا الأمر حق قدره، فتحل المرارة بدلاً من الصداقة "[4].

وينسى السادات أنه هو الذي كرر "تحرير الأرض" مرات عديدة في رسالته لبريجنيف، فما هو المطلوب من السوفييت أن يزودوه به لتحريرها؟ وماذا كان [illegible] سيقول لو أن الرد السوفييتي كان بالإعتذار عن التعاون معه لتحريرها؟

إن أقل وصف كان سيصف به السوفييت أنهم خذلوه، وباعوه للأميركان، وتركوه يصارع العدو الصهيوني بلا سلاح!!

ونلخص رأي محمد حسنين هيكل في استقبال الكرملين رسالة السادات :

1- **كانت الوفود االشيوعية العربية قد بدأت التوافد على موسكو للاحتفال بعيد ثورة أكتوبر وعيد العمال، وكلها أجمعت "على أن تحليلهم قد ثبتت صحته، وأن سياسة الاعتماد على البرجوازية قد أثبتت فشلها، وأعتقد أنهم وجدوا عناصر عديدة داخل الاتحاد السوفييتي مستعدة للاتفاق مع وجهة نظرهم".**

2- **لم يكن أمام السوفييت سوى التقليل من مغزى كارثة الخبراء، ومحاولة التحول إلى دعم الأحزاب الشيوعية العربية.**

3- **جادل العسكريون السوفييت في القيادة السوفييتية، وفي مقدمتهم جريتشكو، على ضرورة أن من الواجب زيادة المساعدات العسكرية للعرب.**

4- وأن العرب إذا كسبوا المعركة القادمة فسيكون الفضل للأسلحة السوفييتية، وإذا خسروها فسوف يتوجهون للسوفييت طلباً للأسلحة، وقد رجحت كفة رأي العسكريين وبتأييد من بريجنيف [5].

هذا وقد تم خلال زيارة وزير الحربية المصري أحمد اسماعيل لموسكو في آذار 1973 توقيع معاهدة جديدة بين البلدين، تضمنت حصول مصر على أسلحة لم يسبق لها الحصول عليها، مثل:

سرب من طائرات ميج 23 لواء صواريخ تي17 آر

صواريخ سام 6 عربات قتال مدرعة

مدافع وصواريخ مضادة للدبابات

كما وعد السوفييت بإعادة طائرات الميج 25 إلى مصر، والوحدات الألكترونية المتقدمة التي كان السادات قد طلب سحبها في الصيف السابق [6].

وفي مصدرآخر:

"بدأ تدفق صواريخ سام 3 وسام 6، وأحدث الأسلحة المضادة للطائرات والدبابات(ستريلا ومولوتكا)، ودبابات مزودة بأجهزة أشعة تحت الحمراء، وتجهيزات الكباري، في الموانيء المصرية بكميات هائلة" حتى علق السادات: يبدو ان كل العنابر قد فتحت على آخرها، وأضاف: يبدو أنهم يريدون أن يدفعوني إلى معركة" [7].

الفصل الثالث

السوفييت وحرب أكتوبر

" لا بد من الاعتراف بأن موقفالسوفييت خلال حرب أكتوبر
تجاه العرب كان موقفاً لا تشوبه شائبة"
(هيكل، حكاية العرب والسوفييت،ص193).

بدأت الاستعدادات للحرب القادمة على الجبهة المصرية بعد أيام من حرب 1967، وذلك باستئناف وصول كميات كبيرة من الأسلحة من الاتحاد السوفييتي إلى المطارات المصرية.

ويؤرخ وزير الحربية المصري الأسبق الفريق أول محمد فوزي لبداية هذا الدعم الهائل بتاريخين، الأول في 9/ 6/ 67[1]، والثاني بتاريخ 11/ 6/ 67[2]، ولا يكاد الفارق يذكر، فالمهم أن الاتحاد السوفييتي لم يتأخر لحظة عن الشروع في جسره الجوي الكبير لإمداد الجبهة المصرية بالسلاح، ولم ينتظر دعوة أحد أو استنجاده.

وما يهمنا هنا أن مصر عبد الناصر – وعند سائر المؤرخين– لم تتوان لحظة عن الشروع في إعادة التنظيم، وبناء القوات المسلحة استعداداً للحرب القادمة.

ويضيف وزير الخارجية المصري الأسبق محمود رياض عن هذه الاستعدادات:

1- حدد ناصر موعد المعركة القادمة بعد فشل القرار رقم 242 الصادر في تشرين ثان 1967، وعندما تأكد له مدى الخداع الأميركي فنوه أن المعركة لن تبدأ قبل الاستعداد الكامل لها، وكانت بداية الاستعداد إنشاء الخط الدفاعي غرب القناة كان عبد الناصر يرى أن معركة التحرير ستبدأ بدون تحقيق التوازن المطلوب في سلاح الطيران، لأن ذلك سيستغرق وقتاً طويلاً.

2- قبل ناصر في آب 1970وقف إطلاق النار بناء على مبادرة روجرز وذلك من أجل بناء حائط الصواريخ على القناة [3]، وكان ينوي استئناف حرب الاستنزاف بعد الانتهاء منه مباشرة، وقد أخبر بريجينيف بذلك[4].

3- قامت إسرائيل بإقامة ساتر رملي ضخم على القناة ارتفاعه عشرون متراً، وزودته بفتحات لصب كميات هائلة من النابالم في القناة لتحويلها إلى سد من النيران [5].

4- كانت القيادة المصرية تتوقع سقوط عشرين ألف شهيد في عملية العبور، ولكن العملية لم تكلف مصر سوى 280 شهيداً[6].

5- لم تكن خطة عبد الناصر "جرانيت1، و جرانيت 2، وجرانيت 3" لعبور القناة تنص على التوقف عند حد معين في سيناء، بل كانت تنص على عبور القناة، "واحتلال الممرات، والاندفاع نحو حدود مصر الدولية، وتحرير قطاع غزة الذي كانت مصر عبد الناصر تعتبر تحريره مسئولية لا يمكنها التخلي عنها"[7].

لذا استغرب السوفييت على لسان سفيرهم في القاهرة، توقف المصريين قرب القناة في حرب أكتوبر، عندما صرح لهيكل:

"لقد كنت طوال اليوم في اجتماعات مستمرة مع ملحقينا العسكريين، وأقول لك الحق، إنهم غير مرتاحين إلى النحو الذي يتطور إليه الموقف، ولست أدري السر في عدم تقدم قواتكم ، لماذا لم تدعموا مكاسبكم وتبدأوا الاندفاع نحو الممرات؟ إن هذا ليس بالأمر المنطقي الذي يجب على جيشكم أن يفعله فقط، لكنه يساعد أيضاً على تخفيف الضغط عن السوريين"[8].

السادات يحول النصر إلى هزيمة!

ويأبى السادات إلا توظيف النصر العظيم لأهداف وغايات في نفسه، وربما كان معه شركاء في هذه الخطة، بل المكيدة..

حرم قرار السادات بتحويل الخطة الهجومية لقواته المنتصرة إلى التـزام الـدفاع مـن استغلال نصرها العظيم، فلم تصل إلى المضائق، وهذا حرمها أيضاً مـن حـرب اسـتنزاف جديدة، كان من الممكن أن تجر دولاً عربية أخرى للمشاركة فيها، فقد بدأت هذه الـدول بتزويد دول المواجهة بالمال والسلاح ، وشرعت في استخدام سلاح النفط.

" فقد أصدر السادات تعليماته بعبور الفرق المدرعة الموجودة في الاحتياطي والتقدم شرقاً في اتجاه المضائق لتواجه الفخاخ القاتلة التي أعدتها القوات الاسرائيلية، فـتم تـدمير 250 دبابة مصرية، مما أفسح المجال لإسرائيل للقيام بإحداث الثغرة الـتي أعـدتها القـوات بمجرد معرفتها بعبور القوات الاحتياطية عن طريق الاستكشاف الجوي الأمريكي "[9].

وعلق الفريق سعد الدين الشاذلي على هذا القرار قائلاً:

" أنه عارض بشدة قرار عبور الفرق المدرعة، إلا أن [illegible] إسما[illegible] أبلغه أن [illegible] قرار سياسي، ولا بد من تنفيذه..

ويضيف الشاذلي: أن كافة المسئولين كانوا يشاركونه الرأي في معارضة هذا القرار، لأنهم كانوا يدركون أنها عملية انتحارية، فقد كان لـدى إسرائيل [illegible] الجبهة المصرية ثمانية ألوية مدرعة، أي ضعف قواتنا المهاجمة "[10].

ودليل على أن السادات كان يبيت أمراً ما، أنه قد رفض توجيه أية قوات لمواجهـة الثغرة الاسرائيلية، وفرض نفسه قائداً للمعركة، لتختلط القرارات الـسياسية بالعـسكرية، ليرتبك القادة العـسكريون، فعجـزوا عـن القيـام بمنـاورة لـسد الثغـرة، أو منـع القـوات الاسرائيلية من التقدم جنوباً والوصول إلى السويس، فتمكنوا مـن قطـع الامـدادات عـن الجيش المصري الثالث الذي كان شرق القناة[11].

الدور السوفييتي في حرب أكتوبر

كان السادات يرى أن التحـرك في الميـدان العـسكري هـو الـسبيل الوحيـد لكـسر الجمود في الموقف في الشرق الأوسط، وواضح أن السوفييت كانوا يرون الأمر ذاتـه، لـذا

لا نستغرب أن كميات ضخمة من الأسلحة قد تلقتها مصر ما بين كانون أول 1972 وحزيران 1973 تفوق ما تلقته في العامين السابقين [12] ، مع أن السادات كان قد طرد الخبراء السوفييت قبل الشروع في هذا الدعم بخمسة شهور فقط!

أما خلال الحرب، فلم يتوقف الجسر الجوي من الامدادت باعتراف السادات نفسه [13]، بل إنه يصرح للسفير السوفييتي في القاهرة:

" قل للرفيق بريجينيف إني أشعر بالامتنان له من أعماق قلبي، قل لبريجينيف إن الأسلحة السوفييتية هي التي حققت معجزة العبور " [14].

وفي الوقت الذي كانت فيه أميركا خلال الحرب تزود إسرائيل ب 22600 طن من الأسلحة من الدبابات والمدافع والذخائر، كان السوفييت يقومون بما يلي:

1- قامت طائرات انتونوف 12 وانتونوف 22 بما يزيد على 900 تحليق لتوصيل الأسلحة لسوريا ومصر.

2- كانت هناك شحنات كبيرة من الأسلحة تصل بالبحر.

3- شكلت المساعدات السوفييتية تعويضاً مباشرًا لما كانت مصر وسوريا تخسرانه خلال القتال.

4- قام السوفييت بنشر أسطول كبير شرقي البحر المتوسط وصل تعداده 96 وحدة منها 34 سفينة و23 غواصة، تحذيراً لإسرائيل ضد أي محاولة لإحباط المساعدات السوفييتية لسوريا ومصر.

5- قامت هذه السفن بجمع المعلومات عن سير الأعمال القتالية، وراقبت الأسطول السادس الأميركي.

6- قام العسكريون السوفييت بأعمال مساعدة في الحرب مثل قيادة الدبابات من موانىء التفريغ إلى الجبهة، إدارة الرادارات، تصليح الدبابات، كما عملو ا على لوحات التحكم للمنظومة السورية للدفاع المضاد للطائرات مما كبد العدو خسائر كبيرة في الطائرات [15].

7- وفي 24 أكتوبر، أدخلت سبع فرق سوفييتية في حالة التأهب المرتفع للإنـزال الجوي، وعلى الأرجح كان ذلـك مـن أجـل إنقـاذ الجـيش المـصري الثالـث المطوق [16].

وفي الجانب السياسي قام السوفييت بـ:

1- "أصروا في مجلس الأمن في 9 و 12 أكتـوبر 74 علـى ضـرورة البحـث عـن مخرج من الحالة الناشئة من سحب القوات الاسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة قبل كل شيء".

2- قام رئيس الوزراء السوفييتي إلكسي كوسيجين في 17 أكتوبر بزيارة للقـاهرة دعماً للموقف العربي.

3- بعد مباحثات مع كيسنجر في موسكو مـن 20-22 أكتـوبر، شـارك الـسوفييت الأميركيين في وضع مشروع قرار يدعم مصر حول قضايا الشرق الأوسط [17].

4- أبدى السوفييت استعدادهم لتلبية طلب السادات بتوجيه ممثلين منهم ومـن أميركا لمراقبة قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار. لكـن أميركـا رفـضت ذلك.

5- في بيان خاص لها في 24 أكتوبر، طالبت الحكومة السوفييتية إسرائيل بوقـف إطلاق النار، وسحب قواتها إلى خط وقف اطـلاق النـار ليـوم 22 اكتـوبر، كما حذرت من العواقب الوخيمة للغاية التي ستسفر عنها مواصلة أعمالها العدوانية ضد مصر وسوريا [18].

6- وجه بريجينيف برقية عاجلة إلى نيكسون تقول:

"إذا وجدتم من غير الممكن العمل معنا بـصدد هـذه المـسألة، فإننـا سـوف نـضطر للإصطدام بضرورة البت العاجل في قضية اتخاذ الإجراءات من جانب واحد [19]".

لقد كان فرح السوفييت كبيراً بالانجاز الرائع في أكتوبر، ففي الوقت الذي يهنيء فيه سفيرهم في مصر المصريين بالنصر، يهنيء أيضاً زعماء بلاده به، وإذا كانت الأسلحة التي تم بها النصر سوفييتية[20]، فلم يكن هذا فقط هو سبب فرحهم، بل إن السوفييت كانوا معنا بسلاحهم وقلوبهم.

الخلاصة لهيكل

ويلخص لنا محمد حسنين هيكل، بكل وضوح ومصداقية الموقف السوفييتي حيال العرب في حرب أكتوبر، فيقول:

"لا بد من الاعتراف بأن موقف السوفييت خلال حرب أكتوبر تجاه العرب كان موقفاً لا تشوبه شائبة، فقد وقفوا بكل وجدانهم مع التضحية العربية، وبذلوا ما في وسعهم لتقديم العون لمصر وسوريا على المستوى المحلي والدولي، على المستوى المحلي من خلال الجسور الجوية لإمدادات الأسلحة والمعدات، وعلى المستوى الدولي من خلال قيامهم بدور المدافع عن العرب أمام الأميركيين والأمم المتحدة.

وتأكد موقفهم هذا بعد وقف إطلاق النار، وبعد عبور الجنرال شارون للقنال، حينما أبلغ السفير السوفييتي في القاهرة الرئيسَ السادات بأن اللجنة المركزية وافقت على إعطاء مصر هدية 250 دبابة، وكانت تدعو الحكومات الأخرى على تقديم مساهمات شبيهة، والحقيقة أن الكثير من البلاد العربية كانت تقدم بالطبع مساعدات مادية من كل نوع للمقاتلين، فقد أرسل الجزائريون فرقة دبابات بأطقمها، وأرسلت يوغسلافيا فرقة إلى مصر على الرغم من ان هذه الفرقة كانت بطبيعة الحال بدون طاقم، لكن الصلات الوثيقة بين روسيا ومصر التي تجددت بفضل القتال، لم يكن لها أن تبقى على قيد الحياة وقتاً طويلاً بعد أن تلاشى صوت المعركة"[21].

لذا، كم هو مستغرب ما يقوله السادات في كتابه "البحث عن الذات" عن السوفييت وموقفهم خلال الحرب، فقد قال:

"وكان الموقف على غير ما يتصوره العالم كله.. فقد كان اعتقاد الجميع في العالم أن الاتحاد السوفييتي يقف إلى جانبنا، وأنه قد أرسل الكوبري الجوي لنجدتنا، ولكن الموقف كان غير ذلك في الواقع، فأمريكا وإسرائيل في مواجهتي، والاتحاد السوفييتي في يده الخنجر ويقبع وراء ظهري ليطعنني في أية لحظة عندما أفقد 85٪ أو90٪ من سلاحي، كما حدث في سنة 67، وقد أصبح من الواضح أن أمريكا تستطيع أن تقضي على دفاعي الجوي بأكمله باستخدام القنابل التلفزيونية الجديدة، وبهذا تعود مصر مفتوحة للإسرائيليين كما حدث في عام 1967"[22].

وهذا الحديث لا يتفق عاقل فيه مع السادات..

فإذا كان الاتحاد السوفييتي لا يقف مع مصر، فمع من يا ترى كان يقف؟ ومن هي الدولة التي كانت تلتزم بتزويد مصر بالسلاح طوال عشرين عاماً من الصراع مع العدو الاسرائيلي؟

والكوبري الجوي يقره بوجوده المؤرخون، فلماذا ينكره السادات؟.

ولماذا يقف الاتحاد السوفييتي خلف السادات لطعنه؟.

فلو قال ذلك عن أميركا لكان محقاً تماماً، ولكن ما مصلحة السوفييت لطعنه وهم الذين وقفوا معه، ومع سلفه، في الحرب والسلم.

ولم يكن السادات موفقاً في المثال الذي ضربه، حرب 67، فكما ذكرت سابقاً، فإن القادة المصريين يقرون بتدفق الإمدادات الجوية على مصر بعد يومين من بداية تلك الحرب، وقام السوفييت بتعويض كل الخسائر التي خسرها المصريون، وزادوا على ذلك بالتدريب، بتزويد مصر بالخبراء الذين أدوا واجبهم بصورة رائعة مشرفة.

السوفييت يتابعون عملية السلام..

ويزور رئيس الوزراء السوفييتي كوسيجين القاهرة ما بين 16و 19 أكتوبر 73، لإيجاد موقف مصري سوفييتي مشترك يمكن اقتراحه على الأميركيين، ويؤكد بريجينيف

أن الاتحاد السوفييتي يقدم مساهمة بناءة من أجل المفاوضات الهادفة إلى إقامة سلام دائم"، عارضاً رعاية أية مفاوضات بين الطرفين، محاولاً أن لا يكون بعيداً عن حلول تتبناها أميركا، وقام السوفييت بتزويد الجيش المصري الثالث – الذي كان محصورا- بالمؤن، لدفع إسرائيل لتنفيذ قرارات الأمم المتحدة [23].

ولكن مصر والعرب كانوا يبحثون عن الحل القادم في عواصمهم وفي تل أبيب..

فجولدا مئير تزور واشنطن..

والسيد كيسنجر يقوم بجولة بين عدد من العواصم العربية..

ومساعده جوزيف سيسكو في تل أبيب..

ووزير الخارجية المصري اسماعيل فهمي يزور واشنطن..

ومجموعة من وزراء الخارجية العرب يتنقلون بين العواصم العربية..[24].

والسوفييت لا بواكي لهم، فلا أحد يذكرهم بشيء..!

وفي 11 تشرين ثان 73، توقع مصر واسرائيل ما سمي بوثيقة كيسنجر، والتي نصت على بدء المفاوضات في:

تبادل الأسرى

إيصال المؤن للجيش الثالث المصري

العودة إلى مواقع 22 تشرين الأول[25].

ولما تم تطويق الجيش المصري الثالث، دعا السادات في 24 أكتوبر الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي إلى إرسال قوات من جيوشهما لتنفيذ وقف إطلاق النار، ولما عرض بريجينيف العرض ذاته على كيسنجر، وإلا فإن الاتحاد السوفييتي سيدرس مسألة تدخله منفرداً، رد كيسنجر أن بلاده لن تسمح للاتحاد السوفييتي بعمل منفرد في الشرق الأوسط [26].

وبعد فشل 6 جلسات من المفاوضات بين مصر وإسرائيل فيما سمي بمفاوضات الكيلو 101، يكثف كيسنجر رحلاته بين الجانبين، حتى تمكن من الوصول إلى اتفاق لحل المشاكل الأكثر إلحاحاً بين مصر وإسرائيل، وبينما كان يرى السوفييت أن هذا ثمرة جهود الدولتين العظميين، أعلن نيكسون ان هذا من ثمار سياسته، ولم تجد الصحافة المجرية ما تقوله انتقاداً لهذه السلوكيات سوى أن "كون كيسنجر في طليعة الحركة الدبلوماسية في الشرق الأوسط ينبغي ألا يخدع أحداً، ونظراً إلى أن أية تسوية تفرض على إسرائيل أن تبدي ليونة، فإن واشنطن هي الأكثر قدرة على فرض ذلك عليها.. في المقابل، إن تماسك الموقف العربي يعود، في جزء كبير منه، إلى المقاومة العربية خلال الحرب، وإلى المساعدة النشيطة والمتعددة التي قدمها الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية"[27].

ولما استؤنفت مفاوضات الكيلو 101، توصل الطرفان الاسرائيلي والمصري، وبالرعاية الأميركية، إلى:

1- الفصل بين القوات في الكيلو 101 من الطريق الواصل بين القاهرة والسويس.

2- سحب إسرائيل قواتها إلى مسافة 32 كم عن القناة.

3- تقليص المصريين قواتهم وأسلحتهم المرابطة شرق القناة[28].

ولم تحاول مصر أو أميركا إشراك السوفييت في أي مرحلة من هذه المفاوضات والتوقيعات، ومع ذلك، قدر السوفييت هذه الاتفاقية تقديراً إيجابياً[29].

مما سبق، يتبين لنا ان التآمر على تحييد السوفييت – والذي بدأ بطرد الخبراء– قد أخذ الطابع الدولي في المفاوضات التالية بين كافة الأطراف.

الإمدادات السوفييتية لم تنقطع..

ورغم ما ذكرنا، فإن إمدادات السوفييت من الأسلحة لمصر لم تنقطع..

فقد التقى وزير الخارجية المصري محمود رياض بالسفير السوفييتي في 17 كانون أول 73، ولما سأله رياض عن خطوة السوفييت القادمة، رد السفير بأن بلاده سوف تزود مصر بما وعدت به سابقاً من أسلحة، وأن سبب التأخير هو أن الأسلحة المطلوبة قيد الانتاج، ومن ذلك 12 طائرة ميج 23، وصواريخ مضادة للطائرات والدبابات، وأكد على شحنة أخرى تصل في شباط 74 وتتضمن دبابات 62 والتي طلبتها مصر[30].

وفي 16 أكتوبر وصل رئيس الوزراء كوسيجين إلى القاهرة، واجتمع مع السادات ليناقش مسألة وقف إطلاق النار، خاصة بعد اطلاعه على الخسائر الكبيرة في المعدات، واستمر النقاش في اليوم التالي إلى أن غادر كوسيجين القاهرة[31].

ومحاولة منهم للتعويض، يقوم السوفييت بتقوية علاقاتهم مع سوريا، فيسافر جروميكو إلى دمشق 3 مرات ما بين آذار وأيار 74، وفي نيسان، يزور حافظ الأسد موسكو على رأس وفد حكومي حزبي، حيث جرى توسيع سبل التعاون بين البلدين، ومثل هذه السياسة ساعدت السوفييت على الحفاظ على ماء الوجه، فحضروا في 31 أيار 1974 مع أميركا كأحد رئيسيّ مؤتمر جنيف توقيع الاتفاقية السورية الاسرائيلية بشأن فصل القوات [32].

الفصل الرابع

السادات ينهي الوجود السوفييتي

بإلغائه المعاهدة معهم

العبور إلى الحلول المنفردة

وفي لقائه مع الرئيس الأميركي فورد في الأول من حزيران 1975في النمسا، يطالب السادات بالحل الشامل، فرد فورد بعرضه حلاً جزئياً منفرداً مع اسرائيل..

ويقوم كيسنجر بدوره كاملاً في مشروع السلام المصري الاسرائيلي.

فقد تم فض الاشتباك الأول في كانون ثان 1974، وبه تم إنقاذ الجيب الاسرائيلي..

أما الاشتباك الثاني ففُض في أيلول 1975. "وفيه تعهدت إسرائيل بإجراء انسحاب محدود إلى خط شرق المضائق، ومقابل ذلك تعهدت مصر في المادة الأولى بأن النزاع بينهما في الشرق الأوسط لا يتم حله بالقوة المسلحة، وإنما بالوسائل السلمية"[1].

ويضيف محمود رياض:

"وغرابة هذا الاتفاق السياسي في أنه لم يكن هناك ما يرغم الرئيس السادات للاستسلام للشروط الاسرائيلية المجحفة، والتي تهدر حق مصر في السيادة فوق أراضيها، ولم يحقق السادات من وراء هذا الاتفاق سوى المزيد من الخسارة العسكرية والسياسية لمصر"[2].

وبطبيعة الحال، رفض السوفييت المشاركة في هذه المشاريع الاستسلامية، ورفض مندوبهم التوقيع على الاتفاقية في جنيف.

ويقابل السفير السوري في القاهرة وزير الخارجية المصري محمود رياض، وأخطره رفض سوريا هذه الاتفاقية كونها تلزم مصر بعدم استخدام القوة ضد إسرائيل، والعدو

ما يزال يحتل سيناء والضفة الغربية والجولان، وأعطى الفرصة كاملة لإسرائيل لتركيز قواها العسكرية ضد الدول العربية الأخرى بدون تدخل مصر.

كما صدر بيان مشترك وقعه الأسد والملك حسين في 11 كانون أول 1975 " ذكرا فيه أن تلك الاتفاقية الجزئية تخدم العدو الاسرائيلي، ولا تحقق أي مكسب عربي "[3].

وأنجز السادات لصالح العدو والأميركيين إنجازاً آخر بإلغائه معاهدة مصر مع السوفييت في 6 آذار 1976 كما سيأتي.

ويزور جروميكو القاهرة في مطلع آذار 74، وأكد على ضرورة تنمية العلاقات بين البلدين، والتي وصفها بأنها يجب أن تصمد صمود الأهرام، وزاد من عروض مساعدة بلاده لمصر [4]، إلا أن محاولات التقارب هذه من طرف واحد لم تكن لتثمر شيئاً، بل إن العلاقات زادت تدهوراً، حيث أن الرد المصري كان محاولة لنسيان الماضي السوفييتي المجيد، ومحاولة التقرب لأميركا بتقديم المزيد من القرابين السوفييتية وذبحها على المذبح الأميركي.

ويضيف المؤرخ فاسلييف:

" ولم تتخل موسكو عن الأمل في تحسين العلاقة مع القاهرة، وفي عام 1974 دار الحديث مرتين عن احتمال زيارة بريجينيف إلى القاهرة، وكان هذا يعني تظاهراً للرئيس، ومباركة الاتحاد السوفييتي لنهج مصر الجديد في الحفاظ على بقايا نفوذه ومواقعه هناك، إلا أن مثل هذا الدور كان مرفوضاً بالنسبة إلى قيادة بريجينيف، وترسخ في موسكو الاقتناع "بخيانة" السادات، الذي لجأ إلى وخزات صغيرة في بادىء الأمر، ثم أصبح يلحق ضربات تزداد خطورة بهيبة الاتحاد السوفييتس ومصالحه[5].

ومن تلك السلوكيات الساداتية التي تدل على تخطيطه لإنهاء علاقات مصر مع الاتحاد السوفييتي:

1- طلب المساعدة لتطهير قناة السويس من أميركا ولم يطلب ذلك من السوفييت الذين شاركوا بسفنهم في إزالة الألغام من القناة، ولكن حين جرت مراسم فتح القناة دعيت إليها السفن الأميركية وليس السوفييتية!.

2- في أيار 1975 فرض قيوداً على رسو السفن السوفييتية في الموانىء المصرية.

وعليه، قاطع السوفييت الاتفاقية الثانية لفصل القوات المعقودة في جنيف في أيلول 75، مما زاد التوتر بين البلدين، الأمر الذي ترتب عليه تأجيل الاتحاد السوفييتي لتوقيع المعاهدة التجارية مع مصر لعام 76، وأخذ يتباطأ في توريد الأسلحة لمصر، أو أوقفها[6].

توجه السادات كان أميركياً

وسواء فرح السوفييت للإنجاز الكبير في أكتوبر أم لم يفرحوا، فإن توجهات السادات كانت واضحة قبل الحرب وبعدها، لقد قرر أن يتأمرك، وأن يكون كل شيء بيد الأميركيين في المستقبل، لذا على السوفييت أن يخلوا الساحة وعلى مصر أن تشرع في تشويه الصورة السوفييتية، بكل تفاصيلها.!

مصير السوفييت في مصر يحدده كيسنجر..!

ورغم نصيحة هيكل للسادات بأن مفاوضي وزير الخارجية الأميركي كيسنجر من المفترض أن يكونوا من مراتب دون الرئيس، إلا أن السادات كان ينتظر بفارغ الصبر زيارة كيسنجر للقاهرة في تشرين ثان 1973، لذا اجتمع به على انفراد ثلاث ساعات، علق عليها هيكل قائلاً:

"وأعتقد أن مصير الاتحاد السوفييتي في الشرق الأوسط تحدد في هذه الساعات الثلاث..

في بداية الاجتماع فتح كيسنجر حقيبة أوراق، وشرع يخرج منها بعض الوثائق، فسأله السادات:

"ماذا تفعل؟ لا...لا..أعدها إلى مكانها، إنني لا أريد أن أناقش تلك التفاصيل، لكن ليكن في علمك أنني أعرف أنك رجل استراتيجية، وأنا كذلك.. فلننظر فيما إذا كنا نستطيع أن نتفق على استراتيجية مشتركة..

كان هذا بالضبط ما فعلاه، وهو أن تكون الاستراتيجية المشتركة هي إخراج الروس من الشرق الأوسط"[7].

في مؤتمر جنيف العرب يخذلون السوفييت!

ويحضر السوفييت مؤتمر الشرق الاوسط في جنيف في 21 ديسمبر1973، ويبدو أن الأميركيين والسادات قد اتفقوا مسبقاً على استراتيجية عمل موحدة بينهم بدون السوفييت، فوجد السوفييت أنفسهم لا يشكلون شيئاً في المؤتمر، وكما عبروا عن ذلك لاحقاً:

"لقد ذهبنا إلى جنيف لكي نقوم بدور الشهود على عقد زواج، لكن ما شهدناه حقاً لم يكن زواجاً بل علاقة غرامية"[8].

وبينما كان الأميركيون يتحدثون ويفاوضون مع وفود العرب والاسرائيليين، لم يتحدث أحد إلى الروس، وكان العرب يتعمدون الابتعاد عنهم، لذا لم يكن لهم دور في المؤتمر ونتائجه!

وكان لكيسنجر استراتيجيته في تحركه الناشط بين دول المواجهة، وتتلخص في توجهين:

1- "أن الشرق الأوسط لا يزال المنطقة التي يحتمل أن تحدث فيها مواجهة بين القوى العظمى، وكان يرى أن أفضل سبيل لتجنب المخاطرة بذلك هو إخراج الروس من المنطقة".

2- لكي يضمن سلامة إسرائيل، عليه أن يضمن عدم تورطها في حروب أخرى مثل حرب أكتوبر، والمفتاح يكمن في إمدادات الأسلحة، فلو ظل العرب يستمدون أسلحتهم من الشرق، فسوف يكون بإمكانهم أن يصلوا ثانية إلى موقع يسمح لهم بهزيمة إسرائيل، لكنهم إذا استمدوا أسلحتهم من الغرب،لأصبح في الإمكان التحكم فيهم على مستوى أقل خطورة، كان كيسنجر يرغب في تحقيق موقف يسمح بأن تتجه أنظار العرب وإسرائيل إلى واشنطن طلباً للعون المادي، والتأييد السياسي"[9].

ومن نافلة القول أن نقول أن كيسنجر قد وجد في السادات الزعيم الأمثل الذي يساعده في تنفيذ ما أراد وخطط، وما رسم الأميركيون وخططوا، فالسادات كان جاهزاً لهذه المهمة منذ زمن، وجاءه كيسنجر الرسول النموذجي لتنفيذ نواياه تجاه الروس.

إذن.. فقد ذهب الروس إلى الحفل الختامي في جنيف، لتوقيع اتفاقية لم يؤدوا فيها دوراً عل الاطلاق..

كانت أسلحتهم هي التي جعلت المعركة ممكنة، وقد سلب النصر العسكري من أصدقائهم، لكن على الرغم من هذا كان الجميع يتكلمون عن النفوذ السياسي الذي كان العرب في وضع يسمح لهم بممارسته، ومع ذلك، تُرك أصدقاء العرب وأعوانهم في العراء، ولا بد أن الروس وجدوا صعوبة فائقة في فهم حسابات العالم العربي التي أوصلت الأمور إلى هذا الحد..

ومن المؤكد أن نغمة الرسالة الأولى التي أرسلها جروميكو إلى السادات بعد مؤتمر جنيف كانت مزيجاً من الغضب والاسترضاء، فقد قال في الواقع أنه لو أن العرب والروس حافظوا على تعاون وثيق فيما بينهم بعد الحرب، لجاء مؤتمر جنيف بنتائج أفضل بكثير لكل منهما.

وقال أنه – على أية حال– لم يكن يريد تضييع الوقت في تبادل الاتهامات، لكنه كان يأمل بصدق أن يكون الدرس قد أفاد، وألا تتكرر الأخطاء التي حدثت في المناسبات القادمة[10].

ولا أجد للسوفييت أية مسئولية فيما حدث في جنيف، بل ما أجده هو تكريس للتبعية الجديدة التي اختارها السادات وأتباعه، ولم يجد السوفييت سبيلاً لتغيير أمور كان متفقاً عليها مسبقاً..

فالسلاح السوفييتي صنع نصراً عظيماً ما كان ليحدث بدونه..

وكان بإمكان أصحاب النصر مواصلة انتصاراتهم على الجانب السياسي، إلا أنهم فضلوا خذلان صديقهم وسندهم الوحيد الذي لم تنقطع جسور إمداداته منذ عشرين عاماً، واختاروا الاصطفاف إلى جانب من أقام جسوراً جوية من المساعدات العسكرية لأعدائهم، وكرس العرب هذا الموقف في جنيف، وبكل صلافة وقبح، ليكون القطاف رياح الخيبة، وأعلام التسليم البيضاء، لا غير..!

إذن..فما استفدناه من مؤتمر جنيف كان تكريس مصر السادات لاستغنائها العلني عن أصدقاء الأمة، وسندها الوحيد في أحلك ظروفها، ابتداء من صفقة الأسلحة التشيكية وحرب السويس، وحتى حرب أكتوبر المجيدة التي أثبتت أن بامكان هذه الأمة الانتصار على أعدائها مهما كانت قوتهم، إذا هي ما اتخذت للنصر أسبابه واستعداداته.

السادات يلغي المعاهدة مع السوفييت في 6 آذار 1976

كان أمام السادات خيارات ثلاثة قبل الإقدام على إلغاء المعاهدة السوفييتية المصرية، والتي وقعها مع بريجينيف في القاهرة 29 أيار 1971، وهذه الخيارات هي:

التهديد بالإلغاء

ايقاف العمل بالمعاهدة لفترة

إلغاء المعاهدة

واختار الحل الثالث

وكان من الأسباب التي دفعته إلى ذلك، شكه أن السفير السوفييتي على اتصال بجماعة علي صبري..

أما السبب الثاني، فهو أن السوفييت كانوا عوناً له زمن الحرب، وأنه الآن يريد ولوج عصر السلام الذي – كما ظن– ليس للسوفييت ما يقدمونه في مرحلته، وكلما ابتعد عن السوفييت كلما ازداد قرباً من الأميركان!

لذا لا نستغرب أن يقول لوفد زائر من مجلس الشيوخ الأميركي: لقد حققت ذاتي [11].

ولا شك أن السبب الثاني هو الأهم – وأرجح أنه الوحيد– في قرار السادات الخطير..

إنها إغراءات المرحلة وأوهامها التي دفعته لهذا القرار، ليتصل هذا بمعاهدة كامب ديفيد، لينتهي الأمر باغتياله في أعز مكان، وهو على المنصة في الاحتفال بذكرى انتصار أكتوبر، وسط حرسه الكثيف، وبين كبار مرافقيه من مصريين وعرب وأجانب، وقاتلوه كانوا من بلده مصر، ولو كانوا من جنسية أخرى، لتعددت التفسيرات، ولكثرت الاتهامات، ولقطعت العلاقات، ولكن قاتليه كفوا الأمة كل ذلك...

وبعد يومين من إلغاء المعاهدة، يطلب السفير السوفييتي مقابلة السادات، ولما لم يُستجب لذلك، أحيل إلى نائب الرئيس حسني مبارك، وسلمه رسالة من الحكومة السوفييتية، فرفض مبارك استلامها، وأشار عليه بتسليمه للخارجية المصرية، ورفض وزير الخارجية محمود رياض قبولها بعد أن اطلع على محتواها، وطلب إعادتها للسفارة السوفييتية، ليظل المظروف لفترة طويلة متنقلاً بين الوزارة والسفارة..!

وكانت لغة الخطاب قاسية للأسباب التالية:

1- اتهم السادات باتخاذ خطوة غير مبررة، ومن جانب واحد.

2- اعتبر السوفييت هذا السلوك إعادة لتوجيه السياسة المصرية، وإبعاداً لها عن سياسة التعاون مع السوفييت (وكانوا صادقين).

3- اتهم الخطاب بعض رجال الصحافة بشن حملة قبيحة ضد الاتحاد السوفييتي، ومحاولة التقليل من شأن المساعدات السوفييتية الضخمة لمصر، وإعطاء الانطباع بأن معاهدة 1971 كانت قد فرضت على مصر، وكان الرئيس السادات قد أبلغ البرلمان أنه وقع المعاهدة من أجل مصلحة الأجيال القادمة [12].

4- "ثم ذهب الخطاب إلى مهاجمة اتفاقيات فض الاشتباك، بقوله أنها كانت تعني أن مصر تنسحب من النضال في سبيل تحرير الأرض العربية، وطبقاً للمعاهدة، كان لا بد أن يكون هناك تشاور مستمر بين الاتحاد السوفييتي ومصر، لكن بدلاً من ذلك حاولت القيادة المصرية على الدوام التشهير بالاتحاد السوفييتي في محاولة منها لأن تختلق أعذاراً للتعامل مع المعتدي وأولئك الذين يؤيدونه، إلى حد التأكيد على أن الاتحاد السوفييتي كان يرغب في أن يرى العرب يهزمون في عام 1973، وأنه لهذا لم يبذل العون الكافي للقوات المسلحة المصرية [13].

العلاقات بعد إلغاء المعاهدة

بعد إلغاء المعاهدة، والتي صادق البرلمان على قرار إلغائها في اليوم التالي باعتراض صوتين فقط [14]، لا نجد الكثير مما يمكن التأريخ له عن محاولات لإعادة العلاقات بين البلدين، خاصة من الطرف المصري..

ولما بدأ السادات بنشر مذكراته في بداية عام 1977، نشرت صحيفة برافدا السوفييتية مقالاً طويلاً بعنوان:

"مذكرات السادات ضربة للصداقة المصرية السوفييتية"

تقول فيه:

إن مذكرات السادات "تقوم على أكاذيب وافتراء وتزييف لسياسة الاتحاد السوفييتي في المسائل المتعلقة بتسوية أزمة الشرق الأوسط، افتراء ضد السنوات الطويلة

من التعاون الودي السوفييتي المصري، تشويه وقح لموقف الاتحاد السوفييتي فيما يتعلق بالمشكلات الحيوية لمصر وشعبها..

وهي تزييف للتاريخ البطولي لكفاح الشعب المصري بقيادة عبد الناصر، وبعد وفاته، من أجل الوصول إلى حريته واستقلاله، ومن أجل إعادة بناء المجتمع طبقاً لمبادىء جديدة..

إن مذكرات السادات تسيء نقل المعلومات عن كل مسألة يتناولها المؤلف، إن هذه المذكرات ليست مذكرات سياسية، بل قذف سياسي"[15].

وبعد أن أوجز المقال المساعدات السوفييتية لمصر، وذكر إشادة السادات في خطاباته بالدور السوفييتي في الوقوف مع مصر وتزويدها بالخبراء، يضيف المقال:

"في محاولته المستميتة لأن يبالغ في تقدير الدور الذي قام به بكل الطرق، يذهب السادات إلى حد تلطيخ الزعيم المصري البارز جمال عبد الناصر، ويحاول القدح في العلاقات السوفييتية المصرية خلال فترة رئاسة عبد الناصر، في حين أنها كانت تتميز في ذلك الوقت على وجه الدقة بروح الصداقة، والثقة المتبادلة....

إن الأكاذيب والافتراءات – حتى ولو تكررت عدة مرات – لا يمكنها أن تقتلع من أذهان الشعوب العربية حقيقة السياسة السوفييتية التي توجه باضطراد نحو دعم كفاحها من أجل حريتها واستقلالها، ومن أجل حل عادل حقاً في الشرق الأوسط..

إن سبيل تطوير علاقات متكافئة وودية مع مصر ومع الدول العربية الأخرى جزء لا يتجزأ من هذه السياسة، لكنها على أية حال تتطلب شعوراً متبادلاً"[16].

ويلتقي وزير الخارجية المصري إسماعيل فهمي، بوزير الخارجية السوفييتي جروميكو في صوفيا – بلغاريا– في تشرين ثان 1976، لكن اللقاء كان تبادلاً للإتهامات لا غير، فالوزير المصري يشكو من عدم تسليم السوفييت قطع الغيار وتعويضات الأسلحة المصرية، وجروميكو يشكو الطريقة التي تم استبعاد الاتحاد السوفييتي بها من المنطقة، بل ويقولها بوضوح:

"أعيدوا المعاهدة، وعندئذ يمكننا أن نناقش الأمور الأخرى"[17].

كذلك لم يسفر لقاء اسماعيل فهمي ببريجينيف في حزيران 1977عن نتيجة، ولما طلب المصريون مواصلة توريد الأسلحة إليهم، رد بريجينيف بأن ثمنها يجب أن يدفع نقداً، لأن "العلاقات الخاصة بين البلدين لم يعد لها وجود"[18].

وأضاف بريجينيف أنه سيوضح أمرين:

"أولاً: كان يود أن يفتح صفحة جديدة في العلاقات المصرية السوفييتية، كأن الماضي قد انتهى، لكن الأمر كان متروكاً للمصريين لا للروس لكي يبادروا بالخطوة الأولى، وعندما تفتح هذه الصفحة الجديدة، فإنه – أي بريجينيف– سيراقب بحذر كل تطور..

ثانياً: إن المصريين لا بد أن يدركوا أن ما فعلوه كان مشيناً، ويتعدى العلاقات العادية بين الدول، فإذا كانت مصر، أو أي بلد في العالم، تظن أنها تستطيع أن تعامل الاتحاد السوفييتي بازدراء، ثم تتوقع أن يعود السوفييت إليها زاحفين، فإنها ترتكب خطأً فادحاً في الحقيقة، وأن سلوك مصر قد أدى بالضرورة إلى مضاعفات في كل مكان في العالم"..

كما قال: "إننا نتعامل مع 120 حكومة، ونمنح مساعدات لأكثر من نصفها..فإذا ظنت أي من هذه البلدان، بسبب السابقة المصرية، أنها تستطيع أن تهيل علينا الإهانات يومياً، وأن تلغي اتفاقياتها معنا من جانب واحد، وأن تنكث بعدها فيما يتعلق بديونها، فإن سمعة الاتحاد السوفييتي ونفوذه سوف تنهار، ولن نسمح بذلك، ولهذا، فإن كل ما أستطيع أن أقوله هو: إذا كنتم تريدون بداية جديدة نحن على استعداد، لكننا سنراقبكم..

ويضيف: إن أي تطور في العلاقات بين بلدينا سوف يكون عملية بطيئة، لأن النزاع مع مصر أصبح الآن خارجاً عن أيدي اللجنة المركزية، وقد انتقل إلى كادرات الحزب..

كانت اللاء الثانية من لاءات النواهي التي تضمنها دليل عبد الناصر ترتد إلينا..[19].

ويقصد هنا لاءات ناصر في مؤتمر الخرطوم في آب 1968: لا تفاوض، لا اعتراف، لا صلح مع إسرائيل..

فكأن مصر أمست لا تعترف بالسوفييت، أو– على الأقل– لا تعترف بما قدموه لها، فارتدت تلك اللاء إليهم..!

ولما حصل النزاع المسلح على الحدود الليبية المصرية في تموز 1977، حمّلت مصر السوفييت مسئولية هذا النزاع، ثم استدعت طلابها وعساكرها المبعوثين إلى الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية، وفي 26 نشرين أول 1977لا نفاجأ بالسادات يوقع اتفاقية لتسديد ديون السوفييت على مصر خلال [illegible] تجميد العلاقات بين البلدين عملياً [20].

آثار سيئة لإلغاء المعاهدة

لقد وُعد السادات بالتسوية الشاملة مقابل دوره الخطير بإخراج السوفييت من المنطقة، وفي المقابل، ومع بداية عام 1977، أخذت المساعدات الأميركية الضخمة، الاقتصادية والعسكرية، تنهال على إسرائيل، وفي المقابل توقف الاتحاد السوفييتي عن إمداد مصر بالسلاح، لتتسع الفجوة بين مصر وإسرائيل بشكل كبير خطير[21].

سرنا مكشوفين في مشاريع السلام

وكان لإلغاء المعاهدة مع السوفييت الأثر السيء الكبير على مصر وخططها وغاياتها..

فقد سارت في مشاريع السلام بظهر مكشوف..

فهذا هو وزير الخارجية المصري محمود رياض يزور لندن في تموز 1977، وهناك يلتقى بعضو مجلس العموم والتر دينيس، الذي قال له:

"إن الميزان العسكري قد اختل بشدة ولصالح إسرائيل، الأمر الذي يضعف المفاوض العربي، ومن هنا لا بد أن تسعى مصر بسرعة إلى تصحيح هذا الموقف الخطير".

فرد محمود رياض:

"إن المشكلة هي أن الاتحاد السوفييتي هو الوحيد القادر على إمداد مصر بأسلحة تحد من التفوق الاسرائيلي، وقد تدهورت العلاقات السياسية، مما أدى إلى وقف التعامل عسكرياً مع السوفييت".

فعلق دينيس:

"إنني لم ألاحظ في واشنطن أي ضيق من موقف سوريا في حصولها على سلاح من الاتحاد السوفيتي، والمسألة الهامة هنا هو أنكم تتجهون إلى التفاوض بشأن السلام من موقف عسكري ضعيف للغاية، فماذا يضطر إسرائيل إذن إلى التفاهم الجاد؟ وإلى جانب موقفكم العسكري الضعيف، هناك أيضاً عناصر أخرى لا تحاولون الاستفادة منها، كالموارد البترولية العربية، والفوائض النقدية"[22].

فكأن دينيس يقول أن إسرائيل لا تحسب حساباً للمعايير الدولية المعروفة للتعايش السلمي، لذا، هي سعيدة جداً بهذا التحول المصري الخطير، بإلغائها المعاهدة مع السوفييت، ليختل الميزان العسكري الذي كان لصالحنا في حرب أكتوبر، فحققنا الانتصار المعجزة، والذي دفع ضباط العدو للاعتراف لنا: "أنتم تغيرتم"، فينصح دينيس المصريين بمحاولة تصحيح الموقف...

فإسرائيل إذن تلجأ إلى هذا السلام حين تكون مضطرة إليه، ولا يدفعها لهذا التفاهم الجاد سوى قوة خصمها، وسلامة موقفه العسكري، فإذا ما فقد الخصم ذلك، أمست لا ترغب في شيء سوى الهيمنة والسيطرة.

ولا ننس أن المارشال السوفييتي زخاروف الذي أشرف على تدريب الجيش المصري، قد صرح لناصر قبل رحيله عن مصر: مصر الآن قادرة على مواجهة كل شيء [23]، وقد كانت كذلك بالفعل، وقد تحقق ما قاله تماماً في حرب أكتوبر المجيدة.

وهذا يدل على قدرات القادة السوفييت في التقويم والتقييم، وكان الانتصار العظيم في حرب أكتوبر خير شاهد على ذلك.

الآثار الكوارثية على العرب

بسبب مشاريع السادات الاستسلامية!

لا يستطيع باحث أن يقنع أحداً بأن ما فعله السادات كان لصالح الأمة بأي حال من الأحوال، بل كان مشروعه الاستسلامي وبالاً عليها في كل تفاصيله وجزئياته. ومن ذلك:

1- عزل مصر، الدولة الأقوى على المواجهة، عن أخواتها العربيات سياسياً وعسكرياً، وإخراجها من حلبة الصراع العربي - الاسرائيلي، وهو ما لم تحلم به إسرائيل.

2- إخراج الاتحاد السوفييتي من العالم العربي، وهو الدولة الوحيدة السند لنا في صراعنا الأزلي مع العدو الصهيوني ومن يقف وراءه، والتاريخ يشهد بذلك، وبإمكاننا الرجوع إليه.

3- فتح الأبواب للوجود الأميركي في المنطقة.

4- الاعتراف بوجود إسرائيل رغم أنها ما زالت تحتل فلسطين والجولان، ولديها أطماعها بالتوسع.

5- منح الفرصة كاملة للعدو الصهيوني للاستفراد بأية دولة عربية تدخل معه في مواجهة عسكرية.

6- خلق الأوهام لدى الشعب العربي بأن السلام مع إسرائيل ممكن، بدليل توقيع مصر معاهدة سلام معها، غير مدركة خطورة هذه الخطوة على المنطقة بأسرها.

والأغرب من كل ما سلف، هو أن العرب لم يحصلوا على شيء مقابل هذه الخدمات سوى الفرقة والتشرذم.

سطور للذكرى

هل عرض السوفييت السلام

على عبد الناصر؟

وقد يتساءل القارىء..ألم يسبق لأحد أن عرض السلام على عبد الناصر عبر سني الصراع الطوال التي خاضها مع العدو الصهيوني؟

نعم لقد حصل ذلك عام 1966..

فبعد دراسة طويلة قام بها السوفييت لأسباب الصراع العربي الاسرائيلي، تراهم ينسبونه طوراً للتعصب الديني، وتارة للنعصب القومي، وصلوا إلى ما هو قريب من الحقيقة في تفسير أسبابه ودواعيه..

ففي مدينة طشقند، عاصمة جمهورية أوزبكستان السوفييتية، عقد السوفييت مؤتمراً لتسوية الخلافات بين الهند وباكستان، ليتصل الكسي كوسيجين بالزعيم الراحل عبد الناصر سائلاً عن إمكانية إجراء مؤتمر "طشقند" آخر يحضره عبد الناصر ورئيس الوزراء الاسرائيلي آنذاك "ليفي إشكول"، لتسوية الصراع العربي الاسرائيلي.

فجاء رد ناصر:

"أن الصراع العربي الاسرائيلي أعمق جذوراً مما يمكن تصفيته على هذا النحو المقترح، ثم ان الصراع عربي- إسرائيلي، وليس مصرياً إسرائيلياً".

فسقط الاقتراح..

ثم أن الاتحاد السوفييتي نفسه قطع علاقاته مع إسرائيل عام 1967[24].

لقد كان بإمكان ناصر أن يهرع للإستجابة لاقتراح الدولة العظمى التي تمده بكل شيء، والتي وقفت معه، ومع أمته جمعاء في حياته وبعد موته، ولكن رد ناصر جاء وطنياً عربياً قومياً..

فإسرائيل لم تعلن يوماً أن صراعها الذي تخوضه في المنطقة منذ قرن من الزمان هو صراع مع مصر، ولا أحد من أحلافها يقول ذلك، رغم تعاقب الزعماء والأحزاب على الحكم هنا وهناك، بل إن كل ما يجري من أحداث، وما يصرح من تصريحات، وما يكشف من أسرار، يدل على صحة ما قاله الزعيم الراحل.

انتهى الكتاب بحمد الله

6 تموز 2012

مراجع

الباب السادس

الفصل الأول

(1) اسكندر أحمدوف، الاتحاد السوفييتي والعالم العربي، ص 111-113.

(2) محمود رياض، مذكراته، ج 1، 310-311.

(3)م ن، 311.

(4) م ن، 312.

(5) م ن، ص 312-316.

(6) محمود رياض، مذكراته، ج 3، ص 130.

(7) م ن، ص 132.

(8) م ن، ص 130.

(9) م ن، ص 133.

(10) م ن، ص 134.

(11) م ن، ص 113.

(12) م ن، ص 7.

(13) م ن، ص 114.

(14) هيكل، حكاية العرب والسوفييت، ص 165.

(15) م ن، ص 165.

(16) فاسلييف، روسيا في الشرقين الأدنى والأوسط، ص 138.

(17) محمود رياض، مذكراته، ج 1، ص 403.

(18) هيكل، الطريق إلى رمضان، ص 118-119.

(19) أنور السادات، البحث عن الذات، ص 235.

(20) م ن، ص 235.

(21) محمود رياض، مذكراته، ج 3، ص 115.

(22) م ن، ص 115.

(23) م ن، ص 116.

(24) هيكل، حكاية العرب والسوفييت، ص 166.

(25) م ن، ص 167.

(26) م ن، ص 117.

(27) محمود رياض، مذكراته، ج 1، ص 396.

(28) هملين دانكوس، السياسة السوفييتية في الشرق الأوسط. ص 141-142.

(29) م ن، ص 143.

(30) فاسلييف، م س، ص 138.

(31) محمود رياض، م س، ص 396-397.

(32) م ن، ص 399.

(33) محمود رياض، مذكراته، ج 3، ص 136.

(34) م ن، ص 136.

(35) م ن، ص 146.

(36) م ن، ص 147.

(37) م ن، ص 147.

(38) م ن، ص 136.

(39) محمود رياض، مذكراته، ج 1، ص 419.

(40) م ن ، ص 419– 420.

(41) م ن، ص 420.

(42) م ن، ص 136.

(43) أمين هويدي، الفرص الضائعة، ص 283.

(44) هيكل، م س، ص 164–165.

(45) أنور السادات، م س، ص 242.

(46) م ن، ص 243.

(47) م ن، ص 247.

(48) أمين هويدي، م س، ص 289.

(49) محمود رياض، مذكراته، ج 3، ص 137.

(50) م ن، ص 137.

(51) م ن، ص 137.

(52) م ن، ص 137.

(53) م ن، ص 138.

(54) هيلين دانكوس، م س، ص 148.

(55) محمود رياض، مذكراته، ج 1، ص 423.

(56) م ن، ص 421 – 422.

(57) م ن، ص 422.

(58) أنور السادات، م س، ص 243.

(59) هيكل، م س، ص 181.

(60) محمد عبد الغني الجمسي، حرب أكتوبر، ص 222–223.

الفصل الثاني

(1)هيكل، حكاية العرب والسوفييت , ص 182–183.

(2) م ن، ص 183.

(3) م ن، ص 183– 186.

(4) أنور السادات، م س، ص 346.

(5) هيكل، م س، ص 186–187.

(6) محمود رياض، مذكراته، ج 1، ص 438.

(7) هيكل، م س، ص 187.

الفصل الثالث

(1) الفريق أول محمد فوزي، حرب الثلاث سنوات، ص [illegible]

(2) م ن، ص 165.

(3) عبد المجيد فريد، محاضر اجتماعات عبد الناصر، ص 216.

(4) محمود رياض ، م س، ص 445.

(5) م ن، ص 446 – 447.

(6) م ن، 446–447.

(7) هيكل، الطريق إلى رمضان، ص 141.

(8) م ن، ص 197.

(9) محمود رياض، مذكراته، ج 3، ص 174.

(10) م ن، ص 174.

(11) م ن، ص 174.
(12) هيكل، م س، ص 164.
(13) م ن، ص 197.
(14) م ن، ص 193.
(15) فاسلييف، م س، ص 145-146.
(16) م ن، ص 148.
(17) م ن، ص 147.
(18) م ن، ص 148.
(19) م ن، ص 148.
(20) هيكل، حكاية العرب والسوفييت، ص 191.
(21) م ن، ص 193.
(22) أنور السادات، م س، ص 274.
(23) هيلين دانكوس، م س، ص 180 - 181.
(24) م ن، ص 181.
(25) م ن، ص 181.
(26) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، الولايات المتحدة والمشرق العربي، ص 245-246.
(27) هيلين دانكوس، م س، ص 182.
(28) فاسلييف، م س، ص 172.
(29) م ن، ص 172.
(30) محمود رياض، مذكراته، ج 1، ص 491.
(31) هيكل، الطريق إلى رمضان، ص 209.
(32) فاسلييف، م س، ص 172.

الفصل الرابع

(1)محمود رياض، مذكراته، ج 3، ص 223.
(2) م ن، ص 224.

(3) م ن، ص 224.

(4) هيلين دانكوس، م س، ص 183.

(5) فاسلييف، م س، ص 173.

(6) م ن، ص 173.

(7) هيكل، حكاية العرب والسوفييت، ص 198.

(8) م ن، ص 199.

(9) م ن، ص 199.

(10) م ن، ص 200.

(11) م ن، ص 204.

(12) م ن، ص 205.

(13) م ن، ص 205.

(14) فاسلييف، م س، ص 174.

(15) هيكل، م س، ص 206.

(16) م ن، ص 206.

(17) م ن، ص 206.

(18) فاسلييف، م س، ص 174.

(19) هيكل، م س، ص 206.

(20) فاسلييف، م س، 174.

(21) محمود رياض، مذكراته، ج 3، ص 226.

(22) محمود رياض، مذكراته، ج 1، ص 553.

(23) هيكل، الطريق إلى رمضان، ص 53.

(24) محمد عبد الغني الجمسي، حرب أكتوبر، ص 135.

مراجع الكتاب

(1) أ ج جرانت وهارولد تمبرلي، أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ترجمة محمد علي أبو درة ولويس اسكندر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1967.

1- أحمد حمروش (1) خريف عبد الناصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1978.

(2) مجتمع عبد الناصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، بلا تاريخ.

(2) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، الولايات المتحدة والمشرق العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1978.

(3) أحمد عطية الله، القاموس السياسي، ط 5، دار النهضة العربية، القاهرة، 1974.

(4) اسحق دويتشر، روسيا بعد ستالين، ترجمة مصطفى الفقير، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، 1979.

(5) اسكندر أحمدوف، الاتحاد السوفييتي والعالم العربي، دار التقدم، موسكو، 1978.

(6) أ.ل. فيشر، تاريخ اوروبا في العصر الحديث، ط 9، ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ.

(7) اليكسي فاسيلييف، روسيا في الشرقين الأدنى والأوسط، مكتبة مدبولي، القاهرة، بلا تاريخ.

(8) أمين سعيد (1) كتاب الثورة، عيسى البابي وشركاه، القاهرة، 1959.

(2) العدوان، عيسى البابي وشركاه، القاهرة، 1959

(9) أمين هويدي(1)- حروب عبد الناصر، ط 2، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1979.

(2) الفرص الضائعة، ط 2، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت 1992

(10) أنتوني ايدن، مذكرات انتوني ايدن، ج2، ترجمة خيري حماد، دار مكتبة الحياة، بيروت، بلا تاريخ.

(11) أنتوني ناتنج، ناصر، ترجمة شاكر ابراهيم سعيد، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 2، 1993.

(12)أنور السادات، البحث عن الذات , ط 2، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، القاهرة، 1978.

(13) ب بونو ماريف، تاريخ السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي 1917–1945، دار التقدم، موسكو، 1975.

(14) بسام العسلي، خروشوف، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، بلا تاريخ.

(15)ب ن. بونوماريوف، القاموس السياسي، ترجمة عبد الرزاق الصافي، ط 2، دار الوطن العربي، بغداد، 1974.

(16) بيوتر بيفانوف وإيفان فلاسوف، تاريخ الاتحاد السوفييتي، ترجمة خيري الضامن ونقولا الطويل، دار التقدم، موسكو، بلا تاريخ.

(17) جمال عبد الناصر:

(1) المجموعة الكاملة لخطب وأحاديث وتصريحات جمال عبد الناصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1995.

(2) مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر، وزارة الارشاد والوعي القومي، القاهرة، بلا تاريخ.

(3) وثائق عبد الناصر، خطب أحاديث تصريحات، يناير 1969– سبتمبر 1970، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، بلا تاريخ.

(18) د. جمال علي زهران، توازن القوى بين العرب وإسرائيل بين حربي 1967–1973، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988.

(19) جورج كتن، العلاقات العربية الروسية في القرن العشرين وآفاقها، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2001.

(20) جون ريد، عشرة أيام هزت العالم، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1982.

(21) دانيال كـولار، العلاقـات الدوليـة، ترجمـة د.خـضر خـضر، دار الطليعـة للطباعـة والنشر، بيروت، 1980.

(22) دانييل براور، العالم في القرن العشرين، مركز الكتاب الأردني، عمان، 1990.

(23) داي بوش وآخرون، السياسة الخارجيـة الـسوفييتية 1955-1965، ترجمـة خـيري حماد، دار الكاتب العربي، القاهرة، بلا تاريخ.

(24) دونالديف، حرب السويس، ترجمـة أحمـد خـضر وعبـد الـسلام رضـوان، مكتبـة مدبولي، القاهرة، بلا تاريخ.

(25) د.رءوف عباس، ثورة يوليو إيجابياتها وسلبياتها، دار الهلال، القاهرة، 2003.

(26) رمضان لاوند، الحرب العالمية الثانية، ط 21، دار العلم للملايين بيروت، 2005.

(27) روبرت فريدمان، السوفييت والشرق الأوسط،مركز النيل للإعـلام، القـاهرة، بـلا تاريخ.

(28) سعد الدين إبراهيم وآخرون، مصر والعروبة وثورة يوليو، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1982.

(29) صلاح بسيوني، مصر وأزمة السويس، دار المعارف، مصر، 1970.

(30) د.صـلاح الـشامي، دراسـات في الجغرافيـة الـسياسية، ط 3، منـشأة المعـارف، الاسكندرية، 1982.

(31) صلاح نصر، ثورة يوليو بين المسير والمـصير، مؤسـسة الاتحـاد للـصحافة والنشر، 1986.

(32) عباس محمود العقاد، هتلر في الميزان، ط 2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1971.

(33) عبد الحميد أبو بكر، قناة السويس والأيام التي هزت الدنيا، دار المعـارف، مـصر، بلا تاريخ.

(34) عبد الرحمن الشرقاوي، باندونج، دار الفكر، القاهرة، 1956.

(35) د. عبد العظيم رمضان، مصر في عهد السادات، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1986.

(36) عبد الله إمام، الناصرية، دار الوطن العربي، 1986.

(37) عبد المجيد فريد، محاضر اجتماعات عبد الناصر، مؤسسة الأبحاث العربيوة بيروت، بلا تاريخ.

(38) عصمت سيف الدولة وآخرون، عبد الناصر وما بعد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980.

(39) علاء جمعة وآخرون، ناصر رمز الحلم العربي،شركة الأفق للبرمجيات التفاعلية، 1999.

(40) عيسى الحسن، الحرب العالمية الأولى، الأهلية للنشر واتلتوزيع، عمان، 2009.

(41) غوسيف ونعوموف، الاتحاد السوفييتي لمحة تاريخية موجزة، دار التقدم، موسكو، 1977.

(42) فاسيليفسكي (ماريشال)، قضية حياتي، ترجمة بسام مقداد، دار التقدم، موسكو، 1980.

(43) د.فؤاد مرسي، العلاقات المصرية السوفييتية 1943–1956، دار الطباعة الحديثة، القاهرة ن بلا تاريخ.

(44)- فؤاد مطر، بصراحة عن عبد الناصر، دار القضايا، بيروت، 1975

(45) قاسم جعفر، سوريا والاتحاد السوفييتي، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1987.

(46) كولن باون وبيتر موني، من الحرب الباردة حتى الوفاق 1945–1980، ترجمة صادق إبراهيم عودة، دار الشروق، عمان، بلا تاريخ.

(47) د.لطيفة سالم، أزمة السويس، مكتبة مدبولي، القاهرة، بلا تاريخ.

(48) ليدل هارت، القادة الألمان يتكلمون، ترجمة أكوم ديري، دار القلم، بيروت، بلا تاريخ..

(49) ليلتشوك وآخرون، موجز تاريخ المجتمع السوفييتي، دار التقدم، موسكو، 1973.

(50) ليونيد بريجنيف، الإتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية، دار الموقف العربي، مصر، بلا تاريخ.

(51) مجموعة من المؤلفين، النار والجليد، دار الحسام، بيروت، 1992.

(52) محمد حسنين هيكل:
(1) سنوات الغليان، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1988.
(2) حكاية العرب والسوفييت، شركة الخليج لتوزيع الصحف، الكويت، 1978.
(3)الطريق إلى رمضان، دار النهار، بيروت، 1975.
(4) الانفجار 1967، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1990.
(5)حديث المبادرة، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1982.
(6) ملفات السويس،، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1986.
(7) قصة السويس، ط 2، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1982.
(8) عبد الناصر والعالم، دار النهار للنشر، بيروت، 1972.
(9) لمصر لا لعبد الناصر، ط 2، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1982.
(10) الزلزال السوفييتي، دار الشروق، القاهرة، 1990.
(53) محمد الصياد وآخرون، المجتمع العربي والقضية الفلسطينية، دار النهضة العربية، بيروت، 1973.
(54) محمد عبد الغني الجمسي، حرب أكتوبر، المنشورات الشرقية، باريس، 1990.
(55) د. محمد عبد الغني سعودي، الجغرافية والمشكلات الدولية، دار النهضة العربية، بيروت، بلا تاريخ.
(56) د،محمد عزيز شكري، الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، 1978.
(57) محمد عودة وآخران، قصة السوفييت مع مصر، دار ابن خلدون، بيروت، بلا تاريخ.
(58) محمد فوزي(فريق أول)، حرب الثلاث سنوات، دار طلاس، دمشق، بلا تاريخ.
(59) محمود رياض، مذكراته، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1985.
(60) مختار مرزاق، حركة عدم الانحياز في العلاقات الدولية، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بلا مكن نشر ولا تاريخ.

(61) مردخاي بارأون، حرب سيناء، ترجمة بدر العقيلي، دار الجليل للنشر، عمان، 1988.

(62)منير البعلبكي، قاموس المورد، دار العلم للملايين، ط 14، بيروت، 1980.

(63) موشيه ديان، ديان يعترف، دار التعاون للطبع والنشر، القاهرة، بلا تاريخ.

(64) نواف نصار، حرب السويس، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، 2008.

(65)د، نور الدين حاطوم، تاريخ عصرنا، دار الفكر الحديث، لبنان، 1971.

(66) هيلين دانكوس، السياسة السوفييتية في الشرق الأوسط، ترجمة عبد الله اس[illegible]، دار الكلمة للنشر، بيروت، 1981.

(67) والتر لاكور، الاتحاد السوفييتي والشرق الأوسط، ترجمة لجنة من الأساتذة الجامعيين، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، 1959.

موسوعات ودوريات

(1) مجلة الهلال، دار الهلال، القاهرة، عدد كانون أول 2006.

(2) عبد الوهاب الكيالي وآخرون، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية [illegible]، ط 3، 1986.

(3) الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة العربية، رئاسة الجمهورية، ط 1، دمشق، 2004.

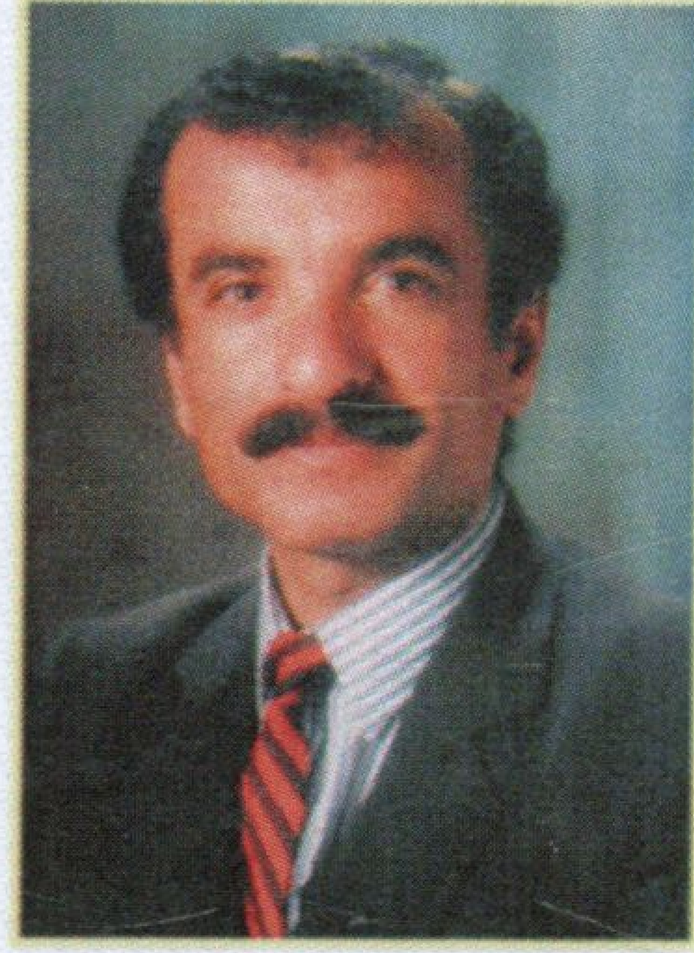
(4) الموسوعة العربية الميسرة، ط 2، دار الجيل، بيروت والقاهرة وتونس.

مراجع باللغة الانجليزية

1- The Encyclopedia Britannica , Encyclopedia Britannica Inc , Chicago. U.S.A. 1972.

2- H.L Peacock, A history of Modern Europe 1789 – 1981, 7th edition, Heinman educational books, London, 1982.

3- Normal Lowe, Mastering Modern World History, Macmillan Press LTD, London 1997.



المؤلف في سطور

حصل الأستاذ نواف نصار على دبلوم اللغة الإنجليزية من معهد الآداب في عمان ، وبكالوريوس الأدب الإنجليزي من كلية تأهيل المعلمين في عمان ، ودبلوم اللغة الإنجليزية المتقدمة من المجلس الثقافي البريطاني ، وبكالوريوس الأدب العربي من جامعة بيروت ، ودبلوم الدراسات العليا من الجامعة اليسوعية في بيروت .

صدر له

١ - ترجمة رواية أفول القمر للكاتب الأميركي جون شتاينبك ، المركز العربي للمطبوعات ، بيروت ١٩٨٨

٢ - ترجمة قصص شكسبير للكاتب هـ ج ويت ، مكتبة المحتسب ، عمان ١٩٩١

٣ - أنشودة الريف ، ديوان شعر ، دار الينابيع ، عمان ١٩٩٦ .

٤ - المنار في قواعد اللغة الانجليزية ، دار الينابيع ، عمان ١٩٩٨

٥ - عباس محمود العقاد سيرة وتحية وتجسيد للعبقرية ، وزارة الثقافة ٢٠٠١

٦ - معجم المصطلحات الأدبية ، دار المعتز ، عمان ٢٠١٠

٧ - حرب السويس وشروق شمس الناصرية ، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان ٢٠٠٨

٨ - قنبلتان على اليابان : صورة عن أخلاق أميركا ، دار المعتز ،عمان ٢٠٠٨

٩ - ترجمة كتاب المشهد الإنطباعي للفنان شيبان السامرائي إلى الإنجليزية ، دار الأديب ، عمان ٢٠٠٨

١٠ - مجمع رغدان ، قصص ، دار المعتز، عمان ٢٠٠٩

١١ - أعلام الأدب الإنجليزي ، دار المعتز ، عمان ٢٠٠٩

١٢ - ثورة يوليو ١٩٥٢ دراسة وتقييم ، دار المعتز ، عمان ٢٠١٠

١٣ - جمال عبد الناصر في ميزان التاريخ - دار المعتز ، عمان ،٢٠١٢

14 - العاقات السوفييتية المصرية ١٩٤١-١٩٧٦ دار المعتز ٢٠١٣م

يصدر قريباً

* بريد الأشواق ، ديوان شعر.
* صدى القوافل ، قصص .
* ترجمة رواية عمدة كاستربردج لتوماس هاردي .
* مدارس بلا تعليم ، مذكرات .
* الطريق إلى الله .



دار المعتز للنشر والتوزيع
الأردن. عمان. شارع الملكة رانيا
عمارة رقم ٢٣٣ مقابل كلية
تلفاكس: ٠٠٩٦٢ ٦ ٥٣٧٣٠٢٥ ص.ب: ١٨٤٠٣٤ عمان: ١١١١٨ الأردن
e-mail: daralmuotaz@yahoo.com e-mail: daralmuotaz.pup@gmail.com

